

# إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ

## لِلإمام الفسزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الفسزالي  
وفلسفته في الإحياء  
بمعلم

الدكتور بدوي طيانه  
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم  
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزين المقدسي

From the Library of  
Muhammad T. Hozien

الجزء الرابع

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سماراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(فرآن كريم)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربيع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدر كل خطاب . وبعمده يتم أهل النعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أُرْخِيَ دونهم الحجاب . وخُرب بينهم وبين السمء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه ربّ الأرباب ومسبب الأسباب . وزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونزع الخوف رجائاً مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تتقدنا من هول اللطع يوم العرض والحساب . ونعهد لنا عند الله زلفى وحسن مكاب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام الريدين ، ومفتاح استقامة السائرين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرين ، ولأئينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجد بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجرم ، فهى شذوثة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه لما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن التزوع إليه فى كلا طرفى النقي والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ الندم ، وتقدم على ما سبق منه وتقدم . فمن آخذة قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب اللائكة القريين ، والتجرد للشر دون التلاقي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة آدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك البيان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ، واصطبغ فيه سجتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملزمة حد الإنسان ، والصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى اللائكة بالتجرد لمحض الخير فغارج عن حيز الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم هجما محكما لا يغلصه إلا إحدى النارين

(كتاب التوبة)

[الباب التاسع]

والأربعون فى استقبال

التهار والأدب فيه

والعمل]

قال الله تعالى - وأتم

الصلاة طرفى التهار -

أجمع المفسرون على

أن أحد الطرفين

أراد به الفجر وأمر

بصلاة الفجر واختلفوا

فى الطرف الآخر قال

قوم أراد به المغرب وقال

آخرون صلاة العشاء

وقال قوم صلاة الفجر

واظهر طرف وصلاة

المغرب وللغرب طرف

وزلقا من الليل صلاة

العشاء ثم إن الله تعالى

أخبر عن عظيم بركة

الصلاة وشرف فائدتها

ومعناها وقال - إن

الحسنات يذهبين

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خباثات الشيطان وإليكم الآن اختيار أهون النارين ، والبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقفا من الدين هذا للوقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمراتها والآفات للنافعة منها والأدوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة ويان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على القور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب ويان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى ويان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ويان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب ويان أقسام التائبين في دوام التوبة : الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

### ( بيان حقيقة التوبة وحدها )

أعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاءً اطراداً سنة الله في الملك والملاكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة عميقة يقين غالب على قلبه ثار من هذه العرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل القوت فيسمى تألمه بسبب فعله القوت لمحبوبه ندماً فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعله لتعلقه بالحال وبالماضى والاستقبال أما تعلقه بالحال فبالتترك للذنوب الذي كان ملابساً وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب القوت للمحسوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قليلاً للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الحيرات وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فإن الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب عموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب ثار الندم فيتألم بها القلب حيث يصير باثراً لنور الايمان أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشه في عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانهشاع سحب أو انحسار حجاب فرأى حبيبه وقد أشرقت على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبث تلك النيران بارادته للاتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالتترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضى ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمسابق والقدمة والترك كالثمره والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يغلو الندم عن علم أو حبه وأثره وعن عزم يابيه ويتلوه فيكون الندم محفوفاً بطرفه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات - أي الصلوات  
الحسن يذهب  
الخطيئات ، وروى  
أن أبا اليسر حكى  
ابن عمرو الأنصاري  
كان يبيع التمر فأتت  
امرأة فتباعت تمرًا فقال  
لها إن هذا التمر ليس  
بجيد وفي البيت أجود  
منه فهل لك فيه رغبة  
قالت نعم فذهب بها  
إلى بيته فضمها إلى  
نفسه وقبلها فقالت له  
أتق الله فتركها وندم  
ثم أتى النبي عليه  
السلام وقال يا رسول  
الله ما تقول في رجل  
رود امرأة عن نفسها  
ولم يبق شيء مما يفعل  
الرجال بالنساء إلا  
ركبه غير أنه لم يجامعها  
قال عمر بن الخطاب

في السكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله تسترى التوبة تبديل الحركات اللذمومة بالحركات الحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

( بيان وجوب التوبة وفضلها )

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار <sup>(١)</sup> والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل ويستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطواته ، وإما بصير يهتدي إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون بهذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما عوزه ذلك فيتعبر . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعي شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلك طريق معصية وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يحترق . بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء . ولو لم تمسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو منه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالانجذاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أو جبه علينا غيرنا أو لم يوجهه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محبوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين ما يشتهى يحترق بنار القراق ونار الجمع وعلم أنه لا يبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم القاني والأكاب على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله واتباع لهاب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محبوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجه فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لثل هذا القام للترفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

لقد ستر الله عليك لو  
سترت على نفسك ولم  
يرد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم عليه شيئا  
وقال أنتظر أمر ربي  
وحضرت صلاة العصر  
وصلى النبي عليه الصلاة  
والسلام العصر . فلما  
فرغ أتاه جبريل بهذه  
الآية فقال النبي عليه  
الصلاة والسلام : أين  
أبو اليسر قال هاأنذا  
يا رسول الله قال شهدت  
معا هذه الصلاة قال  
نعم قال اذهب فاتها  
كفارة لما عملت قال  
عمر يا رسول الله هذا  
له خاصة أولنا طاعة ،  
قال بل للناس طاعة  
فيستعد العبد لصلاة  
الفسح باستكمال  
الطهارة قبل طلوع

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر المزني بإيها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر بإيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .



بحال رحب يتوصل به إلى النجاة، من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين  
 فقد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم  
 وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً - الآية ومعنى النصوح الخالص لله  
 تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب  
 التوابين ويحب المتطهرين - وقال عليه السلام «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن  
 لا ذنب له» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل  
 في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهبت  
 راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أوماشاه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه  
 فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده فموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فأنشأ  
 تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا راحلته» (٢) وفي بعض الألفاظ قال من عدة فرحه  
 إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم  
 عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرت عينك  
 بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى  
 الله إليه يا آدم ورثت ذؤيبك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيتك كما لبيتك ومن  
 سألني الغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب محبب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين  
 ودعائهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع متفق من الأمة على وجوبها إذ معناه  
 العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن  
 قد تدهش الغفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي  
 في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك  
 في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي  
 فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لاجتماع عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع  
 في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب .  
 فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله عديل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم  
 تحت الوجوب ليعنى أن العلم بخلقه العبد ويحده في نفسه فان ذلك محال بل العلم بالندم والفعل  
 والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله - والله خلقكم وما تعملون - وهذا هو الحق  
 عند ذوى الأبصار وماسوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم  
 وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضاً من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود  
 بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب  
 الثواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبه الله بن أحمد في زوائد  
 المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على بن الله يحب العبد المؤمن المفتح الثواب (٢) حديث  
 الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من  
 حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيد  
 وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث  
 أبي هريرة مختصراً .

الفجر ويستقبل الفجر  
 بتجديد الشهادة كما  
 ذكرنا في أول الأيل ثم  
 يؤذن إن لم يكن أجاب  
 للؤذن ثم يصلي ركعتي  
 النجس يقرأ في الأولى  
 بعد الفاتحة قل يا أيها  
 الكافرون وفي الثانية  
 قل هو الله أحد وإن  
 أراد قرأ في الأولى  
 - قلوا آمنا بالله  
 وما أنزل - الآية في  
 سورة البقرة وفي  
 الأخرى - ربنا آمنا  
 بما أنزل واتبعنا  
 الرسول - ثم يستغفر  
 الله ويسبح الله تعالى  
 بما يتيسر له من العدد  
 وإن اقتصر على كلمة  
 أستغفر الله لذنبي  
 سبحان الله بحمد ربى  
 آتى بالمقصود من

في الاختيار الذي له فان الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الحواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزم الارادة بعد تردد الحواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا يثبت هذا اليل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المكال ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حيا عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث للرببة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلح البصر ترتيبا كلياً لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر - وأما المباد فاتهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه يميل يسمى الإدراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحبوبون عن عالم القيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودي من وراء حجاب القيب وسراقات الملكوت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت إذ قتلت ولكن قاتلهم بمنهم الله بأيديكم وعند هذا تحجير عقول القاعدين في ببحوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم القيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم من وجهه وأن القصور شامل لجميع فلم يدركوا أحدهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بهوانه وتتمام علمه ينال بأشراق النور من كوة نافذة إلى عالم القيب

التسبيح والاستغفار.  
ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتعلم بها شقي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها فائتي وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبييض بها وجهي وتلقني بها رشتي وتصمني بها من كل سوء اللهم - أعطني إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف حكرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والسبب وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسبات سلسلتها بسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إصال ذلك إلى الأفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من المياني قد صموا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط عاهدوا صورته ولا صموا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ونعرفه بالمس الذي قدمر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض المياني على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية المياني فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل إن الفيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألبن منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأمس لا خشونة فيه وليس في غلط الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بحيلهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاما يناطح علوم الكاشفة ويعرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقفا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخلية بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب بشمله .

### ( بيان أن وجوب التوبة على الفور )

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور وللنقص عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم الكاشفات التي لاتعلق بصن بل هي من علوم العامة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصص عن عهده ما لم يصير باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان وهو للراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (١) وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم الكاشفة كالعلم بآفة ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلان تناولوه فاذا تناولوه قال تناولوه وهو غير مؤمن لا يعني أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناولوه أصلا فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصود الشارب معلوم الأظفار نقي البشرة عن الحبث حتى يتميز عن البهائم الرسالة للثلاثة بأرواتها المستكرهة الصور بطول محالها وأظلافها وهذا مثال مطابق فلايمان كالانسان

(١) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والنصر على الأعداء  
ومرافقة الأنبياء اللهم  
إني أزل بك حاجي  
وان قصر رأي وضف  
عملي واقترت إلى  
رحمتك وأسألك  
يا قاضي الأمور وباشافي  
الصدور كما تجبر بين  
البحور أن تجبرني من  
عذاب السعير ومن  
دعوة الثبور ومن فتنة  
القبور اللهم ما قصر  
عنه رأي وضف فيه  
عملي ولم تبلغه نيتي  
وأمنيتي من خير  
ومرته أحدا من  
عبائك أو خير أنت  
معطيه أحدا من خلقك  
فأنا راغب إليك فيه  
وأسألك إليه يا رب  
العالمين . اللهم اجعلنا  
هادين مهدين غير

وقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كائن منقطع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل للروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فزايده الروح الضعيفة المنفردة التي تغلف عنها الأجزاء التي تمدّها وتقوّيها فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت في الإيمان أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا ما يدقّ بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الحريف فند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع النخلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلي الغبار أقرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وإنما انقطع نياط المارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأغفلون فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب مصيئته كالصحيح التهمك في الشهوات النضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب محنته وأن للموت غالباً لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء واليأس بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد الزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك العاصي فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متاول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باطلاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافيا لبدنه المتصرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول موموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالندارك الممكن مادام بقي للندارك مهلة وهو العمر فإن الخوف من هذا السم قوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم القيم والملك العظيم وفي قواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تصرم أضعاف أضعاف الدنيادون عشر عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبنة فالندار البدار إلى التوبة قيل أن تعمل موموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يعاوزه الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتناء فلا ينجع بعد ذلك نصيح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من المالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يفرقك لفظ الإيمان فتقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالجواب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيقا إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاء جميع ما يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فعلوم المكاشفة وعلوم العامة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

ضالين ولا مضلين حرباً  
لأعدائك وسلماً  
لأوليائك نجب بحبك  
الناس ونصدي  
بعدونك من خالفك  
من خلقك اللهم هذا  
الدعاء مني ومنك  
الاجابة وهذا الجهد  
وعليك التكلان إن الله  
وإنما إليه راجعون ولا  
حول ولا قوة إلا بالله  
العلي العظيم ذي  
الحبل الشدید والأمر  
الرشید أسألك الأمن  
يوم الوعيد واللجنة  
يوم الخلود مع المقربين  
الشهود والركع السجود  
والموفين بالعهود إنك  
رحيم وودود وأنت تفعل  
ما تريد سبحانه من  
تعطف بالعرز وقال به  
سبحان من لبس المجد

التابع وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

( بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبته )

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق للبعد عن الله للترقب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تسكل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات للذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظاهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فانه اجتماعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان فالطارد بينهما كالطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزهج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تسكن في العبا والشباب قبل كمال العقل قد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لاعمال مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويسر عليه الزرع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدرج فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز العين موعده حيث قال - لأحتسكن ذريته لإثلالا - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات والامتناع للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيته الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدوة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدو الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبييا كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها القدر وحدها سجية نفس كل غائبة هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنسان لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الالهية التي لا مطلق في تبدلها فاذا ن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما متعبا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفائه بفهم معنى الاسلام فانه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في النع والإطلاق والانسكاف والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلاك الأكثرون إذ هزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كالم يستغنى آدم خلقة الولد لا تتسع له ما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا ، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يغلو عن معصية بخوارحه إذ لم يغل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الأحوال عن المعصية الجوارح فلا يغلو عن المهم بالنوب بالقلب فان خلا في بعض الأحوال عن المهم فلا يغلو عن وسوس الشيطان بإيراد الحواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يغلو عن عفته وتصوره في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نفس وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل بأشياءها رجوع عن طريق إلى ضده والراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النفس وانما يتفاوتون

وتكرم به سبحانه الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحانه ذي الفضل والنعم سبحانه ذي الجود والكرم سبحانه الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في صمى ونورا في بصري ونورا في شكري ونورا في حلمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا . ولهذا الدعاء أثر كثير وما رأيت

في القادر فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «لأنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (١) الحديث ، ولذلك أكرم الله تعالى بأن قال - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من المهوم والخواطر تقص وأن الكمال في الخلوة عنه وأن التصور عن معرفة كنه جلال الله تقص وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فالمراد بقولك التوبة واجبة في كل حال . فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدريك ماضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجهه للراءة الصافية فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالطبوع من الخبث ولا يمكن في تدريك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب كما لا يمكن في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات السوداء لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات تنسحق ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (٢) فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاؤه وجلاؤه ثم أعظم بأسباب عارضة فأما التصديق الأول ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصلابة عن المرأة كمشغله في عمل أصل المرأة فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تنقذت أرواحهم من المعاصي ورفضوا الدنيا بالسكينة ثم يؤدّى ذلك إلى بطلان التقوى بالسكينة فانه مهم ما فسدت المعاش لم يفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحزنة والخير يستغرق جميع العمر من كل واحد فإحتياج إليه لجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد بها فانه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا

أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبر كنه هو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والحفاظة عليه فنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ثم يقصد السجدة للصلاة في الجماعة ويقول عند خروجه من منزله : وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا - ويقول في الطريق : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إلبسك لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر المزني لأنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

يبتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلهم على وضم وتكررة مطروحة فليس يشترط لئلا هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنهي الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا الآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التعم ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزع<sup>(١)</sup> وشغله شرك نعله الذي جده حتى أعاد الشرك الخلق<sup>(٢)</sup> لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباد الله فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا في قلبه آرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معروحه ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجها فلم تاب عن شربه بالتدراك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة واحدة أن تترك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روايتها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يترك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ماضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يهزئه ذلك إلى المات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ماضى من جهله وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لالحالة وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنفذك من شقاوة الأبد وأي جوهرة أنفس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرفتها إلى مصيبة فقد هلك هلاكاً قاحشا ، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف الصواب بها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فقد ذلك ينكشف لكل مفلس إفلامه ولكل مصاب مصيبتة وقد رفع الناس عن التدراك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للأبد أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستتب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث نزع الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا صمعة خرجت انقاء  
سخطك وابتغاء  
مرضاتك أسألك أن  
تتقذني من النار  
وأن تغفر لي ذنوبي  
إنه لا يضر الذنوب إلا  
أنت . وروى أبو سعيد  
الخدري أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال  
« من قال ذلك إذا  
خرج إلى الصلاة وكل  
الله به سبعين ألف  
ملك يستغفرون له  
وأقبل الله تعالى عليه  
بوجهه الكريم حتى  
يقضى صلاته » وإذا  
دخل السجد أو دخل  
سجدة للصلاة يقول :  
بسم الله والمجد لله  
والصلاة والسلام على  
رسول الله اللهم اغفر  
لي ذنوبي واقض لي

ويتدارك تغريظه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعذرفيه إلى ربي وأتوب وأنزود صالحا لنفسي فيقول فبيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول فبيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتفرغ بروحه وتردد أنفاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل لإعائه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولعل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، ومن ترك البادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو . الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية (١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يخطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من آتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك حياته فأمره عطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فآلتك على الوفاء أو أضعتها فآلتك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - أو فؤا عبدي أوف بهم - وقوله تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

( بيان أن التوبة إذا استجبت شرائطها فهي مقبولة لا محالة )

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجهه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك القبره وأن نور الحسنه يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئات وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كالأطام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع يياض الصابون ، وكما أن الثوب لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنة بوسخ الثوب وغسله

أبواب رحمتك ويقدم  
رجله المتني في الدخول  
واليسرى في الخروج  
من المسجد أو السجادة  
فسجادة الصوفي بمنزلة  
البيت والمسجد ثم يصلي  
صلاة الصبح في جماعة  
فاذا سلم يقول : لا إله  
إلا الله وخده لا شريك  
له ، له الملك وله الحمد  
يعبي ويميت وهو حي  
لا يموت يبيده الخير  
وهو على كل شيء مقدير  
لا إله إلا الله وحده  
صدق وعده ونصر  
عبده وأعز جنده  
وهزم الأحزاب وحده  
لا إله إلا الله أهل النعمة  
والفضل والثناء الحسن  
لا إله إلا الله ولا نعبد  
إلا إياه مخلصين له الدين  
ولو كره الكافرون  
ويقراً هو الله الذي

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجده أصلًا .



بالصابون والصابون الحار ينظفه لاحتالة قاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويذكره ، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فأنما عليك التزكية والتهذيب ، وأما القبول فيبدول قد سبق به القضاء الأزل الذي لا مرد له وهو للسعي فلا حاشا في قوله - قد أفلح من زكاها - ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من مشاهدة البصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستمار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستمار للجهل ويستمار للآخر لفظ النور كما يستمار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كسيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلمه لثقال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبما وربنا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف الممكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق القليلين على الدنيا للعرضين عن الله بالسكينة فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نهض جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات - وقال تعالى - غافر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار ولمسئء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها <sup>(١)</sup> » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم <sup>(٢)</sup> » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقبل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينه ثابثا منه فإرا حتى يدخل الجنة <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة <sup>(٤)</sup> » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسئء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسئء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبت (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسل ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضاف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنوب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهن في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك البشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن  
الرحيم التسعة  
والثمانين اسما إلى  
آخرها فإذا فرغ منها  
يقول : اللهم صل  
على محمد عبدك  
ونبيك ورسولك النبي  
الأمي وعلى آل محمد  
سلام تكون لهم رضاء  
ولحمه أداء وأعطه  
الوسيلة والمقام المحمود  
الذي وعدته وأجزه  
عنا ما هو أهله وأجزه  
عنا أفضل ما جازيت  
نبيا عن أمته وصل  
على جميع إخوانه من  
التيين والصديقين  
والشهداء والصالحين .  
اللهم صل على محمد  
في الأولين وصل على  
محمد في الآخرين وصل  
على محمد إلى يوم الدين  
اللهم صل على روح

ويروي « أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه <sup>(١)</sup> » ويروي أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة مادام الروح فيه <sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ <sup>(٣)</sup> » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر للذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أي إن وضعت عليهم عدلي عذبهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه بحيث عنه في أم الكتاب . ويروي أن نبيامن أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لئن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تصحني لأعودن فصممه الله تعالى وقال بعضهم إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال ناديا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليقن لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروي أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفث إليه فرأى عينيه تذرفان فقال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يفلق فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى - إن يتنوها يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون السلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة السلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن الصديق إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفه عين . وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرق أئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم الغفرة أي للغفرة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة ويروي أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطلعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببتنا وتركنا فتركناك وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحرزا فجنوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده للصف بصفة ويروي كذا ولم يمهز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكره احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء للوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي وتقدم قريبا .

محمد في الأرواح وصل  
على جسد محمد  
في الأجساد واجمل  
شراف صلواتك  
ونواي برحمتك  
ورأيتك ورحمتك  
وتحيتك ورضوانك  
على محمد عبدك  
ونبيك ورسولك اللهم  
أنت السلام ومنك  
السلام وإليك يعود  
السلام غينا ربنا  
بالسلام وأدخلنا دار  
السلام تباركت يا ذا  
الجلال والاکرام  
اللهم إني أصبحت  
لا أستطيع دفع ما أكره  
ولا أملك قمع ما أرجو  
وأصبح الأمر بيد  
غيري وأصبحت مرتهنا  
بمولى فلا قصير أقدر  
منى اللهم لا تشمت بي

جنون وتبلهوا من غير عي ولا بكم وإنهم هم البلاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم توطئت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدينا واستلناوا خشونة للضجع حتى ظفروا بعجل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في الملا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة ورددوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستنوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة القلعة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعادن المزم والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لامحالة . فان قلت أقول ما قلته العتلة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن التوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريد العتلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكرمة للصحة والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدره منقحة بخلافه لوسقت به الشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت لما من تأمب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شك في القبول كشك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل سهل وذلك لشك في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لامحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

( الركن الثاني فما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها )

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله الوفي للصواب برحمته

( بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد )

اعلم أن للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب هجاب القلب وغوائله ولكن تنحصر مشاركات الذنوب في أربع صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فانتضى كل واحد من الأخلاط في الممجون منه أثرًا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران في السكنجين آثارًا مختلفة . فأما ما يقتضى الزرع إلى الصفات الربوية فثلث السكر والخل والزعفران وحسب اللذات والثناء والمز والنفى وحسب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يقتضب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يصدوها ذنوبًا وهي للهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر للعاصي كما استقصيناه في ربيع للهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يقتضب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والنكر وفيه يدخل النسي والتفاني والدعوة إلى

عدوى ولا نسي . في صديق ولا نجعل مصديق في ديني ولا نجعل الدنيا أكبر هي ولا تسلط على من لا يرحمي اللهم هذا خلق جديد فاتحه على بطاعتك واخته لي بمغفرتك ورضوانك وارزقي فيه حنة تقبلها مني وزكها وضعفها وما علمت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر

طوارق الليل والنهار  
ومن بفتات الأمور  
وجفأة الأقدار ومن  
شر كل طارق يطرق  
إلا طارقا يطرق منك  
بخير يارحم الدنيا  
والآخرة ورحيمهما  
وأعوذ بك أن أزل  
أو أزل أو أضل أو أضل  
أو أعظم أو أعظم أو أجهل  
أو أجهل على عز جارك  
وجل ثناؤك وتقديسك  
أسمائك وعظمتك  
نعمائك أعوذ بك من  
شرب ما يلب في الأرض  
وما يخرج منها وما ينزل  
من السماء وما يجر فيها  
أعوذ بك من حلة  
الحرس وشدة الطمع  
وسورة الغضب وسنة  
الغفلة وتماطى الكلفة  
اللهم إني أعوذ من

## الكلام

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتهما من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكروه وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين القموس والسحر وشرب الخمر والسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا والزنا والواطئ والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هي؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنا هي أربع لا تشركون بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يأمرون على أن لا تشركون بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس أحرأتم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو وأعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس بأسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإيأس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل النساء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراف بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث وثالة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم يقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن يلتقي الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه عليه السلام مر على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشي بالنسيئة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكره أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستفربه البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الحراساني

مباهاة الصَّكْرَيْنِ  
والإِزْرَاءِ عَلَى الْقَلْبَيْنِ وَأَنْ  
أَنْصِرَ ظَالِمًا أَوْ أُخَذَلْ  
مَظْلُومًا وَأَنْ أَقُولَ فِي  
الْعِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَوْ أَعْمَلَ فِي  
الدِّينِ بِغَيْرِ يَقِينٍ أَعُوذُ  
بِكَ أَنْ أَشْرَكَ بِكَ وَأَنَا  
أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا  
لَا أَعْلَمُ أَعُوذُ بِغَفْوِكَ  
مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ  
بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ  
وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ  
لَا أَحْمِي ثَنَاءً عَلَيْكَ  
أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى  
نَفْسِكَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي  
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي  
وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَبْنُ  
عَبْدِكَ وَعَلَى عَهْدِكَ  
وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ  
أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ  
مَا صَنَعْتَ وَأُوبِئُ بِذُنُوبِي  
فَاغْفِرْ لِي

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين النعموس ، وهي التي يحق بها بطلاؤا  
يطل بها حقا ، وقيل هي التي يقطع بها مال امرئ مسلم بطلا ولو سوا كامن أراك . ومجبت غموسا  
لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات  
الخلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا  
وهو يعلم . واثنان في الفرج هما الزنا والواط . واثنان في اليدين هما القتل والسرقة . وواحدة  
في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد  
وهو عقوق الوالدين . قال وجملة عقوقهما أن يقسا عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألاه حاجة  
فلا يعطيها وإن يسأه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل  
به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر  
وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير  
ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه  
لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر  
استطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم <sup>(١)</sup> وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري  
 وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد  
رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر <sup>(٢)</sup> . وقالت طائفة : كل عهد كبيرة وكل مانهى الله عنه  
فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أم لا يصح ما لم يفهم معنى

إنه لا يغفر الذنوب  
إلا أنت . اللهم اجعل  
أول يومنا هذا صلاحا  
 وآخره نجاحا وأوسطه  
فلاحا . اللهم اجعل  
أوله رحمة وأوسطه  
نعمة وآخره تكريمة  
أصبحنا وأصبح الملك  
لله والعظمة والكبرياء  
لله والجبروت  
والسلطان لله والليل  
والنهار وما سكن فيها  
فهو الواحد القهار .  
أصبحنا على فطرة  
الاسلام وكله الاخلاص  
وعلى دين نبينا محمد  
صلى الله عليه وسلم  
وملة آيينا إبراهيم  
حنيفا مسلما وما كان  
من الشركين ، اللهم إنا  
نسألك بأن لك الحمد  
لا إله إلا أنت الحنان

والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال  
الكبائر الإشرار بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى  
البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشرار بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله  
وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف  
وأكل الربا والسحر والزنا واليمين النعموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة  
وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن  
أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف  
فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الإصرار وإسناده  
جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح  
إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف والبيهقي في الشعب  
عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى السبعين أقرب وروى البيهقي أيضا فيه عن  
ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم <sup>(١)</sup> حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن  
الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم عزاء أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد  
وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة في عرض  
المسلم بغير حق كما تقدم <sup>(٢)</sup> حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا  
هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد  
والبخاري بسند صحيح وقال من اللوبات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم  
من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد .

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله ، نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما همل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب انتهى عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيمًا وكبيرة لا محالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من اللغات أن تعلم معنى قول الله تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فان هذا إثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن إلا بالسماح من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني أردت بالكبائر عشرة أو خمسا وبفصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ «ثلاث من الكبائر (١)» وفي بعضها «سبع من الكبائر (٢)» . ثم ورد «أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر» وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يمهده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر لعظم جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فمعرفة بالظن والتقريب ونعرف أيضاً أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . ويانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسوله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - أي ليكونوا عبيداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية وقسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى يمتثل الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام «الدنيا مزرعة الآخرة (٣)» فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه

للنار بديع السموات  
والأرض ذو الجلال  
والاكرام أنت الأحد  
الصمد الذي لم يلد ولم  
يولد ولم يكن له كفواً  
أحد يا حي يا قيوم يا حي  
حين لا شيء في ديمومة  
ملكه وجهاته يا حي  
حي للوحي يا حي يميت  
الأحياء ووارث  
الأرض والسماء ، اللهم  
إني أسألك باسمك  
بسم الله الرحمن الرحيم  
وباسمك الله لا إله إلا  
هو الحي القيوم  
لا تأخذه سنة ولا نوم  
اللهم إني أسألك باسمك  
الأعظم الأجل الأعز  
الأكرم الذي إذا  
دعيت به أجبت وإذا  
سئلت به أعطيت يا نور  
النور يا مدبر الأمور

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طبر في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدهن سبعاً وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعاً وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

واللعلق من الدنيا بالآخرة شيان النفوس والأموال فكل مابسة باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر  
وبليه مابسة باب حياة النفوس وبليه مابسة باب للمعيش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ،  
لحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع  
كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يخالف فيها للئلا يجهوز أن الله تعالى يمت نيا يريد يمت  
إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما عنهم عن معرفته ومعرفة رساله أو يأمرهم بهلاك  
النفوس وإهلاك الأموال لحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة  
الله تعالى ومعرفة رساله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر ، ذالحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل  
والوسيلة للقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبسده بقدر جهله ويتلو الجهل الذى  
يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيضا عين الجهل لمن عرف الله لم يتصور  
أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها التملقة بذات الله وصفاته وأفعاله  
وبعضها أشد من بعض ومخاوتها على حسب تفاوت الجهل ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله  
وشرائعه وبأوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخله تحت ذكر  
الكبائر المذكورة فى القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم  
للتوسط طمع فى غير مطمع ، الرتبة الثانية : النفوس إذ يقاؤها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة  
بالله قتل النفس لاحتالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصد عن المقصود وهذا  
يصد وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه  
الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ويقع فى  
هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالله كور فى قضاء الشهوات  
انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن  
يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينظم العيش إلا بها بل كيف  
يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينظم أمور البهائم مالم يتميز الفعل منها بإثبات يخصص بها عن سائر  
الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح وينبى أن يكون الزنا  
فى الرتبة دون القتل لأنه ليس بفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولعكته يفوت تميز الأنساب  
ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل وينبى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة  
داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويحطم أثر الضرر بكثرة . للرتبة الثالثة : الأموال فانها معاش  
الخلق فلا يجهوز تسلط الناس على تناولها كيف شاء واحق بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبى أن تحفظ  
لتبقى يقاتها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن ترميها  
فليس يحطم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يصر التدارك له فينبى أن يكون ذلك من  
الكبائر وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهى السرقة فانه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف  
يتدارك . الثانى أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولي والقيم فانه مؤتمن  
فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف النصب فانه ظاهر  
يعرف وبخلاف الحيانة فى الوديعة فان للودع خصم فيه يتصف لنفسه . الثالث : نفوذها بشهادة  
الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين القموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجهوز  
أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية التملقة بالنفوس

اعالم ما فى الصدور  
يا صميع يا قريب يا مجيب  
الدعاء يا لطيفا لما يشاء  
يارهوف يا رحيم يا كبير  
يا عظيم يا الله يا رحمن  
يا ذا الجلال والاكرام  
الم الله لا اله الا هو الحى  
القيوم وعنت الوجوه  
لحى القيوم يا الهى  
يا له كل شيء الهما  
واحدا لا اله الا انت  
الهم انى أمالك باسمك  
يا الله الله الله الذى  
لا اله الا هو رب العرش  
العظيم فتعالى الله الملك  
الحق لا اله الا هو رب  
العرش الكريم انت  
الأول والآخر والظاهر  
والباطن وسعت كل  
شيء رحمة وعلم  
كهمس هم عسى  
الرحمن يا واحد يا قهار



وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما كل الربا فليس فيه إلا كل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل النصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولست دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الحيانة والصبر إلى أن أكل دائق بالحيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيقي عما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيمد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه محال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرية ولتناولها مراتب وأعظمها تناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا قاطعا أن الصحابة كانوا يمدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويحمله المشهود عليه بمجرد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحرفان كان فيه كفر فكبيرة وإلا فظلمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قبل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نفي بالكبيرة مالا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فإن قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإيهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإيهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر

ياعزيز يا جبار يا أحد  
يا صمد يا ودود يا غفور  
وهو الله الذي لا إله إلا  
هو عالم الغيب والشهادة  
هو الرحمن الرحيم لا إله  
إلا أنت سبحانك إني  
كنت من الظالمين  
اللهم إني أعوذ باسمك  
المكنون المحزون  
المنزل السلام الطهر  
الطاهر القدوس القدس  
يادهر يادهور ياديهار  
يا أبد يا أزل يا من لم يزل  
ولا يزال ولا يزول هو  
يا هو لا إله إلا هو يا من  
لا هو إلا هو يا من  
لا يعلم ما هو إلا هو  
يا كان يا كائن  
يا روح يا كائن قبل  
كل كون يا كائن بعد  
كل كون يا مكنونا

فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى - إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتعكن من امرأة ومن موافقتها فكيف نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقامته على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عنيئا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهي الحمر بطبعه ولو أيسح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع اللاهی والأوتار، نعم من يشتهي الحمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحمر ويطلقها في السماع لمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفة : قد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة (١) » قيل ماترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبيع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقااله فهذا أو أمثاله من الألفاظ لا يحيط بالصدق ولا يدل على حد جامع فبقى لأحالة مبهما . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا بمن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فاعلم أنا لا نخص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع اللاهی ولبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه إذا شرب الخنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدر في العمدلة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والعلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن ينزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع اللاهی واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلو بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا النهج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو اوظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالفناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

( يان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا )

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم القيب والملكوت وأعني بالدنيا حال تلك قبل (١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد .

لكل كونه أهيا  
شرا هيا أدوناى  
أصبوت يا مجلى عظام  
الأمور - فان تولوا  
قلل حسبى الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت  
وهو رب العرش  
العظيم - ليس كمثل شيء  
وهو السميع البصير -  
اللهم صل على محمد وعلى  
آل محمد كما صليت  
على إبراهيم وآل  
إبراهيم وبارك على  
محمد وعلى آل محمد كما  
باركت على إبراهيم  
وآل إبراهيم إنك  
حميد مجيد اللهم إني  
أعوذ بك من علم  
لا ينفع وقلب لا يفتح  
ودعاء لا يسمع اللهم إني  
أعوذ بك من فتنة  
الديال وعذاب القبر

الموت وبالأخرة حالته بعد الموت فدياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» (١) وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال الموجهة إلى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصبت الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صفرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صفره وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإتمام معنى بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يغم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو اللع الذي يراى الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعها ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . ومن ههنا زل من زل في صفات إلهية حق في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها اللحد بمحمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور اللحد الأحق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا اعمال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال - وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جى بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال العبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لأن

ومن فتنة الهياول والهمم إلى أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلمي اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والسكينة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص ومائر الأسماء ، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن خيانة نعمتك ومن جميع سخطك ، اللهم إني أسألك الصلاة على

(١) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب  
(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبي سعيد .

الذبوح وقع اليأس منه فإن العبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن الوكل بالرويا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن التأثم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه محييا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفنا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثال فقوله يؤتى بالموت في صورة كدش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت للمعاني فيها بواسطة ذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربيع الصادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالتقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثال الذي نصره معناه لاصورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتنا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا أثبتنا أن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أن إن محزننا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين وممذيين وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم المهلكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم الممذيون ويغلب بعضهم فهم الناجون ويخلق على بعضهم فهم الفائزون فإن كان للملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ولا يذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعولت درجته ولا يغلب إلا معترفا له بربته الملك لكنه لم يقصر لعذب ولم يخدم ليخلق عليه ولا يخلق إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك المهلكين إما تحقيقا بحز الرقة أو تسكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في العاندة وتمذيب الممذيين في الخفة والشدة وطول الدة وقصرها وأعداد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا متفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن وأوجنات المأوى وأوجنات الفردوس والممذيون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك المهلكون الأيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة المهلكين بمعنى المهلكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تنقل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين التجردين في الدنيا المسكينين بقاءه ورسله وكتبه فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

محمد وعلى آله وأسألك  
من الخير كله عاجله  
وأجله ما علمت منه  
وما لم أعلم وأعوذ بك  
من الشر كله عاجله  
وأجله ما علمت منه  
وما لم أعلم وأسألك الجنة  
وما قرب إليها من قول  
وعمل وأعوذ بك من  
النار وما قرب إليها من  
قول وعمل وأسألك  
ما سألك عبدك ونييك  
محمد صلى الله عليه  
وسلم وأستعيذك مما  
استعاذك منه عبدك  
ونبيك محمد صلى الله  
عليه وسلم وأسألك  
ما قضيت لي من أمران  
تجعل عاقبته رشدا  
زرحتك يا أرحم  
الراحمين يا حي يا قيوم  
زرحتك أستغث

بالإيمان والتصديق والجاهدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبدأ الآباد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه لمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للجنات والعين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبد الله بطلب جنته أو لحوف ناره بل العارف يعبد الله لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما المحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نار الله المؤقدة التي تطلع على الأفئدة ونار جهنم لا تشغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحرق مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفي فؤاد الحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد روي من غلب عليه الوجد فقدما على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لقرط غلبة ما في قلبه وترى الضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار <sup>(١)</sup> » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما أراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحرقه بالإضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لأثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذينا وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات اللائكة التي لا ياسبها ولا يلدها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسية وسائر الأعضاء عاله ومملكته والله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلت صلت لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تنكفى إلى قصى  
طرفه عين وأصلح لى  
شأنى كله يا نور  
السموات والأرض  
يا جمال السموات  
والأرض يا عماد  
السموات والأرض  
يا بديع السموات  
والأرض يا ذا الجلال  
والاكرام يا صريح  
السترخين يا غوث  
الستغثين يا منتهى  
رغبة الراغبين  
والفرج عن الكروبين  
والروح عن الغومين  
ومجيب دعوة  
المضطرين وكاشف  
السوء وأرحم الراحمين  
وإله العالمين منزل  
بك كل حاجة يا أرحم  
الراحمين اللهم استر  
عورائى وآمن روغائى

الرحمة إلى الخاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمة للعاملين على اللفظ أكثر من رحمة للمتعسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر الصية ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمت يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولعمد إلى الفرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلى من علوم للعاملات التي تصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله ورسالة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورد لها الرتبة الثانية : رتبة للعذابين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قوله لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون - وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشر وأحد من السيف مثل الصراط للموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يغلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقضى لاحتجاجة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان نار ان نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول اللذة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضمنه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يغلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا نيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان <sup>(١)</sup> قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في اللذة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر الدد وأن الاختلاف بالشدة لانهائية لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كأن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير اللذة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضمنه وكثرة الطاعات وقتلها وكثرة السيئات وقتلها . أما شدة العذاب بشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرة فبكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بموله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وأفئني عتراني ، اللهم  
احفظني من بين يدي  
ومن خلفي وعن يميني  
وعن شمالي ومن فوقي  
وأعوذ بك أن أغتال  
من تحتي ، اللهم -م إني  
ضعيف فقو في رضاك  
ضعفي وخذ إلى الخير  
بناصيتي واجعل الاسلام  
منتهى رضى ، اللهم  
إني ضيف تقصوني  
اللهم إني ذليل فأعزني ،  
اللهم إني فقير فأغنني  
برحمتك يا أرحم  
الراحمين ، اللهم إنك تعلم  
سري وعلاني فاقبل  
معذرتي وتعلم حاجتي  
فأعطني مؤلى وتعلم  
ما في نفسي فأغفر لي  
ذنوبي ، اللهم إني أسألك  
إيمانا يياشر قلبي  
ويقينا صادقا حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملی عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي » (١) وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا ن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع القرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفات متفرقة لم يصير عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب قط فانه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لساينين ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصفائر وأقل درجات التكفير أن يدفع المذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد تقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب الجيمين أو بالمقرئين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمعرون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بالتسراح الصدر بنور الله حق ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم القربون النازلون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللا الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يفوس فيه القواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب الجيمين ودرجته دون درجة المقرئين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب الجيمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرئين ، وهذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى القرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المنسول كالندي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لنزول إيمانه فيعتم له بسوء الخاتمة لاصيا إذا كان إيمانه تقليديا ، فان التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يندبان إلا أن يحفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب الجيمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ،

أنه لن يصيبي إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي إذا الجلال والاكرام اللهم ياهادي المضلين وياراحم المذنبين ومقيل عثره العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأعباء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف <sup>(١)</sup> » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاء عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاء مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في السكفة الأخرى عشرة عشره بل هو موازن تمامي الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليتها وفروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحية لا بالموازنة الجسدية وهذا صادق عند من يعرف روح السالية من الذهب والفضة بل لو أعطاء جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فتصدق ذلك يتكشف له الصديق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات <sup>(٢)</sup> » كما ورد في الأخبار والسموات كن الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبايد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحموا ثلاثة عالمين الجاهل وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل <sup>(٣)</sup> » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل <sup>(٤)</sup> » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر <sup>(٥)</sup> » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلنا ينفك الأولياء عن ضروب

وإليك المصير يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشبهه عليه الأصوات ويا من لا تقاطعه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يهزم بالجاح الملحني أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعيلا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيا لا ينفذ وقرة عين الأبد ومراقبة نبيك محمد وأسألك حبك

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث أرحموا ثلاثة عالمين الجاهل الحديث ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البختري، واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي ومحمده والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخاري من حديث ابن مسعود .



من الإيذاء وأنواع البلاء بالأخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون للفاضل عن الجهل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من البغويين للضعيف. فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشارك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسراً إلى عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحمله وأشفقن منه فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تسكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لاهياله نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنقضه لأنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فنسبته أمانة ترجع لاهياله إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الثاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إمامظلة منكسفة وإما زهرة مشرقة. والزهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير لكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم - فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم واتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توقيفه ولم يمهده طريقه ، فعوذ بالله من الضلال والتزلزل إلى منازل الجهال فهذا حكم اتسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبة وأيدي الغافلين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة بحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينع القول باللسان وإنما ينع الصدق في التوحيد وكل التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» (١) وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين التقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السيئات فيتسارع الغفو والتكفير إليها في الأثر إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول

وحب من أحبك  
وحب عمل يقرب إلى  
حبك . اللهم بملك  
الغيب وقدرتك على  
خلقك أحيى ما كانت  
الحياة خيراً لي وتوفى  
ما كانت الوفاة خيراً لي  
أسألك خشيتك في  
الغيب والشهادة وكلمة  
العدل في الرضا والغضب  
والقصد في الغنى والفقر  
ولذة النظر إلى  
وجهك والشوق إلى  
لقاءك وأعوذ بك من  
ضراء مضرة وفتنة  
مضلة . اللهم اقم لي  
من خشيتك ما تحول  
به بيني وبين مصيبتك  
ومن طاعتك ما يدخلني  
جنتك ومن اليقين  
ماتهمون به علينا  
مصائب الدنيا . اللهم  
ارزقنا حزن خوف

اللائكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار وكما يهلك هو بسبب غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو للظلم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لأفضل ليس في محيقي حسنة أفضل منها فكيف أعوها وقال هو وغيره ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها محيقي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في العباد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاها حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لاعالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه حين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى الشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها جبر عن ذلك السبب الخفي المفضى إلى النجاة بالعتو والرضا وعمايضة إلى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر الشيعة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فلا ذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على الطائع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتدال على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلا زاعوا أزاح الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الخلط فيه إذ قدرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الخلط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فبارى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأغنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يغمضوا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جود ولا طاعة ولا مصيبة فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين اللقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور رجاء للعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف بآمنه نهرب اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء وإملاء قلوبنا بك فرحا وأسكن في قلوبنا من عظمتك مهابة وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب إلينا مما سواك واجعلنا أخصى لك بمن سواك نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما أحيى حياة

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فتمت لهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم العصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن الذي عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيب السندی ضعيف ويحيى ابن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم فهذا مزنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ويسعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عن المامات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأسكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك <sup>(١)</sup> فأذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون التقليديين وهم القربون السابقون فإن التقليد وإن كان له فوز على الجملة يعاقب في الجنة فهو من أصحاب العين وهؤلاء هم القربون وما يلحق هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره . ما فضله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فأنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنوا بها ولا يطلبون إلا الآلة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمة وطى وجمع الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لما ماتت بهن الصبيان عصفور من عصفائر الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخارى من حديث حمزة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى في الروضة فأبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة قليل يارسل الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبراني من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريع كنا في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية ، وفيه إلا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبى داود في آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرايت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ثابت بن الحرث الأنصارى كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يغفلها الله في بطن أمه إلا أنه شق أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذرارى المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالى منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالى قبلك قال في النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

السعداء حياة من  
تحب بقاءه وتوفى وفاة  
الشهداء ياخير الرازقين  
وأحسن التوابين  
وأحكم الحاكمين  
وأرحم الراحمين ورب  
العالمين ، اللهم صل على  
محمد وعلى آل محمد  
وارحم ما خلقت واغفر  
ما قدرت وطيب  
ما رزقت وعمم ما أنعمت  
وقبّل ما استعملت  
واحفظ ما استفظت  
ولا تهتك ما سترت فإنه  
لا إله إلا أنت أستغفرك  
من كل لذة بغير ذكرك  
ومن كل راحة بغير  
خدمتك ومن كل  
سرور بغير قربك  
ومن كل فرح بغير  
محالستك ومن كل

ولذلك قيل لراية العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لا يقوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومثلهم مثال العاشق المستتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع للغير محبوبه حتى بلغت إليه لائقه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكف إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرضه ينكشف النطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وإن الدار الآخرة لمسي الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات والله الوفي بلفظه.

(بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تصرم ولا يتبعها مثله لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ «خير الأعمال أدومها وإن قل» (١) والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور المحجوم عليها بفتنة من غير سوابق ولواحق من جملة الصفات قلما يزنى الزاني بفتنة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بفتنة من غير مشاحنة سابقة ومعاودة فكل كبيرة تكتنفها صفات سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بفتنة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه اصد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحدور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر «الؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره» (٢) وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول المبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإعسا يعظم الذنب في قلب المؤمن لملته بحلال الله فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب ثبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك غفلة ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه اللهم احفظنا فيها أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا يا حافظ

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم  
(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخاري من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فقد ذكر هذا وحديث لله أفقر بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضي الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشرر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللوبيات إذ كانت معرفة الصحابة بحلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد النكس من ذلك نعمة والفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من الدين من يمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بتعارفه إياه كما يقول أمارأيتني كيف مزقت عرضه ويقول الناظر في مناظرته أمارأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف امتحمته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بدمه من الله تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينسكر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه . ومنها أن يهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإهماله إياه ولا يدري أنه إنما يعمل مقراً ليزداد بالامهال إنما فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان السرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتية في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده عليه وتحريك لرغبة الشرف من أعمه ذنبه أو أشهده فعله فهما جناحتان انضمتا إلى جنايته فقلظت به فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحت الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين بيبب أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر فالأظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين ولذلك قال تعالى - المناقون والمناقات بعضهم من بعض يأمرون بالنكر وينهون عن المعروف - وقال بعض السلف ما تهتك الرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على مصيبتهم يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الانكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدّيه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصده إلا الجاه كعلم الجدول والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيحوت العالم ويبقى شره مستطير في العالم آماداً متطاولة فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً (٢) » قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

(١) حديث كل الناس معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بالفظ كل أمثى وقد تقدم (٢) حديث من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .

الحافظين وإذا كر  
الذاكرين وباشا كر  
الشاكركين بذكرك  
ذكرروا وبفضلك  
شكروا يا غياث يا منبت  
يا مستغاث يا غياث  
المستغيثين لا تكلني إلى  
نفسى طرفة عسين  
فأهلك ولا إلى أحد من  
خلقك فأضيع أكلاني  
كلاءة الوليد ولا تغل  
عنى وتولني بما تولى به  
عبادك المالحين أنا  
عبدك وابن عبدك  
ناصرى بيدك جار فى  
حكمتك عدل فى  
نضاؤك نافذ فى مشيئتك  
إن تعذب فأهل ذلك  
أنا ، وإن رحم فأهل  
ذلك أنت فأقول اللهم  
يا مولاي يا الله يارب  
ما أنت له أهل ولا تفعل

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويفرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن طالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فصل في الإصلاح دهرًا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت له ولكن كيف بمن أضلّت من عبادي فأدخلتهم النار . فهذا يتضح أن أمر العلماء مخاطر فعليهم وظيفتان : إحداها ترك الذنب والأخرى إخفاؤه وكتمان ضعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمل والليل إلى الدنيا وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيقع عليه ويتعدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدرّون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فخر كات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالريح وإما بالحسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

### (الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر)

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتسامها علامة ولدوامها وشروطها فلا بد من بيانها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسياق . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو بعض أعزته طال عليه مصيبتة وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى عجز أصدق من الله ورسوله ولوحدثه إنسان واحد يسمى طبيبًا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فإلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فلامحة محبة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فأنهم أرق أفئدة <sup>(١)</sup> » ومن علامته أن تملك حرارة تلك الذنوب في قلبه بدلًا عن حلاوتها فيستبدل بالليل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله يقول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يرفق بتوبته فقال وعزّي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه . فإن قلت فالذنوب هي أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عسلًا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلّقه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضًا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان ولما عزّ مثل هذا الإيمان عزّت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضًا عن الله تعالى متهاونًا بالذنوب مصّرًا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت

اللهم يارب يا الله  
ما أنا له أهل إنك أهل  
التقوى وأهل المغفرة  
يا من لا تضمره الذنوب  
ولا تنقصه المغفرة هب  
لي ما لا يضرك وأعطني  
ما لا ينقصك ياربنا  
أفرغ علينا صبرًا  
وتوفنا مسلمين توفى  
مسلمًا وألحقني  
بالصالحين أنت ولينا  
فاغفر لنا وارحمنا وأنت  
خير الغافرين ربنا  
عليك توكلنا وإليك  
أنبنا وإليك المصير  
ربنا اغفر لنا ذنوبنا  
وإسرافنا في أمرنا  
وثبت أقدامنا وانصرنا  
على القوم الكافرين  
ربنا آتنا من لدنك  
رحمة وهي لنا من  
أمرنا رشدًا ربنا

(١) حديث جالسوا التوابين فأنهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعًا وهو من قول عون بن عبد الله رَوَاهُ ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضًا فالموعة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضًا التائب أسرع دمعًا وأرق قلبًا .

وينبغي أن يجد هذه الرادة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النقرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل بمخافته ولم يكن ضرر الثائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشروط محبتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالنسب أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهر شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما لى الذى قصر فيه منها وإلى المعاصى ما لى قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية في قضائها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أدامه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف بمجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويستثقل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أدامه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فإن ذلك لا يجزئيه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويكره أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والأن قد أفلس ف عليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس ف عليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له كسب ولا مال ف عليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا (١) » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صفاتها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنازة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر ومما ماله وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتعسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث الددة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » بل من قوله تعالى - إن الحسنات يذهبن السيئات - فيكفر بمماح الملائه بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر من الصحف محدثا بكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقيله بأن يكتب مصحفا ويحمله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذى من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وإفراغ السبر في الخدمة وإيداع الشكر في النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن القلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق المضادة فإن المرض يالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا يعجزها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي التناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطاف في طريق الموحى فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في الموحى فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وبدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والخنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينفو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم <sup>(١)</sup> » وفي لفظ آخر « إلا الهم بطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تسكفها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه <sup>(٢)</sup> » ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع . فإن قلت ثم الإنسان غالبا بما له وولده وجهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرامان عنه كفارة ولو تمتع به نمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكتيب فقال قد حزن عليك حزن مائة شكوى قال فما له عند الله قال أجزمائة شهيد فاذا الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد فمما أيضا مصيبة وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا لما قال منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتباع بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل إتيانها الناس بالاحسان إليهم ويكفر غضب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالعبية والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتناق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتناق بإيجاد لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الأعدام بالأيجاد وهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والموحى مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتناق رقية ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجم ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض . أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إيمانه أو من عاقبته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا لإقصاء فبالقصاص فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم وبحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كاللوزني أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ما عزم بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ولا خواتنا الذين  
سبقونا بالإيمان ولا  
تجعل في قلوبنا غلا  
لذين آمنوا ربنا إنك  
رؤوف رحيم اللهم  
اغفر لي ولوالدي وللمن  
تولدا وارحمهما كما  
ربياني صغيرا واغفر  
لأعمامنا وعماتنا  
وأخواننا وخالاتنا  
وأزواجنا وفدائنا  
ولجميع المؤمنين  
والمؤمنات والمسلمين  
والمسلمات الأحياء  
منهم والأموات بأرحم  
الراحمين يا خير الغافرين  
ولما كان الدعاء مخ  
العبادة أحببنا أن  
نستوفي من ذلك فسمنا  
صالحا نرجو بركته  
وهذه الأدعية  
استخرجها الشيخ

- (١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفي لفظ آخر إلا الهم في طلب المعيشة طس  
وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح  
(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تسكفها أدخل الله عليه الغموم وتقدم أيضا  
في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بالفظ ابتلاه الله بالحزن .



فقال يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزيتت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إني قد زيتت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقال يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماثوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم (١) وجاءت الغامدية فقالت « يا رسول الله إني قد زيتت فطمه رني فردها فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا فوالله إني لحلي فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهي حتى تضعى فلما ولدت أنت بالصبي في خرقه فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تنظييه فلما فطمته أنت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يا بني الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وأما القصص وخذ القذف : فلا بد من تحليل صاحبه للتحقق فيه وإن كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبس كتروج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحيات والدوايق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل بجمع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظالمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب العامين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبق له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تنفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتسكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تنف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون تسميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تسميره الذي كان في العاصي في متسع الأوقات هذا حكم للظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة فلا يرد إلى السالك ما يعرف له مال كما عينا وما لا يعرف له مال كما فعله أن يتصدق به فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الجنابة على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يهيبهم في النية فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجدده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى هله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء [الباب المحسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات]

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لثلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يحمده أهل

وتعرضه له بالاستحلال المبهم لا يكتفى وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال  
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فإن كان في جملة جنائته على  
 الغير ماله ذكره وعرفه لتأذى بعمرته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه باللسان إلى عيب من خفايا  
 عيوبه يعظم أذاه مهما عوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم  
 تبقى له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة اللبث والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة  
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمع نفسه بالاستحلال  
 بقيت المظلة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من  
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من تفر ببيتة مال بحسنة  
 فاذا طاب قلبه بتودده وتلطفه صحمت نفسه بالاحلال فان أبي إلا الاصرار فيكون تلطفه به  
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته وليكن قدر سعيه في فرحه  
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدها الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك  
 منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف في الدنيا مالا لجاء بمثله فامتنع من له المال من  
 القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة  
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي التفرق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله  
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم  
 أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا  
 فقتله فكل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس  
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطاق إلى أرض كذا وكذا فان بها  
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا  
 نصف الطريق أتاه الموت فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة  
 جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي  
 فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فأبى أيهما كان أدنى فهو له فقاوسوا فوجدوه أدنى  
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) « وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب  
 منها بشبر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى  
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فقفر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان  
 ميزان الحسنات ولو بمشغال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .  
 وأما المزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا وبما يهده بهد وثيق أن لا يعود  
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالقدي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيزم عزما جازما  
 أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تخليه  
 الشهوة في ثانی الحال ولكن لا يكون تائبا مالم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب  
 في أول أمره إلا بالمزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث  
 حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فيقتصر عليه فان رأس للعاصي أكل الحرام  
 فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالاحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

للعمامة وأرباب القلوب  
 وقد ندب رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم إلى  
 ذلك ثم يقرأ الفاتحة  
 وأول سورة البقرة إلى  
 للفلجون والآيتين  
 والحكم إلى الواحد وآية  
 الكرسي والآيتين  
 بعدها وآمن الرسول  
 والآية قبلها وشهد الله  
 وقل اللهم مالك الملك  
 وإن ريكم الله الذي  
 خلق السموات  
 والأرض إلى الحسين  
 ولقد جاءكم رسول إلى  
 الآخر وقل ادعوا الله  
 الآيتين وآخر الكهف  
 من إن الذين آمنوا  
 وذا النون إذ ذهب  
 مغاضبا إلى خير الوارثين  
 فسبحان الله حسين  
 عمون وحين تصبحون

(١) حديث أبي سعيد الخدري التفرق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل  
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو . متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

في المأكولات واللبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام محمل بل تقول لمن قال لاتصح إن عانيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كدمه لما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلها سبب لقلته وقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولنا تتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولله بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالتندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقوة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدين دون الآخر فان استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التماثلات فهو كالمالك المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول قول إن العقد لا يصح أى لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم لالكونها معصية وذلك يتم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنطق النصف بتفصيل به يكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يخفى على أهل الملك وحرمة ويخفى على دابته فيكون خائفا من الجنابة على الأهل مستحقرا للجنابة على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة المعصية والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديداً ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكاهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كافي تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر  
السورة ولقد صدق الله  
وأول سورة الحديد إلى  
بذات الصدور وآخر  
سورة الحشر من  
لو أنزلناهم بسبح ثلاثا  
وثلاثين وهكذا محمد  
مثله ويكبر مثله ويتمها  
مائة بلا إله إلا الله وحده  
لا شريك له فإذا فرغ  
من ذلك يشتغل بتلاوة  
القرآن حفظا أو من  
المصحف أو يشتغل  
بأنواع الأذكار ولا  
يزال كذلك من غير  
قصور وقصور وناس  
فان النوم في هذا الوقت  
مكروه جدا فان غلبه  
النوم فليقم في مصلاه  
قائما مستقبل القبلة  
فان لم يذهب النوم  
بالقيام يخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تملق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير الحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه وندم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والافقة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون ملما بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف فحرق الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغبية وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يمتنع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخص العنان بالكيفية بل أجاهده في بعض المعاصي فماتني أعليه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول الله تعالى على أمران وإلى على الخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملئ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أفتهم فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن بكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متائلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يقنأول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووافؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت هل تصح توبة العن من الزنا الذى قارقه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم بعث العزم على الترك فما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه . ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارقه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية

نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة في إقامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والثمار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم بديانته وتبتي أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يستدعى بهراءة المساعات العشر

لكانت حرقه الندم تنمى تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماجبا عنه سيئته إذ لاخلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه نائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذا لا يستجيب أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فمما يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة اللصبة تتمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا قلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يمض الثائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً. فان قلت إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن الزنوع إلى الذنب والآخر بقى في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها وينمى فأيهما أفضل ؟ . فاعلم أن هذا مما يختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبي الخوارى وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لأنه لو قتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يغلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ، وأعلى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبثق بإشارة اليقين وتقمع الشهوة النبعة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو قتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن الفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلوس طرقة اقتحام الاغرار بل كقول القائل الصياد الذي ايسر له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد القامى لهيجان الشهوة وقمعها ، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد فنصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل للمقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن هجم عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت في المجاهدة فانت بعد في طلب الظفر ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمسان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجراح بالاضافة إلى من هو مشغول بمسألة التأديب بعد ولقد ذل

وهي من تعليم الخضر  
عليه السلام عليها  
ابراهيم التيمى وذكر  
أنه تعلمها من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ،  
وينال بالمداومة عليها  
جميع التفريق في  
الأدكار والدعوات ،  
وهي عشرة أشياء  
سبعة سبعة الفأحة  
والعودتان وقل هو  
الله أحد وقل يا أيها  
الكاكفرون وآية  
الكبرى وسبحان الله  
والحمد لله ولا إله إلا الله  
والله أكبر والصلاة  
على النبي وآله وسنغفر  
لنفسه ولوالديه  
والمؤمنين والمؤمنات  
ويقول سبحا اللهم افضل  
في وهم عاجلا وآجلا  
في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يطلوا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإمالتها بالسكينة مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فبجزعته فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واستمر في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع للهلكات . فان قلبك لما قولك في تأميين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جملة نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويمحرق بندهما عليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى الحالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يغيب عن حال نفسه فقط ولا يهتم حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازل أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبندى لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعثه لسلك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف والوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى العاقل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يهرج على غير السلوك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع النيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماضي من أحواله وهو الكمال بل لو عاق السافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهج حاجز طال تعب السافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسده من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأثرا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك للمانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقة أتهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطلل بالليل بكائه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطلان الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى بمن الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع للهلكات بل تقول شروط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة ليزيد رغبته ولكن إن كان شافلا ينبغي أن يبطل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر بما يحرك رغبته في طلب العاجل ولا يرضى بالآخرة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدئ أيضا قد يستغربه فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدق عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاحقة بأنهم فاتهم ما بشوا إلا لأرشادهم فطهير التلبس بما تنفع أهمهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويغوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لقراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المريء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشترع <sup>(١)</sup> » وفي لفظ « إنما أسهو لأسن » .

(١) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشترع ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

ما أنت له أهل ولا تفعل ربنا يا مولا نا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رؤوف رحيم . وروى أن إبراهيم التيمي لما قرأه بعد أن تملها من الحضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من السبعات أقبل على التسييح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستطلق ولده الصبي كيف يزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كبح كبح » (١) لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة وزل إلى لسانه بل الذي يطم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبيعة والطائر تطلق في تعليمه فأياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزية أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بطلعه وكرمه .

### ( بيان أقسام العباد في دوام التوبة )

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون المشتهرون بذكر الله تعالى وضع الله كبر عنهم أو زارهم فوردوا القيامة خفافا » (٢) فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الله كبر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فقتر زاعها ولم يشغل عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملئ بمجاهدتها وردها ثم تفاوتت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف اللذة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته يخط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن يجمل طال جهاده وصبره وتبادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فاعسا تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتخضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكشاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه المبسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعثره لاعتنا عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غيره أن يقدم عزمًا على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

لا يوجد في اللوطا إلا مرسلًا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنصاري وقد طال بحثي عنه وسؤال عنه للائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا (١) حديث أنه قال للحسن كبح كبح لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق للمفردون المشتهرون بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقصد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة العباد إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه قد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أثرا ونورا وروحاً وأنسا إذا كان صادقا والذي يحمد

أسبابها التي تمرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لاعتن تصميم عزم وتحمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يظلم خيره شره حتى يتقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكيفية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع الغفرة - فكل إلمام يقع بصغيرة لاعتن توطئ نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأتى عليهم مع ظلمهم لائقهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيها رواء عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب (١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة ينفي أحيانا ويميل أحيانا (٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٣) » أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة الصيرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالضيق الذي يؤيس للفقير عن نيل درجة الفقهاء بقتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقير بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون (٤) » وقال أيضا « المؤمن واه رافع غيرهم من مات على رقبته (٥) » أي واه بالذنوب رافع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة - فما وصفهم بعدم السيئة أصلا. الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أضله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس السائلة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمرهم من حيث مواظبتهم على الطاعات وكرهاتهم لمناطة طاهر مرجو (١) حديث على خياركم كل مفتن تواب البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث المؤمن كالسنبلة تنفي أحيانا ويميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسل وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تنفي وفي الأمثال للراهمرمزي إسناده جيد لحديث أنس (٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذي واستغفبه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون . قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخاري (٥) حديث المؤمن واه رافع غيرهم من مات على رقبته الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا فسيء بدل غيرهم .

من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يفسر في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمين الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه في يومه وليته ثم صلى ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلاته حسنة ليستزيد بالله تعالى من شر يومه وليته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بأمك وكلتك النامة من شر السامة والمهامة



فسمى الله أن يحب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسوية وتأخير فرعاً يختطف قبل التوبة ويقع أمره في الشبهة فان تدارك الله فضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الحاجة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما أعذر على التفتة مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم فله تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضرب الرجاء في حقه وإذا سرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من حملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة ب تناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول قه النفس التي به تستحق المناصب العالية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تقوية النفس فكما لا يصلح لمصاحب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت قهية بطول التفتة فلا يصلح لملك الآخرة وهيئها ولا للقرب من رب العالمين إلا القلب سليم صار طاهراً بطول الزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهوا وقد خاب من دساها - فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب قدماً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يلقى بيته وبين الجنة إلا شرب فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (١) فاذن الخوف من الحاجة قبل التوبة وكل نفس فهو خائفة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المذخور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويمر بمرحلة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة الصيرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الحاجة وأمره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه كالأستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيفتق أن يجدد وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في الواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجراستغنى وليت من صام وصلى غفر له فالتناس كلهم محرومون إلا العالمون والمالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا المخالمون والمخالمون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً زعم أنه ينتظر فضل الله بأن يزرقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الحرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والمرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير مالك سبيل المغفرة بعد عند باب القلوب من المتوهمين والعجب من عقل هذا الممتوء وترويعه حماقته في صفة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ باسمك وكلتك  
التامة من شر عذابك  
وشر عبادك وأعوذ  
باسمك وكلتك التامة  
من شر ما يجري به الليل  
والنهار إن ربى الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت  
وهو رب العرش العظيم  
ويقول بعد الر كنتين  
الأولين اللهم إني  
أصبحت لا أستطيع  
دفع ما أكره ولا أملك  
نفع ما أرجو وأصبحت  
مرتهناً بعملى وأصبح  
أمرى بيد غيرى فلا  
قبر أقدمنى اللهم  
لا تشمت بى عدوى  
ولا تنس بى صديقى  
ولا تجعل مصيبتى فى  
دينى ولا تجعل الدنيا  
أكبر همى ولا مبلغ  
على ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضروه ثم تراه يركب البحار ويفتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن قهرك وكسلك برك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فمساء يرزقك من حيث لا تعتسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستهيء به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يطم الفرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيها جميعا وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يتقده كرم في الآخرة وليس بكرم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفئور عن كسب المال ومقتضاه الفئور عن العمل للملك القيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فتعوز بالله من العمى والضلal لما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرونا وصمنا فأرجنا نعمل صالحا - أمي أبصرونا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فأرجنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فتعوز بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء القلب والمآب.

( بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إمام بحكم الانفاق )

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كاذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليجوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق للذنوب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضرر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الافلاع عن الذنب وتحوق العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بمدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وعمره مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين<sup>(١)</sup> وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات<sup>(٢)</sup>

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلّي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فعلم المصنف عبر بالأثر لارادة الوقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرحم الله إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النعم ثم صلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمل في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلّيها أمام كل أمر يريد ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية (١) » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس فأقضى على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ماصليت معنا صلاة القداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات (٢) » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فبلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهتد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للاستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى. بآيات الله (٣) » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولي أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هاسكنا (٤) . فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفة النار نفوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال الغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها تفصل لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار. حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة (٥) » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من أمراته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدية فقام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل - وأقم الصلاة طرفي النهار - الآية وإسناده جيد (١) حديث إذا عملت سيئة فأتبها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر الحديث (٢) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة القداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث (٣) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى. بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزى. بربه وسنده ضعيف (٤) حديثا بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفع الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه ابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس (٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجل فيه  
الخبرة . ثم صلى  
ركعتين أخريين بقرأ  
في الأولى سورة الواقعة  
وفي الأخرى سورة  
الأعلى ويقول بعدها  
اللهم صل على محمد  
وعلى آل محمد واجعل  
حبك أحب الأشياء  
إلى وخشيتك أخوف  
الأشياء عندي واقطع  
عنى حاجات الدنيا  
بالشوق إلى لقائك وإذا  
أقرت أعين أهل  
الدنيا بدنيام فأقرر  
عينى بعبادتك واجعل  
طاعتك فى كل شيء  
منى يا أرحم الراحمين  
ثم صلى بعد ذلك  
ركعتين يقرأ فيهما  
شيئا من حربه من  
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاة فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء . فإن عصى قال يارب استر علي فاذا فرغ من العصية قال يارب تب علي فاذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم النجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم عمادة السرو وهو الحلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش ، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقالوا ، إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية . وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه ، والقصود أن للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قوله الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كالا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجع الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كمة السيئات فيألك أن تستغفر ذرات الطاعات فلا تأتيتها وذرات المعاصي فلا تنفيتها كالمرأة الحرقاء تسكل عن الغزل تعمللا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد تقول أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري العتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالاضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان الغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقابى غافل . فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا صمم من غيره كذبا سبق لسانه إلى غاتمود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحققك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان تعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى في إحدى الكلمتين وبسليم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعانى قوله تعالى - وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغبية واللغو والفضول هذا تضاعف في الدنيا لأدنى الطاعات وتضاعف الآخرة أكبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لفئة أو لعائلة فليحضر لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقية الله سواء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقية الله سواء للدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت

يسلمون - فإياك وأن تلصق في الطاعات مجرد الآفات ففتقر به غيتك عن العبادات فإن هذه مكيدة وروجها الشيطان بلمسته على الغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التطنن للخفايا والسرائر فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانتقم الخلق في هذه الكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها إطلاقاً لا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم الغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدققة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأضعف الشيطان وتدلى بجبل غروره فتمت بينهما المشاركة والواقعة كقيل : وافق عن طبقه . وافقه فاعتقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بأشراك القلب في العمل وتظن لتقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لأنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القريين. فان هذه أمور ثبتت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحمقروا منها شيئاً فاعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحمقروا منها شيئاً فاعل غضبه فيه وخبأ ولايته في عبادته فلا تحمقروا منهم أحداً فلعلمه ولى الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه .

#### (الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزيز نادر : والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفضه وإبطاله ولا يطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم العاقلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون - فلا دواء إذن للتوبة إلا المعجون بسجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكتنجيين بين حلاوة السكر وحموضة الحل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار فاذن لهذا الدواء أصلاً : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بينهما .

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن وقد كان من الصالحين من يختم القرآن في الصلاة بين اليوم والليلة وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير -

فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لا بد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم يحملها أدوية لأعراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبب الأسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المصيبة وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان . الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الايمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصنى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب للضررة على الجملة حتى يلب عليه الخوف في ترك الاحتيا . فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتيا ووزانه من الدين الاصفاء إلى الآيات والأخبار الشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلحق إلى صممه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف القوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصنى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتيا عنه ليعرفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتيا عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآقاتها وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم وعيز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فاتهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قعيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جهلا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء وأطباء السلاطين قوام دار الرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بعداوة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقبده بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرض الأبدان ثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن صلى بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم واليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يظلم ولا يتعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التستري لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فإذا ارتفعت الشمس

فإن عاقبة موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتل النفرة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها فذلك تراه بشكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال . والثالثة : وهو الداء الضال فقد الطبيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا همزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر قصائهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيد مرضا لأن الداء للهالك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استكافا من أن يقال لهم فبالكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء واقطع الفتواء وهلك الخلق لتقعد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفتن الإغواء فليتهم فلم ينصحوهم لم يخشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ولينهم سكوا وما نطقوا فاتهم إذا تكلموا لم يهجمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك أهدى في الأصماع وأخف على الطباع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من يد جراءة على العاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا وأخا ثا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسراره في الخوف يذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك المصّر على الذنوب المشتبه بالتوبة للمتنع عنها يحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت بإلحاح أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة للفرور للسترسل في العاصي يذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المهرور بالمثل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر مافي القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا لماذا خلقوا علموا بما علموا <sup>(١)</sup> » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا بما علموا تابوا بما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب الجمين صاحب الثمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبد يصحى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاء فانكما لم تخلفاه ولو خلقتهما لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدي له حسنات

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حساده الحديث وفيه ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والقرب يصل الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رُمضت الفصال » وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حرّ الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقلّ صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

فذلك معنى قوله تعالى - إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده - وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقاعة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلّت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها (١) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطابع (٢) » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدا من العاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوقه بعدها لحير والأخبار والآثار في ذم العاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (٣) .

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من العصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلال عن جسده وبدت عورته فاستعيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاء جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه ونودى من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصاني قال فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال هذا أول شؤم العصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلم ملكه أربعين يوماً فهرب تأمها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فاني سليمان بن داود شيخ وطرد وضرب . وحكى أنه استظم من بيت لامرأته فطردته وصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه إلى أن أخرج الله الحاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فجاءت الطيور فمكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذرت إليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذرکم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى عن الاسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستصم قال فنبأ الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني إسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام - أطلعك الله على علم الغيب قال بتركي العاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قيصة نظيرة وكان جديداً فكانه أهجبه قال فوضعت الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نظمتك إذا أطمت الله .

حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة بمضي فيه وإلا فيدم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً وقلبا وقالباً وإلا فباطناً وترتيب ذلك أنه يصلى مادام منشرحاً وقصه عجيبة فإن سم ينزل من الصلاة إلى التلاوة فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فإن سم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقاب واللسان فهو أخف من القراءة فإن سم الذي ذكر يدع ذكر اللسان ويلزم بقلبه المراقبة والمراقبة على القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين

(١) حديث عمر الطابع معلق بقاعة العرش فإذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدي وابن حبان في الضمراء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة . قلت هكذا قال المصنف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روينا في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة البخاري من حديث عمرو بن الحرث قال مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهما ولا أمة ولا مسلم من حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة البخاري من حديث أبي الدرداء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم الحديث وقد تقدم في العلم .



وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنهم عنه قافلون - لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيني بهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأناشد الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار وزود الأسرار بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب السكبار، نعم كانت سمادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشفياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنبه على ألسان الصالحين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فان الذنوب كلها يتمتع في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه <sup>(١)</sup> » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا <sup>(٢)</sup> » وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه وقصا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرم من رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء السالكين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يحقته الله تعالى ليحقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان عثى في الوحل جامعا ثيابه عتزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ققام وهو عثى في وسط الوحل ويكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاربها حتى يقع في ذنب وذنين فعندها يخوض في الذنوب خوضا وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بي ابن الجلاء الدمثى فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار ففهم يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحد أصلا جماعة إلا بذنب يذنبه وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبا غيرتم من أعمالكم <sup>(٣)</sup> » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما صنع

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدله العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبا أنكرتم من أعمالكم البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء

الذكر وأفضله فان عجز عن ذلك أيضا وتعلمته الوسواس وتراحم في باطنه حديث النفس فليتم في النوم السلامة وإلا فكثر حديث النفس تقسى القلب ككثر الكلام لأنه كلام من غير إسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخيل له من ذكر ماضى ورأى وممع كشخص آخر في باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب المجد

بالعبء إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذيق مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلي فغامر قاي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غشاه في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيـد وكان قد وجه إلى فأخصني من الرقة فلما أتيت قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فصاررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلو لا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فمجيبت كيف علم بذلك وهو يفتداد وأنا بالركة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يحاقب على كفرانه وأما للطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقه والقتل والفيـسة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنفس والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتمل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ولتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تنكث على قال لا تنضب (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الفنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يتذر منه (٣) » وقال رجل ل محمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال ألزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب قناه عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيماً كن لك بالجفنة عيافاً فكأنه نفرس فيه آثار القظاظه والغلاظة . وقال رجل ل إبراهيم بن أدهم أوصني فقال إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أرام بالناس بل غمسوا في ماء اليأس فكأنه نفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تنكثي فكنت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبيد الله بن هاني . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما منع بالعبء إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تنكث على قال لا تنضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يحجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يعين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإقبال

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكرهه الله إلى الناس» (١) والسلام عليك فانظر إلى قهها كيف تعرضت لآفة التي تكون الولاية بصدها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كما لك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال الالئقة ليسكون اشتغاله بالهمم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير محكمة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت لإلأمن خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركنيك ولا تجادلهم فيمعة توك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفه ولا تخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يا بني لاتضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عمالا عنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يأتهم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل ما لوجاءك لك الموت فرائته غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرائته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن نقاعا ولا تكن ضاررا واتزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تدير الخطأين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني فقال اجعل لديك غلافا كغلاف الصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : أما بعد ، غف محاذرك الله واحذر محاذرك الله وخذ محافي يدك لما بين يديك فتند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالمطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خس ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيا دار عوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يفتر من لا علم عنده فكن فيها يأمر المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكرهه الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

من نوم النهار تجدد  
في الباطن نشاطا آخر  
وشفا آخر كما كان  
في أول النهار فيكون  
للصادق في النهار نهاران  
يغتنمهما بخدمة الله  
تعالى والدؤوب في العمل  
وينبني أن يكون  
انتباهه من نوم النهار  
قبل الزوال بساعة  
حتى يتمكن من  
الوضوء والطهارة قبل  
الاستواء بحيث يكون  
وقت الاستواء  
مستقبل القبلة ذا كرا  
أومسبحا أو تاليا قال الله  
تعالى - وأقم الصلاة طرفي  
النهار - وقال - فسبح  
بحمد ربك قبل طلوع  
الشمس وقبل غروبها -  
قل قبل طلوع  
الشمس صلاة الصبح

على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الهاء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أرملة  
أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فمعتهم وأما أعداؤه فمعتهم . وكتب  
أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، قد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحدا فذكر قدرة  
الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل  
أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص  
واقته فهذه اللواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الاتضاع بها ولأجل قد مثل هؤلاء اللواعظ  
انهم باب الاتماظ وغلبت المعاصي واستشرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون  
أياتا ويشكفون ذكر مالبس في سمة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم  
ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متكلف والتسمع متكلف وكل واحد  
منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج المعاصين  
فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه  
لتناوله ما يضره . وإنما تناول ذلك إما تنفله عن مضره وإما لشدة غلبة شهوته فله سبيلان فإذ كرهناه  
هو علاج النفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله  
أن المريض إذا اشتدت ضرارته لما كوله مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن  
عينه فلا يحضره ثم يتسل عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الخوف على الألم  
الذي يناله في تركه فلا يدب على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا  
إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته  
فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى الخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله  
صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب للهبطة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو  
حضور المشتبه والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناوله لئلا تذ الأطمعة وعلاجه الجوع  
والصوم والدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة  
واستكثار أو عن صماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الله كثر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر  
الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتعمام الفهم وينبت من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى  
الخوف تيسر بمعونه الصبر وابتعثت الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسره من وراء ذلك فمن  
أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتق واتظر الثواب وصدق بالحسن فييسره الله  
تعالى ليسرى ، وأما من بغل واستغنى وكذب بالحسن فييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل  
به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإعانة الله الآخرة والأولى .  
فإن قلت فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة  
الخوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعالم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم  
ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لانه  
غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان اذ كل مؤمن مصدق  
بأن العصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور :  
أجدها أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف  
بالأضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة  
بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن

وقبل غروبها صلاة  
الصر - ومن آتاه  
الليل فصبح - أراد  
العشاء الأخيرة  
سواطراف النهار - أزداد  
الظهر والغرب لأن  
الظهر صلاة في آخر  
الطرف الأول من  
النهار وآخر الطرف  
الآخر غروب الشمس  
وفيها صلاة المغرب  
فصار الظهر آخر  
الطرف الأول والمغرب  
آخر الطرف الآخر  
فيستقبل الطرف الآخر  
بالقطة والله كذا  
استقبل الطرف الأول  
وقد عاد بنوم النهار  
جديدا كما كان بنوم  
الليل وبصلى في أول  
النهار قبل السنة  
والغرض أربع ركعات

العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فجها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبق أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فجها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد » (٢) فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المال سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة قلبه وألم الصبر عنه ناجز فيكون عليه الألم ينتظر. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالחסنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان ، نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكيا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذر الطيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر . فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شركائه فلهذا يدريه لكل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد الذ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمة لحظة إذ ألم يخف ما جده ومفارقة الدنيا لا بد منها فتكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه ألا وأبدا فليظن كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وهذا التفكير بعينه يعالج اللذة القالبة عليه ويكف نفسه تركها ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا إذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنفصمها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعم الآخرة وأما تسويف التوبة فيما جالجه بالفكر في أن أكثر صباح أهل النار من التسويف لأن المسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلهذا لا يبق

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

بتسليم واحدة كان  
يصلها رسول الله صلى  
الله عليه وسلم وهذه  
صلاة الزوال قبل الظهر  
في أول أوقاتها وبحاج  
أن يراعى لهذه الصلاة  
أول الوقت بحيث  
يفطن للوقت قبل  
المؤذين حين يذهب  
وقت الصلوة  
بالاستواء فيشرع في  
صلاة الزوال ويسمع  
الأذان وقد توسط  
هذه الصلاة ثم يستعد  
لصلاة الظهر فإن وجد  
في بطنه كدرا من  
عاطلة أو جمالة  
اتفقت يستغفر الله  
تعالى ويتضرع إليه  
ولا يشرع في صلاة  
الظهر إلا بعد أن يجد  
الباطن عائدا إلى حاله

فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحيل إلا الغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتیاد فليست الشهوة التي أكلها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكلها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين الثمانيين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق وماء مال السوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فراهاقوية لا تنقلع إلى بمشقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله قراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يزرقه العنور على كثر في أرض خربة فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة أو عقوبة على الظالم التاهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأمصار أن مثل ذلك وقع فأتانا أنتظر من فضل الله مثله فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك بطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحمد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقهم أم لا أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالاته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد بمجهول عند ترك طعامك في البيت لحظة أنه ولعت فيه حبة وألقت سمها فيه وجوزت صدقة فهل تأكله أو تتركه وإن كان أله الأطمعة فيقول أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا سيدي جان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد بمجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفية فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائر ابتلع قط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيته الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التوحي الممرى :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعت الأموات قلت إليك  
إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولی فالخاسر عليكما

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ما قالت فقد تخلفنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت أي الماقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت هذه الأمور جارية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال ألقاب هجرت الفكر فيها واستقلته وما علاج القلوب لردّها إلى التفكير لاسيما من آمن بأصل التمرع وتفصيله . فاعلم أن المنافع من الفكر

من الصفاء والالتفات  
حلاوة الناجاة لا بد أن  
يجدوا صفو الأنس في  
العساة ويتكبدون  
بيسير من الاسترسال  
في اللباج ويصير على  
بواطنهم من ذلك عقد  
وكدرو قد يكون ذلك  
بمجرد الخفاطة والمجاسة  
مع الأهل والولد مع  
كون ذلك عبادة  
ولكن حسنات الأبرار  
سيئات القربين فلا  
يدخل الصلاة إلا  
بصد حل العقد  
وإذ هاب الكدرو حل  
العقد بصدق الانابة  
والاستغفار والتضرع  
إلى الله تعالى ودواء  
ما يحدث من الكدر  
بمجالسة الأهل والولدان  
أن يكون في مجاسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عتاب الآخرة وأهو الهاوشدائها وحسرات العاصين في الحرمان عن التعميم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويلتذ بال فكر في أمور الدنيا على سبيل الفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واستقرته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حياته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه وفي مباشرة قضاء الشهوة والفكر ينمعه من ذلك ، وأما علاج هذين اللانعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقار ألم موافقته فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مغموا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فاتها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريرة الدور وهي مشوبة بالمكدرات لما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بعمرته وطاعته وطول الأنس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة لما عودتها تعود والخير عادة والشر لاجبة ، فاذن هذه الأفكار هي الهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تنفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر مواقا للطبع فيميل القلب إليه ويهجر عن السبب الذي أوقع المواقفة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخبر بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روى في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لمي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما ذابني ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعنى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت الملباء ومن عنى نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والدائمة وبذا له من الله ما لم يكن يحسب ، لما ذكرناه بيان بعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

### ﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

( وهو الكتاب الثاني من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، التفرد بردها الكبرياء ، التوحد بصنات المجد والملاء ، الوي بدصفوة الأواباء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محرومة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانتضاء [ أما بعد ] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر <sup>(١)</sup> كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وامنان من أسماءه الحسنى إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً إذا جهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

### ﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

غير راكن إليهم كل الركون بل يسترق القلب في ذلك نظرات إلى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفارة لتلك الهالسة إلا أن يكون قوى الحال لا يعجبه الخلق عن الحق فلا يتعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل في الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى الهالسة كان استرواح نفسه منغمرا . يروح قلبه لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا يتعقد على باطنه عقدة وصلاة

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مآبه الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مآبه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أقسامه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

### ( بيان فضيلة الصبر )

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي إسرائيل بما صبروا وقال تعالى - ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يؤتى الصابرون وأجرهم خير حساب - فإمن قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واصبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصر على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يحسبها لغيرهم فقال تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المنتهدون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان <sup>(١)</sup> » على ما سياتي وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فات من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافق كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتتح عليكم الدنيا بحدى فينكر بضعكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - <sup>(٢)</sup> » الآية وروى جابر أنه سئل عن النبي عن الإيمان فقال « الصبر والسجدة <sup>(٣)</sup> » وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة <sup>(٤)</sup> » وسئل مرة « ما الإيمان فقال الصبر <sup>(٥)</sup> » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة <sup>(٦)</sup> » معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسجدة الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن الشكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

يزوال التي ذكرناها  
تحل الصدق وتهيب  
الباطن لصلاة الظهر  
فيقرأ في صلاة الزوال  
بقدر سورة البقرة  
في النهار الطويل وفي  
القصر ما يتيسر من  
ذلك قال الله تعالى :  
وعتيا وحين تظهرون -  
وهذا هو الإظهار فان  
انتظر بعد السنة  
حضور الجماعة للفرص  
وقرأ الدعاء الذي بين  
الفريضة والسنة من  
صلاة الفجر فحسن  
وكذلك ما ورد أن  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم دعا به إلى  
صلاة العجر ثم إذا  
فرغ من صلاة الظهر  
يقرأ الفاتحة وآية  
الكرسى ويسبح





عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجد آخر يطلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه تمييز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفيتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة الصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فذلك لا تطلب إلا الانذير . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بخمود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجل ومعرفة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحقيق بالصبرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال المشتهة عمل بثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال ثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوى يقينه أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تنفاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والأيمان فتصبح مغية الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للملكان هما التكفلان بهذين الجنسين بإذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما ، وهما من الكرام السكاكين وهما للملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك الموقى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذي أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، ينبغي أن يكون مسلما له فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . ولعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب أقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بآثارها فذلك مما كراما

أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وإن أراد أن يحجب هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال إذا كان صائما وإن لم يكن صائما فأى وقت خير فيه الفم . وفي الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعند القيام من الصلوات يستحب قبل إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأ بين

كاتبين أما الكرام فلا تنفخ العبد بكرمها ولأن اللاتسكة كلهم كرام برودة وأما الكاتبون فلا ياتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته <sup>(١)</sup> » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال - ولقد جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيئا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمة الخلق وفيها يساق الثقلون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والحوال الأول هو هول القيامة الصغرى وجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تتزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت بيضة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تتزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما ينشور عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بذلك فقط فأما بدن غيرك فليس بحظك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من زلزله أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تغشاها إذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترباك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك ومعمك وبصرك وسائر خواصك نجوم بجناحك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فإذا رمت العظام قد نسفت الجبال نسفا فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تسكورا فإذا بطل معمك وبصرك وسائر خواصك فقد انكسرت النجوم انكسارا فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجر البحار تفجيرا فإذا انتفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تمطيلها فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض ثلثت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد اشترت حواسك التي بها تنفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلائها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصه غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت مفاؤه إذ السماء عبارة عما على جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والحوال بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الحصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طوكتا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أو صافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصاب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلابين في صلاته في  
عشرين ركعة في كل  
ركعة آية أو بعض آية  
تقرأ في الركعة الأولى  
- ربنا آتنا في الدنيا  
حسنة وفي الآخرة  
حسنة وقنا عذاب  
النار - ثم في الثانية  
- ربنا أفرغ علينا صبرا  
وثبت أقدامنا وانصرنا  
على القوم الكافرين -  
ثم - ربنا لا تؤاخذنا  
بإخراة السورة ثم ربنا  
لا تزغ قلوبنا - الآية ثم  
- ربنا إنا سمعنا ناديا  
ينادي للإيمان - الآية  
ثم - ربنا آمنا بما  
أُنزلت - ثم - أنت  
ولينا فاغفر لنا - ثم  
- فاطر السموات  
والأرض أنت ولي -  
ثم - ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه الصبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - وننشئكم فيما لا تعلمون - فالمر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور إلى دجال ، فما أعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا »<sup>(١)</sup> أو ما سمعت بكبريه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت »<sup>(٢)</sup> أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع العافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا يفرجون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيطنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جمع لدينا محضرون ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولترجع إلى الفرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم العاملة . فقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الإقبال والاعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يماقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمعت الكرام الكاتبين البررة الأخبار أن يكتب على الصبي سيئه وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتحريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما ناله الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

ما تخفى وما نعان -  
الآية ثم - وقل رب  
زدني علما - ثم - لا إله  
إلا أنت سبحانك - ثم  
- رب لا تذرني فردا -  
ثم - وقل رب اغفر  
وارحم وأنت خير  
الراحمين - ثم - ربنا  
هب لنا من أزواجنا -  
ثم - رب أوزعني أن  
أشكر نعمتك التي  
أنعمت على وعلى  
والدي وأن أعمل صالحا  
تَرْضاه وأدخلني برحمتك  
في عبادك الصالحين -  
ثم - يعلم خائنة الأعين  
وما تخفى الصدور - ثم  
- رب أوزعني أن  
أشكر نعمتك التي  
أنعمت على - الآية  
من سورة الأحقاف ثم  
- ربنا اغفر لنا

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بالفظ اللهم أغنى على سكرات الموت .

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة (١)» وأشار إلى أصعبه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .  
( بيان كون الصبر نصف الإيمان )

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشغال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يرفقه أن العصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك العصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكمال فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ما يؤتيه اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لاهل العارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيها وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين . باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيق والغضب للهروب من الألم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بمحذور الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

( بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر )

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالعمل كتطاعى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتفال كالصبر عن الضرب الشديد والمرضى العظيم والجراحات المائلة وذلك قد يكون محمدا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والمنع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان فى احتمال النفسى مضطرب النفس وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة وبضاده الجبن وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلا وبضاده التذمر وإن كان فى نائمة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر وبضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا وبضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولاخواننا الدين -  
الآية ثم - ربنا عليك  
توكلنا - ثم درب اغفر  
لى ولوالدى ولمن دخل  
بني مؤمنا وللؤمنين  
واللؤمونات ولا تزد  
الظالمين إلا تبارا -  
مهما يصل فليقرأ بهذه  
الآيات وبالحفاظة على  
هذه الآيات فى الصلاة  
مواظبا للقلب واللسان  
يوشك أن يرقى إلى  
مقام الاحسان ولوردد  
فرد آية من هذه فى  
ركعتين من الظهر أو  
الصبر كان فى جميع  
الوقت مناجيا لمولاه  
وداعيا وناليا ومصليا  
والدؤوب فى العمل  
واستيعاب أجزاء النهار  
بلذاته وحلاوة من  
غير سامة لا يصح

الحرم وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سوى قناعة وضاد الشر فأكبر أخلاق  
الإنسان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر  
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفه» (١) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى  
- والصابرين في البأساء - أي الضيعة - والضرراء - أي الفقر - وحين البأس - أي المحاربة - أولئك  
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ للمعانى من  
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفوا الذي  
يسلك الطريق للستقيم وينظر بنور الله يلاحظ للمعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي  
فاتها وضعت دالة على للمعانى فالعانى هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع  
لابد وأن يزل وإلى الترفيعين الإشارة بقوله تعالى - آمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى  
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يفلطوا فيها غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانمكسات ، نسأل  
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

( بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف )

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعى الهوى فلا يتبع  
له قوة للنزاعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر فظهر والواصلون إلى هذه الرتبة  
هم الأفلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهو لاء لازموا الطريق  
للمستقيم واستولوا على الصراط القويم واطمأنات نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى للنادى  
- يا أيها النفس النطمشة ارجعى إلى ربك راضية مرضية - . الحالة الثانية أن تغلب دواعى الهوى  
وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة  
وهؤلاء هم العافلون وهم الأكثرون وهم الذين استترقهم شهواتهم وغلبت عليهم شغفونهم فكفوا  
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليه الإشارة بقوله تعالى  
- ولوشئنا لآتيناك كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -  
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فغسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم - فأعرض عمن  
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط  
والفرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد  
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق  
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن  
الله غفور رحيم كريم فلاحاجة به إلى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل  
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته فقد صار عقله في يد شهواته كسلم  
أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الحنجر وحملها وعمله عند الله تعالى  
عمل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر  
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق السلم أن يكون متسلطا  
لما فيه من معرفة الله وبعث الدين وإنما استحق الكفار أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل  
بالدين وبعث الشياطين وحق السلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف

إلا لجد تزكت نفسه  
بكمال التقوى  
والاستقصاء في الزهد  
في الدنيا وانزع منه  
متابعة الهوى ومتى بقي  
على الشخص من  
التقوى والزهد والهوى  
بقية لا يدوم روحه في  
العمل بل ينشط وتنا  
ويسام وتنا ويتناوب  
النشاط والكل فيه  
لبقاء متباعدة شئ من  
الهوى ينقصان تقوى  
أوعجة دنيا وإذا صح  
في الزهد والتقوى فإن  
ترك العمل بالجوارح  
لا يفر عن العمل بالقلب  
فمن رام دوام الروح  
واستحلاء الدؤوب في  
العمل فعليه بحسم مادة  
الهوى والهوى روح  
النفس لا يزول ولكن

(١) حديث الحج عرفة أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

الذي هو من حزب الله وجند اللائكة للمعنى الحسيس الذي هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرقى مسلماً لكافر بل هو كمن قصد للثمن عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لثمنه واستيجابه لثمنه لأن الهوى أبغض إليه عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يظلب جميع الشهوات أو لا يظلب شيئاً منها أو يظلب بعضها دون بعض وتزبل قوله تعالى - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً - على من هجر عن بعض الشهوات دون بعض أولى والثاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تمجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعظله فهو الناقص حقاً الدبر يقينا ولذلك قيل :

فلم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجهود جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فستيسره لليسر - ومثال هذه القسمة قدرة الصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لقوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا يبهز ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وبعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود اللائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانعمت وتسلطت باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورت ذلك مقام الرضا كما يأتي في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير (١) » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالتدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على الصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونقل ومكروه وعمرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نقل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يده ولده وهو صبر عليه ما كتاكوتن يقصد حرمة بشهوة محظورة فتبيح غيرته فيصبر عن إظهار الفيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر عمرم والصبر للمكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحكم الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يغفل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

( بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال )

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما هو الذي يوافق هواه .

(١) حديث عبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم .

تزول متابته والنبي  
عليه السلام ما استعاذ  
من وجود الهوى  
ولكن استعاذ من  
متابته فقال « أعوذ  
بك من هوى متبع »  
ولم يستعذ من وجود  
الشح فانه طبيعة  
النفس ولكن استعاذ  
من طاعته فقال « وشح  
مطاع » ودقائق متابعة  
الهوى تنبئ على قدر  
صفاء القلب وعلو الحال  
فقد يكون متبعاً للهوى  
باستحلاء مجالسة الخلق  
ومكالتهم أو النظر  
إليهم وقد يتبع الهوى  
بتجاوز الاعتدال في  
النوم والأكل وغير  
ذلك من أقسام الهوى  
التي تبع وهذا شغل من  
ليس له شغل إلا في الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافق بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها للباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطفان فإن الإنسان ليطنى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجبنة عزنة (١) » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيصة نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إني لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسي أن أخذه (٢) » . فني ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة والهوى واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالاتفاق وفي بدنه يبذل العونة للخلق وفي لسانه يبذل الصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدره ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحاجة والفصد إذا تولا غيرة أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثاني : ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أولا يرتبط باختياره كالحساب والنوائب أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالقتلى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان . الضرب الأول : الطاعة والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجدله مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخدمته وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان محتما من إظهاره فإن استشاطته وغبطه عند تقصيرهم في خدمته واستبداده ذلك ليس يصدر إلا عن إظهار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالجهاد والصبر على الطاعة صبر على الشدائد ومحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاختلاص والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصل العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان آكل وآثم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر في تصوير الباطن وتكميل الصلوة يقرأ في الأربع قبل العصر إذا زلزلت والمعاديات والقارعة والمهالك وصلى العصر ويعمل من قراءته في بعض الأيام والسماء ذات البروج ومممت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل وقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء ما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

(١) حديث الولد مبخلة مجبنة عزنة أبو يعلى الوصلى من حديث أبي سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قيصة نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .



ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى <sup>(١)</sup> » وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويعبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن النسيء والأذى قد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى - فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذي القربى هو الروءة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثاني للمعاصي لما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه <sup>(٢)</sup> » والمعاصي مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفا بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ذات انصاف العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع للزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصدها الأرزاء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علوهم وصبرهم ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداها نفى الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية واجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يمسر الصبر عنها ، وهي أكبر الوبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد <sup>(٣)</sup> » . فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخاطلة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الحواطر باختلاج الوسواس فلا جرم يبق

الصبر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبق وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهد في الدنيا ويسدد كلامه عرا التقوى من الطاعة الزاهدين للتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد وللداومة على الأذكار وإن عدت هذه المجالسة وتصدرت فليترجح بالتنفل في أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائي في الكبرى بالشرط الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الغيبة أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يطلب على القلب هم آخر في الدين يستغفره  
 كمن أصبح وهوومه هم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور ثور الوسواس  
 عنه . القسم الثاني ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه كالكوا أذى بفعل أو قول وجي  
 عليه في نفسه أوماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال  
 بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وقال  
 تعالى - ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل التوكانون - « وقسم رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر  
 به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر  
 من هذا فصر<sup>(١)</sup> » وقال تعالى - ودع أذاهم وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون  
 واهجرهم هجرا جميلا - وقال تعالى - ولقد علم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد  
 ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا  
 أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح  
 الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصص وغيره فقال تعالى - وإن عاقبتهم فاعقبوا بمن ماعوقبتهم  
 به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك  
 وأعف عن ظلمك<sup>(٢)</sup> » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من  
 قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك  
 الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر  
 معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه  
 يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر  
 الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين  
 وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس  
 رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة  
 وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة  
 وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على  
 الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك  
 شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين مائة من مصائب الدنيا<sup>(٣)</sup> »  
 فهذا صبر مستنده حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما يحب فكيف نصبر على ما نكره  
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قل الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله  
 أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب ميذا أنا وأنت لهدى ديوانا<sup>(٤)</sup> »

في أول النهار ولا  
 يخرج من المنزل إلا  
 وهو على وضوء .  
 وكره جمع من الماء  
 تحية الطهارة بعد  
 صلاة العصر وأجازه  
 المشايخ والصالحون  
 ويقول كذا خرج من  
 منزله بسم الله ماشاء  
 الله حسي الله لا قوة  
 إلا بالله ، اللهم  
 إليك خرجت وأنت  
 أخرجتنى ؛ وليقرأ  
 الفاتحة والعمودتين ولا  
 يدع أن تصدق كل  
 يوم بما يتيسر له ولو  
 تمر أو لقمة فإن  
 القليل بحسن النية  
 كثير . وروى أن  
 عائشة رضى الله  
 عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمة مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق  
 عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث  
 أسألك من اليقين مائة من مصائب الدنيا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر  
 وحسنه الترمذى وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى  
 مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس  
 بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بعصية فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم أوثرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك <sup>(٢)</sup> » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته قال سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشك إلى عواده أبدته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته قالى رحمى <sup>(٤)</sup> » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاه الحزين الذي صبر على الصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أتزعه عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنتم على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الرضا لا يتخى فوق منزلته ، وقيل حبس الشئى رحمه الله في النارستان قد دخل عليه جماعة فقال من أتم قالوا أحباؤك جاءوك زاربن فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحباؤى لصبرتم على بلائى ، وكان بعض العارفين في جيه رقة يخرجها كل ساعة ويطلماها وكان فيها - وأصبر لحكم ربك فانك - أعيينا - ويقال إن امرأة تفتح الوصلى عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن رقة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسلطان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك <sup>(٥)</sup> » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما في كه صرة فافتقدها فاذا هى قد أخذت من كفه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبى حذيفة في حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسيتك ماء فقال جرنى قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فأتى صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبرا سالكى طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعى فى مسند الشباب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد الخالصى فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة ولترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم فى الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بعصية فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته الحديث الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسطلى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضه منهما الجنة رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كرمي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشك إلى عواده أبدته لحما خيرا من لحمه الحديث مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدري وعبد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى مؤتوفا على أبى هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى الرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بعصيتك ولا بوجحك ولا تركى نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لمثاقيل ذر كثير . وجاء فى الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من الصبر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطراً شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والبالغة في الشكوى وإظهار الكتابة وتغيير العادة في اللبس والمفرش والطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يحتسب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقممت فهايت له إظهاره فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأمكن منه الليلة ثم تصمت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تصب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوي فلقد رأيت لهم بعد ذلك في السجدة سبعة كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة ، وقد قيل الصبر الجليل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرج به عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل اللوت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى الموت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذر حمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجيب يمزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما آتاه له . واعلم أن الساضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يوافقون منه فاذن مهمادفع السكراة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان الرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك هذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فان القى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والافراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الحواطر لا يمكن وأكثر جولان الحواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضيق زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووساوسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال يتنازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم أنه يتنازع ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر التحالفة من أخفى الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتهللون به

(١) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت الحديث طيب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين وقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله وية ومائة مرة سبحان الله والحمد لله والكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبعمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة

في محالته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جندي يطير و جندي سير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حر كة جنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتملة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف للمؤمن المخلوق من النار أن يطمئن عن حر كته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستصصى وعبر عن سبب استنصائه بأن قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - فاذن حيث لم يسجد للمؤمن لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده ومهما كلف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر اتقياده وإذعانه بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي العظم المحترم يرى استخفافا بالمادة فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح ونشر اللب عن اللب فتكون عن قيده عالم الشهادة بالسكينة عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهو معك ثم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد للمؤمن مجالا فيك فتند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطة هذا الامين ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو صيال يجري من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدرح فانك إن أردت أن يخلو القدرح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمعت في غير مطعم بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بفسكرهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان والإلمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قربة إلى الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يش عن ذكر الرحمن تفيض له شيطانا فهو له قرين - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يفيض الشاب الفارغ (١)» وهذا لأن الشاب إذا تطل عن عمل يشغل باطنه بباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفراده أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان نوالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنتقطع البتة بل تسمى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا يبق النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبق للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذا إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك فاذا حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حر كة مذمومة وحر كة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه .

( بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه )

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقا أو تمتعنا فتحصيله ممكن بمجون العلم والعمل فالعلم والأخلاق التي منها تتركب الأدوية لأمر اراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العمل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك عما يطول

(١) حديث إن الله يفيض الشاب الفارغ لم أجده .

مرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب بركة وله سبعة فيها ألف حبة في كبس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثني عشرة مرة بأنواع الذكر . ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم واليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم واليلة وليقل مائة مرة بين اليوم واليلة هذا التسبيح سبحان الله العلي الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فنقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن الواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل منصارعين أردنا أن يغلّب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسيبيل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن تنظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة اللذيذة للشهوة . الثاني قطع أسبابه المهيجة في الحال فانه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس »<sup>(١)</sup> وهو سهم يسدده ملعون ولا ترس يمنع منه إلا تمضيض الأجفان أو الهرب من صوب رميته فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصيبك سهمه . الثالث تسليّة النفس بالمباح من الجنس الذي تشبهه وذلك بالنكاح فان كل ما يشبهه الطبع في الباحات من جنسه ما ينفى عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأتبع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء »<sup>(٢)</sup> فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجحوش وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته . الثاني يضاهي تغيب اللحم عن الكلب وتغيب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقتين أحدهما إطعامه في فوائد المجاهدة وممراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر : إن ثواب الصبر على الصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعده وموته أبدا الدهر ومن أسلم خيسا في نفيس فلا ينفى أن يحزن لفوات الحسب في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإنما قوة الإيمان يجبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن يهود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها فان الاعتياذ والممارسة الأعمال الشاقة تؤكّد التقوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الحالمين والفلاحين والقاتلين وبالجملة قوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الحياطين والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قوامهم لم يتأكد بالمارسة فالعلاج الأول يضاهي أطماع الصارع بالحلمة عند الغلبة ووعدده بأنواع الصكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه بإمام عوسى حيث قال - وإنكم إذا لمن القربين - والثاني يضاهي تعويد الصبي

سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الختان النان سبحان الله السبع في كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر فسمع في هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذي أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أصبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت فقلت ما اسمك فقال مهليئيل فقلت ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أوبرى له . وروى أن عثمان رضى

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم الحديث تقدم في النكاح .

الذي يراد منه الصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته فن ترك بالسكينة المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه وإنما أشدها كلف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن تقع الشهوات الظاهرة وآثر المزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد الفناعة بهم كل ذلك لا يكفي ما لم تقصر الهوموم ها واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينبغي إلا الأوراد المتواصلة الترتبية في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يغلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب العيشة فهذا أحد الأنواع المشاغلة . وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب العاش فان تهيئة ذلك أيضا تتجوج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يغلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملدة أو واقعة وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر غيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والانهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقديرا بل الجهد وبجمل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمولود راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، ثم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المهدوب إلى أسفل سافلين لا يتجذب إلى أعلى عليين وكل مهوم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو الراد بقوله **يُطْلَقُ** « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا تفرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما نعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يبسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفرغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبت البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا عطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يغلي سنة عن مطر فكذلك فلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهوموم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهوموم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدبار رحمته حتى

الله عنه سأل رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
عن تفسير قوله تعالى  
- له مقابل السموات  
والأرض - فقال سألني  
عن شيء عظيم ما سألني  
غيرك هو لا إله إلا الله  
والله أكبر وسبحان الله  
والحمد لله ولا حول  
ولا قوة إلا بالله عز وجل  
وأستغفر الله الأول  
الآخر الظاهر الباطن  
له الملك وله الحمد لله  
الخير وهو على كل شيء  
قدير من قالها عشرا  
حين يصبح وحسين  
يغفر الله له ما مضى  
فأول خصلة أن يحرس  
من إبليس وجنوده  
الثانية أن يعطي قطارا  
من الأجر الثالثة يرفع  
له درجة في الجنة

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدراار أمطار الكاشفات والطائف المعارف من خزائن  
الملوك أشد مناسبة منها لاستدراار قطرات الماء واستجراار القيوم من أقطار الجبال والبحار بل  
الأحوال والكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بسلامتك وشهواتك فصار ذلك  
حجاباً بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من  
باطن القلب واظهار ماء الأرض يغفر القى أسهل وأقرب من استرسال اليهامن مكان بعيد منخض عنها  
ولكونه حاضراً في القلب ومنسيا بالثبيل عنه ممي الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكريه تعالى  
- إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وقال تعالى - ولتذكر أولوا الألباب - وقال تعالى - ولقد  
يسرنا القرآن لذكر فهل من مدكر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات  
الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا  
إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب  
شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق  
على النفس علاقة الخلق وحب الهوى فان لذة الرياضة والغلبة والاستجماء والاستبصار أغلب اللذات في  
الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية  
والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأموال الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى  
- قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقوعه بسبب  
تمرير الشيطان العين للبعد عن طام الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فاضله وأخوامه كيف يكون  
مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه وعزا لا دال فيه وأمن لا خوف فيه  
وغنى لا فقر فيه وكالا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل  
حق كل عبد أن يطالب ملكاً عظيماً لا آخر له وطالب الملك طالب للعالمين والكمال لا محالة ونسكن الملك  
ملكاً نال ملك مشوب بأنواع الآلام وملعوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك عجل  
دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الإنسان مجبولاً رغباً في العاجلة فجاء  
الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواها بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة  
الحق فوعده بالفرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كاذب عليه السلام «والأحق من أتبع نفسه  
هوها وتغنى على الله الأمانى» فأنخدع المخدول بفرور واشتغل بطلب عز الدنيا وملكمها على قدر إمكانه ولم  
يتدل الموفق بحبل غروره إذ عم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فغبر عن المخدولين بقوله تعالى - كلا  
بل تحبون العاجلة وتدنون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوماً  
ثقيلاً - وقال تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم -  
ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ما أمروا على الخلق  
من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل  
له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم - يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل  
الله اثنا قتلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل -  
فالتوراة والإنجيل والفرقان ومحمد موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما نزل إلا لدعوة  
الخلق إلى الملك الدائم الخلد والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة أما ملك الدنيا  
فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا  
لاذل فيه وقررة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك  
الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يموت به إذ الدنيا والآخرة خرفان ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً

الرابعة يزوجه الله من  
الخور العين الخامسة  
اثنا عشر ملكاً  
يستغفرون له السادسة  
يكون له من الأجر كن  
حج واعتمر ويقول  
أيضاً في هذا الوقت وفي  
أول النهار اللهم أنت  
خلقتني وأنت هديتني  
وأنت تطعني وأنت  
تسقينني وأنت تميتني  
وأنت تحييني أنت ربي  
لا رب لي سواك ولا  
إله إلا أنت وجسدك  
لا شريك لك ويقول  
ما شاء الله لا قوة إلا بالله  
ما شاء الله كل نعمة  
من الله ما شاء الله الخير  
كله بيد الله ما شاء الله  
لا يصرف السوء إلا الله  
ويقول حسبني الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت



ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول المعمور في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم معها تسلم وتم الأسباب بنقض العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ووطن أهلها أنهم قادرون عليها أبنائها أمرونا أيلا أو نهيارا فجعلناها حصيدا كأن لم تكن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصد عنه ومعنى الزهد أن يترك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيعان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة أخذها بختقه إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اختار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكك هؤلاء كلهم فهم عبيدي فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالجهد وعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتليسه يسهل عليك الزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجوه ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يهرب من هذه الأمور فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى سأل من تكمن أرض الله واسعة فهاجر وأفيها - الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل ويزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يتأده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي أن يبدلها بنقائصها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياده فلهذا معنى للمعالجة بالإلصادة . الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسل نفسه ببعض ثم إذا فتحت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن النبت لآراضا قطع ولا ظهرا أبقى » (١) وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه » (٢) « فاذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات فانغمده دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأناس التي فصلناها من قبل فإن تفصيل الأحاد يطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

وهو رب العرش العظام  
ثم يستعد لاستقبال  
الليل بالوضوء والطهارة  
ويقرأ المسببات قبل  
النسروب . ويدبر  
التسبيح والاستغفار  
بحيث تغيب الشمس  
وهو في التسبيح  
والاستغفار ويقرأ عند  
القروب أيضا والشمس  
والايسل والعوذتين  
ويستقبل الليل كما  
استقبل النهار قال الله  
تعالى - وهو الذي  
جعل الليل والنهار خلفه  
لمن أراد أن يذكر أو  
أراد شكورا - فكما  
أن الليل يعقب النهار  
والنهار يعقب الليل  
ينبغي أن يكون العبد  
بين الذكر والشكر  
يعقب أحدهما الآخر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه تقدم فيه .

ولا يخلها شيء كما  
لا يخل بين الليل  
والنهار شيء والدكر  
جميعه أعمال القلب  
والشكر أعمال  
الجوارح قال الله تعالى  
- اعملوا آل داود  
شكرا - والله الوفي  
للعين .

[ الباب الحادى  
والخمسون فى آداب  
المرید مع الشيخ ]  
أدب المریدین مع  
الشیخ عند الصوفیة  
من مهام الآداب  
وللقوم فى ذلك اعتداء  
برسول الله صلى الله  
عليه وسلم وأصحابه  
وقد قال الله تعالى  
- یا ایها الذین آمنوا  
لا تقدموا بین یدى الله  
ورسوله واتقوا الله إن

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرفي كتابه مع أنه قال - وقد كرر الله تعالى - فقال تعالى - فاذكروني  
أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم - وقال  
تعالى - وسنجزى الشاكرين - وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين - لأصعدن لهم صراطك  
المستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق قال: ولا نجد أكثرهم شاكرين  
وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى  
- لئن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والاجابة والرزق والغفرة والتوبة فقال  
تعالى - فسوف يضاعف الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء - وقال: يرزق  
من يشاء بغير حساب وقال: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال: ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من  
أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال  
تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين - وأما  
الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»<sup>(١)</sup> وروى عن  
عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبريني بأحب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فيكثرت وقالت وأى شأنه لم يكن محباً أنا نبي ليله فدخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدي  
جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لسكني أوثرهوا فكأذنت له فقام  
إلى قربة ماء فوضاً فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى  
ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلاء فأكذبه بالصلاة فقلت يا رسول الله  
ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لأفضل ذلك

(١) حديث الطعام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سفة وفي إسناده اختلاف.

وقد أنزل الله تعالى على - إن في خلق السموات والأرض - (١) الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بمجر صغير يخرج منه ماء كثير فتسحب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وفودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار فأجابه ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً. وروى عنه عليه السلام أنه قال «ينادي يوم القيامة ليقم المحادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن المحادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٢)» وفي لفظ آخر «الذين يشكرون الله على السراء والضراء» وقال صلى الله عليه وسلم «الحمد رداء الرحمن (٣)» وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في رضىته بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل في الكنوز ما نزل. قال عمر رضى الله عنه «أى المال تتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لساناً ذا كراو قلباً شاكراً (٤)» فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن اللسان. وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان.

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل في ورث الحال والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحبو به ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه. فالأصل الأول: العلم وهو علم بثلاثة أمور بين النعمة ووجه كونها نعمة في حقها وبذات النعم ووجود صفاتها التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنم ومنم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط من سخر من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتاً مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتراد بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت رأى أمره لم يكن عجبا الحديث في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله عليه السلام ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضمه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأى أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٢) حديث ينادي يوم القيامة ليقم المحادون الحديث الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة المحادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده أصلا في الصحيح من حديث أبي هريرة الكبير رداؤه الحديث وتقديم في العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لساناً ذا كرا وقلبا شاكراً الحديث تقدم في الشكاح.

الله جميع عليهم - .  
 روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم فقال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافتك قهاريا حتى لم ترفع أصواتها فأزل الله تعالى لسانها الذين آمنوا - الآية  
 قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فبهوا عن تقديم الأضحية على

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزبره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك ، نعم لا ينقص من توحيده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيفه الذي كتبه بقله وبالكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرها لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والحازن أيضا مضطيران من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الحازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فإن الله تعالى هو الساطع للدواعي عليها لتفعل شامت أم أبت كالحازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر لإسقاط الله عليه الإزادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن عطيك ما أعطاك وأن غرضه القصود عنده في الحلال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لنفسه لا لغيرك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعة في منفعتك لما نفعتك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفسك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت أن الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم يدك وفعلت وفعلت فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرًا فاذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الشكر منه فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأجل. الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل للمعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فذكره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكوفي لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مستلوا بالاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا لاتمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجده مرفوعا ولم أعماره ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالنعم لا بالنعمة ولا بالإتمام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فاضرب لك مثلاً فقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدته في سمراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح. الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشقيقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في سمراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائاه عن الفرس أصلاً أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل الحل في قلب الملك. الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يحطيه فرساً ويستغنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضاً بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً لأن نظراً صاحبها تصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعطى، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها للذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الانعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء ثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والغزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا. وأما رتبة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها للذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهم لمج بل من حيث إنه يحمله في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية النعم لا رؤية النعمة. وقال الحواص رحمه الله: شكر العامة على الطعام والملبس والشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض الرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة كما قيل:

ومن يك ذا فم مريض يجد مرارة الماء الزلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فعمري، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية. أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكيف من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه. الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح. أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه. وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت  
أمشي أمام أبي بكر  
فقال لي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
تمشى أمام من هو خير  
منك في الدنيا والآخرة  
وقيل نزلت في أقوام  
كانوا يحضرون  
مجلس رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فاذا سئل الرسول  
عليه السلام  
عن شيء خاضوا فيه  
وتقدموا بالقول  
والفتوى فهو عن  
ذلك وهكذا أدب  
لأبيد في مجلس الشيخ  
ينبغي أن يلزم السكوت  
ولا يقول شيئاً يحضرته  
من كلام حسن إلا  
إذا استأمر الشيخ  
ووجد من الشيخ  
فسحة في ذلك وشأن

الاستعانة بها على مصيئته حتى إن شكر العيين أن تسر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تسر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يتساءلون ونيهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والسنتطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تصبح الشكوى من ملك للوك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والتضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو الجلي والقادر على إزالة البلاء وذلّ العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذلّ وإظهار الذلّ للعبد مع كونه عبدا مثله ذلّ قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فانتصوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يأمر المؤمنين لو كان الأمر بالسّن لكان في المسلمين من هو أسنّ منك فقال تكلم فقال لنا وقد الرغبة ولا وقد الرغبة أما الرغبة فقد أوصلنا إلينا فضلك وأما الرغبة فقد آمنتنا منها عدلك وإيماننا وفدا لشكر جنتك فنشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة للنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طغيا إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيّد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما همهم عمالا بهمهم أو يتكلمون بما يروونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لوعرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابسه ولوازمه ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته .

للريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه فتطلبه إلى الاستماع وما يبرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه إلى القول برده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جنابة للريد . وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الوطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

( بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى )

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر للولوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إغاثة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإغاثة وعن نشر الجاه والخشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين يديه ركما سجدا فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه يضاهي شكرنا الملك النعم علينا بأن تام في يوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ما تنعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة نعمة ولو أعطانا الملك مراكوبا فأخذنا مراكوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مراكوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول منا بل كان الثاني محتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكركم لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة مني رخصت منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فاني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى والفهم قاصر عن درك السرفيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا فرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم العاملة ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر بعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه للشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبداً لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - فقال وأعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني وهو المثني عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميثني حيث قرئ بين يديه - يحبه ويحبونه - فقال لعمرى يحبه ودعه يحبه

وهو عند حضور  
الصادقين يرفع قلبه  
إلى الله ويستنظر  
ويستسقى لهم فيكون  
لسانه وقلبه في القول  
والنطق مأخوذين إلى  
مهم الوقت من أحوال  
الطالبين المحتاجين إلى  
ما يفتح به عليه لأن  
الشيخ يعلم تطلع  
الطالب إلى قوله  
واعتداده بقوله  
والقول كالبذر يقع في  
الأرض فاذا كان  
البذر فاسدا لا ينبت  
وفساد الكلمة بدخول  
الهوى فيها فالشيخ  
يتقى بذر الكلام عن  
شوب الهوى ويسلمه  
إلى الله ويسأل الله  
المعونة والسداد ثم يقول  
فيكون كلامه بالحق

فبحق عجبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل مافي الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنيعه فان أحبه لما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بين التوحيد وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بخفاء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم يبق إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أريية أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الحنظل فيضحك عليهم الجاهل الجاهلهم بمعاني كلامهم وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انتقلوا إلى أهلهم انتقلوا فكهن وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظرين - النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسما قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعمام في كلتا العينين لأنهم تقوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقام به ولم يقتصر واطل هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لغوا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود وبين الموجد وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو الموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام - الفريق الثاني ليس بهم عى ولكن بهم عور لأنهم يصرون بأحدى العينين وجود للوجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عماها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتا بين الموجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو فيتمحى عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي السجدة التي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم السكالك وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأفلون والجاحدون والشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل اطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضيقا والنوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصبرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبريق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والسوام فيه عزيز :

من الحق الحق فالشيخ  
المريدن أمين الإلهام  
كما أن جبريل أمين  
الوحي فكما لا يخون  
جبريل في الوحي  
لا يخون الشيخ في  
الإلهام وكان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
لا ينطق عن الهوى  
فالشيخ مقتد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
ظاهرا وباطنا لا يتكلم  
بهوى النفس وهوى  
النفس في التسول  
بشيئين : أحدهما طلب  
استجلاب القلوب  
وصرف الوجوه إليه  
وما هذا من شأن  
الشيخ والثاني ظهور  
النفس باستحلاء  
الكلام والمحب وذلك  
خيانة عند المحققين



لكل إلى شأو الملا حر كات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قيل له «واسجد واقترب» - قال في سجوده «أعوذ بفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) - فقوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأنفاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب قننى عن مشاهدة الأفعال ونزق إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد فاقرب ورقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستغيذا ومثنيا قننى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال «لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فقوله صلى الله عليه وسلم «لأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» يان أنه للثنى والثنى عليه وأن السكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شئ هالك إلا وجهه - فكان أول مقاماته نهاية مقامات للوحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفضاله فيستغنى بفعل من فعل فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك تصافى سلوكه وتقصيرا في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (٢) - فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضى الله عنها «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا» (٣) «مضاء أفلا أكون طالبا للزيد في القامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا تفلطنا في بحار للكاشفة فلنقبض العنان ، ولترجع إلى ما يليق بعلوم العامة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا للدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرح كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك القام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والشكور ولا يعرف ذلك إلا بالثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بد منه مركوبا وملبوسا وهذا لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداهما أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبما فاتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقبله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو التشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها للتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبه .

والشيخ فيها يجرى على لسانه راقد النفس تشطه مطالعة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والسحب فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستعما كأحد المستمعين وكان الشيخ أبو السعد رحمه الله يشكم مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تنفي فيه غناء وغيبته لاتقص من ملكه فيكون قصد من الإناعام عليه بالمركوب والراد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا ينتفع الملك به وياتفاهه فنزل البعاد من الله تعالى في المنزلة الثانية لافي المنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرًا وكافرًا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنعم الله عليه مولاه فيما أحبه لأجله لأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فهم بالنسبة العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفع الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته في عجنه : أي استعملها فيما أحبه مولاه لعبده لأنفسه وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لأنفسه وإن جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضًا نعمته إذا أهملها وعطّلها وإن كان هذا دون ماله بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدر على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقبرهم عبر الله تعالى إذ قال - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة حجة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتقامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والعصية وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضًا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير حجة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكرهية بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضًا انحل الثاني فانالم ننم بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سبيل الانصراف فعلة الثاني إلى جهة محبة فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجد له ولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شيشة لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئًا وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانًا لنفسك شيئًا من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئًا فأنت شيء إذ جعلك شيئًا فان قطع النظر عن جملة كنت لاشيء تحقيقًا وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفضاله وإن كانوا هم أيضًا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وإن كان جاريا على

في المنام كأن قائلا يقول له أليس الغواص يوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في مخلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب للمريد مع الشيخ السكوت والحمود والحمد حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولًا وفعلًا وقيل أيضًا في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

إسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعمل لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعمل لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل يمهّد شرط للحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأتهم معاقبون مذمومون على الصبيان وما إلى شئ . فكيف نذمهم وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الضرر ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خاق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي فى حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من غدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين العاقلين فشهدوا الأمر كذلك صمعا وعند ذلك نداء الندادى - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ولكن العاقلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للعاقلين من كشف الأحوال حيث لا ينفهم الكشف ، فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أنياب الهلاك .

( بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه )

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان : أحدهما الجمع ومستنده الآيات والأخبار . والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جليلة وخفية . أما الجليلة فكالمعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب  
وأعزها وينبغى للمريد  
أن لا يحدث نفسه  
بطلب منزلة فوق  
منزلة الشيخ بل يجب  
للشيخ كل منزلة عالية  
ويتمنى للشيخ عز  
النسب وغرائب المواهب  
وبهذا يظهر جوهر  
الرغبة فى حسن الإرادة  
وهذا يعزى للرديين  
فإرادته للشيخ تعطيه  
فوق ما يتمنى لنفسه  
ويكون قائما بلحظ  
الإرادة . قال السرى  
رحم الله حسن الأدب  
زحجان العقل . وقال  
أبو عبد الله بن حنيفة  
قال لى روم يابى  
اجعل عملك ملحا  
وأدبك دقيقا ، وقيل  
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي عملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صينا الماء صياهم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا - الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والتوابت غفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين للإبصار واللبطش اليد للبطش واللمشى الرجل للمشى فالأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاوب والتلفاف والاشتباك والانحراف والدقة والفظوسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى - وما أوتيتهم من العلم إلا قليلا - فاذن كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره يده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا يهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذا إبصار يتبعها وإنما خلقنا لمبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية للنفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس للطمئة بطول العبادة والعرفة فلذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك العصية . ولذكر مثلا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرام والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامتفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يحجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في معاوضة العوض من تقدير إذ لا يذلل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بقباب أو عبا غنفا ودقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا بد من أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر للامالات جدا فافتقرت هذه الأعيان التنافرة للتباعدة إلى متوسط بينها بحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزله حتى إذا تفرقت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدرام حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت وأدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه قرع وكان جهوري الصوت فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية تأديبا له ونفيرا .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التعديل بالتعدين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما انتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقها الله تعالى لتداولهما الأبدى ويكونا حاكبين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهى التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها وانسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والشيء إنما تستوى نسبته إلى الختافات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيد بها بخصوصها كالمرآة لالون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لامتعى له في نفسه وأظهر به المعاني في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيها أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ينتنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحد في أعيانها فأنهما حجران وإنما خلقا لتداولهما الأبدى فيكونا حاكبين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتومة على صفحات الوجودات بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى - والذين يكرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم - وكل من أخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الحزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكفي الحزف والحديد في المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم<sup>(١)</sup> وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما فإذا أبحر في عينهما فقد أخذها مقصودا على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في يمه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانها وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء لمعنى في غيره وكوقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقبدا عنده وينزل منزلة الكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم

(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

أخبرنا ضياء الدين  
عبد الوهاب بن طي  
قال أنا أبو الفتح  
المروى قال أنا أبو نصر  
الترياقي قال أنا أبو محمد  
الجراحي قال أنا  
أبو المباس الجبوبي  
قال أنا أبو عيسى  
الترمذى قال ثنا محمد  
ابن الشئبى قال ثنا مؤمل  
ابن إسماعيل قال ثنا نافع  
ابن عمر بن جميل الجهمي  
قال حدثني حابس بن  
أبي مليكة قال حدثني  
عبد الله بن الزبير أن  
الأقرع بن حابس قدم  
على النبي صلى الله عليه  
وسلم فقال أبو بكر  
استعمله على قومه فقال  
عمر لا تستعمله يا رسول  
الله فسبكما عند النبي  
صلى الله عليه وسلم

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز بيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا في النعم منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم بمثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساوى ولا يشتغل به تاجر فانه عبث بجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذ بهينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرقوا أو قاتلهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذ بهينه فلا تمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيبها ورديئها سواء لأن الجودة والرداءة ينبئ أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبئ أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحققها أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فاعلم إن جز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقي صورة للمسامحة فيكون له حمد وأجر . والعارضة لا حمد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص للمسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبئ أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقيدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبئ أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم يأتأ كفه إن كان محتاجا ولم يحمله بضاعة تجارة وإن خطه بضاعة تجارة فليسه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه ولهذا ورد في الشرع لمن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في القرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عايب فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه النعم أسقط الشرع غرض النعم فيما هو اقوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلتحق هذا بفن الفقهاء فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون السكيات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصه بالأوقات ولكن كل معنى برهانه الشرع فلا بد أن يضبط بمحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم فرائى الشرع التحديد بمجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فعين المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن تعدد ذلك فقد ظلم نفسه -

حتى علت أصواتها  
فقال أبو بكر لعمر  
ما أردت إلا خلافي وقال  
عمر ما أردت خلافا  
فأنزل الله تعالى الآية  
فكان عمر بعد ذلك  
إذا تكلم عند النبي  
صلى الله عليه وسلم  
لا يسمع كلامه حتى  
يستغفر . وقيل لما نزلت  
الآية آلى أبو بكر أن  
لا يتكلم عند النبي  
صلى الله عليه وسلم إلا  
كأن السرار فكذا  
ينبغي أن يكون المريد  
مع الشيخ لا ينسبط  
رفع الصوت وكثرة  
الضحك ومكثرة  
الكلام إلا إذا بسطه  
الشيخ فرفع الصوت  
تنحية جلباب الوقار  
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس السكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات وملعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركاتك وسكونك ونطقك وسكونك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو امتنعت بالجنى فقد كفرت نعمة الدين إذ خلق الله لك الدين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بزيد رجائه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك الدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت للصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثالا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متمسكة بحركاتك وقسم الجهات إلى مالم يصرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدتك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك اقتصمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فإذا رميت بصافك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيض ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن ساء الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الخنطة وكان يتصدق بها فستل عن سببه فقال لبست اللداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفروه بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بل يصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقييح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدرح ييساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة فقييح أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقييح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة بمن عينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فيستحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يصاب عبده إذا استعمل سكنه بغير إذنه ولكن لو قتل تلك السكين أعزأ أولاده لم يبق

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان  
ما يقول وقد ينازل  
باطن بعض الريدين  
من الحرمة والوقار من  
الشيخ ما لا يستطيع  
الريد أن يشبع النظر  
إلى الشيخ وقد كنت  
أحم فيدخل على عمي  
وشيخي أبو النجيب  
السهروردي رحمه  
الله فيترشح جسدي  
عرقا وكنت أتمنى  
العرق لتخف الحمى  
فكنت أجد ذلك  
عند دخول الشيخ  
على ويكون في قدمه  
بركة وشفاء وكنت  
ذات يوم في البيت  
خاليا وهناك مندبل  
وهبه لي الشيخ وكان  
يتعم به فوق قدمي  
على التدبيل انخافا قاتم

لاستعمال السكين بغير إذن حكم ونسكاً في نفسه فسل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة وبالفعل هذه السكارة عدول عن العدل وكفران للنعمة وتقصان عن الدرجة البليغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر في البعد بقصان القرب وانعطاف للترلة وبعضها يخرج بالسكينة عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهيمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فأنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال العينة على الطاعة . وأما الشجر فأنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لاطى وجهه ينتفع به عباده مخالفة لقصد الحكمة وعدول عن العدل فإن كان له غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جعل لافداء لأغراض الانسان فأنها جميعاً قائمان هالكان فافناء الأخص في بقاء الأشرف مدتها أقرب إلى العدل من تضييعها جميعاً وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً وإن كان محتاجاً لأن كل شجرة بينها لاتفى بحاجات عباد الله كلهم بل تبقى بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظالماً فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فإن ثبت ذلك في موات الأرض لا يسعى آدمي اختص بغيره أو بغيره فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فله السابق خاصة السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك الملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس بملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها راحته فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بينها لاتفى بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاصاً ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده ولذلك يقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكترزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضرورتهم وترفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حدتنا وفي الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والنوذة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه فتركنا الاعتراض عليهم في الحب واللهو وإباحة ذلك إياهم لا يدل على أن الله هو الغلب حق فكذلك إباحة للعوام حفظ الأموال والاقتصاد في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جيلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكموها فيحسبكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا ما جدرزاد الرأكب فسل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأكب وبإل عليه

باطن من ذلك وهاتين  
الوطء بالتقدم على  
منديل الشيخ وابنت  
من باطن من الاحترام  
ما أرجو بركته . قال  
ابن عطاء في قوله تعالى  
- لا ترفعوا أصواتكم -  
زجر عن الأدنى لئلا  
يتخطى أحد إلى ما فوقه  
من ترك الحرمة وقال  
سهل في ذلك لا غاطبوه  
إلا مستفهمين . وقال  
أبو بكر بن طاهر  
لا تبدءوه بالخطاب ولا  
تجيئوه إلا على حدود  
الحرمة ولا تجهروا له  
بالقول كجهر بعضكم  
لبعض أى لا تخطبوا له  
في الخطاب ولا تنادوه  
بأصحه يا محمد يا أحمد كما  
ينادي بعضكم بعضاً  
ولكن غصوه



في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك محتاج إلى مجلدات ثم لانفي إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادى الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدوا كثير من شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى من ذلك تنقض الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتقام تلك الحكمة وبلغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باقية وهو أن فعل العبد النقص إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يرضعها هو أيضا من فعل الله تعالى فإين الصدق في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغازيتها فيهما من عرف منطق الطير ويحدها من محجز عن الإيضاح في السير فضلا عن أن يحول في جو الملكوت جولان الطير فنقول : إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنهه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لمعناها وانحطاط رتبة واضع اللغات عن أن يتدبر طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الحفافيث عن نور الشمس لانهوض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الحفافيث فاضطر الدين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم للتناطين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصيص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي يومئذ منها أمرا مجعلا عند التناطين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايتها عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايتها عبارة الكراهة وقيل إنها مجعلا داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجعلا عند طالع الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيفاء حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقتت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاء في الأزل فعل انساق بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموا وقلوا له :  
يا أيها الله يا رسول الله  
ومن هذا القبيل  
يكون خطاب المريد  
مع الشيخ وإذا سكن  
الوقار القلب علم اللسان  
كيفية الخطاب . ولما  
كلفت النفوس بحجة  
الأولاد والأزواج  
وتعنت أهوية  
النفوس والطباع  
استخرجت من اللسان  
عبارات غريبة وهي  
تعنت وقتها صاعها  
كلف النفس وهواها  
فاذا امتلأ القلب حرمة  
ووقارا تعلم اللسان  
العبارة . وروى لما  
نزلت هذه الآية قد  
ثابت بن قيس في  
الطريق يبكي فمر به  
عاصم بن عدى فقال

بخلة الشاء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجلك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو الثنى على الجمال فهو الثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الشاء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب والسيئات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبمحت بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلف بالبصر أو هو أقرب قضاة محار للقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ولفظ القدر بإزاء التفصيل للتأدي إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجؤا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام اللع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتكم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تفسد نار فستل نورا على نور فأشرفت أقطار للكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه قبل لهم تأدبوا بأداب الله تعالى واسكتوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وازلوا إلى صحاء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقسبوا من بقايا أنواركم للشرقة من وراء حجابكم كما يقبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيجابه حياة عتملتها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المتردين في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب هكذا شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يبادولسكن إلى حد ما فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد بقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السبر عليها إلى السبر على ما هو مجال جواهر الخلق كنسبة المشى على الماء إلى المشى على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم فأما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للتي صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لشي على الهواء (٢) » فهذه

ما يبيحك يا ثابت قال هذه الآية آخوف أن تكون نزلت في - أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسد على الضبة بمسار فضربته بمسار حتى إذا خرجت عطفته وقال لأخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لشي على الهواء وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد الحواريون نبيهم قليل له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما اتهموا إلى البحر

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والفضب والشكر والكفران لا يليق بعلم العامة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والانس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قبل نزله روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ابضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف المباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والإرشاد ساقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب للطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول هذا فلي ولم يكون فعله دون فعله فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل فإن عدله تارة يتم بأمره ولا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير وفعله الذي رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال للعدالة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب واللكوت فذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب المشيد الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وترعق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل وزواياها في يد المشيد وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده ، وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشيد الذي الأمر إليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيجولون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محررون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بمحة أبطارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطق لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطق مقابض هي في أيدي الملائكة المراكين للسماوات وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قليل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص

إذا هو قد أقبل ينشئ على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة منى على الماء وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بحند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

آتي عاصم النبي وأخبره  
بخبره قال اذهب  
فادعه فجاء عاصم إلى  
الكان الذي فيه رآه  
فلم يجده فجاء إلى أهله  
فوجده في بيت الفرس  
فقال له إن رسول الله  
يدعوك فقال اكر  
الضبة فأتميا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : ما ييك  
يا ثابث فقال أنا صيت  
وأخاف أن تكون هذه  
الآية نزلت في فقال له  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أما ترضى أن  
نمشي سيدا ونقتل  
شهيدا وتدخل الجنة  
فقال قدر ضيقت يبشري  
الله تعالى ورسوله ولا  
أرفع صوتي أبدا على

الراسخين في العلم بعلوم لا تختم لها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمر بينهن - فقال لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجتموني وفي لفظ آخر لقلتم إنه كافر . ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم العامة ما ليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول : إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله اللائكة ولهم أيضاً ترتيب بومانهم إلاولة مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام وإنما علو درجته لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ويل درجته درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أخبار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتتم بهم حكمته وأعلام رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكل الله به الدين وختم به النبيين وليم العلماء القديين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيرهم يلمهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فانه أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون القديين أصحابو ادنيهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعا . واعلم أن السلطان بقوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكفرون ويغشون وما يصلح الله بهم أكثر فإن أحسنوا فاهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فاضلهم الوزر وعليكم الصبر (١) . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلاً إن لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم فيقطع في صغيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشب السود الطلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصيقصون .

( الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر )

وهو النعمة فلندكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وجماعها فيما يخص وبم كان إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فنقدم أموراً كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشغل بذكر الأحاد والله الموفق للصواب .

( بيان حقيقة النعمة وأقسامها )

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء تعرفون وتكفرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أمراء وقال حسن صحيح وللإبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو خاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبيد الله اصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثاً والإمارة الفاجرة خير من المهرج رواء الطيراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

رسول الله فأنزل الله تعالى - إن الذين يفتنون أصواتهم عند رسول الله - قال أنس كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان يوم الجمعة في حرب سيلمترأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار واتهمزت طائفة منهم فقال أفا لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت سالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم نبينا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتحمية السعادة الدنيوية التي لا تمنح على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويميز عليها إما بواسطة واحدة أو بواسطة فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية والأسباب المعينة والذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات [القسم الأول] أن الأمور كلها بالإضافة إلى ما تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعاً كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المال كذلك باتباع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المال كتمتع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمال هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحقيقاً وهو ضدهما والنافع في الحال للضرر في المال بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يئده نعمة إن كان جاهلاً وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سبق إليه والضرر في الحال النافع في المال نعمة عند ذوى الأبواب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأقسام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يئده نعمة ويتفكر المنة بمن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعو إليها فإن الأب لكامل عقله يلح العاقبة والأم لفرط حبها وقصورها تلاحظ الحال والصبي لجهله يتفكر منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويحذر الأب عدواً له ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن من معها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو والعاقل وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو [قسم ثانياً] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكفي ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفعه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه ورؤب إنسان يستضر بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصراً له شاكياً من ربه طالباً للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه [قسم ثالث] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لداته لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لداته ولغيره . فالأول ما يؤثر لداته لا لغيره ككلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انتضاء لها فانها لا تتطلب لتوصل بها إلى غاية أخرى متصودة وراءها بل تتطلب لداتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته كالدرهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحسب بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإقبال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكثرونها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها متصودة ومثال هؤلاء من يحب شخصاً فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولاً بتمديد الرسول ومراعاته وتفقدته وهو غاية الجهل والضلال . الثالث ما يقصد لداته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقتدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصدها أيضاً لداتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي أراد سلامة الرجل لأجله ف يريد أيضاً سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم  
وعليه درع فرأه  
رجل من الصحابة بعد  
موته في المنام فقال له  
اعلم أن فلان رجلاً من  
المسلمين نزع درعي  
فذهب بها وهو في  
ناحية من السكر  
وعنده فرس يستن  
في طيله وقد وضع على  
درعي برمة فانت خالده  
ابن الوليد فأخبره  
حقى يسترد درعي وانت  
أبا بكر خليفة رسول  
الله عليه السلام فقل  
له إن على ديننا حق  
يقضى على وفلان من  
عبيدي عتيق فأخبر  
الرجل خالدًا فوجد  
الدرع والفرس على  
ما وصفه فاسترد الدرع  
وأخبر خالد أبا بكر

من حيث إنها سلامة فلاذن يؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً وما يؤثر لذاته ولنعمه أيضاً فهو  
نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لنعمه كالتقديس فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما  
جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه  
أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده  
الذهب واللدن فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر  
والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة [قصة رابعة] اعلم أن الخبرات باعتبار آخر تنقسم  
إلى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجميل  
هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشروع أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من  
القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير كالعالم  
والحكمة فانهما ناهية وجيلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر كالجبل فانه ضار وقبيح  
ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه  
جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبهت منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات  
البدنية عن التعلم فينجاذه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك نقصان  
وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في  
عذاب دائم لا محالة . والضرب الثاني للقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب  
نافع ومؤلم كقطع الأصبع للتأكل والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع فيبيع كالحق فانه بالإضافة  
إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لاعتل له فانه لا ينهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن  
يجين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق  
فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قهراً ضروري للإيمان وحسن الخلق في الإيصال  
إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما وإلى مالا يكون ضرورياً  
كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفره فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قصة خامسة]  
اعلم أن النعمة يبر بها عن ككل لذية واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها  
أو مشاركته لنعمه ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع  
الحيوانات أما العقلية فكذلك العلم والحكمة إذ ليس يستلذهما السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن  
ولا الفرج وإنما يستلذهما القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجوداً وهي  
أشرفها أما قلها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم والحكمة لا يستلذهما إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة  
وما أكثر التسمين باسمهم والترصين برسومهم وأما شرفها فلائها لازمة لا تزول أبداً في الدنيا ولا  
في الآخرة ودائمة لا تمحل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقوع يفرغ منها فتستثقل والعلم والحكمة  
قط لا يتصور أن تمحل وتستثقل ومن قدر على الشريف الباقي أبداً الآباد إذا رضى بالتحسيس الثاني  
في أقرب الآمال فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج  
إلى أعوان وحفظه بخلاف المال إذ العلم يهرسك وأنت تهرس المال والعلم يزيد بالإشفاق والمال  
ينقص بالإشفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي  
السلطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً  
ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة  
ولذلك لم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سباه خيراً في مواضع وأما قصوراً أكثر الخلق

بشك الرؤيا فأجاز  
أبو بكر وصيته قال  
مالك بن أنس رضى  
الله عنهما لا أعلم وصية  
أجيزت بعد موت  
صاحبها إلا هذه فهذه  
كرامة ظهرت لثابت  
بحسن تقواه وأدبهم  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فليعتبر  
المريد الصادق ويعلم  
أن الشيخ عنده  
تذكرة من الله ورسوله  
وأن الذي يستعمله مع  
الشيخ عوض ما لو كان  
في زمن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم واعتمده  
مع رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فلما قام القوم  
بواجب الأدب أخبر  
الحق عن حالهم وأثنى  
عليهم فقال - أولئك

عن إدراك لذة العلم فلما لعدم الدوق فمن لم يذوق لم يعرف ولم يشفق إذ الشوق تبع الدوق وإمّا الفساد  
أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلالة العسل ويراه مرآة  
وإمّا أقصور فطنهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة  
العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذيدة ولا استطابته اللبن يدل  
على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن ذوق لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحس باطنه كالطفل وإما  
من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم  
مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لنذر من كان حيا - إشارة إلى من لم يحس  
حياة باطنه وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء  
ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة  
يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلفة الرياضة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسود والخر  
وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلفة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا  
وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادي ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة  
تشبث به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمغالبين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب  
اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين  
ولا يزال تسامها إلا بخروج استيلاء حب الرياضة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب  
الرياضة وأما ثمره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياضة لا يقوى على  
كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالسكينة حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال  
فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم أغلب لذة معرفة الله تعالى في الأحوال لا يقع معها الإحساس  
بلذة الرياضة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية  
فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على المدول عن العدل وعند هذا  
تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قاب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر  
فيه وقاب لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإيمانه لذته بالجاء والرياضة والمال وسائر الشهوات  
البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في  
بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه  
في بعض الأحوال تالذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد وأما الثاني  
فالدنيا طائفة به وأما الثالث والرابع فوجدان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك  
إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرة في الأعصار القريبة  
من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب  
الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما يجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة  
والملك عزيز والملوك لا يكثر فكم لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من  
دونهم فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة فإنها عبارة عن عالم الشهادة والآخر عبارة  
عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة  
والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك فإنك لا ترى  
نفسك وترى صورتك في المرآة أولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة  
فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم  
للتقوى - أى اختبر  
قلوبهم وأخلصها كما  
يمتحن الذهب بالنار  
فيخرج خالصه وكأن  
اللسان ترجان القلب  
وتهذب اللفظ لتأدب  
القلب فهذا ينبغي أن  
يكون السريد مع  
الشيخ . قال أبو عثمان  
الأدب عند الأكار  
وفي مجامعة السادات من  
الأولياء يباغ بصاحبه  
إلى الدرجات العلا  
والخير في الأولى والعقبى  
ألا ترى إلى قول الله  
تعالى - ولو أنهم صبروا  
حتى تخرج إليهم لكان  
خييرا لهم - ومما علمهم  
الله تعالى قوله سبحانه  
- إن الذين ينادونك  
من وراء الحجرات

ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة عاكس لعالم القيب والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصير به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا بأولى الأبصار - ومنهم من عجزت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة ومنتفتح إلى حيمه أبواب جهنم وهذا الحبس مخلو ناراً من شأنها أن تطلع على الأئمة إلا أن بينه وبين إدراك أئمة حجاباً فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم - أي في الدنيا - ثم لترونها عين اليقين - أي في الآخرة فإذا قد ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح ملك الدنيا .

### (قصة سادسة حاوية لمجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الغاية فاتها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء لهو سرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تعيش إلا تعيش الآخرة (١) » وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر وقال ذلك مرة في السرور من النفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع (٢) وقال رجل « اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة (٣) » وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب اللطيفة بالبدن من المال والأهل والعشرة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والمهادية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع اشتغال أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسوله وإلى علوم المعاملة ، وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى « أن لا تطغوا في الوزن وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الوزن » فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر قد أضر الميزان ومن انهماك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان وإعما العدل أن يغلو وزن تقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان فاذا في الفضائل الخاصة بالنفس القربة إلى الله تعالى أربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يستقلون -  
وكان هذا الحال من  
وفد بني تميم جاءوا إلى  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فنادوا يا محمد  
أخرج إلينا فان مدحنا  
زين وذننا شين قال  
فسمع رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فخرج  
إليهم وهو يقول « إنما  
ذلكم الله الذي ذمه  
شين ومدحه زين » في  
قصة طويلة وكانوا أتوا  
بشاعرهم وخطيبهم  
فخطبهم حسان بن ثابت  
وشيبان اللهاجري  
والأصابع بالخطبة وفي  
هذا تأدب للبريد في  
الدخول على الشيخ  
والإقدام عليه وتركه  
الاستعجال وصبره إلى  
أن يخرج الشيخ من

- (١) حديث قوله عند حفر الخندق لا تعيش إلا تعيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث قوله في حجة الوداع لا تعيش إلا تعيش الآخرة الشافعي ومرسلاً والحاكم متصلاً ومحمداً وتقدم في الحج (٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن



وهي أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تنبأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة لطيفة بالبدن وهي أربعة المال والأهل والجاه وكرم العشرة ولا يتنفع شيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأييده ، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للانسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري . وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشرة . فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح البالغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المال فالفقير في طلب العلم والحكالم وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم للمال الصالح للرجل الصالح <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال <sup>(٢)</sup> » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأوقات وفي تهية اللباس والسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تدفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاعة الخيرات . وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم فقال : ألهي فاني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الأمن فاني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فاني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الشباب فاني رأيت الهرم لا يعيش له ، وكان ما ذكره إشارة إلى نعم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافي في بدنه أمان في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها <sup>(٣)</sup> » وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له <sup>(٥)</sup> » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فهما أكثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه مالا وانفرد به لطلال شغلهم وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله للمال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا ومن طريقه رواه القضاة في مسند الشهاب هكذا مرسلًا (٣) حديث من أصبح معافي في بدنه أمان في سربه الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محسن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إلا عندنا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير صانع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح .

موضع خلوته . صحته  
أن الشيخ عبدالقادر  
رحمه الله كان إذا جاء  
إليه فقير زائر يغبر  
بالفقير فيخرج ويضع  
جانب الباب ويصافح  
الفقير ويسلم عليه ولا  
يجلس معه ويرجع  
إلى خلوته وإذا جاء  
أحد ممن ليس من  
زمرة الفقراء يخرج  
ويجلس معه فخطر  
لبعض الفقراء نوع  
إنكار لتركه الخروج  
إلى الفقير وخروجه  
لتسريح الفقير فاتهم  
ما خطر للفقير إلى  
الشيخ فقال الفقير  
رابطتنا معه رابطة  
قلبية وهو أهل وليس  
عنده أجنبية فكنتني  
معه بموافقة القلوب

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذي وظالم يشوش عليه عمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإعنا تدفع هذه الشواغل بالعز والجاء ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاء إلى ملك القلوب كالأ معنى للنفى الإملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاء وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزانهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بتابعهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى اقتصر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قليل وما خضراء الدمن ؟ قال الراثاء الحسنة في اللبث السوء » (٥) فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار التوسمين بالعلم والعمل . فان قلت لما معنى الفضائل البدنية . فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

وقنع بها عن ملاقة الظاهرة بهذا القدر وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فمضى لم يوف حقه من الظاهر استوحش خلق الريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ ، قبل لأبي منصور للنسري كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لاصحبه فالصحة مع الإخوان والأقران ومع الشايع الخدمة وينفى للمريد أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ بذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى اقتصر إلى الحرب والهجرة البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد الله بن الحارث بن العيص ولقمتهم ومحمه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوديت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه يبط بلال قال الترمذي معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال وللبخاري عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث والبراز وأبي يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أقتلوا رجلا أن يقول رب الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم وفي رواية الترمذي إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه والطلب بن أبي وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم وفي حديث ابن عباس ما بال أقوام يتذللون أصلي فوالله لأننا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم في النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى (١) ، وإنما يستحق من جلته أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الحبرات ، ولعمري الجمال قليل القناء ولكنه من الحبرات أيضا أما في الدنيا فلا يغني نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجليل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكانه من هذا الوجه جناح يبلغ كماله والجماء إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجليل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والتحرر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيأت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للأموه جيشا فرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فأستطاعه من الديوان وقال الروح إذا أشرفت على الظاهر فصباحة أو على الباطن فقصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «اطلبوا الخير عند صباح الوجوه» (٢) وقال عمر رضي الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات الصلحين فأحسنهم وجهها أولاهم بالأمامة ، وقال تعالى «مما تباركوا به ارتفاع بسطة في العلم والجسم» - ولنا نفي بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإمنا نفي به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقه الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه . فان قلت قد أدخلت المال والجماء والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجماء وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) وكذا العلماء قال تعالى - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - وقال صلى الله عليه وسلم : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فإمعن كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ والنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها إلا أن فيها فتنا وخاف ، فثال للمال مثال الحية التي فيها تريق نافع وسم نافع فان أصابها العزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن مهابط وطريق استخراج تريقها النافع كانت نعمة وإن أصابها السوادى القره في عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الفوص وطريق الاحتراز عن

ينكرها موسى واذا أخبره الخضر بسرهما يرجع موسى عن إنكاره لما ينكره المرید لقلعه علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فلتشيخ في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة . سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فأجابه الجنيد فمارضه في ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا إلى فاعزلون وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب ، وقيل من قال لأستاذ لا ، لا يفلح أبدا . أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح (٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو موسى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ذم المال والجماء الترمذى من حديث كعب بن مالك ماذنابان جامان أرسلنا في غم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه وقد تقدم في ذم المال والبخل .

مهلكات البحر قد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك قد هلك فذلك مدح الله تعالى للمال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم المون على تقوى الله تعالى للمال » وكذلك مدح الجاه والعمى إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وجهه في قلوب الخلق وهو للمنى بالجاه ولكن للنقول في مدحها قليل وللنقول في ذم للمال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية للمال وطريق النوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم للمال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانوا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن يضاف إلى النبوة لذلك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولأن يضاف إليها النفى كما كان لسليمان عليه السلام فالتناس كلهم مديان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون فقد يضر الصبي ما لا يضر للعزم ، نعم للعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية تعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لا تقي به ولده وأخذ الحية إذا رآها يلعب بها فبذلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالحرب ويصح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سماً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يبعثه أصلاً بما فيها من تقع الترياق فإن ذلك ربما يضره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك القوامس إذا علم أنه لو غاص في البحر يرى من ولده لا تبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فإن كان لا يتزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بحجزكم <sup>(٢)</sup> » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهالك فانهم لم يعثوا إلا لذلك وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يسكوه بل أشقوه فإن الاتفاق في الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما ألوا إلى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قبحت الأموال والمنى به فتبيع إمساكها والحرس عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولقد أنها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يعمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يعمله . فاما إذا صمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الرزاق على الرقاه فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب <sup>(٣)</sup> » معناه لأفكم خاصة

قال أنا أبو الفتح  
المجروى قال أنا أبو نصر  
الترياقى قال أنا أبو محمد  
الجراحي قال أنا  
أبو العباس المحبوبي قال  
أنا أبو عيسى الترمذى  
قال حدثنا هناد عن  
أبي معاوية عن  
الأعمش عن أبي صالح  
عن أبي هريرة قال :  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « أتركونى  
ماتركتكم وإذا  
حدثكم غفوا عنى  
فإنما هلك من كان  
قبلكم بكثرة سؤالهم  
واختلافهم على أنبيائهم »  
قال الجنيد رحمه الله  
رأيت مع أبي حفص  
النيسابورى إنسانا  
كثير الصمت لا يتكلم  
فقلت لأصحابه من هذا

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم  
(٢) حديث إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بحجزكم متفق عليه من حديث  
أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب  
والفرائش يقعن فيه فأتا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم  
عن النار وأنتم تخلصون من يدي (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه

ولا قد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويغرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة \* ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مه بأن يطعم للسكين ويكسو العارى ويغرى الضيف <sup>(١)</sup> الحديث . فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها وتقمها بضرها فمن وثق بصبرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا دامها ومستخرجا دواها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تصد بالسلامة شيئا في حق هؤلاء . وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهذه لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة المبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل يخصص بمن ماله إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بلحاجه إلى التوفيق وقدك قيل :

إذا لم يكن عون من الله لفتى فأكثر ما ينجى عليه اجتاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدره والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم \* ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا <sup>(٢)</sup> . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناه النجدين - وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالقل وببعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وأما عود فهديناهم فاستجبوا للعمى على الهدى - فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تمنى القلوب وإن كانت لا تمنى الأبصار قال تعالى - فانها لا تمنى الأبصار ولكن تمنى القلوب التي في الصدور - ومن جملة المعينات الإلث والعادة وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلفظ وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب (١) حديث استأذنه عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مه أن يطعم المسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خالده بن أبي مالك ضعيف جدا (٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبي هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة وانخرده بمسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لي هذا إنسان يصحب أبا حفص ويغمدنا وقد اتفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامي صحبت أبا علي السندی فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يلحن التوحيد والحقائق صرفا . وقال أبو عثمان صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردني وقال لا تجلس عندي فلم اجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهري إليه فانصرفت أمشي إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت

- إنا وجدنا آباءنا على أمة - الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقوله تعالى - أبعثنا منا واحدا نتبعه - فهذه المعينات هي التي منحت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يعد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وهو المراد بقوله تعالى - والذين اهتدوا زادهم هدى - والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فينتدى بها إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وماعداء حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى - قل إن هدى الله فهو الهدى - وهو للسمى حياة في قوله تعالى - أو من كان ميتا فأحييناه وجلنا له نورا يغشى به في الناس - والعنى بقوله تعالى - أفمن نرحم الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وأما الرشد فعنى به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتقه عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى - ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين - فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خيرا يحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ولكنه مع ذلك يندروا لا يريد الاستثناء لا يسمى رشيدا لالعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكمن شخص يقدم على ما يظن أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فإن الهداية بمجرد ما لا تكفي بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأيد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل - إذا يدتك روح القدس - وتقرّب منه الصمة وهي عبارة عن وجود الهوى يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كانع من باطنه غير محسوس وإياه عني بقوله تعالى - ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - فهذه هي مجامع النعم وإن تثبت إلا بما يغوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسبح الواعي والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفاه وظلم الأعداء ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل التحيرين وملجأ للضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلقد ذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وبالله التوفيق .

عنه واعتقدت أن أحسن لنفسى براء على بابه وأزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه فلما رأى ذلك منى قربى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن المرید لا يسطع سجدته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فإن المرید من شأنه التبذل للخدمة في السجادة إيماء إلى الاستراحة والتمزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المسريد عن الاسترسال في السماع وتحمده واستغراقه في

( بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء )

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجلنا محبة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة للتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلقد ذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو ألتها ولا بد لها من قدرة على

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكل ولا بد  
للمأكل من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فان ذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الإرادات  
ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكل على سبيل التلويح لاعلى سبيل الاستقصاء .

( الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك )

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي  
لا تنمى ولا تندى فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في  
الأرض وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم  
تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا  
أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويمس أصله جف وليس ولم يمكنه  
طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة الطلوب وبالاتقال إلى النباتات عاجز عن  
ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى  
ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خافت  
لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به قهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا  
يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن  
يحس بما لا يلاصقه ويمامه فإن الاحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل  
حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع  
فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لولم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالسودة لا تقدر على  
طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما لمس بدك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى  
حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم لأنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية  
فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه ووربما لم تعرف فتكون  
في غاية نقصان لولم يخلق لك إلا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك  
الجهة بينها إلا أنه لولم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر  
غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره  
وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من  
وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا أو ما الغائب فلا يمكنك  
معرفة الإبكلام بتنظيم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك  
وميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يفنيك لولم يكن لك حسي الذوق إذ يصل الغذاء  
إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله قهرك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها  
فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لولم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر  
يسمى حسا مشتركا تأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولا لاطال الأمر عليك فانك إذا  
أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرعا لقال لك قركته فاذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مضر مالم تذقه  
ثانيا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك الرائحة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك الرائحة  
ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والرائحة جميعا حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه  
مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشارك فيه الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك  
إلا هذا لكنت ناقصا فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه  
ومطالعة موارد فضل  
الحق عليه أنجع لمن  
الإصغاء إلى السماع ومن  
الأدب أن لا يكتفى على  
الشيخ شيئا من حاله  
ومواهب الحق عنده  
وما يظهر له من كرامة  
وإجابة وينكشف  
للشيخ من حاله ما يعلم  
الله تعالى منه وما  
يستحي من كشفه  
يذكره إماما وتريضا  
فإن الرب يدعى انطوى  
ضميره على شيء  
لا يكشفه للشيخ  
تصريحا أو تعريضا  
يصير على باطنه منه  
عقدة في الطريق  
وبالقول مع الشيخ  
تحل العقدة وتزول  
ومن الأدب أن

تتخلص إذا قيدت وقد تلقى نفسها في بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البيعة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال تضرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا فيرك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرّة الأطعمة ومنفعتيها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عاقله وعند ذلك تنقلب قائمة الحواس الخمس في حقل فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتضون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي غنومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم إليها آت إليه غنومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام محمية لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تمن له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ولا تظن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركب العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يابض البيض وبعضها كأنه الجلد ولكل واحدة من هذه الطبقات عشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جوزه صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

( الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات )

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به النداء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إلى الشهوة لتستحك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناولها فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونقرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكّلها بك كالمقاضي الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتنتدّي فتبقى بالنداء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها لا كالزراع فإنه لا يزال يجذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غداه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند الريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان الريد كلما اتقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمجبة والتألف هو الوساطة بين الريد والشيخ وعلى قدر قوة المجبة تكون سراية الحال لأن المجبة علامة التعارف والتعارف علامة الجندية والجندية جالبة للريد حال الشيخ أو بعض حاله



دم الحيض وتأليف الجنين من النقيض والحيض وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الله كور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقه ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظاهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأنيك الهللكات من الجوانب فلم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك لبقية عرضة للافات ولا تخدمك كل ما حصلت من الغذاء فان كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا بدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا تسكن في هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يفيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم كما ما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد صمينا هذه الارادة باعثة دينيا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

### ( الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة )

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك والارادة لا معنى لها إلا الليل إلى الطلب والمهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقده رجله أولا يمكنه أن يتناول له لفقده يده أو لقلج وخدر فيها فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والمهرب كالرجل للانسان والجنح للطير والتوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجنح لطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ماله رجلان ومنها ما يذب وذو ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تسكني ما لم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأتم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومتمثلتان على مفاصل كثيرة لتحرك في الجهات فتمتد وتنتهي إليك فلا تكون كمشية منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفيين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضائنا بسطها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفار وأسند إليها دوس الأصابع حتى لا تنفدت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحبها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارها ثم هب أنك أخذت الطعام باليد فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة  
أبو الفتح محمد بن  
سليمان قال أنا أبو الفضل  
حميد قال أنا الحافظ  
أبو نعيم قال ثنا سليمان  
ابن أحمد قال ثنا أنس  
ابن أسلم قال ثنا عتبة  
ابن رزين عن أبي  
أمامة الباهلي عن  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال « من علم  
عبدا آية من كتاب  
الله فهو مولاه ينبغي  
له أن لا يغذله ولا  
يستأثر عليه فمن فعل  
ذلك فقد فسم عروة  
من عر الإسلام » ومن  
الأدب أن يراعى  
خطرات الشيخ في  
جزئيات الأمور  
وكلياتها ولا يستحقر  
كراهة الشيخ ليعبر

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل القم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في القم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى جادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل مفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرمح ولولا ذلك لما تيسر لأضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الأسفل متحركا حركة دورية واللحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعرسلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء القم فكيف يتحرك الطعام إلى ما عت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل القم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب القم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرحي هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وهجائب قوة النطق والحكم التي لسانا نطلب بدكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنه وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الخلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينحج به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الخنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام الطحون للتمجن من يوصله إلى المعدة وهو في القم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا بدق في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى للرء والخنجرة وجعل على رأسها طبقات تتفتح لأخذ الطعام ثم تطبق وتتضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهبوى إلى المعدة في دهليز الرء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى للمعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتخلق عليه الأبواب فلا يزال لا يثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام التراب ومن خلف لحم الصلب فتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه وورقه وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصفه بلون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحداها شبيهة بالدردي والعكر وهو الخاط السوادوي والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى الحرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخلا في تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله للقرني ونحن شبان ويسافر بنا في البراري والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتسير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب للرشد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية وأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك للفظ ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نجا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق النقيقة شعرية كمروق الأوراق والأشجار بحيث لا تترك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الحائط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالهبق والجذام واللبايخوليا وغيرها وإن لم تدفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب النافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزقة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بجموضته وينبها ويشيرها ويخرج الباقي مع الثفل وأما الكلى فإنها تقتدي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولود كونا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواري من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وغدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل والأمور أخر سواء بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو غرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ثم لا تعرف منها إلا أنك نجوع فنأكل والحار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط قس على الاجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أول من قطرة من بحر إلى أن من علم شيئا من هذا أدرك حجة من معاني قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وادراكها وقواها بخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواري فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن

فإن كان واقعة للريد من الله تعالى يوافقه الشيخ وبعضها له وما كان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبه نزول شبه الواقعة بطريق الشيخ ويكتب للريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالريد لعله في واقعة بخامره يكون إرادة في النفس فيشتبك ككون الإرادة بالواقعة مناما كان ذلك أويقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم للريد باستئصال شأفة الكامن في النفس وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كونه إرادة النفس مفقود في حق الشيخ فإن

إلا وحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سبباً له بمحكمة وهذا البخار الطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح وحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالسرجة والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتية والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في حلة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زينه انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ\* مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتية قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ\* السراج مع كثرة الزيت فسذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بمرط حرارة القلب فينطفئ\* مع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ\* بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ\* بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو التفتل وكما أن انطفاء السراج بقاء الزيت أو فساده الفتية أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقت أنوارها التي كان يستفيد منها من الروح هي أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضاً من وجوب عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومحجائب صنعته وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربك لند البحر قبل أن تنفد كلمات ربك - عز وجل - فصفاً لمن كفر بالله تصفاً وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً. فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «مثل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي - (١)» فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لان طول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جعلها جماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يما لجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها وما لجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تحجب فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتنزّل في ذكر مبادئ وصفها معاقدة العقول القيدة بالجواهر والارض المحبوسة في منسقيها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية فنسبه إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وتد خالق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك العقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقولات ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

كان من الحق يتبرهن  
بطريق الشيخ وإن  
كان ينزع واقته إلى  
كمون هوى النفس  
تزلزل وتبرأ ساحة  
للريد وتعمل الشيخ  
تقل ذلك لقوة حاله  
وصحة إيمانه إلى جناب  
الحق وكما معرفته  
ومن الأدب مع الشيخ  
أن الريد إذا كان له  
كلام مع الشيخ في شيء  
من أمر دينه أو أمر  
دنياه لا يستعجل  
بالإقدام على مكالمته  
الشيخ والمهجوم عليه  
حتى يتبين له من حال  
الشيخ أنه مستعد له  
ولساع كلامه وقوله  
متفرغ فكما أن للغذاء  
أوقاتاً وأدباً وشروطاً  
لأنه مخاطبة الله تعالى

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

وإنه لقام شريف ومشرب عذب وربة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لسلك وارد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولبواب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وطى أول اللبدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل اللبدان فكيف بالاتباء إلى ماوراءه من للشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربها وآتى بصاف هذا في خزنة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل للنبي للسمي روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان لللك بالإضافة إلى لللك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان لللك فظن أنه رأى لللك ولا يشك في أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أخش منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبتهم وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبتهم ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى - يأيتها النفس اللطمة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلنى جنتى - ولترجع الآن إلى النرض فان القصور ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

(الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة)

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمى بعد ذلك جنته )

اعلم أن الأطعمة كثيرة والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لأخصى وأسباب موابلة لا تنتهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلنأخذ الأغذية فانها الأصل ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ولنضع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات قلا أو كلفتها ففيت وبيت جائها فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنبت تمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما ينتدى به كما خلق فيك فان النبات إنما يشارك في الحس والحركة ولا يغالطك في الاعتناء لأنه ينتدى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تنتدى أنت وتجذب ولنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشر إلى غذائه . فنقول : كما أن الحطب والتراب لا يذيقك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تختدى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لتغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فليتنظر الانسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبثنا فيها حبا وعبا وفضا وزيونا ونخللا - ثم لا يكفى للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة مترا كسمة لم تنبت لقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتخلل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهجر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإنما إلحاقها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يفيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الريح والصيف قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج للماء لينساق

فلقول مع الشيخ أيضا  
آداب وشروط لأنهم  
معاملة الله تعالى ويسأل  
الله تعالى قبل الكلام  
مع الشيخ التوفيق  
لما يجب من الأدب  
وقد نبه الحق سبحانه  
وتعالى على ذلك فبأمر  
به أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في  
مخاطبته قال - يا أيها  
الذين آمنوا إذا ناجيتكم  
الرسول قدموا بين  
يدي نجواكم صدقة -  
يعنى أمام مناجاتكم  
قال عبد الله بن عباس  
سأل الناس رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فأكثروا حتى شقوا  
عليه وأخفوه بالمسنة  
فأدبهم الله تعالى  
وفطمهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار والبحار والعيون وأنجز منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والياه لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى العيون وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تعال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدارا على الأرض في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع وللواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فأنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخّر الشمس وكيف خلقها مع جدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في القواكه انقصاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته التلطيب كما جعل من خاصة الشمس التسخين فهو ينضج القواكه ويصفيها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتطلب على رأسك الرطوبة التي يصر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب القواكه أيضا ولا تطول فيها لا مطمع في استقصائه بل تقول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يغلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تنفي قوة البشر بإحصائها ولولم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عبادين - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا لا فائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة يخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل النهي عنه في النجوم أمران : أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق وإن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ولذلك إذا كان ملك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوائثه حمى

وأمرهم أن لا يتاجوه حتى يقدموا صدقة وقبل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك اتهموا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلاهم لم يجدوا شيئا وأسأهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الرخصة وقال تعالى - آسفتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد والاطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتى الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تمييز وجه الانسان قال قرعتي الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبضه لبعض الناس كحصول الزكام بسروق القمر فاذا ان الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا نحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه قتنا عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته <sup>(١)</sup> ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن تقع منه بعمرة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته لله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه جباله فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه وتصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنعه بواسطة قلوب عباده فإن تصببت من تصنيف فلا تصيب من المصنف بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسيده وتعميقه كما إذا رأيت لعب للشعوز ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تصجب من القلب فاتها خرق بحركة لا متحركة ولكن تصجب من حذق الشعوز المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذا ان للتصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها ولا تتم حركاتها إلا بعلائقها سواءية يحركونها وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بيعة تركنا ذكرها تبيينها بما ذكرناه على ما هملناه ولتقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

### ( الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب للوصول للأطعمة إليك )

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعدهم عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى البحار وسلط عليهم حرم حب الدال وشهوة الرعب مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن خرق بها السفن أوتنبتها قطاع الطريق أو عوتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذوها ورتبهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجبل والقفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الرعب ويركبوا الأخطار ويغرروا بالآرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه قتنا عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي ترك تأملها التلبي من حديث ابن عباس بلقظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناد يعنى بن أبي حبة ضعيف .

لم ينج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب قدم دينار اقتصد في به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبل ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ما ترى في الصدقة كم تكون دينار قال على لا يطيقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لرهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية وما به الحق عليه بالأمر بالصدق وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن قد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز .

### ( الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة )

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يضم ويؤكل وهو كذلك بل لابد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلتعين رغيفا واحدا ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بد إلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التمهد بسقي الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم القربك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصانع في إصلاح آلات الحراث والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرها وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرماس والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والعادن وكيف جعل الأرض قطعة متجاورات مختلفة ، فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدى من الملك الذي يرعى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة لللائكة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الانسان ، فإذا استدار طلبة قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الانسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تسكل صورتها من حديد تصليح الآلة لا يبد أن تمر على يد الأبرى خمساً وعشرين مرة ويتماطى في كل مرة منها عملا ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتضت إلى عمل للنجل الذي تعهد به البرملا بعد نبائه لفقد عمره ومهجرت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نقطة قنرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى القراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا واقتصرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل للقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أخس العمال أو عن الخائف أو عن واحد من جملة الصنائع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى تهذب به مشيته وتمت به حكته . ولنو جز القول في هذه الطبقة أيضا فان القرض التنبه على النعم دون الاستقصاء .

### ( الطرف السابع : في إصلاح الصالحين )

اعلم أن هؤلاء الصالحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتافرت طبائعهم تافرت طبائع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألهم الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمهبة عليهم لو أخفت ما في الأرض جميعا

مانسح ، والقائدة  
باقية . أخبرنا الشيخ  
الثقة أبو الفتح محمد  
ابن سلمان قال أنا  
أبو الفضل أحمد قال  
أنا الحافظ أبو نعيم  
قال حدثنا سليمان  
ابن أحمد قال حدثنا  
مطلب بن شعيب قال  
حدثنا عبد الله بن صالح  
قال ثنا ابن لهيعة  
عن أبي قبيل عن  
عبادة بن الصامت قال  
سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
يقول وليس منا من  
لم يعمل كبيرنا ويرحم  
صغيرنا ويعرف لعالمنا  
حقه فاحترام العلماء  
توفيق وهداية وإمهال  
ذلك خذلان وعقوق .



ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وابتدوا المدن والبلاد وربوا الساكن والدور متقاربة متجاورة وربوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتراحون عليها ويتنافسون فيها في جبلته الإنسان النيط والحسد وللنافسة وذلك مما يؤدي إلى القتال والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والمدة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى ربوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض فربوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزمهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالصاب والحجاز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحو السلاطين المصلحين للرعايا وعرفهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتموا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء باللائكة وكيف أصلح اللائكة بعضهم بعضا إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخازن يخبر الصجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والتجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة والسلطان يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين واللائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - لما اهتمبنا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطعم بعين الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عز لنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تسكمتا فبأنه انبسطنا وإن سكنتا فقهره انقبضنا ، إذ لا مغطي لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بنعم القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

( الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق اللائكة عليهم السلام )

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق اللائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهذا يتم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات اللائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: اللائكة الأرضية والسماوية وحملتهم العرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والنفاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يشتد إلا بأن يوكل بمسئلة من اللائكة هو أفعاله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويأمنه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ذلك الغذاء يصير دما في آخر الأمر ثم يصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاء ذلك اللحم والدم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطولها كما أن البر بنفسه لا يصير طعينا ثم يحينا ثم خبزا مستديرا عجوزا إلا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما

[ الباب الثاني والحمدون  
في آداب الشيخ وما  
يستمده مع الأصحاب  
والتلامذة ]

أم الآداب : أن  
لا يتعرض الصادق  
للتقدم على قوم ولا  
يتعرض لاستجلاب  
بواطنهم بل يطفئ الرفق  
وحسن الكلام بحجة  
للاستتباع فإذا رأى  
أن الله تعالى يمشي  
إليه للبردين  
والسترشرين بعين  
الظن وصدق الإرادة  
يعذر أن يكون ذلك  
ابتلاء وامتحانا من  
الله تعالى والنفوس  
عجولة على حجة إقبال  
الخلق والشهرة وفي  
الحجون السلامة ذالبلغ  
الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصاع والصناع في الباطن هم الثلاثكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يرعى التقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالمرضي مالا يزيل عرضه وبالجوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على غذاء لكبر أنه يبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحديقة مع صفائها وإلى الأغاذا مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في التسمية والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا لبعيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمرعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الثلاثكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الثلاثكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك التي لا يتجزأ حتى يفتر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفضيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مددوم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيم القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعرزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريد فيكملهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه راجع الله تعالى في معناه ويكثر الاجابة إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا بالنجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تكلم أحدا من الفقراء إلا في أمشي

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى آتى السماء الثانية فقال لحازنها افتح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغون عن أممي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فتاداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت نبت إلا وتحتة ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بكر البكرادى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاما ضيفا ولطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة يزولون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس ولترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديا بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل فلاة من الأرض مع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتتحي ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة الحديث.

الأفضل إلى ملك واحد ولم أفتر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولاهم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يسجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفا ناعريضة سادسا ، ثم إلى من يصبها بالنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فملا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ٢ . فاعلم أن خلق الملائكة تخالف خلقه الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحده في الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم الأفضل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما لنا إلا له مقام معلوم - فذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثلهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحم الالهام بآثاره انزاعا الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا قزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك قزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والحزب فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحده في الصفة فلم يكن وحده في الفعل ولذلك نرى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للعصية في حقهم فلا جرم لا يصون الله مأمورهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكم منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لاختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جازمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعته مرة ومعصيته أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفذ وينطبق متصلا بإشارتك فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه إذا الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتعا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم وبجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه - فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة وإضار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غش البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حق للملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به ارتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذا البياض يفرق الضوء والسواد يحمله ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهموم من الدبيب إلى باطن العين ومتشبها للأفداء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لبن أصلها ومع اللين توام نصها وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يضر فيجمع الأجفان مقدار ما تشباك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدة غبار قد خلق

أوقاتك ، وهذه وصية نافعة لأن الكحة تقع في سمع الرشد الصادق كالجبة تقع في الأرض وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فخذ الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند الصدق فيكون ناظرا إلى الله مصغيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انفصلت الحدقة من التيار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجفان والقياب لما لم يكن لحدقة جفن خلق له يدين قراه على الدوام يسح بهما حدقيه ليصقلهما من التيار وإذا تركا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا تقتاراه إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأفله كتاباً مصادفياً إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم قد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان ولا تقوم الأجفان إلا بالعين ولا العين إلا بالرأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالذئذ ولا الذئذ إلا بالباء والأرض والهواء وللطرو والنجم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا باللائكة فان الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فان كل كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا أوليته وذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلغهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم <sup>(١)</sup> وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر <sup>(٢)</sup> وأن اللائكة يلغون الصلاة <sup>(٣)</sup> في ألقاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بظرفه واحدة جن على جميع مافي للملك ولللكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيقبل العن بالاستغفار فسي الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال للكان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علواً رتبة وعندي آني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والباقع تحميم والآثار تبكي عليهم ، وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين إذا نبسطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وباتقابه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدت متنفسه لاحترق قلبه باققطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فمليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهي كيف أشكرك ولك في كل شجرة من جسدي نعمتان أن ليفت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه وشربه قد قتل عليه وحضر عذابه وجميع ماذكرناه يرجع إلى اللطم والشرب فاغترب ماسوا من النعم به فان البصير لا تضيع عنه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير مطعم .

### ( بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر )

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجبل والغفة فانهم شعروا بالجبل والغفة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المرتبتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلغهم أو تستغفر لهم لم أجده أصل (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر تقدم في العلم (٣) حديث إن اللائكة يلغون الصلاة من حديث أبي هريرة اللائكة تلغن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديثه وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

الشيخ أن يعتبر حال الريدن ويفرس فيه بنور الإيعان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحته واستعداده فمن الريدن من يصلح لتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ومن الريدن من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلك طريق القربين المرادين بحاملة القلوب والعمالات السنية ولكل من الأبرار والمقرين مبادونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والعجب أن الصغراوي

واستلاء الشيطان . أما النعمة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس يجملهم لا يجدون ما بهم الخلق وسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فذلك لا يشكرون على جبة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق بمنولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يمد نعمة ولا ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختلفهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء قتل برطوبة اللاء ما أتوا غمما فان ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجى ربحا قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجليل إذ صار شكرهم موقفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى الصبر يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه فتد ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعنده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة وعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فمده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل البعد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تفقد به مئة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطرا وترك الشكر صار الناس لا يشكرون إلا للسال الذي يتطرق الاختصاص إليهم من حيث السكرة والمنة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكوا بعضهم قمره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أقطع الدين والرجلين ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بمخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فصد عليه سورا ثم قال فمك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السكك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء فشربه فقال له عظمي قال لو لم تعط هذه الثرية إلا ينزل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم تعط إلا عليك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فهذه اثنين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو أضمن النظر في أحوال المرأى من الله نعمة أو نعمنا كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعرف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والهم أما العقل فما من عبده تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كثر أحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فإن أخذ الكثر من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده وبقى شكره لأنه في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبها ويكرهها وأخلاقيته ما يؤاخذ بها من حيث يرى قبه بريئا عنها فإذا لم يشتغل بلم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمورهم وخوايا أفكاره ما هو منفرده به ولو كشف النطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لا تضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد غم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجليل الذي أرسله على وجه مبالو به فأظهر الجليل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

بسم الأراضى والقروى  
ويعلم كل غرس وأرضه  
وكل صاحب صنعة يعلم  
منافع صنعة ومضارها  
حتى للراة تعلم قتلها  
وما يتأتى منه من الفزل  
ودقته وغلظه ولا يعلم  
التسبيح حال للريد  
وما يصلح له . وكان  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يكلم الناس  
على قدر عقولهم  
ويأمر كل شخص بما  
يصلح له فمنهم من كان  
يأمره بالاتفاق ومنهم من  
أمره بالإمساك ومنهم  
من أمره بالكسب  
ومنهم من قرره على  
ترك الكسب كأصحاب  
الصفة فكان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إماما مطلقا وإما في بعض الأمور فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمور أو سلب ذلك منه وأعطى ما خص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا مجادا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لأنني وصحبا لا مريضا وسليما لا معييا فإن كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال آدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به إلا أكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إماما للجملة وإما في أمر خاص فاذن الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد القبولين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى ديناه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارنها بتدبر إليها بأن في الساق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا (١) » فاذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد الله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيما يسطيل به في دينه ثم في دينه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله (٢) » وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه (٣) » وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله (٤) » وقال عليه السلام « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن (٥) » وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى (٦) » وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب المزملة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه الشئ بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الغناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا وهو أشبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه ووطن أن أحدا أو أني أفضل مما أو أني قد صغر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحته وورود من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبراني من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه وقد تقدم.

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يجمع الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحججة وإيضاح الحججة يدعو على الإطلاق ولا يخص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخاطبة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فإن رسول الله

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أعمت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتبك هكذا الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق البارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالصاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال « من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها <sup>(١)</sup> » ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به ووصولهم إلى النعيم القيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علك بل عن عشر عشر علك لم يأخذ. وذلك لرجائه أن نعمة العلم تنفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذ لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا نصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لاكدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بنعمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذا ما خلقت لذات الدنيا لا لتجلب بها العقول النافذة وتخدع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشاب الشبق الفنى حتى إذا انخدعت وتقيدت بقلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تمب قائم وعناء دائم وكل ذلك باعتراره بللدة النظر إليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن يقول إن العرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن القبل عليها أياضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم العرض يفضى إلى لذة في الآخرة وتألم القبل يفضى إلى الألم في الآخرة فليقرأ للعرض عن الدنيا طي نفسه قوله تعالى - ولا تهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون - فإذا نمت بطريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة . فإن قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيآرمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لاتعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاد مع ما في قبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار للرضى والمقابر وللواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار الرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بيلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجنة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويمذبون بأنواع العذب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى اللوتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فإن يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات لما أعظم غننى إذ ضيعت بعض الأوقات في الباحات، وأما العاصي فغيبه ظاهرا فذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يغلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطف ذلك أو كنف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترمل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناة للباطلين باقمة تؤكل عنده ويرفق بوجود منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا يقية سلوك طريق للتقنين فافتن وأقن وبقي في خطة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف به في العمر إلى ما ينشئ أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك مغفرة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الإسهال في كل نفس من الأتقاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب العاقلة لتشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكروا وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلّا في عنقه ويأتي في لحده ثم يقول رب ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً ثم يقوم ويقول يا رب قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملزمة الشكر على النعم قبل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدها بالشكر وفي الخبر : ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه <sup>(١)</sup> فمن تهان بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر ( بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد )

لعلك تقول ماذا ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فاعني الصبر إذن وإن كان البلاء موجوداً فاعني الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان وما معنى ماذا كرهوه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بآيات النعمة يوجب القول بآيات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالتزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يصيب عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويغسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى وإمامة وإمابة وأما في الدنيا فالكفر والعصية وسوء الخلق وهي التي تنفض إلى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وصائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا العصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا يصبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك العصية بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الساء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فإن النفي مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجاج الأعور .

دائرة القصور لما يستغنى الشيخ عن الاستعداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقلبه وقلبه فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع وفي كل حركة بين يدي الله خضوع وإعجاب دخلت الفتنة على الثغور بين الدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسر من اللوثة وقلة تأديبهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوس معكم ما جلست عندكم فإذا رأي الفضل في الخلوة غلوا



والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدينية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحصى عبده للؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضرارها إذن نهما في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قدحها نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو عرف الستر واطلع عليه لطال ألمه وجقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال الحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتة ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لامحالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض الكبار فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق التائب بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من العصية كقطعه يد نفسه ووضعه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لاني حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتممون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبدولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على البتلى أو على غير البتلى فاذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قامت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد ينعم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها وبشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو مضى الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويجزها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتي

(١) حديث إن الله ليحصى عبده الدنيا الحديث الترمذى وحسنه الحاكم وصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في  
الجلوة يجلس مع  
الأصحاب فتكون جلوته  
في حماية خلوته وجلوته  
مزيدا لخلوته وفي هذا  
سر وذلك أن الأذى  
ذو تركيب مختلف فيه  
تضاد وتغابر على  
ما أسلفنا من كونه  
متريدا بين السفلى  
والعلوى ولما فيه من  
التغابر له حظ من  
الفتور عن الصبر  
على صرف الحق ولهذا  
كان لكل عامل  
فترة والفترة قد تكون  
تارة في صورة العمل  
وتارة في عدم الروح في  
العمل وإن لم تكن في  
صورة العمل ففي وقت  
الفترة للمريد بن  
والسالكين تضييع

وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني وإذا لم يكن أعظم منه وإذا لم أحرم الرضا به وإذا أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال له اشكر الله فضربه فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال اشكر الله فجاءه بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا قعيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسى فأرسل إليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله فقال إلى متى هذا وأنى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذن مامن إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أذبه ظاهره أو باطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فليل له ماهذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فالاقصر على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال أنتم تستبطنون المطر وأنا أستبطن الحجر . فأن قالت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت مصيبتهم على مصيبتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خفي له ما هو أكثر وإعسا أهمل حتى يستكبر عن الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى - إنما نعلم لهم ليزدادوا إثما - وأما المعاصى فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله - وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم - فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم اعلم قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجبت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى إذ أسباب التسلى مقطوعة بالسكينة في الآخرة عن المعذبين ومن عجبت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب فأصابه شدة أو بلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا (١) » الرابع أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لابد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكرى نعمة في حق المريض ويكون النفع من أسباب اللب نعمة في حق الصبي فإنه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان يخسر جميع عمره فكذلك السال والأهل والأقارب

(١) حديث إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فإله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له الحديث.

واستراح لنفسه وركون إلى البطالة فمن بلغ رتبة الشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأفلق الخلق بحسم فترته وما ضاع قسم فترته كضبايعه في حق الريدن فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله والشيخ يكتب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرقة أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من فترته فيعود من الخلق إلى الخلوة منزع الفتور بقلب متعش وافر النور وروح متخلصة عن

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالملحمة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فإمن شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رآوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذة وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بصاحبه أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك (١)» «ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضرراء رضى وكان خيرا له (٢)» الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجاني بالقلب عن دار الغرور ومواناة النعم على وفق الراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب اتزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سببا عليه وكانت نجاة منها غاية اللذة كالتخلص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزن إلى الخروج منها والسكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الموحّد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجابة بمن يتولى حجاتك مجانا أو بعتك دواء نافعا بشما مجانا فانك تألم وتفرح فصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأُنس بمنزل لا يمكنه التماقم فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة. وحكي أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بن زيادة في أوله وفي إسناده ابن لهيعة (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحك عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له ولقناني في اليوم واليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد به وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار  
قائمة بمحنة شغلها إلى  
دار القرار. ومن  
وظيفة الشيخ حسن  
خلقه مع أهل الارادة  
والطلب والنزول من  
حقه فيما يجب من  
التبجيل والتعظيم  
للشايخ واستعماله  
التواضع. حكى الرقي  
قال كنت بمصر وكنا  
في المسجد جماعة من  
الفقراء جلوسا فدخل  
الزقاق فقام عند  
أسطوانة يركع فقلنا  
يفرغ الشيخ من  
صلاته وتقوم نسلم عليه  
فما فرغ جاء إلينا وسلم  
علينا فقلنا نحن كنا  
أولى بهذا من الشيخ  
فقال ما عذب الله

اصبر نكن بك صابرين فاما صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعدد والله خير منك للعباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تمرته. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصيبه» (١) وقال عليه السلام قال الله تعالى «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنثر له ديوانا. وقال عليه السلام «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فضل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كرمته جزاؤه الخلود في دارى والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال عليه السلام «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يلقها بعمل حتى يتلى يلاء في جسمه فيلقها بذلك» (٣) وعن خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه قلنا يا رسول الله ألا ندعو الله تستصره لنا فجلس عمرأ لونه ثم قال «إن من كان قلبكم يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض خربة ويحاج بالنشار فيوضع على رأسه فيجمل فرقتين ما يصرقه ذلك عن دينه» (٤) وعن علي كرم الله وجهه قال : أيعا رجل حبسه السلطان ظلما فبات فهو شهيد وإن ضربه فبات فهو شهيد . وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه: تولد دون الموت وتعمرون للخراب ونحرمون على ما نحن وتنفرون ما يبق الأحياء الكروهاة الثلاث الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا أو أراد أن يضيفه صب عليه البلاء صبا ونجحه عليه نجا فإذا دعاء قالت الملائكة صوت معروف وإن دعاء ثانيا قال يارب قال الله تعالى ليك عبيد وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أودعت عنك ما هو خير وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصيب منه البخارى من حديث أبي هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب للرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يلقها بعمل حتى يتلى يلاء في جسمه فيلقها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلى عن أبيه عن جده وليس في رواية القزوينى ورواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقى وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فأنه أعلم على هذا فإنه خالد بن اللجلاج العامرى ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي ياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقى من رواية إبراهيم السلى عن أبيه عن جده فأنه أعلم (٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث تقدم .

قلبي بهذا قطبى  
ما تقيدت بأن أحترم  
وأقصد . ومن آداب  
الشيخ التزول إلى  
حال الريدن من  
الرفق بهم وبسطهم .  
قال بعضهم : إذا رأيت  
الفقير الله بالرفق ولا  
تلقه بالعلم فإن الرفق  
بؤنه والعلم يوحشه  
فإذا ضل الشيخ  
هذا اتقى من الرفق  
يتدرج للريد بركة  
ذلك إلى الاستفاد  
بالعلم فيعامل حينئذ  
بصرح العلم . ومن  
آداب الشيخ  
التطف على الأصحاب  
وقضاء حقوقهم في  
الصحة والمرض ولا  
يترك حقوقهم اعتادا  
على إرادتهم وصدقهم

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاربين لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب . فذلك قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكنا في من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يارب العالمين المؤمن يطيعك ويحفظ ممالكك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحترى عليك وظل ممالكك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألت تعرض ألت يصيبك الأذى ألت تحزن فهذه مما تجزون به (٢) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيت الرجل يخطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما نسوا ما ذكروا به ففتحنا عليهم أبواب كل شيء - (٣) » يعني لما تركوا ما أمروا به ففتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما آتوا به من النعماء أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يتشوق فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما يرجع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يصاويه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرابين عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألت تعرض ألت يصيبك الأذى ألت تحزن فهذه مما تجزون به (٣) » حديث عقبة بن عامر إذا رأيت الرجل يخطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يتشوق فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

قال بعضهم لا تضع حق أخيك بما بينك وبينه من الودة . وحكى عن الجريري قال وافيت من الحج فابتدأت بالجند وصلت عليه وقلت حتى لا يتنى ثم أتيت منزلي فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجند خلفي فقلت يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا فقال لي يا أبا محمد هذا حقك وذلك فضلك . ومن آداب الشيوخ أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا في مراعاة النفس وقهرها واعتقاد صدق العزيمة أن يرفقوا

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلاة الرحم (١) . وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن لسلیمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأناه ملكان فنجيا بين يديه في ربي الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفقه ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الحادة فأثبت على زرع فنظرت يميننا وشمالا فإذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أماعلت أن لا بد للناس من الطريق . قال فلم تحزن على ولدك أماعلت أن اللوت سبيل الآخرة فتاب ساجدا إلى ربه ولم يزعج على ولده بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يا بني : لأن تسكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يا أبت لأن يكون ما أحب أحب إلى من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى وموثة كفها الله وأجر قد ساقه الله ثم نزل فضلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فزاه محوسى يرفه ، فقال له ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله ليتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمضى على الأرض وماله ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى المرضى بأبيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة صر فواذلك فجىء بالمنشار فشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن صعدت منك أنه ثانية لأعونك من ديوان النبوة ففض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بمصيبة فترق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رجما يريد أن يقتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى مرضى ، فقلت لعلى ماتت البارحة من وجع الضرس حتى قلتم ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشكى إلى خلقي واشك إلى كمال أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضاحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجليل في الدنيا والآخرة .

به وبوقوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير وما دام العبد لا يخطئ حريم الرخصة فهو حرام إذا ثبت وخالف الفقهاء وتدريب في لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان المزعمة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف بأبراهيم الصانع وكان لأبيه نعمة فانهطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلاسي فربما كان يقع يد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث على بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي منكر الحديث .

( بيان فضل النعمة على البلاء )

لكل تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء .  
 فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعبد في دعائه من  
 بلاء الدنيا وبلاء الآخرة <sup>(١)</sup> » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة  
 وفي الآخرة حسنة <sup>(٢)</sup> » وكانوا يستعبدون من شدة الأعداء وغيرها <sup>(٣)</sup> . وقال على كرم الله وجهه  
 اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية <sup>(٤)</sup> » وروى  
 الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما  
 أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين <sup>(٥)</sup> » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك  
 فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الحير الذي لا شرف فيه العافية مع الشكر  
 فكمن من نعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أتبلى فأصبر  
 وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلي <sup>(٦)</sup> » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل  
 واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إمامي الدنيا أوفى  
 الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من  
 البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه  
 على الصبر . فان قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم  
 فينجون وأكون أنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال البلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بملة الحصر  
 فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا العكم الكذاب ، وأما حجة الإنسان  
 ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تنقلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه  
 حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب  
 عليه كان حالة لا حقيقة لها فسامعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط بهم وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث  
 بشر بن أبي أرمطة بلفظ أجربنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث  
 عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة  
 (٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا  
 عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول  
 اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركبتين ربنا آتنا الحديث (٣) حديث كان يستعبد من شدة  
 الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال صلى الله عليه وسلم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم  
 لقد سألت الله البلاء فله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما  
 قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث على كنت ساكنا ثم ربي رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصرني فصر به برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن  
 صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد  
 جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلي ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى  
 الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسل

النعمة فيجب أن نرفق

به وتؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ

التنزه عن مال المريد

وخدمته والارتفاق

من جانبه بوجه من

الوجوه لأنه جاء الله

تعالى فيجعل نفسه

وإرشاده خالصا لوجه

الله تعالى فما يسدى

الشيخ للمريد من

أفضل الصدقات .

وقد ورد « ما تصدق

متصدق بصدقة أفضل

من علم يثقه في الناس »

وقد قال الله تعالى

تنبيه على خلوص

الله وحراسته من

الشوائب إنا نطمعكم

لوجه الله لا يريد منكم

جزاء ولا شكورا فلا

ينبغي للشيخ أن يطلب

يستقل سباعه ولا يحول عليه كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها فتعنه فقال ما الذي يمنعك عنى ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لعلته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعه وعاتبه فقال يابى الله كلام العشاق لا يعنكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومغناه أنى أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهمه فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال . الثانى أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنه رضاه فقط ويكون له لذة فى استشعاره رضاه محبوبة منه تريد تلك اللذة على لذة فى مشاهدته مع كراهته فند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلا ذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت قوتهم فى البلاء مع استشعارهم رضاه الله عنهم أكثر من قوتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهو لاء . إذا قدر وارضاؤه فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يدور قوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى لأن بفضلته على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

( بيان الأفضل من الصبر والشكر )

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقالوا من الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيات وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلامنى للتطويل بالنقل بل البادرة إلى إظهار الحق أولى فقول فى بيان ذلك تمامان : المقام الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمد الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام وإصلاحهم والظفر المشقة لا ينبغى أن تصلح العسى الطفل بالطيور السان وضروب الحلاوات بل باللبين اللطيف وعليه أن تخرج عنه أطياب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لما يقوته ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بيته فنقول : هذا المقام فى البيان بأى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر <sup>(١)</sup> » وفى الخبر « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزى بك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يا رب فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر وأبليتك فصبرت لأضعف لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين <sup>(٢)</sup> » وقد قال الله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر <sup>(٣)</sup> »

ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل (١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلاً (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الفرق منه أو صلاح يرامى للشيخ فى حق اللريد بذلك فيكون التلبس بالله والارتفاق بخدمة لمصلحة تعود على اللريد مأمونة الفائسة من جانب الشيخ قال الله تعالى - يؤتىكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيخسفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم - معنى يخسفكم أى يجهدمكم ويلج عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان وهذا



فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض البالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجج السالكين وجهاد للرأى حسن التبعل» (١) وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كعابد الوثن» (٢) وأبدا الشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أمماني دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه» (٣) وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً» (٤) وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام» (٥) وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغني ، فهذا هو اللقار الذي يقع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم . اللقار الثاني : هو البيان الذي قصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الأحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حجج السالكين وجهاد للرأى حسن التبعل الخبر بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فابعد ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وبقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مضمن الخمر ورواه بلفظ شارب الخبر بن أبي أسامة من حديث عبداللّٰه بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصماني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أمماني دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً وقال لم يروه إلا شعيب بن خاله وهو كوفي ثقة ، وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن نعيم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة ، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكأين مكة وهجر أو كائين مكة وبصري ولي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

تأديب من الله الكريم  
والأدب أدب الله .  
قال جعفر الخلدی جاء  
رجل إلى الجنيد وأراد  
أن يخرج عن ماله  
كله ويجلس معهم  
على الفقر قال له الجنيد  
لا تخرج من مالك  
كله احبس منه مقدار  
ما يكفيك وأخرج  
القفل وقوت بما  
حبست واجتهد في  
طلب الحلال لا تخرج  
كل ما عندك فاست  
آمن عليك أن  
تطالبك نفسك وكان  
النبي عليه السلام إذا  
أراد أن يعمل عملاً  
تثبت وقد يكون  
الشيخ يعلم من حاله  
للريد أنه إذا خرج  
من الشيء يكسبه من

والتقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه القامات تنظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر القامات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض للاح نظر في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم للكاشفة وهي أرفع من علوم للعامة بل علوم للعامة دون للعامة لأنها تراد للعامة ففائدتها إصلاح العمل وإنما فضل العالم للعامة على العابد إذا كان عليه عيائمه فقه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعالم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وقائدة إصلاح حال القلب أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم للكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها فإنها إما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب تقميا في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكما كانت الوسائط بينهما وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل . وأما الأحوال فنفي بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا طهر وصفا توضح له حقيقة الحق فاذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصله علوم للكاشفة ، وكما أن تصفية الرأية يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للرأية بعضها أقرب إلى الصفاة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لأحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكل عمل إيمان يجلب إليه حالة مانعة من للكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهينة للكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول العصية واسم الثاني الطاعة والمعاشي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته قدر جراتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول للطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن النفي القدي معه ما لو قد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء القسرك من علوم للكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا للدبر إذا لم تمكن حاله هذه الحال فليس يستضر شهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمرضى الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في الهلك الذي استولى عليه والشبع الطامع من جملة الهلكات ولا يزال صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع للهلكات فليرجع إليه فاذن باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للطلق فيه خطأ

الحال ما لا يتطلع به إلى اللال فينشد عجز له أن يفسح للمريد في الخروج من اللال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض المريدين مكروها أو علم من حاله أوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه اللزلة مجعلا فتصل بذلك الفائدة لكل فهذا أقرب إلى الداراة وأكثر أثرا لتألف

إذ لو قال لنا قائل الخير أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخير للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتماعا فلينظر إلى الأغلب فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالخير أفضل فان تساوى فهما متساويان وكذا إذا قيل السكجيين أفضل أم شراب الينوفرم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا السكجيين أفضل أم عدم الصفراء . فنقول : عدم الصفراء لأن السكجيين مراد له وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لاهالة فاذن في بذل المال عمل وهو الإتفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ونشأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وجهه فالأفضل للمعرفة ودونها الحال ودونها العمل . فان قلت قد حث الشريع على الأعمال وبالحق في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - وقال تعالى - وبأخذ الصدقات - فكيف لا يكون الفعل والاتفاق هو الأفضل . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يترك على أن الدواء مراد له أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به ظاهرا فهو كبرص على وجهه من لامرأة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسيل معه للبالغة في التناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحبه فرط التناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعد به ذلك بالجميل لتوفر دواعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي السكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقد علم عليه دون تكلمي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بقدر هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا للسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استثناء أبيه وعلى كرمه في الصفوة عنه فينسى العلم والقرآن ويسقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمنزل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - ولو شاء الله إطلاعهم للسالكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار - وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا الذين كفروا للذين آمنوا أنفقوا أنفقوا من لو يشاء الله أطعمهم ما قالوا أيضا - لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا - فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل بضله به كثير أو يهدي به كثيرا فهو لا لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل السالكين والفقراء ولأجل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في السالكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أفتقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته ، فهذا المثال يبين لك مثال من مثل من هذا الطريق فاذن للسكين الأخذ لا يستوفى بواسطة المال حيث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج غرور الدم الهلكة الهلكة من باطنك فالجوام خادم لك لأنك خادم للجوام ولا يخرج الجوام عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من  
للريد تقصير في خدمة  
نديه إليها يحمل تقصيره  
ويغفو عنه ويعرضه  
على الخدمة بالرفق  
واللين وإلى ذلك نذب  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فما أخبرنا  
ضياء الدين عبد الوهاب  
ابن علي قال أنا أبو الفتح  
الكروخي قراءة عليه  
قال أنا أبو نصر الترياق  
قال أنا أبو محمد الجراحي  
قال أنا أبو العباس  
المجوسي قال أنا أبو عيسى  
الترمذي قال ثنا حنيفة  
قال ثنا رعد بن  
سعد عن أبي هلال  
الحولاني عن ابن  
عباس بن جليل  
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للواطن ومزكية لها عن خباثات الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام ومماها أو ساع أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) والقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع الهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولزج الآن إلى خصوص مانع من الصبر والشكر فتقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبهذا التناسب يظهر الفضل ومهما قولت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة المئين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمي من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرت في البلاء والصاب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن الصبر فيها يتجدد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصبر به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذن مجازي الصبر ثلاثة : الطاعة والصية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة وللصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فبصر الأعمى عنهما بأن لا يظهر التشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في جنى للمصطفى وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على مصيبة ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجلية لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جميل فبصر كان ما كرا لنعمة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى حجاب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلمه على وضه وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يغوت بغوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه في الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقير ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المصيبة فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال «كل يوم صبعين مرة» وأخلاق للشاخي مذهب بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس بأحياء سنته في كل ما أمر وتنب وأنكروا وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار للريدين فيها يكاشفون به ويمنحون من أنواع للنسح فسر الريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس للريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه

(١) حديث التهي عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة ومماها أو ساع الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد اللطيف بن ربيعة إن هذه الصدقة لأجل لنا إنما هي أو ساع القوم وإنما لأجل محمد ولا لآل محمد وفي رواية له أو ساع الناس .

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين  
أفضل من شيء واحد وأن الجملة أسمى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين  
أجزاءها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على مصيبة بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر هنا أفضل  
من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني للمسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله  
إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نعمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي  
لا محالة قوة والغني أبسع نعمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام  
ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أسمى وأتم من هذه  
القوة التي يصدر عنها الاقتصاد في التمتع على المباح والشرف تلك القوة التي يدل العمل عليها أن الأعمال  
لا تتراد إلا لأحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان فإدراك زيادة  
قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار  
إنما أريد به هذه الرتبة على المحصر لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها  
والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المصيبة لأن يصرفها  
إلى الطاعة ، فإذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي فهمه العامة أفضل من الشكر الذي فهمه  
العامة وإلى هذا للغنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث مثل عن الصبر والشكر أيهما أفضل  
فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشرط ما عليهما  
فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم  
صفته وتقبضها وتزججها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزججها  
أتم حالا ممن منع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم  
الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خافه في ذلك وقال الغني  
الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف  
أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير  
الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجها  
في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك  
هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يسلك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات  
أو يسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكين وإنما ينتظر حاجه تسرح حتى يصرف اليها ثم إذا  
صرف لم يصرفه لطلب جاء وصيت ولا تقليد منه بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير  
الصابر . فإن قلت فهذا لا يثبت على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك  
يستشعر ألم الصبر فإن كان متألما بخرق المال فينجبر ذلك ببلاته في القدرة على الانفاق . فاعلم أن الذي  
نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطع عنه  
نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس مطاوعا بعينه بل لتأديبها  
وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التأديب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على  
الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إلى الحما في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان  
مؤلما في حقه للدينة عنده كما يصير التلم عند الصبي العاقل للذي اوقد كان مؤلما له أو لا ولكن لما كان  
الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قيل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته  
أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الحلق ، فإذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء  
من هذا يشغل عن  
الله ويسد باب الزيد  
بل يعرف أن هذه نعمة  
تشكر ومن ورأها نعم  
لأنه يصرفه أن  
شأن المرید طلب النعم  
لأن النعمة حتى يبقى سره  
محفوظا عند نفسه  
وعند شيخه ولا يذيع  
سره فإذا ذاع الأسرار  
من ضيق الصدر  
وضيق الصدر  
الوجب لإذاعة السر  
يوصف به النسيان  
وضغفاء العقول من  
الرجال وسبب إذاعة  
السر أن الإنسان قوتين  
أخنة ومعطية وكلتاها  
تتشوف إلى الفضل  
المختص بها ولولا أن  
الله تعالى وكل للمعطية  
بإظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق فصل فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذا الصبر مع التألم والرضا يمكن بمال ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكف ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والألم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وبهوبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» (١) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم وشكر وتلقي النعم بحسن القبول واستغظام صغرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسأله عن حاله فقال إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهوأي فاتفق أنها تزوجت مني فليدة زفافها قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمنا فضليتنا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل ثم نذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت المجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقه أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقه إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذا لاوقوف على حقائق الفضلات لا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

### ﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

( وهو الكتاب الثالث من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بطائف آلائه إلى النزول بفنائهم والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه للمعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدمهم عن التعرض لأثمته والتهديد لسخطه ونقمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللفظ إلى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[ أما بعد ] فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير القربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوقا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الألم مع كونه محفوقا بطائف الشهوات ومحائب اللذات إلا بسياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادها وتماثلها ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

### ﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

ما ظهرت الأسرار  
فكامل العقل كلما  
طلبت القوة الفعل  
قيدها ووزنها بالعقل  
حتى يضعها في مواضعها  
فيجل حال الشيوخ  
عن إذاعة الأسرار  
لرزانة عقولهم وينبغي  
للريد أن يحفظ سره  
من بثه في ذلك محته  
وسلامته وتأيد الله  
سبحانه وتعالى له  
بتدارك اللزدين  
الصادقين في مورد  
ومصدرهم .

### [ الباب الثالث ]

والحمسون في حقيقة  
الصحة وما فيها من  
الحير والشر [

للتقوى للصحة وجود  
الجنسية وقد يدعو  
إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرها في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يحتل به الرجاء .

### ( بيان حقيقة الرجاء )

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالاً إذا كان طارفاً سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل فإله لم يسبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في المستقبل فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى مسمى ذكراً وتذكراً وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال مسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً وإنما مسمى وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في المستقبل وغلب ذلك على قلبك مسمى انتظاراً وتوقفاً فإن كان ينتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب مسمى خوفاً وإشفاقاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وإرتياح مسمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لا انتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظاراً مع انحراف أسبابه واضطرابها فاسم الضرر والحق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم الغنى أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جارية تجري تغريب الأرض وتطهيرها ويجري حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب يستهزل الدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقفاً ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات للفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته مسمى انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه مسمى انتظاره حقاً وغروراً لارجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تنلب الأمطار ولا يتمتع أيضاً مسمى انتظاره تمنياً لارجاء ، فإذا سمى الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسادات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاء بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص  
الأوصاف فالدعاء بأعم  
الأوصاف كليل جنس  
البشر بعضهم إلى  
بعض والدعاء بأخص  
الأوصاف كليل أهل  
كل فئة بعضهم إلى  
بعض ثم أخص من  
ذلك كليل أهل الطاعة  
بعضهم إلى بعض وكليل  
أهل العصية بعضهم إلى  
بعض فإذا علم هذا  
الأصل وأن الجاذب  
إلى الصفة وجود  
الجنسية بالأعم تارة  
وبالأخص أخرى  
فليتفقد الإنسان نفسه  
عند الليل إلى صفة  
شخص وينظر ما الذي  
يميل به إلى محبته ويرى  
أحواله من يميل إليه  
بميزان الشرع فإن

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيتته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة للفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت وإن قطع عن بذل الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا بذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر للمغفرة فانتظاره حق وغرور قال صلى الله عليه وسلم «الأحقق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١)» وقال تعالى - غفل من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - غفل من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيفر لنا - وذن الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تنيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا - فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنبة للمعاصي تحقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير تحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويشهى التوبة ويشاق إليها تحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يحزم على التوبة والرجوع فرجأوه الفقرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعده بسقى ولا تنقية. قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاعتزاز عندى الفمادى في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة يئذ النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتقنى على الله عز وجل مع الإفراط :

رجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومطلته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بمرجان أكثر الأسباب وهذه الحالة تنجز الجهد للقيام بقيمة الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجأوه فلا يزال يعمل صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتقر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاهي اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدا والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كمن انقلبت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتتم بتناجياته والتلطف في التخلق له فان هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فإن كان لا يظهر فليست تدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والفرول في حضيض الغرور والتحق فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل

(١) حديث الأحقق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة  
فليشر نفسه بحسن  
الحال فقد جعل الله  
تعالى مرآته مجلوة  
يلوح له في مرآة أخيه  
جمال حسن الحال وإن  
رأى أفعاله غير مسددة  
فليرجع إلى نفسه باللائمة  
والإتهام قد لاح له في  
مرآة أخيه سوء حاله  
فبالجدير أن خر منه  
كفراؤه من الأسود  
قائما إذا اصطحبا  
لزماد اظلمة واعوجاجا  
ثم إذا علم من صاحبه  
الذي مال إليه حسن  
الحال وحكم لنفسه  
بحسن الحال طالع ذلك  
في مرآة أخيه فليعلم أن  
الميل بالوصف الأعم  
مركوز في جبلته والميل  
بطريقه واقع وله



وبدل على إيماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحضنت إليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور<sup>(١)</sup>».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له والحب يوجب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسياً في وقت الموت قال تعالى - لا تقنطوا من رحمة الله - فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى<sup>(٢)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء<sup>(٣)</sup>» «ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال كيف تجددك فقال أجدي أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتماع في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف<sup>(٤)</sup>» وقال على رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قوماً فقال - وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تتكره قال لقته الله حجة قال يارب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك<sup>(٥)</sup>» وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يدين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا<sup>(٦)</sup>» فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يمهو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن ميمون بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم ساء النبي ﷺ الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير فقال بارسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن حبان من حديث وائلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال كيف تجددك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تتكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يدين الناس فيسامح ويتجاوز عن المسر الحديث مسلم من حديث أبي ميمون حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يغالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المسر قال الله عز وجل نعم أحق بذلك تتجاوزوا عنه وانفقا عليه من حديث حذيفة

بحسبه أحكام والنفس بسببه سكون وركون فيسلب الميل بالوصف الأعم جسدوى الميل بالوصف الأخص وبصر بين النصاحيين استرواحات طيبة وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد ينفسد الريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقةهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بخنية الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طيبة جبلية حالت بينهم وبين

وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم  
 ولوططون ما أعلم لضحككم قليلا ولبكيكم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون إلى  
 ربكم فهبط جبريل عليه السلام قال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي غفر عليهم ورجاهم  
 وشوقهم (١) وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى وحبيبي إلى  
 خلقي فقال يارب كيف أحبيك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجليل واذكر آلائي وإحسانى وذكركم  
 ذلك فانهم لا يعرفون مني إلا الجليل (٢)» ورؤى أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء  
 فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذى حملك على ذلك قلت أردت أن أحبيك إلى خلقك فقال  
 قد غفرت لك ورؤى يحيى بن أكرم بعد موته في النوم قيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين  
 يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا  
 حدثت عنك فقال وما حدثت عنى قلت حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن  
 نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبيدى بنى فليظن بى ما شاء  
 وكنت أظن بك أن لاتخذبنى فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق  
 الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة  
 قلت يا لها من فرحة . وفي الخبر «أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال  
 فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها (٣)» وقال صلى الله  
 عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان فيقول الله تعالى  
 لجبريل اذهب فائتني بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك  
 فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمضى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز وجل إلى  
 أى شئ تلتفت فيقول لقد رجوت أن لاتعبدنى إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا  
 به إلى الجنة (٤)» فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه .  
 ( بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء وبغلب )

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب  
 عليه الخوف فأسرف في اللواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن  
 الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما المعاصى للفرور  
 التمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصى فأدوية الرجاء تنقلب مموما مهلكة في حق  
 وتنزل منزلة العدل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل  
 الفرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب النسيجة له فلهاذا يجب أن يكون واعظ الخلق  
 متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضاها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل

وأبى هريرة بنحوه (١) حديث لوططون ما أعلم لضحككم قليلا ولبكيكم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل  
 الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبى هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه زيادة ولخرجتم  
 إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام  
 أحبنى وأحب من يحبنى الحديث لم أجده أصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذى قبله (٣) حديث أن رجلا  
 من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم  
 فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان  
 الحديث ابن أبى الدنيا في كتاب حسن الظن بالله واليهيقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

حقيقة الصبغة قد  
 لاكتسب من طريقهم  
 الفسور في الطلب  
 والتخلف عن بلوغ  
 الأرب فليتببه الصادق  
 لهذه الهديفة وبأخذ  
 من الصبغة أصفى  
 الأقسام وينذر منها  
 مايسد في وجهه للرام  
 قال بعضهم هل رأيت  
 شرا قط إلا بمن تعرف  
 ولهذا النعى أنكر  
 طائفة من السلف  
 الصبغة ورأوا الفضيلة  
 في العزلة والوحدة  
 كإبراهيم بن آدم  
 وداود الطائي وفضيل  
 ابن عياض وسليمان  
 الخواص وحكى عنه  
 أنه قيل له جاء إبراهيم  
 ابن آدم أما لتلقاه قال  
 لأن ألقى سبعا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها فإذا حاز الوسط إلى أحد الطرفين عوج لما يرد به إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل للدلالة في التخويف أيضا تكاد أن لاتردم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر أسباب الرجاء فيلزمهم ويرد عليهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالبناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد التهلكون في طغيانهم ثم ادبناهم بما دعا إلى كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يخطئ الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعملوا الطباء الذين هم وورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يشبه بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب السكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كالآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرارة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينظم بفقده غرض مقصود وإنما كان يغوت به مزية جمال فالنانية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم الزايد والزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسيئاتهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا أولا يعثر أصلا فليست كراهمهم لعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا بحالة وإنما الذي يمتنع الموت نادر ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجعلها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا توكل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وستنها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض المارفين يرى آية اللدانية في البقرة من أقوى أسباب الرجاء قليل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار : لما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يالي إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعداها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلمل من النار ومن تحتهم ظلمل ذلك يخوف الله به عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأنذركم نارًا تملطي لإصلاها

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يالي الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب إلى من أن أتقى إبراهيم بن آدم قال لأنني إذا رأيت أحسنه كلامي وأظهر قسسي باظهار أحسن أحوالها وفي ذلك القنة وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها وهذا واقع بين المصاحبين إلا من عصمه الله تعالى . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأتقي الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - <sup>(١)</sup> » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - قال لابن جرير محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أتم أهل العراق يقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال « أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب قيل هذا فداؤك من النار <sup>(٢)</sup> » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فداؤك من النار فيلقى فيها <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار <sup>(٤)</sup> » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم <sup>(٥)</sup> » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيري فأوحى الله تعالى إليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لثلاث تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك <sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض على لما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم <sup>(٧)</sup> »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والعلابي في تفسيرها من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى الحديث لم أقفله على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورواه رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بأسناد ضعيف.

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صمم عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم - واعتزل لكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى - استظهر بالعزلة على قومه . قيل : العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالعريضة العزلة عن الشروا أهل

وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم الغفو قال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم الغفو هو إن غفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ما تعلم النعمة؟ قال لا، قال دخول الجنة (٢)» قال السماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل ملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فعمل أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له (٣)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجائي (٤)» وفي الخبر «لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٥)» وفي الحديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة (٦)» وفي قسط آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليقين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي وإن تاب عنه قال عي عنه قال فإن عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فإن تاب قال عي من صحيفته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يمل من الغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فإذا تم العبد بحسنة كتبها صاحب اليقين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا تم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن غفو الله عز وجل (٧)» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم الغفو قال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم الغفو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم وللوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظيمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلا يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى ملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فعمل أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبداً أصاب ذنباً فقال أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذي من حديث أنس يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركني شيئا لقيته بمثلها مغفرة وللترمذي من حديث أنس الذي قبله يابن آدم لوقيتني الحديث (٦) حديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليقين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب اليقين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي فإن تاب عنه قال عي عنه قال فإن عاد الحديث وفيه إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلو غير العزلة فالخلو من الأغيار والعزلة من النفس وما تنسحب إليه وما يشغل عن الله فالخلو كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما سلم إلا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصحة وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليزِم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

«يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذ امت قتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم معي ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الفل والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين (١) » وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يارسول الله من يلي حساب الخلق ؟ قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فتبسم الأعرابي فقال صلى الله عليه وسلم ضحكك يا أعرابي فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح ، قال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي (٢) » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل - الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة (٣) » « وللمؤمن طيب طاهر (٤) » « وللمؤمن أكرم طم الله تعالى من اللائكة (٥) » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٦) » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فانه أصل  
والكلام عارض ولا  
يتكلم إلا بحجة فحظر  
الصحة كثير يحتاج  
العبد فيه إلى مزيد  
علم والأخبار والآثار  
في التعذيب عن  
الخلطة والصحة  
كثيرة والكتب بها  
مشحونة . وأجمع  
الأخبار في ذلك ما أخبرنا  
الشيخ الثقة أبو الفتح  
بإسناده السابق إلى  
أبي سليمان قال حدثنا  
أحمد بن سليمان  
التجاد قال ثنا محمد  
ابن يونس الكريعي  
قال ثنا محمد  
ابن منصور الجشمي  
قال ثنا مسلم بن سالم  
قال ثنا السري  
ابن يحيى عن الحسن

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يارسول الله : إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث حمات أو ربما . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدنا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يمل الله حتى تملوا وليس في الحديثين قوله في آخره فإذا هم العبد بحسنة الخ وهو في الصحيحين ينحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم في رواية أو عفاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث جاء رجل ، فقال يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من يلي حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث للمؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس يده لحمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضمه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث للمؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة للمؤمن لا ينجس (٥) حديث للمؤمن أكرم على الله من اللائكة ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن حفيان عن أبي هريرة بلفظ للمؤمن أكرم على الله من بعض اللائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم (١) « وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما ينل به وجعل رحمته تطلب غضبه (٢) « وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تطلب غضبه (٣) « وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) « . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) « . ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمته عليه النار (٦) « . ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) « وفي خبر آخر « لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أيس من جنته أحد (٨) « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام قم فابست بخت النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعائة وتسمة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلى القوم وجعلوا يكون وتمطوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم في الأمم أين تأويل وثاريت ومنسك وبأجوج وما جوج أم لا يحضيا إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود كالرقعة في ذراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويخفى عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يحاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم لم أتف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما ينل به وجعل رحمته تطلب غضبه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب للبرهان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمته تطلب غضبه متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ من حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم ومصحح من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمته عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جله الله في الجنة وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن يضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان إنني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا نحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحين النار وإخراجهم بالشفاعات ، نعم لا ينفى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص  
عن عبد الله بن مسعود  
قال : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
لأتين على الناس زمان  
لا يسلم لدى دين دينه  
إلا من فر بدينه من  
قرية إلى قرية ومن  
شاهق إلى شاهق ومن  
جهر إلى جهر كالطبل  
الذي يروغ قالوا ومتى  
ذلك يا رسول الله قال  
إذا لم تنل العيشة إلا  
بمعاصي الله فإذا كان  
ذلك الزمان حلت  
العزوبة قالوا وكيف  
ذلك يا رسول الله وقد  
أمرتنا بالزوج قال إنه  
إذا كان ذلك الزمان  
كان هلاك الرجل على  
يد أبويه فإن لم يكن له  
أبوان فعلى يذويته

الدابة (١) فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوام بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول مآرآ سبيل الشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فلي الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « قد ذهب بكم وجاء بخلق آخر يذبون فيغفر لهم إنه هو النور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال العجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده له أرحم بعبده اللؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه (٥) » وفي الخبر « إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عدة تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يراحم الخلق تسعين الوالدة على ولدها وتغطف البيهمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجي من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي بعمله (٨) » . وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي آرونها للمطيعين المتقين بل هي للمتوكلين المخلصين (٩) »

ولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فلي يد قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يعبرونه بضيق المشقة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الملكة . وقد رغبت جمع من السلف في الصبغة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا فقال سبحانه وتعالى - واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا - وقال تعالى - هو الذي أبدا بنصره وبالمؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا الحديث الترمذي من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد (٢) حديث لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون ليغفر لهم ، وفي لفظ قد ذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبي أبوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البزار وابن جبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذي نفسي بيده له أرحم بعبده اللؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي بعمله تقدم أيضا (٩) حديث إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي الحديث الشيخان من حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعي لأمتي ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذي من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعي لأهل الكبائر من أمي ، وابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خبر بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فأخبرت الشفاعة لأنها أعم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .



وقال عليه الصلاة والسلام «بعت بالخنيفة السمحة السهلة<sup>(١)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا ساحة<sup>(٢)</sup>» ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا تحمل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلمك فلاتماتيه فقال يا جبريل فافقه تعالى أكرم من أن ياتب من عفا عنه فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعت الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما بقرتكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمي<sup>(٣)</sup> . والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن نحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فافقه أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فافقه تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجب الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة يارب قال الله تعالى حق متى تعجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يخفر الذنوب غيري أشهدكم أنني قد غفرت له . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت : يارب اعصمني حتى لأعصيك أبدا فنهت بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي للمؤمنين يطلبون مني ذلك فاذا عصمتهم فضلي من أنفضل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول : لو لم يذنب للمؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمع بالذنوب . وقال الجليل رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للشيطان بالمحسن . ولقي مالك بن دينار أبا نافع قال له إلى كم تحدث الناس بالرخى فقال يا أبا يحيى إلى لأرجو أن ترى من عفا الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من الفرج . وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بمد اللوت . قال لما مات أخى سجي يؤبه ألقيناه على نمشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إني لقيت ربي عز وجل خياي بروح وريحان وربى غير غضبان وإني رأيت الأمر أبر مما تظنون فلاتفتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكانها كانت حصة وقعت في ملئت فحملناه ودفناه . وفي الحديث

بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الصلبة والأخوة في الله تعالى سعيد ابن السبب وعبد الله ابن المبارك وغيرهما . وفائدة الصلبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم . آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ويقع بطريق

(١) حديث بعت بالخنيفة السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة لسنه ضعيف دون قوله السهلة وله والطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الخنيفة السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالضعفة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا ساحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال إذا عفوت عمن ظلمك فلاتماتيه الحديث ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

«أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه وزجره فكان يقول دعني وربّي أبث على رقيباً حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أستطيع أخذان يحظر رحتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول لا مابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته <sup>(١)</sup>» وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فرأى عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الخواريق فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معها ثالثاً قال فزّل فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويردري نفسه تعظيماً للحوارى ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال وأخس الحوارى به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجانبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه . وروى عن مسروق أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألقى الحصى بجبهته قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضباً فقال اذهب فلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تأنى على في عبادي إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على الشركين ويلعنهم في صلاته فزّل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام <sup>(٢)</sup>» وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعتني على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان بسأني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل عبد مسؤوله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم انقاء لعقابهم وبين من يخدم ارتجاء لانعامهم وكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً <sup>(٣)</sup>» وقال «إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاطى شيء <sup>(٤)</sup>» وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

الصحة والأخوة  
التعاقد والتعاون  
وتتقوى جنود القلب  
وتستروح الأرواح  
بالنشام وتتفق في  
التوجه إلى الرفيق  
الأعلى ويصير مثالها  
في الشاهد كالأسوات  
إذا اجتمعت خرقت  
الأجرام وإذا تفردت  
قصرت عن بلوغ  
المرام . ورد في الخبر  
عن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «للؤمن  
كثير بأخيه» وقال  
الله تعالى عبداً عن  
لاصديق له - فالتامن  
شافعين ولاصديق  
حميم والحميم في الأصل  
الحميم إلا أنه أبدلت  
الهاء بالحاء لقرب  
مخرجهما إذ هما من

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة بأسناد جيد (٢) حديث ابن عباس يقنت على الشركين ويلعنهم في صلاته فزّل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلاناً وفلاناً بعد ما يقول مع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فزّل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء . إلى قوله : فانهم ظالمون - ورواه الترمذى ومسلم وأبى حنيفة والحرث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد قتاد بن سليمان وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً لم أجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطى شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فليقل اللهم

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قتلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من غفر الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغضضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يظلم رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتد في الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتد على غفوك وكيف لا تخفها وأنت بالجود موصوف. وقيل إن نجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلت أضفك فله الجبوسى فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتفسير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلما أضفته ليلة ماذا كان عليك فله إبراهيم يسعى خلف الجبوسى فردّه وأضافه فقال له الجبوسى ما السبب فيما بدالك فذكر له فقال له الجبوسى أهكذا يسألني ثم قال اعرض على الإسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصملوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف جالك فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصملوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذهم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه أن القيامة قد قامت وإذا الجبار صبحانه يقول أين العلماء قال فجاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال قتلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فأنس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تخفر مادونه فقال اذهبوا به قد غفرت لكم ومات به بذلك ثلاث ليال. وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من القواكه للمجلس فله الغلام ياب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لتغير شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام إليه الدرهم فقال منصور ما الذي تريد أن أدعوك فقال لي سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يغفر الله لي دراهمي فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله لي سيدى فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لي ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت قمص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسي العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وأبش الثاني قال أن يغفر الله لي الدرهم قال لك أربعة آلاف درهم وأبش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال ثبت إلى الله تعالى قال وأبش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان إليك أقرى أتى لأفضل ما إلى قد غفرت لك وللغلام ولبنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يعملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبت إلى القبرة وحلينا عليها ودفنا الليث فقلت للمرأة من كان هذا الليث منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صفروا أمره قلت وأبش كان هذا قالت عفتنا قال فرحمها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال الخنث الذي دفتمونى اليوم رحمني ربي باحتقار الناس إياي. وقال إبراهيم الأطروش كنا قوموا فينداد مع معروف الكرخي على دجلة إذ مر أحدنا في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا للمعروف أما تراهم يحسون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقال اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم ويعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطى شيء أعطاه والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وهبادة بن الصامت

حروف الحلق والمهم  
مأخوذ من الاهتمام  
أى بهم بأمر أخيه  
فالاهتمام بهم الصديق  
حقيقة الصداقة. وقال  
عمر إذا رأى أحدكم  
ودا من أخيه  
فليتمسك به قلما  
يصيب ذلك وقد قال  
القائل:

وإذا صفا لك من زمانك  
واحد

فهو للراد وأبى ذلك  
الواحد

وأوحى الله تعالى إلى  
داود عليه السلام  
قال يا داود ما لي أراك  
متعبا وحدا قال  
إلهي قليت الحلق من  
أجلك فأوحى الله إليه  
يا داود كن يقظا  
مر نادا لنفسك أخوانا

للقوم إنما سألك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض الساف يقول في دعائه يارب أي أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحلك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبح النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لا تغضب فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحق المبرورون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ما منورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالهوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما من ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

### ( الشطر الثاني من الكتاب في الخوف )

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمته الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

### ( بيان حقيقة الخوف )

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترافه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنها زمانان يمنان النفس عن الخروج إلى رعواتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجمل فالحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في انشود وإتمام الشهود غاية القامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل القامات فتقول : حال الخوف ينتظم بضامن علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جن على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة عله بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جانيته وكون الملك في نفسه حتمودا غصوبا منتقما وكونه مخفوقا بمن يحته على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جانيته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعتن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه تكوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الساء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للتثني لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم ينعمه مانع وتارة يكون لبكثرة الجناية من العبد بمقارفة المصا وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بدوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائته وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله »<sup>(١)</sup> وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كلمت للمعرفة

وكل خدن لا يوافق على سبقي . فلا تصحبه فانه عدو يقسى قلبك وياعدك مني . وقد ورد في الخبر « إن أجبكم إلى الله الدين يألون ويؤلون فالؤمن ألف مألوف » وفي هذا دققة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفًا فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجلي ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وقينا وأوزن عقلا وأنتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس خطا

(١) حديث أنا أخوفكم البخاري من حديث أنس والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولاشيخين

أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والغبشة والزعقة والبكاء وقد تنشق به الرارة فيفضى إلى الموت أو يبعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فبكتفها عن الماضي وتقيدها بالطاعات تلافيًا لما فرط واستعدادًا للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يكي ويمسح عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئًا هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى التوب متى يكون العبد خائفًا قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى بحافة طول السقام . وأما في الصفات فإن يجمع الشهوات ويكدر اللذات فيصير للعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهي إذا عرف أن فيه مما احترق الشهوات بالخوف وتآذ الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والدلة والاستكانة وبفارقته الكبير والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطراته فلا يفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومواخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله من وقع في مغالب سبع ضار لا يدرى أنه يفعل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولًا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحترافه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بحلال الله وصفاته وأفضاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعًا فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضًا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسه من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقًا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعًا ووراء اسم الصديق والقرب وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم فإذا ذكرت الأخص قد ذكرت الكل كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي والعربي إما قرشي أو غيره والقرشي إما هاشمي أو غيره والهاشمي إما علوي أو غيره والعلوي إما حسبي أو حسيني فإذا ذكرت أنه حسبي مثلاً قد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه فكذلك إذا قلت صديق قد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب للعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للعاني فهذه إشارة إلى عجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمرقة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

من هذا الوصف  
الأنبياء ثم الأولياء  
وأنتم الجميع في هذا  
نينا صلوات الله عليه  
وكل من كان من  
الأنبياء أنهم ألقه كان  
أكثر تبعا ونينا  
صلى الله عليه وسلم  
كان أكثرهم ألقه  
وأكثرهم تبعا وقال  
«تناكحوا نكثروا»  
فإن مكائركم الأم  
يوم القيامة» وقد نبه  
الله تعالى على هذا  
الوصف من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فقال - ولو كنت فظا  
غليظ القلب لا نقصوا  
من حولك - وإنما  
طلب العزلة مع وجود  
هذا الوصف ومن  
كان هذا الوصف فيه

( بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف )

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى الواظبة على الطم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى القفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها المأمر حافلا يسوقها إلى القصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء للترسمين برسوم العلماء والمتسعين بأسمائهم فأنهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك بمقادير عز وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً ، وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والذهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الجمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمخدر ولا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص آدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس يكال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والذهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكرس عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها اليمالج به صدمة الخوف المفرط للمقضى إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمر فالحمود منه ما يقضى إلى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لومات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفتسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما بطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو حيران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة في أول أمره وكان يخلو في غار حراء ويتحنث الليالي ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفاً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما سألنا في أول الباب إن في الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف

إلى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مادونها لا بالاضافة إلى درجة التيقن والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابوق إن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أتم الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما يعتمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مريض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين لللازمين للجبوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي نافس العقل .

( بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى ما يخاف منه )

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والسكره إمان أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإمان أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه كما تكره العاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه الضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من المكروهات المهدورة فالدين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يخلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الليل عن الاستقامة أو خوف امديلا العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسنة التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحباثة والنقش وإضمار سوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على القظام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الأمر فيه محط وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع ينفرع عنها بعد تحلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقلهما بتوقيع محتمل أن يكون فيه حز الرقة ومحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما إذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفية وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا الالتفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزل الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر قبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأعمالهم وأعمال آباءهم لا يزدادونهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم فلما علم الخدائق ذلك ألهمهم الله تعالى حجة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الليل بالوصف الأعم لترتقى المهمل العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح فاذا وفوا الصفة حقها اشترأت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولى وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخاطبتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجيلة من الألفة للكلمة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يراد فيهم ولا ينقص وليعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستقدم الله قبل الموت ولو بغواق باقية وليعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بغواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم (١) وهذا كاتسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنابته وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لاعمالة فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الفرور والأمن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأل يخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية وبسرله سيلها ومهد له أسبابها فان تيسر أسباب المعصية لإبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسهل له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا الطيع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن التسرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يادود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢)» فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا الجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك ثمة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته والله المثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله «هو لاء إلى الجنة ولا أبالي وهو لاء إلى النار ولا أبالي» ويكشفك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستثناء وعدم البالاة.

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يادود خفي كما تخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل المصنف قصد بإبراده أنه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة .

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصعبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصعبة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يهيشه الله



الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل في أنفسهم ماهو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدة  
أوسؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المظلم أو هيبه الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من  
كشف السر والسؤال عن القبر والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه  
أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة ذار النعيم والملك للقيم  
وعن قصص الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها  
فهى لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله  
تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن  
لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن  
العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتجب منه في نفسه وربما  
أنكر لذة النظر إلى وجهه الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان  
عن ضرورة التقليد والإفراط لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر  
إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأمالدة العارفين فلا يدركها غيرهم  
وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا استبصر بنفسه واستغنى عن أن  
يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

### ( بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه )

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فمبني على أن  
فضيلة التي بقدر غنائها في الاضواء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة  
ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد  
ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا تحصل  
المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر  
ولا تيسر للواظبة على الذكر والفكر إلا باقطاء حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات  
الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك للشهوات إلا بجمع الشهوات ولا تنفع الشهوة بشئ كما تنفع بنار  
الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات بقدر ما يكف  
عن للعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون  
الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الأعمال الفاضلة المأمورة التي  
تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فلأورد في فضيلة الخوف خارج  
عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى  
مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال تعالى  
- إنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم خشيتهم وقال عز وجل - رضى الله عنهم  
ورضىوا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف  
ثمره العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق  
الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم  
رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك  
لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

للصادقين رقا من الله  
تعالى ونوابا للعبد  
معجلا والأنيس قد  
يكون مفيدا كالشايخ  
وقد يكون مستفيدا  
كالسريدين فصحيح  
الخلوة والعزلة لا يترك  
من غير أنيس فان  
كان قاصرا يؤنس الله  
بمن يتم حاله به وإن  
كان غير قاصر يقيض  
الله تعالى له من يؤنس  
من البريدين وهذا  
الأنس ليس فيه ميل  
بالوصف الأعم بل هو  
بالله ومن الله وفي الله.  
وروى عبد الله بن  
مسعود عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال  
«التحابون في الله على  
عمود من ياقوته حمراء  
في رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى (١) فاذن إن نظر إلى متمره فهو العلم وإن نظر إلى تمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما سار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإعما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذا هم بصوت يسمع أقصام كما يسمع أذانهم فيقول - يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم - أيها الناس إني قد جعلت نبياً وجعلتم نسا فوضعت نسي ورفعت نسيكم - قلت - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأيتهم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فالיום أضع نسيكم وأرفع نسي أبين المتقون فيرفع القوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله (٣) » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى (٤) » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلاحظها حسنتان بابا من الحكمة والعبرة مارأيت قط - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلاحظها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كعالم بين أسدين - وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسماء وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخاصة فقال - سيذكر من يخشى - وقال تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزني

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضربونهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى التحابين في الله عز وجل فإذا أشرقوا عليهم أنصاء حسنها لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولاني لما ذابني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول

(١) حديث لما خبر في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يغيب فلا يزال به ورأسه في حجرى غشي عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فمليت أنه لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصام كما يسمع أذانهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسا الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والعلبي في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نسا الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضا (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمنت في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافت في الدنيا أمنت يوم القيامة (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء » (٢) وقال عليه السلام « أتعلم عقلا أشدكم خوفاً لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً » (٣) وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد له وجه وصح له لبه . وقال ذو النون أيضاً ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع المالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً قال أشدكم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمه الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تسكد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تغالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن خيرا من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلباً إلا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويُرني قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » (٤) والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فإن كل من رجا محبوباً فلا بد وأن يخاف فوته فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفصلته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ للعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا نال محبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر ينتظر مشكوكاً فيه نعم أحد طرفي الشك محذور على الآخر بمحذور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفاً وطعناً - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقارا - أي لا تخافون وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتعلم عقلاً أشدكم خوفاً الحديث لم أنف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويُرني قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي جازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة  
وجوهم كاتم ليلة  
البدر يفرغ الناس  
ولا يفرعون ويخاف  
الناس ولا يخافون وهم  
أولياء الله الذين لا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون  
قيل من هؤلاء  
يا رسول الله ؟ قال  
التعابون في الله عز  
وجل . وروى عبادة  
ابن الصامت عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
قال « يقول الله عز وجل  
حق عبي للتعابين  
في الزواجر في  
والتبذلين في  
والتصادقين في »  
أخبرنا الشيخ  
أبو الفتح محمد بن  
عبد الباقي إجازة قال  
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل السكاه من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - سيكون وزيراً يزدحم خشوعاً وقال عز وجل - أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - وقال عليه السلام « ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئاً من حروجه إلا حرمه الله على النار <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياه كما يتحانت من الشجرة ورقها <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع <sup>(٣)</sup> » وقال عقبة بن عامر « ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك <sup>(٤)</sup> » وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكي <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم مع خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى <sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عيني هطالتين تشفيان [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمرات <sup>(٧)</sup> » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا قضاقت عيناه <sup>(٨)</sup> » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتبأك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضعاً منه الدموع . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فإن لم تبكوا فتبكوا فوالذي نفسي بيده لو علم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما تغرغرت عين بعاشم إلا لم يرهق وجهه صاحب اقتر ولا ذلة

(١) حديث ما من مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحانت عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والفاساني وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكي لم أقف له على أصل (٦) حديث ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عيني هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين الروزي في زيادته على الزهد والرفائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسل بدون ذكر الله وذكر الدار قطن في الملل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسل قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في السكتي وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإعنا ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم ، ثم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ .

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الهاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن السيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فانها هي الخالقة » وبإسناد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

يوم القيامة فإن سألت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها محاراً من اليران ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأحبار رضى الله عنه والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعه على وجنتي أحب إلى من أن أتصدق بمجمل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دموعاً من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فذنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا ففسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقللت في نفسى قد ناققت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرفة فخرجت وجعلت أنادى نافع حنظلة فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلام لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافع حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلام لم ينافق حنظلة فقللت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجاءت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصالحكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متممة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

( بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما )

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيتميز به شك في أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فإن اجتماعاً نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب فضلهما بحسب الداء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتقار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد للعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكينيين إذ يمالج بالخبز مرض الجوع وبالسكينيين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر الحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصي والاعتقار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقيم من بحر الرحمة ومستقيم الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستندة الالتفات إلى الصفات التي تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التقى الذى ترك ظاهر الانتم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافع حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصراً .

أبا مسلم يقول سمعت  
أبا هريرة يقول الخبر  
وفي الخبر تحذير عن  
البغضة وهو أن يحفو  
الختلى الناس مقتالهم  
وسوء ظن بهم وهذا  
خطأ وإنما يريد أن  
يخلو مقتلاً لنفسه  
وعلم بما في نفسه من  
الآفات وحذراً على  
نفسه من نفسه وعلى  
الخلق أن يعود عليهم  
من شره فمن كانت  
خلوته بهذا الوصف  
لا يدخل تحت هذا  
الوعيد والاشارة  
بالحاقة بمعنى أن البغضة  
حائلة للدين لأنه نظر  
إلى المؤمنين والمسلمين  
بعين القم . وأخبرنا  
الشيخ أبو الفتح  
بإسناده إلى إبراهيم

قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابن خنف الله خوفاً ترى أنك لو أتيت به سمناً أهل الأرض لم يقبلها منك وأرج الله رجاء ترى أنك لو أتيت به سيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لحسبت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدلهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الدين أمراً وبدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوته أسبابه كمثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تهذيبها وجاء بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه فهكذا ينبغي أن تكون أحوال للتقين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثلاً فلا فيس يضاها ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثل مسألنا بذر لم يحرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يحدا الزارع ولم يخبرها وهي في بلاد ليس يدري أكثر الصواعق فيها أم لأقل هذا الزارع وإن أدى كنهه مجوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألنا هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبئه وصفاته من الشرك الحفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والثغات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يحرب مثله والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يحرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند التصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يحرب لمن عرف حقائق هذه الأمور فان كان ضيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لاعماله كما سبحانه في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يتألم في نفثيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الحفي وإن اعتقد تمام قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتبليس حاله عليه وإخفاء عيه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقائمه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر (٢)» وفي رواية «لا قدر فواق

الحرب قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعا له اللهم فكذا ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ألفت بين قلوب عبادك الصالحين وحشيف لآتألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسمه فيه شيء لا لطف حال الصالحين وجدتم في ذلك القام العزيز

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين مسلم من حديث حذيفة في أنسابي اثنا عشر مناقباً تمامه لا بدخولون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية لا قدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزار والطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن والشيخين في أثناء حديث لابن مسعود إن أمدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار» وقدر فواق الناقه لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يخلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن أن يتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مسندة للاعتزاز وقلة ناصرة لقوله ذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفا وطمعا - وقال عز وجل - ويدعوننا رغبا ورهبا - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من الغفرة فيكون ذلك سببا لتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهكاك في المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعو إلى التجافي عن دار القرور فهو الخوف الممود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس اللوجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى ببعض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بعض الرجاء تاه في مفازة الاعتزاز ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذن لابد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تمجيل موته وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحب الله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى فان من أحب لقاء الله تعالى أحب لقاء الله والرجاء تفارقه المحبة فن ارتجى كرمه فهو محبوب والتقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تشر المعرفة المحبة فان الصبر إليه والقيد بالموت عليه ومن قدم على محبوه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوه اشتدت محنته وعذابه فلهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فهو ته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المسانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فهو ته قد قدم على محبوه وخلّص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الإنكالات والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والتكال ففسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا بالكسب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاء ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد»<sup>(١)</sup> والغرض

وقال السلام علينا  
وطى عباد الله الصالحين  
فهم مجتمعون وإن  
كانوا متفرقين  
وصحبهم لازمة  
وعزيمتهم في التواصل  
في الدنيا والآخرة  
جازمة . وعن عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه  
لو أن رجلا صام النهار  
وقام الليل وتصدق  
وجاهد ولم يحب في  
الله ولم ينفذ فيه  
ما نفعه ذلك . أخبرنا  
رضي الدين أحمد بن  
إسماعيل بن يوسف  
إجازة إن لم يكن معا  
قال أنا أبو المظفر عن  
والله أبي القاسم  
القشيري قال سمعت  
أبا عبد الرحمن السلمي  
يقول سمعت عبد الله

ليس فيه تهدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني  
حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات .

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجاب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقنع لهبة الدنيا عن القلب ولذلك قال عليه السلام « لا يموتن أحدكم إلا وهو بحسن الظن بربه » (١) وقال تعالى « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ولما حضرت سلمان التيمي الوفاة قال لابنه يابن حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله برجونه وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن جئني إلى عبادي فقال بماذا قال بأن تذكر لهم الدنيا من القلب حتى نصير الدنيا كلها كالسجن النافع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين بابليان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أقلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

( بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف )

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فإن الجنة قد حفت بالمسكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن الهرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والانس إلى المحبة وتبقيها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهر أو باطن ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعبادته وهو التوكل فاذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكننا نرد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما على من الآخر، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فإذا نظر الصبي إلى أيه وهو ترعد فراقصه ومحتال في الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه في الحرب تخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ومهما وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فأيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى .. وعذركم الله نفسه .. وقوله عز وجل - اتقوا الله حق تقاته - وأما الأول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونها مجزاء من على الطاعة والمحبة وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الايمان وإعمال زول الغفلة بالتدكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال

(١) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو بحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

ابن المسلم يقول سمعت أبا بكر التلمساني يقول سمعنا مع الله فان لم تطيقوا فاصبروا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول سمعت أبا جعفر الحدادي يقول سمعت على بن سهل يقول : الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل



يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان قامت المشاهدة فالسباع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأهل فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف البعد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قاله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو مجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويؤول على قرب حق إن الصبي ربما يرى العزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويفتربه فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للتوكدة لها على الدوام وبالمواظبة على متضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفا في محالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة جلب في الخوف من السبع الضاري إلا المعرفة السبع ومعرفة الوقوع في محالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواء فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالى ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب اللاتكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سائلة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنح ولا بألى وهؤلاء في النار ولا بألى وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد الطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد المعاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبعد لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لاعة له من جهة البعد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فخرج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله يده ونفخ فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائله وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبين كل شيء وقربك نجيا فبكم وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال ألقوا منى على أن عملت عملا كتبته الله على قبل أن أعمله وقبل أن أخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فخرج آدم موسى <sup>(١)</sup> فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطهرين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محالبه السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخلاه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سوى اتفاقا وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا والواقع في محالبه السبع لو كانت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلوست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فخرج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد به القائل نظما على حقيقة جامعة لمعان الصحة والحلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله : وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قوم الرء وحده  
[ الباب الرابع ]  
والحمسون في أداء حقوق الصحة والأخوة في الله تعالى  
قال الله تعالى  
- وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى  
- وتواصوا بالحق - وتواصوا بالمرحمة - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له خلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيب له أن يعالج نفسه بسباع الأخيار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم القرائنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، قضى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفي رواية ثانية « أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ففضب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بى إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لأزكى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره (٦) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو غليل فسمع امرأة تقول هنيئا

ر-ول الله صلى الله عليه وسلم - أشدها على الكفار رحماء بينهم- وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى- الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين-وقيل

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم ولا خفر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم قه وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف في إسناده فرواه في الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ففضب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادنى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن القى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى في الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلا قال له أجزر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه التالية على الله تعالى فقال المريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويخجل بما لا يعنيه (١) وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيتني هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - ألبعدا لعاد قوم هود - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قمتها كاذبة ، خافضة رافعة - أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكاوير أحوال يوم القيامة وانكشاف الحائجة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت - وفي عم يتساءلون - يوم ينظر المرء ما قدمت يداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق الفقرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فمسي أن يكون من المفلحين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم آية الثقلان - وقوله عز وجل - أفأمنوا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا والآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما شئتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والمصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الحشران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمتسكا ققلا ومن يأمن مكره (٣) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد أمتسكا ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمانا من المكرو وما فيا بقولهما كأن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المتجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتنحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذي وفى - أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إنا نخاف أن يخرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أجمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له - لا تخف إنك أنت الأعلى - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إني كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا - وإن مكات الآية

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتني هود وأخواتها الحديث الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في الشائل من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر وروياه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك » (١) قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دمع عنك مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وقال - إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية . فوض الأمر إلى الشبهة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعله بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حدة العقول والمألفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حساب فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآبائهم يخبر عنه ويقول - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزل ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطعمة تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستبراء خفي السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن سرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الحاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقلبا من القدر فى غلباتها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من أمنوهو ينادى بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنى لأدري ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لا اخترت الموت على الاسلام لأنى لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحاتمة عند كل خفلة وعند كل

وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خيل يقطع عن الله واختيار الصعبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، قاله ساد بالصعبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سيده كيف لا يعذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخارى من حديث ابن عباس بلفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - . ولما احتضر سفيان جعل يركي ويجزع فيقول له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرتي الوفاة فاقم عند رأسي ، فإن رأيتني متاً على التوحيد فخذ جميع ما أمسكه فاشتره لوزاوسكرا واشتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفات ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال : وبهم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والاوز وفرقه . وكان سهل يقول : للريد يخاف أن يتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكان في وسطى زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الخواريين أنتم تخافون للمعاصي ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى في أخبار الأنبياء أن نبيا شكاً إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عدي أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفري حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضه على رأسه ، وقال بلى قد رضيت يارب فاعصمني من الكفر ، فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على اللوث مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس وما عتوا به النفاق القبي هو ضد أصل الإيمان بل للراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناقها ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فقيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر (١) » وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صدق إذا قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف للدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس متبادلة ونسي كونها منكراً بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً إنني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتملؤون أعمالاً هي أدق في أعينكم

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد هدم في قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد.

وسؤال البركة والخيرة  
في ذلك وتقديم صلاة  
الاستخارة . ثم إن  
اختيار الصلحة  
والأخوة عمل وكل  
عمل يحتاج إلى النية  
وإلى حسن الخاتمة  
وقد قال عليه الصلاة  
والسلام في الخبر  
الطويل « سبعة  
يظلمهم الله تعالى فمنهم  
اثنان تهابأ في الله  
فأشأ على ذلك وماتا  
عليه » إشارة إلى  
أن الأخوة والصلحة  
من شرطهما حسن  
الخاتمة حتى يكتب  
لهما ثواب للخواص  
ومنى أفسد للؤاخة  
بتضييع الحقوق فيها  
فسد العمل من  
الأول . قيل ما حد

من الشمر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار (١). وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكبره من الناس مأتى مثله ، وأن تعب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وروى أنه مع رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . وأشد من ذلك ما روى أن قرأ قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكنوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم النافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يتلى بالآيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مفرز إبرة ويأتي عليه ساعة يتلى بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي . ومنها النفاق ، ومتى غلب العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قديقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٥) » ، والله المستعان .

### ( بيان معنى سوء الحاتمة )

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداها أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة المسائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غاب على القلب من عقدة الجحود حجابا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشمر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبراز من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث مع ابن عمر رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن قرأ قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكنوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب التزهيد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرج له ولده في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین  
على بر حسنه  
متأخین فی الله  
متحابین فیہ فانه  
یجهد نفسه وبعث  
قیسله على إفساد  
ما بینهما . وكان  
الفضیل يقول : إذا  
وقمت الغیة ارتفعت  
الأخوة ، والأخوة فی الله  
تعالی مواجهة قال  
الله تعالی - إخوانا  
على سرر متقابلین -  
ومتی أضمر أحدهما  
للآخر سوءا أوكره  
منه شیئا ولم یبهره  
عليه حتى یزله أو  
یتسبب إلى إزالته منه  
فماواجه بل استدبره  
قال الجنید رحمه الله  
ما تواخى اثنان فی  
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبداً وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يطلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المجهوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهي فهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرم يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة وبمهل طول هذه المدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما سمعت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)» . «وأنه قد يفتح إلى قبر المذب سبعون بابا من الجحيم (٢)» كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الحاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملأ من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتفمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المذب سبعون بابا من الجحيم لم أجده أصلا (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملأ الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رموس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والذائق فينادى بهم على رموس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والمقبلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب میزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مضلا فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا  
لعله فى أحدهما فالمؤاخاة  
فى الله أصنى من الماء  
الزلال وما كان لله فالله  
مطالب بالصفاء فيه وكل  
ما ضا دام والأصل فى  
دوام صفائه عدم المخالفة  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « لا تمار  
أخاك ولا تمازحه  
ولا تعده موعدا  
فتخلفه » . قال أبو سعيد  
الحاراز : سمعت  
الصوفية خمسين سنة  
ما وقع بينى وبينهم  
خلاف قليل له وكيف  
ذلك ؟ قال لأنى كنت  
مهم على نفسى .  
أخبرنا شيخنا  
أبو النجيب السمروردي  
إجازة قال أنا عمر بن  
أحمد الصفار قال أنا

فتجتمع الأجزاء للفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعباد بالله شقية . فان قلت لما السبب الذي يفضي إلى سوء الحاتمة . فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال كالبتدع الزاهد فان عاقبته محظرة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا . فأقول إنه بدعة فان يان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ماهو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يتر وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا إذ حال الموت حال كشف النطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه فهو لاهم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكرنوا يحسبون - وبقوله عز وجل - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي السائمة للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصالح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق والبله بعزل عن هذا الخطر أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا جملا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلا ولا أضفوا إلى أصناف التكلمين في تقليد أقوالهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقادهم نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثورة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا ومحبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الورثة أو المأخوذة بحسن الظن من الصالحين في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البرار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف  
قال أنا أبو عبد الرحمن  
السلمى قال سمعت  
عبد الله الداراني قال  
سمعت أبا عمرو والدمشقي  
الرازي يقول سمعت أبا  
عبد الله بن الجلاء يقول  
وقد سأله رجل على أي  
شرط أصحب الخلق  
فقال إن لم تبرم فلا  
تؤذم . وإن لم تسرم  
فلا تؤثم . وبهذا  
الاستناد قال أبو عبد الله  
لاضيع حق أخيك  
بما بينك وبينه من  
للودة والصداقة فان الله  
تعالى فرض لكل  
مؤمن حقوقا لم يضيعها  
إلا من لم يراع حقوق الله  
عليه ومن حقوق  
الصحة أنه إذا وقع  
فرقة ومباينة لا يذكر



يحب الدنيا مشغوفة وعلبها مقبلة وشهوات الدنيا يخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارقة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكّد ذلك بطول الإلف فيهم فاندس بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يترعّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن نبأه بعد حين - ويبنى أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسألتك الليالي فاعتزرت بها وعند صفو الليالي يحدث السكر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تتفقها من الباحثين يضاعف عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تصباتهم أودون الأدلة فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واتقاه فهو آمن من مكر الله مفتر بقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود العقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو السكريت الأحمر وأنى يتيسر وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة . وأما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبق في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في عمالة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقتو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يظنى ما به من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيختنى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء المضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصواحتي بأن الله بأمره - فاذن كل من فارقه روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بآله وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير . قيل  
كان لبعضهم زوجة  
وكان يعلم منها ما يكره  
فكان يقال له استخبراً  
عن حالها فيقول لا ينبغي  
للرجل أن يقول في أهله  
إلا خيراً فافرقها وطلقها  
فاستخبر عن ذلك فقال  
امرأة بعدت عني  
وليست مني في شيء  
كيف أذكرها وهذا  
من التخلق بأخلاق الله  
تعالى أنه سبحانه يظهر  
الجميل ويستر القبيح  
وإذا وجد من أحدها  
ما يوجب التقاطع فهل  
يبيغضه أولا يختلف  
القول في ذلك . كان  
أبو ذر يقول إذا انقلب  
عما كان عليه أبغضه  
من حيث أحببته وقال  
غيره لا يبيغض الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله فدوم العبد البغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يغني ما يستحقه من الحزى والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تعمل مشاق الأعمال ووعشاء الأسفار طمعا في لقاءه فلا يغني ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخرة ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مفارقة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة وجميع ما ألغى الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله أكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله أكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بثال وهو أنه لا يغني عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما ياتل مشاهداته في اليقظة وحتى إن المراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الوقوع إذا لم يكن قد وقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقوع ثم لا يغني أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما أن ما عظم في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك أحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى تعرف بعضها ولا تعرف بعضها كما أننا لم أن الحاضر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدر آه من قبل مع إنسان فيذكر ذلك الإنسان وقد ينتقل الحاضر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبتة له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقل الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الحياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليعيط بها ويبل أمصمه التي لها عادة بالكسثبان ويأخذ الأزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى القراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه

بعد الصلوة ولكن  
ينفض عمله قال الله  
تعالى لتبني على الله  
عليه وسلم - فإن  
عصوك قل إنى برى  
مما تعملون - ولم يقل  
إنى برى منكم .  
وقيل . كان شاب يلزم  
مجالس أبي الدرداء  
وكان أبو الدرداء يعزبه  
على غيره فابتلى الشاب  
بكبيرة من الكبائر  
وانتهى إلى أبي الدرداء  
ما كان منه قليل له  
لوا بعدته وهجرته  
فقال سبحان الله لا يترك  
الصاحب شيئا كان  
منه . قيل : الصداقة  
لحمة كل لحمه النسب .  
وقيل الحكيم مرة  
أيما أحب إليك أخوك  
أو صديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخليّة الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على ما عاش عليه ومحسر على ما مات عليه ولذلك قيل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلّي الشهادة فيقول خمسة سنة أو أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلقاه قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره تتلاّأ نوراً فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب والله والافتاقات للقتضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير فيها عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عمر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الحيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني منامي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فيجرتني شهر أو لم بكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلنا يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمع بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكأوك ويأحتك ويدوم به حزئك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لثار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لا أعجب من هلك كيف هلك ولكني أعجب من نجا كيف نجا ولذلك قال حامد الفاف إذا صمدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فدفعها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي ف قيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم التطامن أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب» (١) ولا يتسع فواق الناقة لأعمال نوجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأنّي أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا لو أسوء

(١) حدث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم .

أحب أخى إذا كان  
صديقى وهذا الخلاف  
في المفارقة ظاهراً وباطناً  
وأما الملازمة باطنياً إذا  
وقعت المباعدة ظاهراً  
فتختلف باختلاف  
الأشخاص ولا يطلق  
القول فيه إطلاقاً من  
غير تفصيل فمن الناس  
من كان تغييره رجوعاً  
عن الله وظهور حكم  
سوء السابقة فيجب  
بفضه وموافقة الحق  
فيه ومن الناس من  
كان تغييره غيرة  
حدثت وفترة وقت  
يرحمى عوده فلا ينبغي  
أن يفيض ولكن  
يغض عمله في الحالة  
الحاضرة ويلاحظ بعين  
الود منتظراً له العرج  
والودود إلى أوطان

الحاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مضبوطة عليها وكان موت الفجأة مكروما ، أما الموت فجأة فلائنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يغلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلائنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطن نفسه على الموت إلا حب الله وطلباً لمرضاة وباءاً لدياه بأخرته وراضياً بالبيع الذي بابه الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبايع راضع عن البيع لاحتالة ومخرج حبه عن القلب وبجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يظلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والفتيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار<sup>(١)</sup> وإذ بان لك معنى سوء الحاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهلك فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الحاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيمروحك فراقب قلبك في كل تطريفة وإياك أن تهمل لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيمروحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يظلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعفة الأمر ، واعلم قطعا أنه لا يغاب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم فالبا عليه وأنه لا يظلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فسكا لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا يبعث إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديها باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكي إلا العالمون والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون والعاملون كلهم هلكي إلا المخلصون والمخلصون كلهم هلكي إلا العظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعام ما يقيم صلبك ويسد رمقك فيبني أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تسكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبهة وكلاهما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك قيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والفتيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة مثق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يقاتل للدنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليري مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لشكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .

الصلح قد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي أتى بأحشة قال له وزجرهم بقوله ولا تصكروا عونا للشيطان على أخيكهم وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئسه » وروى أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذاك أخو الشيطان قال له ما قال له إنه قارف

حاجتك فسلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكفى في اليوم واليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوئة الشهوات والذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأمام بسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك بضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والغناء القاتم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكن تكسبه في خسارة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت بمن لا يعلأ بطنه إلا التراب وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستورا فان غلبك حر أو برد فمليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك والصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائض سوى كونه حائلا بينك وبين الأبرار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يعد رقيق منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصررت عليها ففرغت لله وقدرت على التزود لأخرتك والاستعداد لحاتمك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلكك فأقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوما بيوم في تسوية أو غفلت اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الحائنة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيد بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يغمى ميتا إلى الأرض ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما لله بغافل عما تعملون .

( بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف )

روت عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويردد في الحجر ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله<sup>(١)</sup>» وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق<sup>(٢)</sup>» وقال تعالى سوخر موسى صعقا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق<sup>(٣)</sup>» وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الواقعة فصعق المعروف بما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده - لدينا أنكالا وجعيا وطعما إذا غصة وعذابا ألجما - فصعق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فدعاه به فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلًا

الكبار حتى وقع في الحرج فقال إذا أردت الخروج فأذني قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبته تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فأسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالكتان بكيان كل هذا البكاء فقالا يارب مانأمن منك فقال الله تعالى هكذا كونا لأننا منكروى . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أنفثة اللائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم طادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالى لأرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضى الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من الخمر وبأكل فقال يا ابن عمر مالك لأننا كل قلقت يا رسول الله لأشتهيته فقال لستنى أشتهيته وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربى لأعطاني ملك قيسر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يغشون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فواقه ما برحنا ولا نقا حتى نزلت حوكبان من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم . قال فقال رسول الله ﷺ إن الله ليأمركم بكنز المال ولا يتابع الشهوات من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ألا وائى لا كنز دينار ولا درهما ولا أخبار رزق القعد (٤)» . وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما سجدا لا يرفع رأسه حتى نبت الرعى من دموعه وحق غطى رأسه فودى يداود أجاجع أنت فطعم أم ظمآن ففسق أم عارف فكسى فحب نعمة هاج العود فأحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفى فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا ييسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثائه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه مافرع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته : إلهى إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحى . سبحانه إلهى أنيت أطباء عبادك ليدواوا خطيئتي فكلمهم عليك يدلى فؤسا للقاتنين من رحمتك . وقال الفضيل بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضع يده على

بلطف ففشى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له سمائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة مع لصدره أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذى في الشمائل والنسائى من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السماع (٢) حديث ما جاءني جبريل قط إلا هو وترعد فرائضه من الجبار لم أجده هذا اللفظ وزوى أبو الشيخ في كتاب العظيمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سمالك الحنفى يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلًا وورد ذلك أيضا في حق إسرافيل رواه البيهقي في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من الخمر وبأكل الحديث ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد مجهول والجراح من مناله ضعيف .

كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعنته » وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما ما اختلف رجل إلى مجلس ثلاثا من غير حاجة تكون له ففعلت ما مكافأته في الدنيا وكان يقول سعيد بن العاصى للجليسى على ثلاث إذا دنا رجبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان فإن ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلقه إلى شئ يحكم بدوام خلقه ومن شرط الحب في الله

رأسه حتى لحق بالجلال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بملائكة غلاظ شداد لا يصون الله مأمورهم ويملون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي مع صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أمترحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كفت للماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظفني الطير على رأسي وأنست بالوحوش إلى عمراني إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة للعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقتة يدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى وشكالى الوحدة فزوجته حواء أمي وأسكنته جنى عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اجمع منى والحق أقول أطمعنا فأطعناك وسألنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلكنا وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج له المنبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قلنا قال فتأتى الوحوش من البراري والصوامع والبيع فينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الشاء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتصوت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي الباحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبناء قد مضت الستمعين كل محرق ومات طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدغاء فينأهوا كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل يا داود مهلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخبر داود مفسيا عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه آتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتلته ذكر النار يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال بناجي ربه فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه فرس من شعير فيقول يا أبناء تقو بهذا على ما تريد فأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس يمشون ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلى ألفي عشرة آلاف قال وكان له جاريتان أخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب فعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت القدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي ولسكوا فيها السلاسل وعدوا أنفسهم إلى أطراف بيت القدس فهاله ذلك

إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - فقوله تعالى - لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم وهذا الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انزعاج الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا . والثاني الإيثار بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام «المرء على دين خليله والاخير

فرجع إلى أبويه ثم بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا للعب فقال إني لم أخق للعب قال فأتى أبويه فسألهما أن يدرجاه الشعر ففعلوا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيوان الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أتقن رجلية في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لأذوق بارد التراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يظفر على قرص كان متهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكثر عن يمينه فمدح بالبرفردة أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلي بكى حتى يسكى معه الشجر والدر ويسكى زكريا عليه السلام لبيكاته حتى يضع عليه فلم يزل يسكى حتى خرفت دموعه لحم خديه وبدأت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن أخذلك شيئاً توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فمعدت إلى قطاف لبودفألقتهما على خديه فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فعضرتهما فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوماً يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقر عيناي بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك . وقال المسيح عليه السلام : معاشر الخواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويأعدان من الدنيا بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على الزايل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل . وقيل كان الحليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يفضى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلاً يخاف خليله فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خفي فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

#### ( بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف )

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً . وقال أبوذر رضي الله عنه وددت لو أتي شجرة تعضد وكذلك قال طلحة . وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا مت لم أبعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مفشياً عليه فكان يباد أياً ما وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً مذكوراً ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلدن أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خيطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه - إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خرم فشيأ عليه ومريو ما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع - نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زماناً ثم رجع إلى منزله ففرض شهرام عوده الناس ولا يدرون ما مره وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصيحون شتاً صفر اغبرا بين أعينهم أمثال الركب للمزى قد بانوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراو حون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فادوا كما عبيد الشجر في يوم الريح ومهلت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فسكأت بالقوم بانوا غافلين

لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه وكان يقول أبو معاوية الأسود إخواني كلهم خير مني قيل وكيف ذاك قال كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلى على نفسه فهو خير مني ولبعضهم نظماً : تذلل لمن إن تذللته يرى ذاك للفضل لا قبله

وجانب صداقة من من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له .

[ الباب الخامس والخمسون في آداب الصعبة والأخوة ]  
مثل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصعبة



ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقى ، وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اضمر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسعود كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاري يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لأعصيتك جهدي أبدا فأعنى بتوفيقك على طاعتك ، وكان المسور ابن مخزومة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عند الحرف والآية فيصيح الصيحة لما يعقل أياها حتى أتى عليه رجل من ختم ققرأ عليه - يوم نخشى التفتين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من الجرمين ولست من التفتين أعد على القول أيها القاري . فأعادها عليه فشيق شقة فلحق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يناد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرة متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذلها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وبئس ما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول ثكلت مالكاً أمه ، وروى أن الفضيل رأى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكوى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تقرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأناه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج والموت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدا وطى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا وموقفنا . وروى الحسن بن شاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يا فقيهل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري إلى الجنة نصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فمارؤى ذلك الفقى بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأنتت فيقول تلك جلسة الأمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبد الأبقى إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلم من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالى ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تبعده لقي مالى ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه . وقال السرى : إني لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسى أن الله ينظر إلى نظري السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إني اجتربت البارحة على الله أسأله الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها يابى إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً وأكانك أحدث حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلتك ونهارك فقال يا أماء ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال وعزتى وجلالى لا غفرت لك ، وقال الفضيل إني لا أغبط نبياً مرسل ولا ملكاً مقرباً ولا عبداً صالحاً أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخاف . وروى «أن فى من الأنصار

فقال حفظ حرمت  
التابح وحسن  
العشرة مع الإخوان  
والنصيحة للأصغر  
وترك صحبة من ليس  
في طبقهم وملازمة  
الإيثار ومجانبة الأذخار  
والمعاونة في أمر الدين  
والدنيا فمن أديهم  
التغافل عن زلل  
الإخوان والنصح فيها  
يجب فيه النصيحة  
وكنتم عيب صاحبه  
واطلاعه على عيب  
يطلع منه . قال عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه  
رحم الله امرأ أهدى  
إلى عيوبى وهذا فيه  
مصلحة كلية تكون  
للشخص ممن ينهيه  
على عيوبه قال جعفر  
ابن برقان قال لي

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه ففر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فنت كبده (١) وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول يا ليت أُمِّي لم تلدني فقالت له أمه يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الإسلام قال أجل ولكن الله قدين لنا أنا ولردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخى أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فذا كرن ثواب الله وعقابه فتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما فزع فسقط فافتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلام طام قال هذا من أجل يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عبدة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم تنسور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله الطيمين وكيف أهان العاصين فينبأهم بمشون إذ مر أحدهم بمكان غمر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله يكون في يوم شديد البرد وجبينه برشح عرقا فجاءوا بعماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من النصارى - يوم قلب وجوههم في النار - ولون باليتنا أظننا الله وأظننا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما فقرأت - كما أراؤا أن يخرجوا منها أعيدها فبقيا - فخر ميتا ، وروى أن زرارَةَ بن أبي أوفى صلى بالناس النداء فلما قرأ - فاذا نقر في الناقور - خر مغشيا عليه فحمل ميتا . ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظمي يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكي ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكي ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غمر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لم وعدهم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولد لها وهي تقول يا ابتاه ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقبل مرضه سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في اللذة الحنيفة مثله وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح نفث على عظمي فقلت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فإن لم تبكوا فنيا كوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٣) وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي مأكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه فان الصادق يحب من صدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر - ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفاء والروة فقال له العباس قلمت ما كان

(١) حديث إن فني من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة واليه في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر .  
(٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لم وعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أقف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فوالذي نفسي بيده لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٣) وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الطريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤى الفضيل يوما وهو يتنقح قيل له إلى أين؟ قال لا أدري وكان يتنقح والمها من الحوف . وقال ذو بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلمين يتكلمون فلا يبيكي أحدنا إذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائمة التكلتي كالنائمة للنائجة وحكي أن قوما وقفوا بباب وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرعة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعت جسمي عن خدمتك فأعتني . وقال صالح المري : قدم علينا ابن السكاة مرة فقال أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم فنهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فإذا رجل يعمل خوصا قمرأت عليه . إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون . فسحق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه قمرأت هذه الآية فسحق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا قمرأت . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . فسحق شهقة فبدأ الدم من منخريه وجعل يتسخط في دمه حتى يس فركناه على حاله وخرجنا فأدبرته على ستة أنفاس كل فخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فإذا امرأة من داخل الحصى تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال إلا إن المخلوق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقى مبهوتا فأتها فاه شاخصا بصره يصيح بصوته له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك حالت عن القوم فإذا ثلاثة قد أقاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل ممنا أبدا فأرؤى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل ممنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغنى أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سمعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أى حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على منتهى فقال هيبه قالت جئى بعبد الملك بن مردوان فحمل عليه فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيبه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيبه قالت ثم جىء بسلیمان بن عبد الملك فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيبه قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خرو مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجله

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده فقال إذن لا يردى إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه ومن أدبهم أن لا يرون أنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيان كنا لاصحاب من يقول نملى . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى الظفر عن والده أبى القاسم القشيري قال سمعت أبا حاتم الصوفي قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانسي دخلت على قوم من الفقهاء يوما بالبصرة فأكرموني

وبحكي أن أويس القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكي من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسدهم وراءه وكان طائوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلب كما تتقلب الحبة في القلي ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام باليقين كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك خوفا من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فإذا سكنت كأن النار تسمر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض ما يكره ففتنى فقال اذهب فلا عفت لك فانا أعمل في غير معتمل . وعن ابن الهالك : قال وعظت يوما في مجلس قمام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسمع غيرها قلت وما هي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفى النار ثم غاب عني فقعدته في المجلس الآخر فلم أراه فسألت عنه فأخبرت أنه مريض بما دأبته أعوده فقلت يا أخى ما الذى أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة والإفليس أمنا قلعة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شغوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرحيل ينهبنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزجنا فسنأل الله تعالى أن يتدارك بفضل وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعتنا وغرسنا وأنجرتنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقها وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهدنا في طلب أرزاقنا ولا شق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قلنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي إليه رجأؤنا وبه اعترأنا بناديننا ويقول - وأن ليس الإنسان إلا ماسعى . ولا يفرنكم بالله القورور . يا أيها الانسان ما تغرك بربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه إلا حنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بنوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فسنأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سراير قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما صعدنا عصينا فلا علامة للخلاص أعظم من هذا فسنأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشدينه وفضله ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يفتنى . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهية المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعته من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالتي منظره قلت أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك فقال يا أخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والموام فهو خائف حذر

وبجلوني قلت يوما لبعضهم ابن إزارى فدة طبت من أعينهم . وكان ابراهيم بن آدم إذا سمع إنسان شارطه على ثلاثة أشياء أن تكون الخدمة والأذان له وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه أنا لأقدر على هذا فقال أعجبني صدقك . وكان ابراهيم ابن آدم ينظر البسائين ويحمل في الحصاد وينفق على أصحابه . وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله

يخاف أن يفشل فتفرسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في الحفاقة ليله وإن أمن المفترقون وفي الحزن نهاده وإن فرح البطالون ثم ولى وتركنى ققلت لو زدتنى شيئا عسى ينفعنى فقال الظلمان يحزبه من الماء أيسره وقد صدق فإن القلب الصافي يحركه أدنى عتافة والقلب الجامد تنبو عنه كل الواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهى التى لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك عايتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الواقعة لما نيتها ترى عينك العقارب والحيات وقد أحدثت بك في قبرك وإنما هى صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فإن أردت أن تقلمها وتقرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

### كتاب الفقر والزهد

( وهو الكتاب الرابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذى تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتكدك من هيبته الجبال ، خلق الانسان من الطين اللازب والصاصل ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالعدو والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص فى خدمته بنور المبرة حتى لاحظ بضائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال ، واستغل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستغفال ، وغفل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوها عجنبت من طينة الحزى وضربت فى قالب النكال ، وهى متلفعة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها فى مدارج الرجال ، فهى تقتنصهم بضروب السكر والإغتيال ، ثم لا تجترى معهم بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل تقديم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف لعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد البغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يترتبها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[ أما بعد ] فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبكرها زل من زل فالحذر رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها ودم الحب لها فى كتاب فم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس النجيات ، فلا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواهم عن العبد ويسمى ذلك قفرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجته فى نيل السعادات وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودراجتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب والزهد فى شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فقول : [ الشطر الأول من الكتاب فى الفقر ] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

( كتاب الفقر والزهد )

تعالى - وأمرهم شورى بينهم - أى مشاعهم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استقلوا صاحباً يتمون أنفسهم ويتسبون فى إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة فى الصفة. قال أبو بكر الصكفاني صحبني رجل وكان على قلبي ثقبلا فوهبت له شيئا بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزول فخلوت به يوما وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لابد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده فى باطني قال الرقي قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغنى وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

### ( بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساليبه )

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون إليه ليجدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى - والله الغنى وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا ولكي لا ينقص بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص وإلا فقير العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن بيانه فقط فقول: كل فاقده للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك الفقد محتاجا إليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونعني بغيرها ونخصص كل حال باسم لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يستغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قائما إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب لهجزء وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما قدومه من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعمال الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقدا تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عند وجود المال وقدمه فان وجد لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاهامائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادماتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بذر من الحنظل تطير عليه فقالت لو ذكرتني لعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا فبهرها في يده وخزائنه لم تضره إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره . وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة للستغنى لأنه غنى عن قد السال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى بخارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو فقير إلى بقاء المال في يده وإتمامه غنى عن دخول المال في يده لاعتناءه بقاءه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فانه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه وليس فاقدا له

حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والابتناء بالوضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدرين فلم يجذوا بوضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا فكانهم فاشتر ذلك عليهم فأنزله الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بشار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فقاما فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده فتناء إلى العموم أميل فهو إلى الفنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غيايبل مستغنيا ليقى الفنى اصلا لمن له الفنى المطلق عن كل شئ' وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا أوعدما فلم يستغن عن أشياء أخرى سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب للقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعنته من هذا الرقى فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرقى والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن فذلك لم يكن اسم الفنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا . واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه قصا فانه إذ حسنت الأبرار سيئات المقربين وهذا لأن الكثرة لدينا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا يبدى بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب إليك من جبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره . وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول بغيره يفيض عنه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستغفله وكرهه حضوره فهو في حال اشتغال قلبه يفيضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لفعل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بنضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول يفيض الدنيا غافل عن الله كما المشغول بحبا إلا أن المشغول بحبا غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد والمشغول ببغضا غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود فالكمال له مرتبة لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالهيب والبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلقها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبرها فهما سيان بالاضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالاضافة إلى المستدبر في الكعبة اللازمة لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا حائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع الحائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فيبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم الحائق عن الحج، فاذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص وتقصان بالاضافة إلى درجة المستغنى بل الكمال في حق المال أن يسوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالقرار عن جوار الماء الكثير ولا يفيض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله قدّم فقال  
بأى عذر فقال بأنك  
لقيت الجنيد ومالقيته  
ومن أدبهم ترك محبة  
من همه شئ من  
فضول الدنيا قال الله  
تعالى - فأعرض عمن  
تولى عن ذكرنا ولم يرد  
إلا الحياة الدنيا -  
ومن أدبهم بذل  
الانصاف للاخوان  
وترك مطالبة الانصاف  
قال أبو عثمان الجيرى  
حق الصعبة أن توسع  
على أخيك من مالك  
ولا تطمع في ماله وتصفه  
من نفسك ولا تطلب  
منه الانصاف وتكون  
تعاله ولا تطمع أن  
يكون تعالك وتستكثر  
ما يصل اليك منه  
وتستقل ما يصل اليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فمكذبا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لاجتماع مادت حيا كأيأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى قال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة أذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن الأص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فيبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والقصان . فإن قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار . فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم قفروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدير ونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حدث خزان الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهم فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عن عمر خاف أن لو أخذها أن يخذله المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البعض المال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال واسكن أظهر الفرائد والنفار نزول إلى درجة الضعفاء ليقصدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لما سلكوا كما يفر الرجل المعزوم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها واسكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآها فهاهنا يسكن والسير يسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن الراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص ، وأما المظطر فيتصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فإنه أحق باسم العبد من العالفين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر» (٢)

منك . ومن أدبهم في الصعبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قعة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أدبهم أن لا يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا فأنهم يرون هذه التنديرات عليه اعتراضا . ومن أدبهم في الصعبة حذر المفارقة والحرم على الملائمة . قيل محب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وإن كان

(١) حديث إن خزائن الأرض سمحت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقاً مجزوماً به من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث من البحرين وكان أكثر مال أنى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحبته من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بن مال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمونه الحديث ولهما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلاثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .



وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا »<sup>(١)</sup> لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وميتى مسكينا »<sup>(٢)</sup> إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأل في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

( بيان فضيلة الفقر مطلقا )

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقر المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقر الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض - ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضى الله عنه ما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير فقالوا موسى بن النبال يعطى حتى يشبع » وقال صلى الله عليه وسلم نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده<sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا »<sup>(٤)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الفقير المتعفف أبيا العيال »<sup>(٥)</sup> وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام »<sup>(٦)</sup> وفي حديث آخر « بأربعين خريفا »<sup>(٧)</sup> أى أربعين سنة فيكون للراد به تقدير تقدم الفقير الحرص على الفنى الحرص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الفنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوت بين الفقراء في درجاتهم وكأن الفقير الحرص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرى على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »<sup>(٨)</sup> فإنه تقدير تحقيق للتحقق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتحسين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبى ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته واللائكة والبر والآخر لا كما يعلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيى مسكينا وميتى مسكينا الترمذى من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا موسى بن النبال يعطى حتى يشبع من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا والحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبيا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخارى من حديث أبى سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبى هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصحبه لأنك صحبتنا أولا فقال الرجل زال عن قلبى نية المفارقة . ومن أدهم التعطف على الأصغر . قيسل : كان إبراهيم بن آدم يعمل في الحصاد ويطعم الأصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل فقالوا ليلة تعاملوا أنا كل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فأفطروا وناموا فرجع إبراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلمهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق فعبه فانتبهوا وهو ينفع في النار واضعا

بل مخالفا له بكثره المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها  
 تتم له الأفعال الخارقة للمعادات كما أن لنا صفة بهاتم الحركات القرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة  
 وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بهايصر لللائكة ويشاهدكم كأن  
 للبصير صفة بها يغارق الأعمى حتى يدرك بها البصير. والرابع أن له صفة بهايذكر ما سيكون في الغيب  
 إما في البقطة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم  
 ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكن أن قسمها إلى أربعين وإلى  
 خمسين وإلى ستين ويمكن أيضا أن تكاف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة  
 جزءا واحدا من جهلتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن  
 وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما العلوم بمجامع الصفات  
 التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لإبرشدها إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء  
 لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحرامس مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد  
 حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس  
 في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والفرض التنبيه على  
 منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضيف الايمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولترجع إلى نقل الأخبار فقد  
 قال صلى الله عليه وسلم أيضا « خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها » (١) وقال  
 صلى الله عليه وسلم « إن لي حرقين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر  
 والجهاد » (٢) وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ  
 عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً (٣) وتكون معك أينما كنت فأشرق رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له وما لمن لا مال له ولها يجمع من  
 لا عقل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت . وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرفى  
 سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذا كره الله تعالى فقال ما تريد مني ؟ إنى  
 قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حبيبي وموسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب  
 وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متر بعباءة فقال يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع  
 فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا  
 كلها وعن أبى رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه  
 فأرسلنى إلى رجل من يهودى خير وقال قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بنى دقيقا إلى هلال رجب  
 قال فأنتبه فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله  
 إنى لأؤمن في أهل السماء أسير في أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفنى لأديت إليه اذهب بدرعى

عاشته على التراب فقالوا  
 له في ذلك قال قالت  
 لعلكم لم تجدوا فطورا  
 فتمتم فقالوا انظروا  
 بأى شيء عاملناه  
 وبأى شيء ياملنا .  
 ومن أدبهم أن لا يقولوا  
 عند الدعاء إلى أين ولم  
 وبأى سبب ؟ قال بعض  
 العلماء إذا قال الرجل  
 لصاحب قم بنا فقال  
 إلى أين فلا تصعبه .  
 وقال آخر من قال  
 لأخيه أعطنى من  
 مالك فقال كم تريد  
 ما قام بحق الإخاء وقد  
 قال الشاعر :  
 لا يسألون أخاهم حين  
 يندبهم  
 لئلا يثب على ما قال برهانا  
 ومن أدبهم أن  
 لا يشكفوا للاخوان

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها لم أجده له أصلا (٢) حديث  
 إن لي حرقين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال  
 إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً الحديث وفيه إن الدنيا دار  
 من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبى أمامة عرض على ربه  
 ليحصل لى بطحاء مكة ذهباً قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن  
 ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم في ذم الدنيا .

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولا تمدن عينيك إلى مامتنعا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تمزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس (٢)» وقال ﷺ «من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كتب الأخبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرني من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مرباخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحبثان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للدلائكة اكشفوا العبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من السكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أبن الأغنياء قليل حبيهم الجدة» وفي حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء قللت ما شأنهن قليل شغلن الأحرار الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل القنى الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت القنى مقبلا فقل ذنب عجبت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبه لأجلك فقال: كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديدا الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى مامتنعا به أزواجا منهم - الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبراني من حديث عداد بن أوس بسند ضعيف والعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه الحديث الترمذى وقد تقدم (٤) حديث اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزبارة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازى في شرف الفقر وأبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به رواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت يبنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت القنى مقبلا فقل ذنب عجبت عقوبته أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كتب

قيل لما ورد أبو حفص  
المسراق تكلف له  
الجيد أنواعا من  
الأطعمة فأنكر ذلك  
أبو حفص وقال صير  
أصحابي مثل الخائث  
يقدم لهم الألوان  
والفتوة عندنا ترك  
التكلف وإحضار  
ما حضر فإن بالتكلف  
ربما يؤثر مفارقة  
الضيف وبترك  
التكلف يستوى  
مقامه وذهابه ومن  
أدبهم في الصعبة  
المدارة وترك الداهنة  
وتشبه المدارة  
بالداهنة والفرق بينهما  
أن المدارة ما أردت  
به صلاح أخيك  
فدأرت لرجاء صلاحه  
واحتملت منه ما نكره

عليه وسلامه إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسماء إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجى ونجى إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأثر وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفوة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاعتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس النخعي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فترك عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم لمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر الله تعالى - عيسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فنصفه الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فأنت له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوائك على ولكن لما أعددت لك من السكرامة والفضيلة أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف لمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ يده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ يده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندكم الأيادي فان لهم دولة قالوا يارسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

الأخبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشراف قريش ونزول - قوله تعالى - عيسى وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوائك على الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أذنوا من أحبائي فتقول الملائكة ومن أحبائك فيقول فقراء المسلمين فيدونون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتمت اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسبق في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندكم الأيادي فان لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد عيروا إلى الفقراء فيعتلر إليهم كما يعتلر أحدكم إلى

والدهانة ما قصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه . ومن أدبهم في الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط ، قل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكان بين النقبض والتبسط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم ناعما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونعطيه فقال بل تكشفون عورته

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت في أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقلت يارب ما شأنهم قال أما النساء فأضرتهن الأحرار الذهب والحريز وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عنى قال يارسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت للشياطين وظننت أني لأأراك ، فقلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي (١) فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة (٢) وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «الامن قال بالمال هكذا وهكذا (٣) ومع هذا فقد استضرته بالنفى إلى هذا الحد» ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال :لوقسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «الأنخيركم عنكم أهل الجنة قالوا بلى يارسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشمت ذى طمرين لا يؤبه له لو أنتم على الله لأبره (٥)» وقال عمران ابن حصين «كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأني أنت وأمي يارسول الله فقام وقت معه حتى وقف بياب فاطمة ففرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يارسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يارسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بشك بالحق نيا ما لي إلا عبادة قال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف يرأسى فألقي إليها ملاء كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم بالابتناء كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجمة وزادني وجما على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضربني الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي بالابتناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإني لأكرم على الله منك ولوسألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب يده على منكبها وقال لها أبشري فوالله إنك أسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إن تكن في بيوت من نصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقمني بأبن عمك

إلى أخيه في الدنيا [١] (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت إلى أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث إامن قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لوقسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده (٥) حديث الأنخيركم عنكم أهل الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقلوا ملوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الأنخيركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشمت .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبي العباس نخط بمض الفضلاء حديث اتخذوا مع الفقراء أيادي وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت في كلام له آخر .

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحكم يسمع في أخيه بالسكامة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهور الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع السكاره عنهم . حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إني ابتليت بهوى فان شئت أن لاتعقد على محقق لله فأقول فقال ما كنت لأحل عقد إخالك لأجل خطيبتك وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمافيه الله تعالى من هواه وطوى أربعين يوما كذا يسأله

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة<sup>(١)</sup> وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالتحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولادة الأحكام والشوكة من الأعداء<sup>(٢)</sup>». وأما الآثار فقد قال أبو الفراء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشد حسبا أو قال أشد حسبا من ذي الدرهم، وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كشيا فقال أدراة أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويسكب إلى الفداء ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بمسحاة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج<sup>(٣)</sup>» وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوق قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يؤذون أنهم قراء لكثرة تفرقه لافقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله. وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولورغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسمعت في الدارين جميعا وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر. وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحدا خلقان ثيابه فان ربك ورب واحد وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق الرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبا، ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمروق وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحا تظطرين عليه وكانت صائفة فقالت لو ذكرتني لعملت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحق بى فطليك ببش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعه<sup>(٤)</sup>» وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أعوامسى من ديوان الفقراء بشرة آلاف درهم؟ لأفضل ذلك أبدا رضي الله عنه.

عن هواه يقول مازال  
فبعد الأربعين أخبره  
أن الهوى قد زال  
فأكل وشرب. ومن  
أدبهم أن لا يحوجوا  
صاحبهم إلى الداراة  
ولا يلجأوه إلى الاعتذار  
ولا يتكلموا للصاحب  
ما يشق عليه بل  
يكونوا للصاحب من  
حيث هو مؤثرين مراد  
الصاحب على مراد  
أنفسهم قال علي بن أبي  
طالب كرم الله وجهه  
شر الأصدقاء من  
حوجك إلى مداراة  
أو الجأك إلى اعتذار  
وتكلفت له. وقال  
جعفر الصادق أنقل  
إخواني على من  
يتكلف لي وأنحفظ  
منه وأخفهم على قلبي

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جملة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمسحاة عام الحديث وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء حزينا وفرقا، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بمسحاة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورتين .  
(٤) حديث قال لعائشة إن أردت اللحق بى فطليك ببش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم .

بيان فضيلة خوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (١) »  
وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تنظفروا بثواب فقركم وإلا فلا (٢) »  
فالأول القانع وهذا الراضى وبكاد يشعر هذا بمفهومة أن الحريص لأثواب له على فقره ولكن الصومات  
الورادة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل للراى عدم الرضا والكرهات لعل  
الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في ضله  
تلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى  
الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم على جلاء  
الله تعالى يوم القيامة (٣) » وروى عن طي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى  
الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد  
كفافا (٥) » وقال « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا (٦) » وأوحى الله  
تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال  
صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يوم القيامة  
أين صفوتي من خلقي فقول الملائكة ومن هم يا ربنا فقير قال فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون  
بقدرى أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون (٨) » فهذا في  
القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار  
في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يغني أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن  
الطمع قهر والياس غنى وإنه من يشى عمافى أيدي الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله  
تعالى عنه ما من يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال  
أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه ما من أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أئته الدنيا بالزيادة ظل فرحا  
مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمر ثم لا يحزنه ذلك ويع ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل  
لبعض الحكماء ما ألقى قال قللة نسيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن آدم من أهل النعم غراسان  
فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل  
نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فبطني به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواء مسلم وقد تقدم (٢) حديث  
يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث  
أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث  
(٣) حديث إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى في غرائب مالالك  
وأبو بكر بن لال في مقام الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .  
(٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند  
ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير المتعفف (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من  
حديث أنى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود  
يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل  
من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتي من خلقي ؟  
فقول الملائكة ومن هم يا ربنا ؟ فقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس .

من أكون معه كما  
أكون وحدى وآداب  
الصحة وحقوق  
الأخوة كثيرة  
والحكايات في ذلك  
يطول قلها وقد رأيت  
في كتاب الشيخ أبي  
طالب المكي رحمه الله  
من الحكايات في هذا  
المنى شيئا كثيرا قد  
أودع كتابه كل شئ  
حسن من ذلك وحاصل  
الجميع أن العبد ينبغي له  
أن يكون لمولاه وريد  
كل ما يريد لمولاه  
لأنفسه وإذا صاحب  
شخصا تكون محبته  
إياه لله تعالى وإذا صحبه  
الله تعالى يجتهد له في كل  
شئ يزيد عند الله  
زلفى وكل من قام  
بحقوق الله تعالى برزقه

قال نعم قال فشبت قال نعم قال نعم ثم طيسا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدين والنفس تنفع بهذا القدر ومرة رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبلا فقال له يا عبد الله أَرْضَيْتَ مِنَ الدُّنْيَا هَذَا فَقَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بِشَرٍّ مِنْ هَذَا قَالَ بَلَى قَالَ مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا عَوَّضًا عَنِ الْآخِرَةِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَخْرُجُ خَبْرًا يَأْسَا فِيهِ الْمَاءُ وَيَأْكُلُهُ بِالْمَلْحِ وَيَهْوِلُ مِنْ رَضَى مِنَ الدُّنْيَا بِهَذَا لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَنْ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ لَمْ يَصْدُقْهُمْ ثُمَّ قَرَأَ - وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَوْعَدُونَ فَوَرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّمَا لَقِيَ - الْآيَةَ . وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ لَهُ أَتَجْلِسُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَاللَّهُ مَا فِي الْبَيْتِ هُمَةٌ وَلَا سَفَهَةٌ فَقَالَ يَا هَذِهِ إِنْ بَيْنَ أَيْدِيَنَا عَقِبَةُ كَثُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ غَفَّ - فَرَجَسَتْ وَهِيَ رَاضِيَةٌ وَقَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الْكَفَرِ ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ مَا مَالُكَ فَقَالَ اتَّجَمَلُ فِي الظَّاهِرِ وَالتَّصَدَّقُ فِي الْبَاطِنِ وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَرَوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ الذُّكُوبِ السَّالِفَةِ الْمَزَلَةِ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَوْتُ فَإِذَا أَنَا أَعْطَيْتُكَ مِنْهَا الْقَوْتُ وَجَعَلْتُ حَسَابَهَا عَلَى غَيْرِكَ فَأَمَّا عَمَّنِ الْيَكُ وَقَدْ قِيلَ فِي الْقَنَاعَةِ :  
اضرع الى الله لاتضرع الى الناس واقنع بئاس فان العز في اليأس  
واستن عن كل ذي قربى وذى رحم إن النفي من استغنى عن الناس  
وقد قيل في هذا النفي أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه      بقدر أي باب منه يضلعه  
مفكرا كيف تأتبه منيته      أغاديا أم بها يسرى فتطرعه  
جمعت ما لا يقل لي هل جمعت له      يا جامع المال أياما تفرقه  
للال عندك غمزون لوارثه      ما اللال مالك إلا يوم تنفقه  
أرفه ييال فتي يذو على ثقة      أن الذي قسم الأرزاق يرزقه  
فالعرض منه مصون ما يدنس      والوجه منه جديد ليس يخلقه  
إن القناعة من يهلل بساحتها      لم يبق في ظلها هم يورقه

#### بيان فضيلة الفقر على النفي

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيذ والحواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء النفي الشاكر القاسم يحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيذ دعا طي ابن عطاء لمخافته إياه في هذا فأصابته عنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا وجه الفناوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والنفي إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : إنما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أراض بالاضافة الى غنى منفق ماله في الحيرات ليس حريصا على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يغني أن الفقير القانع أفضل من النفي الحريص المسك وأن النفي المنفق ماله في الحيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن النفي أفضل من الفقير لأنهما تساويا في ضئف الحرص على المال والنفي متقرب بالصدقات والحيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيها نحسبه ، فأما النفي المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالحيرات والصدقات والحج والجهاد فلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم يالون بها فوق ما ناله الأغنياء فقدم الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويصرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيها يرجع إلى حقوق الحق وفيها يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبت النفس وعدم تركيتها وبقاء صفاتها عليه فإن صحبت ظلمت بالأفراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيها يرجع إلى الحق والخلق والحكايات والوعاظ والآداب وسماعها لا يعمل في النفس



فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء <sup>(١)</sup> وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لأنه وصف الحق أماديله الأول فيه نظر لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال «لبيت الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ قال إني رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا تقدر عليه ويعتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا بشئوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا النبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا <sup>(٢)</sup> فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فاقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات الصودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته <sup>(٣)</sup>» وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنها من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بمهمات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لاتبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والعرفة فان وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف النطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن لا يراود لينة بل يراود لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست بخدورة لينة ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوب بالينه لكن لأن فيه قد المائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن القصد وغاية القصد في الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بيت الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا الغنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى قراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا مشركم أن قراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري تقدم في العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون كبر قلب فيه للسوء من فوفه فلا يمكث فيه ولا ينفع به وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياة وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

[ الباب السادس والخمسون في معرفة الانسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك ]

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزيني قال أنا كريمة للروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير  
 ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق  
 حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله  
 وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين  
 المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا إن فرصت فارغين عن  
 حب المال بحيث صار المال في حقيهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر  
 الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من قده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل للعرفة وإن أخذت  
 الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن الصمة  
 أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصرنا وبلينا بفتنة السراء فلم  
 نصبر وهذه خلقه الآدميين كلهم إلا الشاذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما  
 كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن  
 الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال للبيوع عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن  
 بريق أموالهم ينهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تغليب الأموال بمص حلاوة الإيمان  
 وفي الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجلا هذه الأمة الدينار والدرهم <sup>(١)</sup> » وكان أصل مجمل قوم موسى  
 من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما تصور للأتباء عليهم السلام  
 والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول  
 للدنيا « إليك غنى <sup>(٢)</sup> » إذ كانت تمثل له زينتها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري  
 غري ويا بيضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى  
 برهان ربه وذلك هو الغنى للطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما  
 الغنى غنى النفس <sup>(٣)</sup> » وإذا كان ذلك بعيدا فاذا الأصلح لكافة الخلق فقد للمال وإن تصدقوا  
 به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها  
 واستمتاع راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش  
 من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله من جهة ومهما  
 انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى  
 وكان مؤمنا بالله انصرف للاحالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره  
 فمن أقبل على غيره قد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر  
 تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلها مثل الشرق والغرب فانهما جهتان  
 فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد  
 من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في  
 عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فاذا فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فإن تساويا  
 فيه تساوت درجتاهما إلا أن هذا مزية قدم وموضع غرور فإن الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

الكشميه في قال أخبرنا  
 أبو عبد الله القزويني  
 قال أنا أبو عبد الله  
 البخاري قال ثنا عمر  
 ابن حفص قال ثنا أبي  
 قال ثنا الأعمش قال  
 ثنا زيد بن وهب  
 قال ثنا عبد الله قال  
 ثنا رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وهو الصادق  
 للصدوق قال « إن  
 أحدكم يجمع خلقه في  
 بطن أمه أربعين يوما  
 نقطة ثم يكون علقه  
 مثل ذلك ثم يكون  
 مضخة مثل ذلك ثم  
 يبعث الله تعالى إليه  
 ملكا بأربع كلمات  
 فيكتب عمله وأجله  
 ورزقه وشئ أم سعيدته  
 ينفخ فيه الروح وإن  
 الرجل يعمل بعمل

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل وهذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الدبلي من طريق  
 أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك غنى  
 الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث منفق  
 عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عن المال ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقد فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد قلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً فكلم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغروراً وأن العشق كان مستكناً في القواد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدين أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيحاته وعباداته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كالتأثير في قلب مشغول وقدك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطبخ النار بالحلفاء ومثل من يفسد يده من الغمر بالسلك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس قعر دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئاً يشبهه فصر واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضرتني البيال فقال إذا قال لك عيال لك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فإن دعائك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزينة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسنة وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الدلالة عند النصف من نفسي والزهد فيها جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن قد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان يتفولاً بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حائوتاً على باب المسجد ولا تحطئي فيه صلاة وذكر وأربع كل يوم خمسين ديناراً وأصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكبره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس و فراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقاءه فلا يضاهاه غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له أي يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فليق به ، نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأثور

أهل النار حتى ما يكون  
بينه وبينها إلا ذراع  
فيسبق عليه الكتاب  
فيعمل بعمل أهل الجنة  
فيدخل الجنة وإن  
الرجل ليعمل بعمل  
أهل الجنة حتى  
ما يكون بينه وبينها  
إلا ذراع فيسبق عليه  
الكتاب فيعمل بعمل  
أهل النار فيدخل النار  
وقال تعالى - ولقد  
خلقنا الإنسان من  
سلالة من طين ثم جعلناه  
نطفة في قرار مكين -  
أي حريز لا استقرارها  
فيه إلى بلوغ أمدها ثم  
قال بعد ذكر تلباتهم  
أنشأناه خلقاً آخر - قيل  
هذا الانشاء نفخ الروح  
فيه . واعلم أن الكلام  
في الروح صعب المرام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتليس فلي  
العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والطيع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانس  
أكبر من البهيمة والحماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة  
لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولا ثقة به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك  
موقوف على الحاتمة وليس يدرى الحاتمة كيف تكون وكيف تنقضي فلهذه بذلك وجب أن لا يستند  
لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يختم للكافر بالإيمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لاثابه  
لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه من  
صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس  
من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تصور في العبد من صفات  
الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذن لو استوى عنده وجود  
المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو  
فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .  
[ المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص ] ولنفرض هذا في شخص واحد  
هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأى حالته أفضل فنقول :  
ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في العيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه  
فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والتذكر إلا بقدر مدخوله  
بشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كقوت آل داود » وقال « كاد  
الفقر أن يكون كفرا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان  
المطلوب قنرا الحاجة ولكن لم يكن القصد الاستعانة به على سلوك سبيل الدين لحالة الفقر أفضل وصلاح  
لأنهما استويا في الحرص وحب المال واستوبا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق  
الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمصيبة بسبب الفقر والغنى ولكن افرقا في أن الواحد  
يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون  
الدنيا عنده كالسجن الذي ينفى الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما  
أشد ركونا إلى الدنيا فحال أشد له حالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد  
أنسه بالدنيا وقد قال عليه السلام « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »  
وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو  
الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما  
تجبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه به وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر  
من أنس الفاقدها وإن كان حرصا عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل  
والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود  
والعدم فيكون الوجود مزبدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم والثاني الفقر عن  
مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يفي حياته  
ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والعاصي ولومات جوالة كانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت  
جوعا ولا يعمد مضطرا إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حرص متكالب على

والامساك عن ذلك  
سبيل ذوى الأحلام وقد  
عظم الله تعالى شأن  
الروح وأسجل على  
الخلق بقلة العلم حيث  
قال - وما أوتيتم من  
العلم إلا قليلا - وقد  
أخبرنا الله تعالى في كلامه  
عن إكرامه بنى آدم  
قال ولقد كرمتنا بنى  
آدم وروى « أنه لما  
خلق الله تعالى آدم  
وذرته قالت الملائكة  
يا رب خلقهم يأكلون  
وحسبون وينكحون  
فاجعل لهم الدنيا ولنا  
الآخرة فقال وعزنى  
وجلالى لأجل ذرية  
من خلقت يدي كمن  
قلته كن فكان » فمع  
هذه الكرامة واختياره  
سبحانه وتعالى إياهم على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .

طلب المال ليس له هم سواء وفي غنى دولته في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لوقته كنتفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته والمعلم عند الله تعالى فيه .

### ( بيان آداب الفقير في فقره )

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومحافظته وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعني أنه لا يكون كارهها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله وإن كان كارهها للفقر كانهجوم يكون كارهها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهها فعل الحجام ولا كارهها للحجام بل ربما يتقلد منه منه فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقضيه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع من هذا أن لا يكون كارهها للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعله بفوائده التي ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقائه في قدر ضرورته أنه يأتيه لاحتالة ويكون كارهها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع بهر به ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويصيح به بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعله بشمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب . وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر أنه يستره في الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال» وقال تعالى - يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف - وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند الحاجة وقال بعضهم ستر الفقر من كذو البر . وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغيره لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في نواب الله تعالى وأحسن منه تبه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته فإذا طمع فيهم انطمعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتربسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد للقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف» (١) وينبغي أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الإخبار ثلاث درجات إحداها أن لا يدخر إلا ليوومه وليتته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من معاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث الثاني من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلًا .

اللائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال - ويشتلونك عن الروح قل الروح من أمرى - الآية قال ابن عباس قالت اليهود للنبى عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإتعا الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شيء فلم يحجبهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيتها بأذن الله تعالى ووجهه وهو صلات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة التيقن والثالثة أن يدخر لسنه وهي أقصى للراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ففى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهم كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهم قوت أربعين يوما وبعضهم يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

( بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال )

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس اللال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس اللال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو التذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما ممزوجا ببقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فإن كان فيها منة فالأولى تركها فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه للنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال «لقد هممت أن لا أتعب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي» (٤) وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح الوصلى صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من آتاه رزق من غير مسألة فرده فإني أكرهه على الله» (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزما من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليملى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من ممن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وإيم الله لا قبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالنعنة (٤) حديث لقد هممت أن لا أتعب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسل من آتاه رزق من غير وسيلة فرده فإني أكرهه على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا ولأحمد وأبي يلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرد فإني هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ الحديث .

الحوض فيه والاشارة إليه لاجرم لما تناقض الأنفس الانسانية للتطلعة إلى الفضول المتشوقة إلى للمقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه والتسوية بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتوعدت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والفعل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو لم تزلت النفوس حدها مترفة بسجوها كان ذلك أجدر بها

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم للثمن فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول أركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل ، فيقبل القبول فأخبرني حتى أخذته والإفلا ، وأما هذا أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى النية على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه بمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ماألت أحدا قط شيئا إلا سريا المقتضى لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على مايعجب ، وجاء خراساني إلى الجنيذ رحمه الله بماله وسأله أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ماأريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ماأريد أن تنفقه في الخل والبقول بل في الحلاوات والطيّات قبل ذلك منه ، فقال الخراساني ماأجد في بغداد أمن على منك ، فقال الجنيذ ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة وزكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يعطيه لذنبه فليُنظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفاً لمصلحة في السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد مايعطى ، ويقول : لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت ، وعوتب بعضهم في رد ماكان يأتيه من صلة ، فقال إنما أرد صلّتهم إشفافاً عليهم ونصيحاً لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحجون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فما لا بد منه أو هو مستغن عنه فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما للمعطي من سعة بأعظم أجراً من الأخذ إذا كان محتاجاً (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يسطو قد كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فردّه مرة ، فقال له السري : ياأحمد احذروا فة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ماقلت فأعاده ، فقال أحمد مارددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر فأحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فأفذه إلي ، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما إذا كان مأثماً زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والاتفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولاً بنفسه فلاوجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً لطريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس به فهو في سبيل الشيطان أوداع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في الملاينة

(١) حديث ما للمعطي من سعة بأعظم أجراً من الأخذ إذا كان محتاجاً للطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يردّه تقدماً قبل هذا بحديث .

وأولى فأما أقول  
من ليس متمسكاً  
بالشرائع فنزّه  
الكتاب عن ذكرها  
لأنها أقوال أبرزتها  
العقول التي ضلت  
عن الرشاد وطبعت  
على الفساد ولم يصبا  
نور الاهتداء ببركة  
متابعة الأنبياء فهم كما  
قال الله تعالى - كانت  
أعينهم في غطاء عن  
ذكرى وكانوا  
لا يستطيعون سمعاً - .  
وقالوا قلوبنا في  
أكنة مما تدعونا  
إليه وفي آذاننا وقر  
ومن بيننا وبينك  
حجاب - فلما حببوا  
عن الأنبياء لم يسمعوا  
وحيث لم يسمعوا لم  
يهتدوا فأصروا على

ويرد في السرّ أو يأخذ في العلانية ويفرق في السرّ ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ففعل كليهما في السرّ أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا أهل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمه الله فأما كان لاستغناؤه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يفتنل بأخذه وصرفه إلى غيره فإن في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعدتها للإعاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول صوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يأمن يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خلقان لا تسكاد قواريه قفلت في نفسي لأجد لدراهمي موصلا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليهما ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مزرين ودرهم ألقه ثلاثا فلا حاجة في إلى الباقي فرده . قال فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخذه خش تحت أقدامنا إلى الكعبيين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أبدى الخلق لأن هذه أتعال وقتة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب » (١) فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تنص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للمقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لغة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتمهيد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتصمكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتعمق في اللطيم والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطنب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال فضاء وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يفر للقرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه . وأما المستمكنون بالشرائع الذين تكلموا في الروح قعود منهم بطريق الاستبدلال والنظر وقوم منهم بلسان الدوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .



- ومن قدر علیه رزقه فلینفق بما آتاه الله - قبل معناه لیس أحد نوبه وقيل معناه فلیستفرض بحاجه فذلک بما آتاه الله . وقال بعضهم إن لله تعالى عبادا ینفقون علی قدر بضائهم والله عباد ینفقون علی قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصی بحاله ثلاث طوائف الأتویاء والأسخیاء والأغنیاء قبل من هؤلاء ؟ قال أما الأتویاء فهم أهل التوکل علی الله تعالى وأما الأسخیاء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنیاء فهم أهل الانقطاع إلی الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط فیه وفي المال وفی للمطی فلیأخذہ ویبني أن یرى ما يأخذہ من الله لامن للعطی لأن للمطی واسطة قدس سخر للعطاء وهو مضطر إلیه بما سلط علیه من الدواعی والإرادات والاعتقادات . وقد حکي أن بعض الناس دعا شقیقا فی خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قد قال لأصحابه إن هذا الرجل یقول من لم یرنی صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامی علیه حرام قماموا کلهم وخرجوا إلا شابا منهم کان دونهم فی الدرجة قال صاحب التزل لشقیق ما قد صحت بهذا قال أردت أن أختبر توحید أصحابی کلهم . وقال موسى علیه السلام : یارب جلست رزقی هكذا علی أیدی بنی اسرائیل یضیی هذا یوما ویسئنی هذا لیلۃ فأوحی الله تعالى إلیه هكذا أصنع بأولیائی أجری أرزاقهم علی أیدی البطالین من عبادی لیؤجروا فیهם فلا یبني أن یرى للمطی إلا من حیث إنه مسخر مأجور من الله تعالى نسأل الله حسن التوفیق لما یرضاه .

( ینان تحریم السؤال من غیر ضرورة وآداب الفقير للضرر فيه )

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فی السؤال وتشديدات وورد فیہ أيضا ما یبدل علی الرخصة إذ قال صلی الله علیه وسلم «للسائل حق ولوجاه علی فرس (١)» وفي الحديث «ردوا السائل ولو یظلف محرق (٢)» ولو کان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة للتمدی علی عدوانه والاعطاء إعانة فالكأخف للفظاء فیہ أن السؤال حرام فی الأصل وإنما یباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان کان غیابہ فهو حرام وإنما قلنا إن الأصل فیہ التحريم لأنه لا ینفک عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشکوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنموهو عین الشکوى وکان أن العبد للملوك لو سأل لکان سؤاله تشیما علی سیده فکذلک سؤال العباد تشیيع علی الله تعالى وهذا یبني أن یحرم ولا یحل إلا للضرورة كما نحل للیثة . الثاني أن فیہ إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن یذل نفسه لغير الله بل علیه أن یذل نفسه لمولاه فان فیہ عزه فأما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا یبني أن یذل لهم إلا للضرورة وفي السؤال ذل للسائل بالاضافة إلی المسؤل . الثالث أنه لا ینفک عن إیذاء للسؤل غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبدل عن طیب قلب منه فان یذل حیاء من السائل أوریاه فهو حرام علی الآخذ وإن منع ربما استعیا وتأذى فی نفسه بالمنع إذ یرى نفسه فی صورة البخلاء ففی البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وکلاهما مؤذیان والسائل هو السبب فی الإیذاء والإیذاء حرام إلا للضرورة ومهما فهمت هذه المذورات الثلاث قد فهمت قوله

(١) حدیث للسائل حق وإن جاء علی فرس أبوداود من حدیث الحسین بن علی ومن حدیث علی وفي الأول یلی بن أبی یحیی جهه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شیخ لم یسم وسکت علیهما أبوداود وما ذکره ابن الصلاح فی علوم الحدیث أنه یلغیه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحادیث تدور فی الأسواق لیس لها أصل منها للسائل حق الحدیث فانه لا یصح عن أحمد قد أخرج حدیث الحسین بن علی فی مسنده (٢) حدیث ردوا السائل ولو یظلف محرق أبوداود والترمذی وقال حسن صحیح والنسائی واللفظ له من حدیث أم یحید . وقال ابن عبد البر حدیث مضطرب .

تجاوز العبارة عنه  
بأكثر من موجود  
ولكن نجعل للصادقين  
محلا لأقوالهم وأفعالهم  
ويجوز أن يكون  
كلامهم في ذلك بمثابة  
التأويل لكلام  
الله تعالى والآيات  
المتصلة حيث حرم  
تفسيره وجوز تأويله  
إذ لا يوسع القول في  
التفسير إلا لثقل وأما  
التأويل فتتمدد  
القول إليه بالباع  
الطويل وهو ذكر  
ما تحتل الآية من  
الغنى من غير القطع  
بذلك وإذا كان الأمر  
كذلك فللقول فيه  
وجهه ومحل . قال  
أبو عبد الله النجاشي  
الروح جسم بلطف

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها» (١) فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح للضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غلب عليه وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم» (٢) «ومن سأل وله ما يفييه أجه يوم القيامة ووجهه عظم يتقفع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسأله خدوشا وكدوحا في وجهه» (٣) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبابيع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» (٥) وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى» (٦) ومع عمر رضى الله عنه سأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فمشاه ثم صممه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيت فنظر عمر فإذا تحت يده محلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكك تاجر ثم أخذ المحلاة وثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تمد ولولأن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ محلاته ولعل الفقيه الضعيف اللئيم الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتميز وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره التصور في الفقه فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأطاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة وعلم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الرجز بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيبات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذي لاح فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقي مالا مالا له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعطفه من الصالح وينزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ المولى بقوله إني علوى وهو كاذب فإنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفي الصالح الذي يبطي لصلاحه وهو في الباطن مقارفا لمعصية لوعرفها العطي لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الخنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة والمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثر أفاعنا يسأل جمر الحديث وللبراز والطبراني من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفييه كانت مسأله خدوشا وكدوحا في وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم في الزكاة (٤) حديث بابيع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البراز والطبراني من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله في حديث فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ .

عن الحسن ويكبر عن الناس ولا يجير عنه بأكثر من موجود وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه . وقال ابن عطاء خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى - ولقد خلقناكم - يعني الأرواح - ثم صورناكم - يعني الأجساد . وقال بعضهم الروح لطيف قائم في كسيف كالبرص جوهر لطيف قائم في كسيف وفي هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يحمل على معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بفعلك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال . أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في السؤال بكونه مباحا والسؤال منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطلان ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذا طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشيء بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذي أذى أطيعه ولكن يشق على فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا يلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستريح من ثيابه عن أعين الناس وكن يسأل لأجل الأدم وهو واحد للخبز وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء الحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شيء من المذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء السؤل فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المذورات وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فإن قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المذورات . فاعلم أن الشكوى تدفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخي الذي قد أعد ماله لكل هذه الكرام فيخرج بوجود مثله ويتقلد منه منتهجه فيسقط عند الذل بذلك فإن الذل لازم للنة لا محالة . وأما الإيذاء فبسبيل الخلاص عنه أن لا يمين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرعا بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام بهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا إلى التعاقل إن أراد فإذا لم يتعافى مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لورده أو تعافى عنه فإن الحياء من السائل يؤدي كأن الرياء مع غير السائل يؤدي . فإن قلت فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولا لما ابتداء به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلد بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بدوط الحياء وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكابة في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة  
الحي كالخلق صفة  
الخالق وقال قتل الروح  
من أمر ربى - وأمره  
كلامه وكلامه ليس  
بخلق أى صار إلى  
حيا بقوله كن حيا  
وعلى هذا لا يكون  
الروح معنى في الجسد  
فمن الأقوال ما يدل  
على أن قائله يمتدح قس  
الروح ومن الأقوال  
ما يدل على أنه يعتقد  
حدوثه ثم إن الناس  
مختلفون في الروح الذي  
سئل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم عنه  
فقال قوم هو جبرائيل  
وتقل عن أمير المؤمنين  
على بن أبى طالب رضى  
الله عنه أنه قال هو  
ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قدر ضئيل به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » (١) فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجح أن كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين الصبر وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كاللغة عند سائر الحكماء فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أتوك وأتوك فإن المفق مع لقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وفتوَاهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن فتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه ردة إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فليبه أن يشبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن مهملته فإن لم يقبل هديته فليبه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فإن قلت فهذا أمر باطن يعسر الإخلال عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه مرض ولا يكون هو في الباطن راضيا . فأقول لهذا ترك للتقوى السؤال رأسا لما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرج غروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالشفقة لهذا لأن الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الخنزير فكان الامتناع طريق الورع ومن أرباب القلوب من كان وانما يصبرته في الاطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بهضا ويرد بهضا كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأخط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولأشك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والأخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا بأخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمبايعةهم فإذا كانوا يسألون الأخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغفرون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن السؤال بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا بد أنك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سمحت وتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الاتم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة رأى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » (٢)

سبعون ألف وجهه  
ولكل وجه منه  
سبعون ألف لسان  
ولكل لسان منه  
سبعون ألف لغة يسبح  
الله تعالى بتلك اللغات  
كلها ويخلق من كل  
تسبيحة ما يكايط به  
اللائكة إلى يوم  
القيامة . وروى عن  
عبد الله بن عباس  
رضي الله عنهما أن  
الروح خلق من خالق  
الله صورهم على صورة  
نبي آدم وما نزل من  
السماء ملك إلا ومعه  
واحد من الروح وقال  
أبو صالح الروح كهنة  
الإنسان وليسوا بناس  
وقال مجاهد الروح على  
صورة نبي آدم لهم أيد  
وأرجل . وروى

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلا وكذا قال الزبي لما سئل عنه.

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

وقد أوتي جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فقتت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبه بحلال أنت أو مورثك فإذا بيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يحنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير .

### ( بيان مقدار النقي المحرم للسؤال )

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فأنما يسأل جراً فليستقل منه وأليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حدث النقي مشكل وتقديره عسيره وليس إلينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث « استغفوا بني الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة <sup>(١)</sup> » وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهماً أو عدها من الذهب قد سأل إلخافاً <sup>(٢)</sup> » وورد في لفظ آخر « أربعون درهماً » ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بوزودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير مجتمع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم عليه وثوب يوارى به غورته ويت يكنه فإزاد فهو حساب » فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للسافر إذا كان لا يقدر على الشيء وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفاله كالدابة أيضاً . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بدوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل وبداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فما يكفي فيه الحزف فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدرة في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية إضرار في طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأنه ما يعجز عن من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداها ما يحتاج إليه في غد . والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً . والثالثة ما يحتاج إليه في السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة نسأله حرام فإن ذلك غاية النقي وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد

(١) حديث استغفوا بني الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما ينبغي قال ما يندبه أو يعشيه ولأحمد من حديث علي باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذي ذكره النصف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة .  
(٢) حديث من سأل وله خمسون درهماً أو عدها من الذهب قد سأل إلخافاً وفي لفظ آخر أربعون درهماً تقدما في الزكاة .

يا كلون الطعام وليسوا  
بلائكة وقال سعيد  
ابن جبير لم يخلق الله  
خلقا أعظم من الروح  
غير العرش ولو شاء  
أن يبلغ السموات  
والأرضين السبع في  
لقمة لفعل صورة  
خلقه على صورة  
اللائكة وصورة  
وجهه على صورة  
الآدميين يقوم يوم  
القيامة عن عرش العرش  
واللائكة معه في صف  
واحد وهو بمن يشفع  
لأهل التوحيد ولولا أن  
بينه وبين اللائكة  
سترا من نور لحرق  
أهل السموات من  
نوره فهذه الأقاويل  
لأنكون إلا تملا وصماحا  
بلفهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما للميل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادراً على السؤال ولا تقوته فرسته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه هدام يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الجبر القوي وردق التقدير بهذا القدر وإن كان يقوته فرصة السؤال ولا يجد من يسطيه لو أخر فيباح له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بيدفوه بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يجنبه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان المألجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتسكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي اللذة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا قبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظرة لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستغنى فيه قلبه ويسبل به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وقته عجى الرزق في المستقبل ثم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد أتاك الله قوت يومك لك ولعياذك إلامن ضعف اليقين والاصفاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفتشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً - والسؤال من الفتشاء التي أيجت بالضرورة وحال من يسأل حاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثاً وادّخره حاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في القنوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

### ( بيان أحوال السائلين )

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القريبين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أمهالك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا وظن أنهم ما وصفهم ترك السؤال قد أنقضى عليهم غاية الشتاء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا وقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفته انقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ومن لا يعز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالاضافة إلى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا إسحق النوري رحمه الله يعيده ويسأل الناس في بعض الواضع قال فاستعظمت ذلك واستجبته له فأثبت الجنيده رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النوري لم يسأل الناس إلا لمعطهم وانما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المظى هي العليا <sup>(١)</sup> » فقال بعضهم يد المظى هي يد الآخذ للسأل لأنه يعطى الثواب والمقدره

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح للسؤال عنه شيئاً من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يمر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه القدر قبل فمن أى شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وجاها بكلامه

(١) حديث يد المظى هي العليا - لم من حديث أبي هريرة .

لما يأخذه ثم قال الجنيذ هات اليزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على السائفة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء لمعرفة مقداره فكيف خطبه مجبولاً وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النوري فقال هات اليزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أن لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على السائفة قال فزاد تصبّي فسأله فقال الجنيذ رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفه وزن السائفة لنفسه طلباً لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن ثم عز وجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورردت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيذ فبكى وقال أخذ ماله ورد مالنا الله السمتان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه المهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهل قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتناؤه حتى بذل كنهه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للسبيل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلًا وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويعتبر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في الطعم والملبس والسكن والأثاث وضروب العيشة وبيان علامة الزهد .

### ( بيان حقيقة الزهد )

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره وأقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن والإفليس القول مراداً لئنه وإن لم يكن صادراً عن حال ممي إسلاماً ولم يسم إيماناً والمعلم هو السبب في حال يجرى مجرى الثمر والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة فلذلك الحال مع كلاً طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فشكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره خاله بالإضافة إلى العدول عنه يسمى زهداً بالإضافة إلى العدول إليه يسمى رغبة وحياً فاذن يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زهداً إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زهداً وإنما يسمى زهداً من ترك الدرهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من البيع فيكون حاله بالإضافة إلى البيع زهداً فيه وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحياً ولذلك قال الله تعالى - وشروه بئس نفس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهو معتق من ذلك كمن  
وسئل أبو سعيد الخراز  
عن الروح مخلوقة هي  
قال نعم ولولا ذلك  
ما أقرت بالربوبية  
حيث قالت لي والروح  
هي التي قام بها البدن  
واستحق بها اسم الحياة  
وبالروح ثبت العقل  
وبالروح قامت الحجة  
ولو لم يكن الروح  
كان العقل معطلاً  
لا حجة عليه ولا له  
وقيل إنها جوهر مخلوق  
واسكنها لطف  
المخلوقات وأصفي  
الجواهر وأتورها وبها  
تراهي النفوس وبها  
يكون الكشف لأهل  
الحقائق وإذا حجب  
الروح عن مراعاة  
السير أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يغلولهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بنحسب اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للسبيل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفرائس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك المحظوظ في الآخرة بل طمع في الخور والقصور والأنهار والقواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك الباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض الباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللقنصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك الباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في اللزوم فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في اللزوم عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فضاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو شمر لهذه الحال فهو العلم بكون التروك حقيرا بالإضافة إلى للأخذ كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن يزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ماعنه الله باق وأن الآخرة خير وأبقى لثباتها خير في أنفسهم وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يصير على مالك الثلج يمه بالجواهر والآلى . فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر التي لا تناء له فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والعاملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - . ثم بين أن صفقتهم راحة فقال تعالى - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا : إما لضغفه عليه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التصوف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه للوت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد القوت وإلى تعريف خسارة الدنيا بالإشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف قاسية الآخرة بالإشارة بقوله عز وجل - وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير - فنه على أن العلم بنقاسة الجوهر هو الرغبة عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بماؤنة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . قال رجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تنقل هكذا ولكن قل أرني

الأدب ولذلك صارت  
الروح بين تجل واستار  
وقابض وتارزع وقيل  
الدنيا والآخرة عند  
الأرواح سواء وقيل  
الأرواح أقسام أرواح  
تجول في البرزخ وتبصر  
أحوال الدنيا والآخرة  
وتسمع ما تحدث به  
في السماء عن أحوال  
الأمميين وأرواح  
تحت العرش وأرواح  
طيارة إلى الجنان  
والى حيث شاءت على  
أقدارها من السمع  
إلى الله أيام الحياة .  
وروى سعيد بن المسيب  
عن سلمان قال أرواح  
للمؤمنين تذهب في  
برزخ من الأرض  
حيث شاءت بين السماء  
والأرض حتى يردّها



الدنيا كأثرها الصالحين من عبادك (١) « وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والمبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى السك في درجة واحدة بالاضافة إلى جلاله وبراء متفاوتا بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك للزهد فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن علم البيع ولم يأخذ الثمن فإذا وقع بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر ببيع الذي يبيع به فإن الذي يبيع به هذا البيع وفي بالمهد فمن علم حاضر في غائب وعلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالمهد وما دام محسباً للدنيا لا يصح زهده أصلاً ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - ليوسف وأخوه أحب إلى أمينا منا - وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم قترك ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه بل عند التسليم والبيع فعلمة الرغبة الإمساك وعلامة الزهد الإخراج فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بفروره ويغيب إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بعجل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكيف من ظان بنفسه كراهة للمصاعى عند تصورها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المخطورات فإياك أن تثق برعدها في الساحات وللوثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا دعت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصراف والأعداء ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر فانها سرية النقص للمهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالاضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تثق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدرى أهو ابن الحائك أم ما هو لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لقلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أراها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصور ولم يخرجوه له (٢) حديث قال المسلمون إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لقلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم - الآية لم أفهم له على أصل .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتعبدوا وتساءلوا وركل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهراً عنه فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل إسالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لطلبك محاربتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهي من اللال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والشاء والاشتهار بالقوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من الشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من آتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاءه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأبس بها فيكون آتسا بنير الله ومحالما سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك اللطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن مافي الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا لمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

### ( بيان فضيلة الزهد )

قال الله تعالى - فخرج على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية التناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - وقال تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك لفهموه أن المؤمن هو الذي يتصف بتقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع الهلكات إذ حب الدنيا من الهلكات ونحن الآن تقتصر على فضيلة بعض الدنيا فإنه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل قمره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى سمنا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه

وتزداد وجوههم يا صا وإشراقا » فأنقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من لاوتى فإن كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمنهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والآقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بمعان وأعراض ، مثل الواسطى لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحة التمكن والاستقرار الآراء يقول « كنت

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا - الآية البهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

فانه يلقي الحكمة (١) وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله بياض الحكمة في قلبه وأنطق به لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال « قلنا يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب ؟ قال التقى التقى القدي لاغل فيه ولاغش ولابغى ولاحسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره ؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة (٢) » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا (٣) » فجعل الزهد سبيلا للحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا أن حب الدنيا تعرض لبعض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يحولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا (٤) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي جبرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني برش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فائمه ، عبد نور الله قلبه بالايمان (٥) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بمزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان « ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقيل له ما هذا الشرح ؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله وهل ذلك من علامة ؟ قال نعم التجافي عن دار الضرور والإقامة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٦) » فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الضرور وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون (٧) » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى « ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وماعلما إيمانكم ؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الثمالة بالمصيبة إذا زلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبينوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون (٨) » فجعل الزهد تسكلا لإيمانهم وقال جابر رضى الله عنه « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسنده ضعيف (٢) حديث قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب ؟ قال التقى التقى الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد للذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يحولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أسلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك الحديث البزار من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وماعلما إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر .

نبيا وآدم بين الروح والجسد « أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي للطاقتان سمو بالملم كما ينمو البدن بالثداء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والاختار عند أكثر متكلمي الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان والسموات يندمهما وأن الروح هي الحياة بينهما صار

قال : من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه على كرم الله وجهه ، فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا فسرره لنا ، قال : حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويسلمون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة (١) . وفي الخبر «السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك» (٢) . وقال أيضا «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار» (٣) . والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والتناء على الثرة ثناء على الثمر لاعتداله . وروى عن ابن السبب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأطلق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام» (٤) . وروى أنه صلى الله عليه وسلم «مر في أصحابه بشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأتسها عندهم لأنها تجمع الظهر والجمع واللين والور ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى - وإذا العشار عطلت - قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به - (٥) » الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت «قلت يا رسول الله ألا تستطم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، قال يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجرى مني جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وقرر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا لا تنفي ل محمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله» (٦) .

البدن بوجودها حيا وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشبك بالأجسام العكيفة اشتباك الماء بالسود الأخضر وهو اختيار أبي العالي الجويني وكثير منهم مال إلى أنه عرض إلا أنه رد عن تلك الأخبار الدالة على أنه جسم لما ورد فيمن العروج والمهبط والتردد في البرزخ حيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم لأن العرض لا يوصف بأوصاف إذ الوصف معنى والشي لا يقوم بالمعنى واختار بعضهم أنه عرض .

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أر من حديث جابر قد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب القردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسل ولا بن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضيفة (٥) حديث مرفي أصحابه بشار من النوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك - الآية لم أجده أصلا (٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستطم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث . وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر الحديث أبو منصور الديلمي في مسند القردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد ابن عباد عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومرت بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة أليست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا ساءوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من القر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفض ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثبت له ليلة أربع طافات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة اثوفا بائنتين كما كنتم تثوئنها ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأنيه بلال فيؤذنه بالصلاة لما يجده ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تحف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصرى كذلك فما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى

من الرسل إلا الصبر على مكروها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - قاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاهد مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدرى متروك الحديث وللترمذى من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللاشيخين من حديثها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللترمذى في الثمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟: مسح ثيابه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنتين الحديث وتقدم في آداب المعيشة والبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن مسيرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن مسيرة قد كذبه يحيى القطان وضمفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في ثملة قد عقد عليها زاد الطبري في جزئه الشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لجها إذا مرضت . وقال بعض من ينهم بالعلوم الردودة للذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للسموات والمحمومات لأن

صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقهما وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديدا لعل أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدكم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم لينتلي بالقمل حتى يتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم <sup>(١)</sup> » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الحزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - قال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة سالحة تعينه على أمر آخرته <sup>(٢)</sup> » وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاثا لا يفارق قلبه أبدا وقلبا لا يستغنى أبدا وحرما لا يشبع أبدا <sup>(٣)</sup> » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته <sup>(٤)</sup> » وقال المسيح عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تمسروها وقيل له يا بني الله لو أمرت أن بنى بيتا لعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربي عز وجل عرض على أن يمحلى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يثنى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل والذي بشتك بالحق ما أمسى لآل محمد كصف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

تجردها من هيآت  
البدن عند المفارقة  
غير يمكن وهي عند  
الموت شاعرة بالموت  
وبعد الموت متخلية  
بنفسها مقبورة  
وتصور جميع  
ما كانت تعتقد حال  
الحياة ونحس بالثواب  
والعقاب في القبر قال  
بعضهم أسلم القالات  
أن يقال الروح شيء  
مخلوق أجرى الله تعالى  
العادة أن يحى البدن  
مادام متصلا به وأنه  
أشرف من الجسد  
يدوق الموت بمفارقة  
الجسد كما أن الجسد  
بمفارقتها يدوق الموت  
فإن الكيفية والمادية  
يتعاضى العقل فيهما  
كما يتعاضى البصر في

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدكم بالفقر فلا يجد إلا العباءة الحديث بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم لينتلي بالقمل (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة - الآية قال تبا للدنيار والدرهم الحديث وفيه فأى شيء يندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبا للدنيار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وإنما قال الصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التاط منها ثلاث شقاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منتهاه وفي آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرته لم أجده استنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسل لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج له في مسند الفردوس وعلي بن أبي طلحة أخرجه له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله فالحديث إذن معضل .

القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرائيل فقال إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بفاتح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فضلت وإن شئت نينا ملكا وإن شئت نينا عبدا فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال نينا عبدا ثلاثا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبدا خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيها في أيدي الناس يحبك الناس» (٣) وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتبه الله علما بغير علم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه الصييات» (٥) ويروى عن نبينا وعن النسيح عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء» (٦) وإبراد جميع الأخبار الواردة في مدح بخص الدنيا وطمحها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيها أوردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الآثار: لا تزال لآله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بأصادقين. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال تابعتنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضى الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا بدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنى لأشتى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون على دين ولا على عظمي لحم فأعطى ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز لقبوها وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال أتدرون ما مثلي ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرقون عليها فلما هربت ذبحوها لأجل أن يفتنعوا بجدها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث في نزول إسرائيل وقوله إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبدا خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد قبه في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتبه الله علما بغير علم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب (٦) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم .

شعاع الشمس ولما رأى للتكاملون أنه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فأحسن الإمساك عن القول فيها هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب

أنتم أردتم ذمعي على كبريى موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من أن تدبجوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان السبع ابن مريم عليه السلام يلبس الشجر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا يبت بخرب ولا يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والخطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد . ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحنن لم لا تضل ثيابك قال الأمر أهمل من ذلك . وقال إبراهيم بن آدم قد حببت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للبعد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرج بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالملاح فإذا فرحت بالموجود فانت حريص وإذا حزنت على المفقود فانت ساهط والساهط معذب وإذا سرت بالملاح فانت معجب والعجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة التعبدتين المجنبتين إلى آخر الدهر أبدا سرمد . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعمى عبده المؤمن الدنيا وهو وجهه كما تغمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه <sup>(١)</sup> » فإذا فهم هذا علم أن النعمة في اللع للوذى إلى الصحة أكبر منها في الاعطاء للوذى إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترج لا دار فرح من عرفها لم يفرح برحاء ولم يحزن على شقاء . وقال سهل لا يخمس العمل للمتعب حتى لا يفرغ من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وهبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ولا بأسفون على شئ منها أدبر ولهم كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطلوه ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فإذا كان الليل قيام على أنفاسهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنهم وسألوا الله أن يفرجها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما ملأوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

( يان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى للرغوب عنه وإلى الرغوب فيه )  
اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتة وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهد بها ويكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والتزهد يذيب أولات نفسه ثم كيبه والزاهد أو لا يذيب كيبه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه التزهد على خطر فاته ربما تطلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية : التي ترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالقدي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده و يظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعا وبزهده في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خرفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعم الآخرة أحسن من خرفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة

(١) حديث إن الله يعمى عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

وله ذلك فليهم الخير  
عند ذلك وتتحرك  
لشئ ومن حركتها  
تظهر ظلة في القلب  
فيرى الشيطان الظلة  
فيقبل بالاغواء ويحيث  
وجدت أقوال المشايخ  
تشير إلى الروح  
أقول : ما عندي في  
ذلك على معنى ما ذكرت  
من التأويل دون  
أن أقطع به إذ مبلى  
في ذلك إلى السكوت  
والامساك فأقول والله  
أعلم : الروح الانساني  
العلوى السامى من  
عالم الأمر والروح  
الحيوانى البشرى من  
عالم الملقى والروح  
الحيوانى البشرى  
هل الروح العلوى  
ومسوره والروح



ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الحزفة بالجوهره آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في أى شئ تسكلم ؟ قال في الزهد قال في أى شئ ؟ قال في الدنيا فنفذ يده وقال ظننت أنه يتكلم في شئ . والدنيا لا شئ . إيش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب العمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغفه بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أفنذ أمره في جميع ملكته أقدرى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ناقذ ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال الضغ وتنفى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنهى إلى التأن والتقدير ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للتناهي إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تسامى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدر غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهده فيه ولا يلتفت إلى ما زهده فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات إذ تصير للزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة للمعجب بزهد بقدر التفاته إلى زهده . وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى الرغبة فيه فهو أيضا على ثلاث درجات: الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكانهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد عدم الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الخور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرم لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقاءه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو مومه ثم واحد وهو للوحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله قد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لغة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالخور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤثنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إني حبست بصدك محبا فظيما كرها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لوورده ألف بعيرا كلة حتى لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير مذنوب محتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيوانى جبانى لطيف  
حامل لقوة الحس  
والحركة ينبعث من  
القلب أعنى بالقلب  
ههنا الصفة للحمية  
العروقة الشكل المودعة  
في الجانب الأيسر  
من الجسد وينتشر  
في تجاويف العروق  
الصوارب وههنا  
الروح لسائر الحيوانات  
ومنه تفيض قوى  
الحواس وهو الذى  
قوامه بأجراء سنة الله  
بالغذاء غالبا ويتصرف  
بسلم الطب فيه  
باعتدال مزاج الأخلاط  
ولورود الروح الانساني  
العالى على هذا  
الروح تجنس الروح  
الحيوانى وبان  
أرواح الحيوانات

والنظر إلى شتى القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أطل وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: للمرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لاحاد الأقسام وبعضها أجمال للجمل . أما الاجمال في الدرجة الأولى فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والاجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، وإذا أموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كأن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها قال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر والمنظرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه وإذاهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والاجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لانهالة لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئا أزداد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فإذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المتأقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوصوا واستظروا إحدى الحسين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستشفقون رائحة الجنة ويأدرون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى  
ضار فسامعلا للناطق  
والإلهام قال الله تعالى  
- وتفس وما سواها  
فأنهها فجورها  
وتقواها - فتسويتها  
بورود الروح الإنساني  
عليها وانقطاعها عن  
جنس أرواح الحيوانات  
فكوت النفس  
بكون الله تعالى من  
الروح العلوي وصار  
تكون النفس التي  
هي الروح الحيواني من  
الآدمي من الروح  
العلوي في عالم الأمر  
تكون حواء من  
آدم في عالم الخلق وصار  
بينهما من التألف  
والتماثل كما بين آدم  
وحواء وصار كل واحد  
منهما يفوق للآخر

وأما الناقون ضرروا من الزحف خوفا من الموت قليل لهم - إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم - فإشارم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فخارحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فطارأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد واستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به هذا بيان الزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره للتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم مآرا غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بسر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي اللبحة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمقول والزهد إنعما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد وللمقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض مآه من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّلوها حتى يتقضى عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها فترط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا بمن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل ورأى ما نقلناه فلم نرى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رأها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من مضمه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الرهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المتغيرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب العيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدًا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله بقلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لترغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان أقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض وقيل وسلامة كما قاله إبراهيم بن آدم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

بفارقة صاحبه قال الله تعالى - وجعل منازوجها ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانساني العاوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعنى بهذا القلب الطيفة التي عملها للضعة اللحمية فالضعة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تسكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا الساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ماتكون القلب فن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تمتنع به النفس في الخطرات والحظرات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدا لك قال وما الذي تجد قال توسدك الحجر . أى تمتعت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذ مع ما تركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس السجوح حتى تقب جلدته تركا لقتنم بلين اللباس واستراحة حس اللبس فسأله أمة أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكى ووزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهد أويس بلغ من العز أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أنتى أنت إنما أقامنى الذى لم يرض لى أن أتم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبة ومحذور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبه والمحذور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالتهم وكل ذلك اشتغال بماسوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكريا ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا جاء إلا بضروريات النفس فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه المشتغل بمالف الناقصة ويسبقها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدتك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تتم ناقتك بالذات بل غرضك مقصور على دفع للمهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدتك عن الجوع والعطش للهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد للهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد . وأن أتلفد بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في أيام الليل بنسيم الأسفار وصوت الأطيوار ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة لما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره . ولقد كان في الخائفين من طلب موضع لا يصيبه فيه نسيم الأسفار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا وقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد قدة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتفاء مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يتقل على أهل المعرفة القاهرين لأنهم سياسة الشرع للتمسكين بمروة اليقين في معرفة للضادة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

( بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة )

اعلم أن ما للناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالحيل المسوسة مثلا إن قال الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى مبال إليه وهو القلب للؤيد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رواء خديجة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان وتفاق فذلك الإيمان فيه مثل البقلة يعمدها الماء الطيب ومثل التفاق فيه كمثل القرحة يعمدها القيح والصديد فأى المادتين

إنما يقتنبا لترفه ركوبها وهو قادر على الشئ والمهم كالأكل والشرب ولنا قدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والهمم ستة أمور : الطم واللبس والسكن وأثامته والنكح والمسال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من جعلها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه الهمم الستة [ الأول المظم ] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم عليه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طول وعرضه حتى يتم به الزهد فأطولوه فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه فلا يفتح به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند عدة الجوع وخوف الرض ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لشأته وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أهل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأتقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلامه واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجفسي فأقله كل ما يقوت ولو الحبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلى خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التتم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضاء عن أوائله وأما الأهم فأقله للحم أو البقل والحل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلى اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ليلة ولا يشرب وأعلى أن ينتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع المهلكات ولنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالأسودين القرم والماء <sup>(١)</sup> » وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويتنمل المخصوف ويلقى أصابه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد <sup>(٢)</sup> » وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس غلب الشعير له والنوم على الزايل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعين ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولا محمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

غلبت عليه حكم له بها والقلب للنكوس ميل إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميده إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوي ولسانه والدال عليه وتديره القلب المؤيد والنفس الزكية الطمئنة تدبر الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتدبره القلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبر الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فنكوس من وجه

ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر<sup>(١)</sup>. وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكر ناسيرة الأنبياء والسلف في الطعام والشرب في ربيع المهلكات فلا نعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال «أما إني لست أحرمه ولكن أركه تواضعاً لله تعالى»<sup>(٢)</sup> وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذي كرهه رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمة والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفه والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [ اللهم الثاني ] اللبس وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر الدورة وهو كساء يغطي به وأوسطه قميص وقانسوة ونعلان وأعلى أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث القدر فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلبسه القمود في البيت ، فإذا صار صاحب قميص وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث القدر ، أما الجنس فأقله المسوح الجشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلى القطن القليلظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوماً حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماكب عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهداً بل كان عباً للدنيا وينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس»<sup>(٤)</sup> وقال عمرو بن الأسود العنسى لا لبس مشهوراً أبداً ولا أنام بيل على دثار أبداً ولا أركب على ما تور أبداً ولا أملاً جوفى من طعام أبداً فقال عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود<sup>(٥)</sup> وفي الخبر «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يزعه وإن كان عنده حبياً»<sup>(٦)</sup> واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم<sup>(٧)</sup>

ومنجذب إلى تدبيرها من وجه لا بد له منهما وقول القائلين واختلافهم في عقل فمن قائل إن عقله الدماغ ومن قائل إن عقله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البارتارة وإلى العاقبى أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاقبى فإذا روى في تدبير العاقبى قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى بهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحسوا وتزها

الحديث تقدم دون قوله إنما أنا عبد فإنه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود رواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبى ذرر بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبياً (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبى هريرة قال

وكانت قيمة ثوبه عشرة (١) . وكان إزاره أربعة أذرع ونصف (٢) . واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣) . وكان يلبس فملتين يضاوون من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما ثمان دراهم (٦) فكان أصحابه يمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تهجبا وكان قد أهدها إليه المقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من الشركيين وصله به ثم حرم لبس الحرير والدياج وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوم مات ثم نزع (٧) لحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشتراطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته سعد عليه السلام التبر لحرمه وكما أباح التمتع ثلاثا ثم حرمها تأكيداً أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيمته لما علم فلما سلم قال شغافى النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهم والتفتى بأبجائيتها (١٠) بمنى كساء فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شركاء نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فضلى فيه فلما سلم قال أعيذوا الشراك الحلقى وانزعوا هذا الجديد فأنى نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين واشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصف أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس فملتين يضاوون من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحرارة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيت في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الضرورية وعليه أحسن ما يكون من حلة اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غايظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رزمة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي وللبرازين من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حمراء وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بن مالك ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحية حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما ثمان دراهم أهدها له المقوقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشتراطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح التمتع ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خيمته لما علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة .

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يشكك عليه الشارح فليستطرا .

عن الأكواف ومن  
الأهسكون القلب  
والنفس فإذا ارتقى  
الروح يحنو القلب إليه  
حنو الولد الحنين  
البار إلى الوالد وحن  
النفس إلى القلب الذي  
هو الولد حين الوالدة  
الحنينة إلى ولدها وإذا  
حنن النفس ارتقت  
من الأرض وانزوت  
عرونها الضاربة في  
العالم السفلى وأنطوى  
هواها وانحسرت  
مادته وزهدت في الدنيا  
وتجافت عن دار  
الغرور وأثابت إلى دار  
الخلود وقد تغلغل النفس  
التي هي الأم إلى  
الأرض بوضعها الجبلي  
لتسكنها من الروح  
الحيوانى الجنس

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على النبر نظرة فرمى به فقال شغلنى هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم» (١). «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال : أهيبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يعقبنى ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مكبني ركة» (٢). وعن سنان بن سعد قال حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار وجملت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما أليها قال قام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هب لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبعث به قال فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في الحسكة» (٣). وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الأبل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعى مرارة الدنيا لتعيم الأبد فأنزله الله عليه وسوف يعطيك ربك فترضى» (٤). وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني للأنبياء الأئمة قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤتمن على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأقدنهم عند العرش» (٥). فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللابس «وقد أوصى أئمة عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستن بسنني» (٦) وقال «عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» (٧) وقال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال إن أردت الحق في فبايك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه» (٨). «وعند علي قميص عمر رضى الله عنه اثنا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم. ولبسه وهو في الخلافة وقطع كية من الرنين وقال الحمد لله الذي كسانى هذا من ريشه. وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليجربى وأنا أصلى فأدعه يجوز ويمر بى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دنانير. وقال ابن شبرمة خير ثيابى ما خدمنى وشربها ما خدمته. وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم من رقى ثوبه رقى دينه

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على النبر فرمى به وقال شغلنى هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أعمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهمى عند الطبراني فقط وفيه زمعة من صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني النبي الأئمة قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسنني تقدم في النكاح (٧) حديث عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت الحق في فبايك ومجالسة الأغنياء

ومستندها في ركونها إلى الطباع التي هي أركان العالم السفلى . قال الله تعالى - ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه - فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب للنكوس انجذاب الولد لوالده إلى الوالد الموجه الناقصة دون الوالد الكامل للستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة



وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول النسك الزى وفي الخبر « البذاة من الايمان » وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعه لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقري الجنة في تحت الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي وانظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التمتع وقال « إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعين <sup>(١)</sup> » وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا قليل له أنت الأمير وتعمل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء وأمرنا أن نحتفي أحيانا <sup>(٢)</sup> . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارع القميص ونكس الإزار واخسف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى الصجم كسرى وقصر . وقال على كرم الله وجهه من زيا زى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشددون في الكلام <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أزره المؤمن إلى أنصاف سابقه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكمين وما أسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا <sup>(٤)</sup> » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشر من أمتي إلا مراء أو أحرق <sup>(٥)</sup> » وقال الأوزاعي لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة مادعاك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تحبني فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي أو تقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذه الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التمتع وقال إن الله عبادا ليسوا بالمتنعين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء [١] وأمرنا أن نحتفي أحيانا أبو داود باسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضيف سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمتي وقد تقدم (٤) حديث أزره المؤمن إلى أنصاف سابقه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشر من أمتي إلا مراء أو أحرق لم أجده له إسنادا .

[١] الإرفاء بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بتاء : التدهن والترجيل كل يوم . وقيل التوسع في الطعام والمشرط يرفهان اه .

- ذلك تقدير العزيز  
العليم - . وقد ورد  
في أخبار داود عليه  
السلام أنه سأل ابنه  
سليمان أين موضع العقل  
منك قال القلب لأنه  
قالب الروح والروح  
قالب الحياة . وقال  
أبو سعيد القرني  
الروح روحان روح  
الحياة وروح المات فاذا  
اجتمعا عقل الجسم  
وروح المات هي التي إذا  
خرجت من الجسد  
يصير الحي ميتا وروح  
الحياة ما به مجارى  
الأنفاس وقوة الأكل  
والشرب وغيرها ،  
وقال بعضهم : الروح  
نسيم طيب يكون به  
الحياة والنفس ريح  
حارة تصحون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال الإلوة ورته مستورة ، وقيل لسلطان الفارسي رضي الله عنه مالك تلبس  
الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق الله والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى  
عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي ،  
وقال الحسن لفرقد السبخي تحب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلغي أن أكثر أصحاب النار  
أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من  
الزابل ويغسلها ويلبسها فقلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرم ما أصابهم في الدنيا  
جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويسكن [المهم الثالث] للسكن وللزهد  
فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موصفا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا الساجد كأصحاب  
الصفة وأوسطها أن يطلب موصفا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سقف أو خض أو ما يشبهه وأدناها  
أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة فإن كان قدر سعة السكن على قدر حاجته من غير زيادة  
ولم يكن فيه زينة لم يخرج به هذا القدر عن آخر درجات الزهد فإن طلب التشديد والتجصيص  
والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في السكن باختلاف  
جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو الطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق  
واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في  
جميع ذلك وبالجملة كل ما يراود للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا  
آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والفرض من السكن دفع للطر والبرد ودفع الأعين  
والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول  
والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم التدريز والتشديد يعني بالتدريز كلف دروز الثياب فاتها كانت تشل شلا والتشديد هو البنيان  
بالجص والآجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) وقد جاء في الخبر « يأتي على الناس زمان  
يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمنية » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه  
كان قد علا بها (٢) « ومروا عليه السلام بمجنونة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل  
أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أمهابة عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم  
فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له  
بخير (٣) » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (٤) »

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما مثل الثياب من غير كلف فروى  
الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كلف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وأما البناء في الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبل المسجد وجعلوا  
عضادته الحجارة الحديث ولها من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوكف للمسجد (٢) حديث  
أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له  
النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بمجنونة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا  
لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة  
الحديث والجنيذة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة الحديث  
ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مر سلا والطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل  
عني أوسره أن ينظر إلى فلان نظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لبنة على لبنة الحديث وإسناده ضيف .

الحركات للذمومة  
والتهنؤات ويقال  
فلان حار الرأس وفي  
الفصل الذي ذكرناه  
بمع التنبية بمهابة  
النفس وإشارة المشايخ  
بمهابة النفس إلى  
ما يظهر من آثارها  
من الأفعال للذمومة  
والأخلاق للذمومة  
وهي التي تعالج بحسن  
الرياضة إزالتها  
وتبديلها والأفعال  
الروية زوال الأخلاق  
الروية تبدل . أخبرنا  
الشيخ العالم رضي الدين  
أحمد بن اسمعيل  
القزويني قال أنا إجازة  
أبو سعيد محمد بن أبي  
العباس الحلبي قال أنا  
القاضي محمد بن سعيد  
الفرخزادي قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده شرا أهلك ماله في الماء والطين»<sup>(١)</sup> وقال عبد الله ابن عمر «مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خضا فقال ما هذا قلنا نأخذوهى فقال أرى الأمر أعجل من ذلك»<sup>(٢)</sup> واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب قليل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قدمال عليه قليل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة»<sup>(٣)</sup> وفي الخبر «كل نفقة للمبد يؤجر عليها إلا ما نفقه في الماء والطين»<sup>(٤)</sup> وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم «كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنّ من حرّ أو برد»<sup>(٥)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله «اتسع في السماء»<sup>(٦)</sup> أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص وأجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هامان على الطين - يعني به الأجر ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالحص والأجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبارة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبني من الجريد والسعف ثم رأيت مبني من رهمس ثم رأيت الآن مبني بالطين فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهمس وكان أصحاب الرهمس خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصرأه له وزهده في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الخشب والجلود وهي عادة العرب الآن يلاذ اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد  
ابن إبراهيم قال أنا  
الحسين بن محمد بن  
عبد الله السفياني  
قال حدثنا محمد  
ابن الحسن البقطيني  
قال حدثنا أحمد بن  
عبد الله بن يزيد  
المعقلي قال حدثنا  
صفوان بن صالح قال  
حدثنا الوليد بن مسلم  
عن ابن لهيعة عن  
خالد بن يزيد عن

ورأى آخر شرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إنما يراد المقصود فإذا استثنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستثنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخرف في كل ما يكتفي فيه الخرف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ التناع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء لتخفيف وأعلامها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فإن زاد في العدد أوفى خلسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف <sup>(١)</sup> . وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا لعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف ، وروى وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط جلجل فرأى أمر الشريط في جنبه عليه السلام فدمعت عيناهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من اللذات وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك <sup>(٢)</sup> . ودخل رجل على أبي ذر فجلس بقلب بصره في بيته فقال يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معي عصا أتوكأ عليها وأتكل بها حية إن لقيتها ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ومعى قصعة آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبين ومعى مطهرتي أحمل فيها شراي وطهورى للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع للمعنى فقال عمر صدقت رحمك الله « وقدّم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترًا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل السر والسوارين فأرسلت بهما بلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فضعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبي أنت قد أحسنت <sup>(٣)</sup> »

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف الترمذي في التباين من حديث حفصة بقصة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أمر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترًا وفي يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفيانة بإسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعل انظر فارجه الحديث والنساء من حديث ثوبان بإسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فنخ من ذهب الحديث

النفس اطفئة مودعة في القالب منها الأخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات الحمودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والقلب محل الفوق وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف الحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيب والثاني الشره وطيبها من جهلها وشرها من حرصها وشبهت النفس في طيبها بكثرة مستديرة على مكان أمس

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترًا فتهتكه وقال «كلار آيتہ ذکر ت الدنيا أرسلی به إلى آل فلان (١)» وفرغت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فإزال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها عبيد العبادة الحلقة ونحى هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة (٢) وكذلك أته دنائير خمسة أو ستة ليلًا فبينما فسر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غبطه ثم قال «ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده (٣)» وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار مالا أحدهم إلا توبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم يباشر الأرض بحمسه وجعل توبه فوقه [الهم الخامس] للنكح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حجب إلى سيد الزاهد بن النساء فكيف زهد فيه بن وواقته على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبيع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغول والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون المزوجة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالية فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله وترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد في يد فاطمة -سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فيمت فاشتريت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار (١) حديث رآني على باب عائشة سترًا فتهتكه الحديث الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها (٢) حديث فرغت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش خشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجاهد بن سعيد يختلف فيه والمعروف حديث حفصة التقدم ذكره من التماثل (٣) حديث أته دنائير خمسة أو ستة عشاء فبينما فسر ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الحمة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها يده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أنفقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنائير وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام [١] الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع قلت يابني الله مالك شام الوجه فقال من أجل الدنائير النبعة التي أتنا أمس أمسينا وهي في خضم الفراش وفي رواية أمسينا ولم تنفقا.

[١] شام بالمجمة متغير يقال شهم تغير عن حاله لما روى اهـ.

مضروب لا تزال متحركة  
يجلبها ووضعها وشبهت  
في حرصها بالفراش  
الذي يلقي نفسه على  
ضوء الصباح ولا يفتح  
بالضوء اليسير دون  
المهجوم على جرم الضوء  
الذي فيه هلاكه فمن  
الطيش توجد العجلة  
وقلة الصبر والصبر  
جوهر العقل والطيش  
صفة النفس وهواها  
وروحها لا يخلبه إلا  
الصبر إذ العقل يجمع  
المحوى ومن الشر  
بظهر الطمع والحرص  
وهما اللذان ظهرا في  
آدم حيث طمع في  
الحلود لحرص على أكل  
الشجرة وصفات النفس  
لها أصول من أصل  
تكونها لأنها مخلوقة

نفسه فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا معناه سهل لا محالة  
ولأنه نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله  
كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن<sup>(١)</sup> والاتفاق عليهن<sup>(٢)</sup> فلامعنى زهده فيهن<sup>(٣)</sup> حذر من مجرد كثرة  
الوقوع والنظر ولكن أن يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان  
فينبئ أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهم أو جمال  
للرأفة فليترك واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان : الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون  
أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال الجنيد رحمه الله أحب للمرید البتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث  
والأقبر حاله : التمسك وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع  
لهمة فإذا ظهر أن كثرة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيها جميعا [ اللهم السادس ]  
ما يكون وسيلة إلى هذه الخسة ، وهو المال والجاء : أما الجاء فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل  
به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وانفق إلى  
من يخدمه افتقر إلى جاء لا محالة في قلب خادمه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته وقيام  
القدر والمحل في القلوب هو الجاء وهذا له أول قريب ولكن يتعاضد به إلى هاوية لا عمق لها ومن حرم  
حول المحي بوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب ثمن أو لدفع ضرر أو لخلاص  
من ظلم فأما النفع فيمن عنه المال فان من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر وإنما  
يحتاج إلى الجاء في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاء في بلد لا يكمل  
فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بعمل له في قلوبهم أو محل له  
عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضب لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والحائض  
في طلب الجاء سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فان اشتغاله  
بالدين والعبادة يمهده من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين  
المسلمين فأما التوهّمات والتفديرات التي تنحوي إلى زيادة في الجاء على الحاصل بغير كسب فهي أوهام  
كاذبة إذ من طلب الجاء أيضا يخل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أولى من  
علاجه بطلب الجاء ، فأذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته  
أشد من ضراوة الحر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في العيشة أعنى القابل منه  
فان كان كدوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم إذا اكتسب حبتين  
رفع سفظه وقام . هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك إلى ما يكتفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء  
الزهاد وأقربا بهم جميعا وإن كانت له ضئيلة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأفسدك منها مقدار ما يكفي  
ربعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته  
ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه أبو إسحق القرني رحمه الله فلا يكون هذا  
من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعتي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من القامات  
المحمودة لا ينالها إلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر للنفر في  
جميع ذلك أخف من أمر العبد وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه  
فان أجابوا وإلا تركهم وصل بنفسه ما شاء معناه أن التضييق للشروط على الزاهد ينقصه ولا يلزمه كل  
ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يحسب أيضا ما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم  
(١) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والاتفاق عليهن تقدم في النكاح .

من تراب ولها بحسبه  
وصف وقيل وصف  
الضعف في آدمي من  
التراب ووصف البخل  
فيه من الطين ووصف  
الشهوة فيه من الجأ  
للنسون ووصف الجهل  
فيه من الصلصال  
وقيل قوله كالتمخار فهذا  
الوصف فيه شيء من  
الشيطنة لدخول النار  
في التمخار فمن ذلك  
الخداع والحيل والحسد  
فمن عرف أصول  
النفس وجبلاتها عرف  
أن لا قدرة له عليها  
إلا بالاستئانة يارثها  
وقاطرها فلا يتحقق  
المسد بالانسانية  
إلا بعد أن يدبر  
دواعي الحيوانية فيه  
بالعلم والعدل وهو

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذا ما اضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس يحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل والقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سبباً قاتلاً فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محذور شره والدواء فرض تناوله وما بينهما مستقبه أمره فمن احتاط فافهم احتاط لنفسه ومن تساهل فافهم يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لاحتالة ، والقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، وبدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا خفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذن قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال النذل فيه ، وظاية سعادته به أن يسلم لورثته فبأكلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على المصيبة فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود الفز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت وبذلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فافهم يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولوترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معانة بالدنيا التي فاتته وخافها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومخالب ملك الموت قد عانت بمرور قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجازبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل للمؤلم يده ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أنره فما ظنك بألم يتسكن أولا من صميم القلب خصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حيرة موت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مساطة إلا على محجوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، فنسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نقت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فانك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

رعاية طرفي الإفراط  
والنفريط ثم بذلك  
تتقوى إنسانيته  
ومعناه ويدرك صفات  
الشيطنة فيموا الأخلاق  
الذمومة وكال  
إنسانيته ويتقاضاه  
أن لا يرضى لنفسه  
بذلك ثم تكشف له  
الأخلاق التي تنازع  
بها الربوبية من  
الكبر والعز وروية  
النفس والعجب وغير  
ذلك فيرى أن صرف  
الصودية في ترك  
النازعة الربوبية  
والله تعالى ذكر النفس  
في كلامه القديم  
بثلاثة أوصاف :  
بالطمأنينة قال  
- يأتيها النفس  
المطمئنة - وسماها الوامة

(١) حديث نقت في روعه أحبب من أحببت فانك مفارقة تقدم

مكدود كدود القز ينسج دائماً وبهيك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكسبية حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالحسب والرخاء لو رأيتهم قاتم عجانين ، ولورأوا خياركم قالوا المهولاء بمن خلقي ، ولورأوا شراركم قالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لاهولة يخاف من فسادة والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز وجل - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً - . وقال تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام بعجب يدخل النقي الجنة أوقال بشدة . مالك والحقني . فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل النقي الجنة أوقال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وأبنوا للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا اطول الحساب .

( بيان علامات الزهد )

اعلم أنه قد بطن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب اللذخ بالزهد فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا دبراً لا باب له وإتمام سريرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والتياب الرقيقة كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يجهلون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى للساكنين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى الضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى - لكيلا تأسوا على ما فانسكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدر فالداء إذا دخل خرج الهواء ولا يهتممان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشغل بشيء

قال - لأقسم يوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة - وسبها أماراً ، قال - إن النفس لأماراً بالسوء - وهي نفس واحدة . ولها صفات متغايرة ، فإذا امتلأ القلب سكينه خلج على النفس خلج العلمانية لأن السكينة مزيد الإيمان وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب ، وفي ذلك طمأنينتها وإذا ازهدت من مقار جيلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى



ولذلك قيل ليهضهم إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال إلى الأنس بالله . فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لهما ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان من شغل نفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده للدخ والنم والوجود والعدم ولا يستدل بمساكنة قليلا من المال على فقد زهده أصلا . قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يملك الدنانير ، فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل فإن أمثالنا لا يستجري على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله خير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاضده شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والدمع والدم وذلك لطبقة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لاحتمال : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبى رباطا أو أعمر مبيجا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من اللذات . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيشي الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصراني : الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رئاسة . وقال أيضا الزاهد أنه يسقط الخلق والخرول والعارف يشمك السك والعزير وقال له رجل متى أدخل خانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأصدمع الزاهدين ، فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضمف في نفسك . فأما ما يبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يستخم وجهها ويتف شعرها ويغرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري ما رست كل شيء من أمر الزهد فقلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطلقه . وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

مقار الطمأنينة فهي  
لوائمة لأنها تعود  
باللأمة على نفسها  
لتظنها وعلمها بعمل  
الطمأنينة ثم انجذابها  
إلى محلها التي كانت  
فيه أمانة بالسوء ،  
وإذا أقامت في محلها  
لا يشاها نور العلم  
والعرفة فهي على  
ظلمتها أمانة بالسوء  
فالنفس والروح  
يتطاردان ، فتارة  
يملك القلب دواعي  
الروح ، وتارة يملكه  
دواعي النفس . وأما  
السر فقد أشار  
القوم إليه ووجدت  
في كلام القوم أن  
منهم من جعله بعد  
القلب وقبل الروح ،  
ومنهم من جعله بعد

## ﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

( وهو الكتاب الخامس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالمنة والجبروت الرافع للساء بغير همد القدر فيها أرزاق  
البناد الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوصالط والأسباب إلى مسبب الأسباب  
ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعدام والاعتماد على مدبر سواه فلم يبدؤا إلا بإمامنا بأنه الواحد القدر  
الصمد الإله وتحققا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق وأنه ما من ذرة  
إلا إلى الله خالقها ومامن دابة إلا على الله رزقها فلما تحققت أنها لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا  
عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قابع الأباطيل المهادي إلى سواء السبيل وعلى  
آله وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات اللوقين بل هو من معالي درجات  
المقربين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث  
الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتناقل عنها بالكلية طعن في السنة  
وقدح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تتغير في وجه العقل وانقماش في  
غمرة الجهل وتحقق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقضى التوحيد والنقل والشرع في غاية  
الغموض والعسر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء لإحسانه الطاء الذين اكتحلوا  
من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث  
استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر  
الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

( بيان فضيلة التوكل )

أما من الآيات فقد قال تعالى - وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - وعلى الله فليتوكل  
التوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب المتوكلين -  
وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه  
وكافيه وحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يئذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى -  
أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فانه سؤال  
في معرض استنطاق الحق كقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا -  
وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم - أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضع  
من لا يجنبه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يفصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى  
- إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته  
مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم  
رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - وله خزائن السموات والأرض ولكن للناس فيها  
لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد  
فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

الروح وأعلى منها  
والطيف وقالوا السر  
عمل للشاهدة  
والروح عمل المحبة .  
واقرب عمل العرفة  
والسر الذي ونمت  
إشارة القوم إليه غير  
مذكور في كتاب  
الله وإنما المذكور  
في كلام الله الروح  
والنفس وتنوع صفاتها  
واقرب والقواد والعقل  
وحيث لم نجد في كلام  
الله تعالى ذكر السر  
بالمعنى المشار إليه ورأينا  
الاختلاف في القول  
فيه وأشار قوم إلى أنه  
دون الروح وقوم إلى  
أنه أرفع من الروح  
فنقول والله أعلم : الذي  
محموه سرا ليس هو  
شيء مستقل بنفسه

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود وأريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وحياتهم قيل لي أَرْضَيْت قُلْتُ نَعَمْ قِيلَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ قِيلَ : مَنْ هُم يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ الَّذِينَ لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَتَطَبَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ قَامَ عَكَاشَةُ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قَقَالًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ مِنْهُمْ قَقَالًا آخَرَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قَقَالًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَبِّحْ بِهَا عَكَاشَةُ <sup>(١)</sup> وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرْجُو بَطَانًا <sup>(٢)</sup> وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مَوْثِقَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا <sup>(٣)</sup> وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ سَرِهَ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسَ فَلْيَكُنْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ أَوْثَقُ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ <sup>(٤)</sup> وَيُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَصَابَ أَهْلَهُ خِصَاصَةٌ قَالَ قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَيَقُولُ : هَذَا أَمْرٌ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ - وَأَمْرًا هَلَكًا بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا - <sup>(٥)</sup> الْآيَةُ وَقَالَ <sup>(٦)</sup> : لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنْ اسْتَرْقَى وَاسْتَرْقَى <sup>(٧)</sup> وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا قَالَ جَبْرِيلُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَقَدْ رَمَى إِلَى النَّارِ بِالْمُجْنِقِ أَلَيْكَ حَاجَةٌ قَالَ أَمَا لَيْكَ فَلَاوِفَاءَ بِقَوْلِهِ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ إِذْ قَالَ ذَلِكَ حِينَ أَخَذَ لِي رَمِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى - وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى - وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَدَاوِدَ مَا مِنْ عَبْدٍ يَتَصَمَّمُ فِي دُونِ خَلْقِي فَتَكِيدُهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا جَعَلْتُ لَهُ مَخْرَجًا . وَأَمَّا الْآثَارُ فَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ لَدَغْتَنِي عَقْرَبٌ فَأَقْسَمْتُ عَلَى أَمِي لَتَسْتَرْقِيَنِي فَنَاقَلْتُ الرَّاقِي يَدِي الَّتِي تَمْ تَلْدَغُ وَقَرَأْتُ الْخَوَاصَ قَوْلُهُ تَعَالَى - وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ - إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ مَا بَقِيَ لَعَبْدٍ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يُلْجَأَ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ فِي مَنَامِهِ مِنْ وَثَقَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ أَحْرَزَ قُوَّتَهُ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لَا يَشْغَلُكَ الضَّمُونُ لَكَ مِنَ الرِّزْقِ عَنِ الْفَرُوضِ عَلَيْكَ مِنَ الْعَمَلِ فَتَضِيعُ أَمْرَ آخِرَتِكَ وَلَا تَنَالُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَدَ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ فِي وَجُودِ الْعَبْدِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ مَأْمُورٌ بِطَابِ الْعَبْدِ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ سَأَلْتُ بَعْضَ الرُّهْبَانِ مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ فَقَالَ لِي لَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ عِنْدِي وَلَكِنْ سَلَ رَبِّي مِنْ أَيْنَ يَطْعَمُنِي . وَقَالَ هَرَمُ بْنُ حَيَّانٍ لِأَوَيْسِ الْقُرْنِيِّ أَيْنَ تَأْمُرُنِي أَنْ أَكُونَ قَاوِمًا إِلَى الشَّامِ قَالَ هَرَمُ كَيْفَ الْعَيْشَةُ قَالَ أَوَيْسُ أَفَ

(١) حديث ابن مسعود أريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذي والحاكم ومحمد بن حنبل من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن بن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه الحديث في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصَةٌ قال قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَيَقُولُ بهذا أُمِرَ رَبِّي قَالَ تَعَالَى - وَأَمْرًا هَلَكًا بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا - الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيصعد معاه من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث للغيرة بن شعبة وقال الترمذي من اكتوى أو استرقى قد برى من التوكل وقال النسائي ما توكل من اكتوى أو استرقى .

له وجود وذات كالروح  
والنفس وإنما  
صفت النفس وتزكت  
انطلق الروح من وثاق  
ظلمة النفس فأخذ في  
المروج إلى أوطان  
القرب واترج القلب  
عند ذلك عن مستقره  
متطلعا إلى الروح  
فأكتسب صفاتا  
على وصفه فأنجم على  
الواجدين ذلك الوصف  
حيث رأوه أصفى من  
القلب فسموه سرا  
ولما صار للقلب وصف  
زائد على وصفه بطلعه  
إلى الروح اكتسب  
الروح وصفًا فاذا  
في عروجه وأنجم  
على الواجدين فسموه  
سرا والذي زعموا أنه  
الطيف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الوعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

( بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل )

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل وهو للسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى سمى يقيناً ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالله القدرة التي يترجم عنها قولك : له الملك والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ثم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه غالباً عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه بطول وهو من علم المكاشفة والمكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والأفان وحيد هو البحر الحظم الذي لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب القلب وإلى قشر وإلى قشر القشر ولتلك تلك تقريبا إلى الأقسام الضعيفة بالجور في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب القلب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً وإذا لم يرفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان ثانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه في عن رؤية نفسه والخلق فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موحد بمعنى أنه متفقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه إشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده ولهذا القدر حيل يقصدها لتضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضاً أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاماً والعارف به يسمى متكلماً وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص التكلم باسم للوحد من حيث إنه يعنى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والتكلمين إذ لم يفارق التكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تليق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر الداق وإن نظرا إلى باطنه فهو كركبة للنظر وإن أخذ

متصفه بوصف أخص  
بما عهدوه والذي سموه  
قبل الروح سر هو قلب  
اتصف بوصف زائد  
غير ما عهدوه وفي مثل  
هذا الترقى من الروح  
والقلب ترقى النفس  
إلى محل القلب وتخدع  
من وصفها فتصير نفساً  
مطمئنة ترتد كثيراً  
من مرادات القلب من  
قبل إذ صار القلب يريد  
ما يريد مولاه متبرئاً  
عن الحصول والقوة  
والارادة والاختيار  
وعندها ذاق طعم  
صرف العبودية حيث  
صار حراً عن إرادته  
واختياره وأما العقل  
فهو لسان الروح  
وترجمان البصيرة  
والبصيرة للروح بمثابة

حطياً أطفأ النار وأكبر الدخان وإن ترك في البيت ضيق للسكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر عديم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد للنافع يصون بدنه عن سيف الفزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبق لتوحيد فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فانها تصون القلب وتحميه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها أطباء الكهنة نازلة القدر بالاضافة إلى القلب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والشاهدة التي تحصل بانشرائح الصدر وانقاسه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وكان القلب تقيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ولكنه لا يغلو عن شوب عصاره بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد طال للسالكين لكنه لا يغلو عن شوب ملاحظة الغير والاتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فاعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم العاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك تمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من للشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفث إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ تقول إنه إنسان واحد فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفریق وكأنه في عين الجمع والمثلث إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخرى سواء كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تنقطع كالبرق الخاطف وهو الأكر والداوم نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فيأذنت فقال أدور في الأسفار لأصح حالتي في التوكل وقد كان من التوكلين فقال الحسين قد أنيت عمرك في عمران باطنك فأبى القناء في التوحيد فسكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال . فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما فهم كيفية ابتناء التوكل عليه . فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيان وليس التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والعقل بشهادة  
اللسان . وقد ورد في  
الحبر عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أنه  
قال لا يؤمن من لم يثق  
الله العقل فقال له أقبل  
فأقبل ثم قال له أدبر  
فأدبر ثم قال له أقصد  
نفسك ثم قال له انطلق  
فانطلق ثم قال له اصمت  
فصمت فقال وعزني  
وجعلني وعظمي  
وكبريائي وساعاتي  
وجسدي ما خلقت  
خلقا أصعب إلي منك  
ولا أكرم علي منك  
بك أعرف وبك  
أحمد وبك أطاع  
وبك آخذ وبك  
أعطي وإياك أعاتب  
ولك الثواب وعليك  
العقاب وما أكرمك

البتة في مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وقهر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الملتزم بآباده واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تثبتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسغرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا انفتحت لك أبواب الكاشفة انفتح لك هذا اتساحا آتم من الشاهدة بالبصر وإنما يصدر الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسنتين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على الطرفين خروج الزرع ونباته ونسائه وعلى القيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع النسيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بمقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجبونا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالنجات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي النجات من أخذ لحز رقبتك فكنت الملك توقيعا بالغفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والقيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حكم الاعتقاد أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيسر عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأنت في للهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يملك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا ، نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو السخر له وعند هذا زل أقدم الأكرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضمائم كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضمائم في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو السواد للبياض وذلك أقصو بصرها عن مجاوزة رأس القلم لفريق حدقتها فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقه في الطريق

جى . أفضل تمن  
الصبر . وقال عليه  
السلام « لا يهجمكم  
إسلام رجل حتى  
تعلموا ما عقده عقله »  
وسألت عائشة رضي  
الله عنها النبي صلى الله  
عليه وسلم قالت قلت  
« يا رسول الله بأي شيء  
يتفاضلون الناس ؟ قال  
بالعقل في الدنيا  
والآخرة قالت قلت  
أليس يجزى الناس  
بأعمالهم ؟ قال يا عائشة  
وهل يعمل بطاعة  
الله إلا من قد عقل  
فيفد عقولهم يعملون  
وعلى قدر ما يعملون  
يجزون » وقال عليه  
السلام « إن الرجل  
ينطلق إلى المسجد  
فيصلي وصلاته

على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والشهادات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى معوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بالأحرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أثنى به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك في معول لا قدر لما يشارك فيه الهائم وإنما أريد به مما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فإن قلت فهذه أهوية لا قبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقرئت وكيف شهدت على نفسها بالعجز . فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر وله يتناهي فانها كانت تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له - قل لو كان البحر ممدادا لكتبته ربى لند البحر - الآية ثم إنها تتناجي بأسرار الملك والملكوت وإقضاء السر لئلا يطلع على صدور الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد توجيى بخفايا فنادى بسره على ملائمة الخلق ولو جاز إقضاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما انتهى عن إقضاء السر القدر (٢) . ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أمشي فأمسكوا » (٣) ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات ما نمان : أحدهما استجالة إقضاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والتهاية ولو كنا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يخبرهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقدر آه اسود وجهه بالجر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتي في هذه اللقاة فاني مسودت وجهي بنفسى ولكن سل الجبر فانه كان مجموما في الهجرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظمأ وعدوانا فقال صدقت فسأل الجبر عن ذلك فقال ما أنصفتي فاني كنت في الهجرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطعمه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادى ورفق جمعي وبددني كاتري على ساحة يضاء فالسؤال عليه لا طي فقال صدقت ثم سأله القلم عن السبب في ظله وعدوانه وإخراج الجبر من أوطانه فقال سل اليد والأصابع فاني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار متمزها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين ففتحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابي ثم برتني وشقت رأسي ثم غممتني في سواد الجبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ولقد ثرت للبحر على جرحي بسؤالك وعتابك ففتتح عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سأله اليد عن ظله وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو حسما يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبي فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي تردني

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النبي عن إقضاء سر القدر ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا الله عز وجل سره انظروا أبي نعيم وقال ابن عدى لا تكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف ولقد تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

لا تعدل جناح بعوضة وإن الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا قيل وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال أروعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه في العمل والتطوع . وقال : عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشد من أن الرجلين يستويا عليهما وبرهما وصومهما وصلاحهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد » وروى عن وهب بن

وتجول في نواحي الأرض أما ترى الدر والحجر والشجر لا يتمدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر أما ترى أيدي الولى تساوئ في صورة الأحكام والعظم والدم ثم لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فاني مركب أزجني من ركني فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومى ومعاتبى فكم من لأم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفى عليك أمرى وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنى ميتة أو معدومة لأنى ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءنى موكل أزجني وأرهنى إلى ما تراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ولم تكن لى قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزجني من غمرة النوم وأرهنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأى فقال صدقت ثم سأل الإرادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة الطمئة حتى صرقتها إلى التحريك وأرهنى إلى إرهابها لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تميل على فعلل لنا عذرا وأنت تلوم فاني ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انتهضت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بعثته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصها باضطراب فاني ميكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكفى أدرى أنى فى دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو فى التردد مع نفسه والتخير فى حكمه فأنا ساكنة لكن مع استئثار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه أزججت بطبيع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عنى عتابك فاني كما قال القائل :

مضى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا يفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا لإيام على استنباض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقشت فى يياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند ذلك تتعج السائل ولم يقنع جواب وقال قد طال نحيى فى هذا الطريق وكثرت منازلنى ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكنى كنت أطلب نفسا بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى القواد وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطى قلم فلست أفهمه فاني لأعلم قلما لإلمن القصب ولالوحا لإلمن الحديد أو الخشب ولا خطا إلا بالجبر ولا سراجا إلا من النار وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا أسمع جمجمة ولا أرى طحنا فقال له القلم إن صدقت فياقلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تصرف وتدع ما أنت فيه لما هذا بمشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى التمسد فألق سمك وأنت شهيد . واعلم أن العالم فى طريقك هذا ثلاثة عالم لك والشهادة أولها وقد كان السكاغد والجبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت

منه أنه قال إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهية رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا. واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا قال قوم : العقل من العلوم فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من



تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورأى فإذا جاوزته انتهى إلى منازل وفيه المهامه والقيح والخيال الشاهقة والبحار الغرقة ولا أدري كيف نلّم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً وعالم الملكوت أوعر منه منها وإتباعاً عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والسما فلهي في حد اضطراب السماء ولاهي في حد سكن الأرض وثباتها وكل من عصى على الأرض عصى في عالم الملك والشهادة فإن جاوزت قوته إلى أن يعصى على ركوب السفينة كان كمن عصى في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يعصى على السماء من غير سفينة عصى في عالم الملكوت من غير تمتع فإن كنت لا تتدبر على الشيء على السماء فأصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا السماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يعصى به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام «لوازداد يقينا لشيء على الهواء» (١) لما قيل له إنه كان يعصى على الماء فقال السائل قد تحيرت في أمري واستعرت قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطبق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل ذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحده نعوى فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذا نزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - فقال السائل لقد فتحت بصري وحدته فوالله ما أرى قصبا ولا خشباً ولا أعلم قلماً إلا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأنفام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ولا قلبه من قصب ولا لونه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا جبره زاج وعصا فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا إلى أراك إلا غشنا بين غفلة التزبه وأتونة التشبيه مذنباً بين هذا وذال إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف تزهد ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها وزهدت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكأن مشبهاً مطلقاً كما يقال كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصار لا بالأبصار فكأن منزهاً صرفاً ومقدساً خفياً واطو الطريق فأنك بالوحد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فاعلمك نجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودى به موسى - إني أنا ربك - فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه غثث بين التشبيه والتزبه فاشتعل قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيت الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تحسه نلر فلما نفع فيه العلم بمحدثه اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور فقال له العلم اغتم الآن هذه الفرصة واخضع بصرك لملك نجد على النار هدى ففتح بصره فأنكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى يعصى على الماء قال لوازداد يقينا لشيء على الهواء تقدم .

شرط ابتداء النظر  
تقدم كمال العقل فهو  
إذن من العلوم  
الضرورية وليس هو  
جميعها فإن صاحب  
الحواس المختلفة حافل  
وقد عديم بعض  
مدارك العلوم  
الضرورية. وقال بعضهم  
العقل ليس من أقسام  
العلوم لأنه لو كان منها  
لوجب المحصن بأن  
الداهل عن ذكر  
الاستحالة والجواز  
لا يتصف بكونه حافلاً  
ونحن نرى العاقل في  
كثير من أوقاته ذاهلاً  
وقالوا هذا العقل صفة  
ينبأ بها درك العلوم .  
وقل عن الحرث بن  
أسد الهامسي وهو من  
أجل الشايع أنه قال

فاذا هو كما وصفه العلم في التزييه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولأرأس له قفص منه المعجب وقال نعم الرفيق العلم جبراء الله تعالى عن خير إذا الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا أقلام فصد هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبحث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفتها إلى اللقودرات فقال أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وصممت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فصل عن شأني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يردوني وأما مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن عين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسموات مطويات بيمينه - قال نعم قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فاسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائب ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحصى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كاليمين ويد لا كاليد وأصبع لا كالأصبع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحرركه للقلم فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة في القدرة إذ اليد لا حكم لها في نفسها وإنما محرركها القدرة لا محالة فاسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استعجز عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الوصفات لا على الصفات وعندها كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - فحشيت هية الحضرة غفر مصفا يضرب في غشيتة فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالي إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأتبتل بين يديك فأقول : اشرح لي صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأننى عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فما آتاك غفمه وما نهاك عنه فانته عنه وما قاله لك قلله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) فقال إلهي إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتربه فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراك فيك فيك نصيما من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جلالنا وجلالنا فنحن هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعايناته وقال لليمين والقلم والعلم والإزادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذرى فاني كنت غريبا حديث المهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة لما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآل قد صرح عندي عذركم وانكشف لي أن للفرد بالملك والمكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فلما أنتم المسمخون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الأول والآخرو الظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقبل له كيف يكون هو الأول والآخروها وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس ياطن فقال هو الأول بالاضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحد ابعده واحد هو الآخر

العقل غريزة بنهيا بها  
درك العلوم وعلى هذا  
يتقرر ما ذكرناه في  
أول ذكر العقل : أنه  
لسان الروح لأن  
الروح من أمر الله  
وهي التحمة للأمانة  
التي أبت السموات  
والأرضون أن يعملنها  
ومنها يفيض نور  
العقل وفي نور العقل  
تنشكّل العلوم فالعقل  
للعلم بمثابة الروح  
للسكتوب وهو صفته  
منكوس متطلع إلى  
النفس تارة ومتصّب  
مستقيم تارة فمن كان  
العقل فيه منكوسا  
إلى النفس فرقه في  
أجزاء الكون وعدم  
حسن الاعتدال  
بذلك وأخطأ طريق

(١) حديث سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود وباطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصرة الباطنة النافذة في عالم لللكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في القل: أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يتنى على الإيمان بعالم لللكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجد طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم لللكوت كانكار السنية لعالم الجبروت ، وم الدين حصر العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وآنا منهم فإني لأهتدي إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه ما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا شئ به فلمنا نراه في المنام ، فان قال وآنا من جملتهم فإني شاك أيضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فترك أياما فقلل وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم لللكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود قبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتفتيته اشتغال الكمال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك واللكوت بشهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضا توحيدا إذ يعلم كل أحد أن للزلزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأمرين فيقال له على حد عقله إلى العالم واحد والمدير واحد إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق مارآء في عالم الشهادة فيفسد اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأندياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وكذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاوراة . فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يصف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شئ من ذلك بل لو كشف النطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإفطار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ومماثل للكاشفين والمتقين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقوله فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثر لك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تنضي هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التضرير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلما نظروا إلى عجل السامري ومعموا خواره تغيروا ومعموا قوله - هذا الحكم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قول ولا يملك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاعتداء ومن انتصب  
العقل فيه واستقام  
تأيد العقل بالبصرة  
التي هي لروح بمثابة  
القلب واهتدى إلى  
اللكوت ثم عرف  
الكون باللكوت  
مستوفيا أقسام المعرفة  
بالمكون والمكون  
فيكون هذا العقل  
عقل الهداية فكما  
أحب الله إقباله في أمر  
دله على إقباله عليه  
وما كرهه الله في أمر  
دله على الإدبار عنه  
فلا يزال يتبع عباد الله  
تعالى ويحجب مساحطه  
وكما استقام العقل  
وتأيد بالبصرة كانت  
دلالتة على الرشد  
ونبيه عن التي . قال  
بعضهم : العقل على

إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى مجمل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت ماذا كرمته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الانسان فانه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لو كان مع هذا إرادة إن إراد أن يشاء ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط لو كان علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فابست المشيئة إليه إذ لو كانت إليه لا تفترق إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن المشيئة إليه فهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى الخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى التدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بحث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا . فأقول لو انك كشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان التكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متظفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به إلا العلم للعامة ، ولكي أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالزفة والخنجرة ويحرق الماء إذا وقف عليه بحسبه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطراب والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمى تنفسه فعلا إراديا ونسمى كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تغطي من السطح للهواء انحرق الهواء لا محالة فيكون الحرق بعد التغطية ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الخنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انحراق الماء إلى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانحراق بعده وليس الثقل إليه وكذلك الإرادة ليست إليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بآلة طبق الأجناف اضطرابا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تضيض الأجناف اضطرابا فعل إرادى ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالادراك حدثت الإرادة بالتضيض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهذا الجبر بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، ويأينه أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تغيير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بآلة أو يدك سيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبثق الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتصلح حركة الأجناف بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ومن الأشياء ما يتوقف الخييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع بمن غير روية ففكر فانبثقت الإرادة ههنا كما تنبثق لدفع السيف والسنان فإذا انبثقت لفعل ما ظهر للعقل

ضرب بين ضرب يصبر  
به أمر دنياه وضرب  
بصبر به أمر آخرته ،  
وذكر أن العقل الأول  
من نور الروح والعقل  
الثاني من نور الهداية  
فالعقل الأول موجود  
في عامة ولد آدم والعقل  
الثاني موجود في  
الموحدين مفقود من  
المتكبرين . وقيل إنما  
سمى العقل عقلا لأن  
الجمل ظلمة فإذا غلب  
النور بصبره في تلك  
الظلمة زالت الظلمة  
فأبصر فصار عقلا  
فالجمل ، وقيل عقل  
الإيمان مستحسنه في  
القلب ومتممه في  
الصدر بين عيني  
القياد والذى ذكرناه  
من كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتركاً من الخير أي هو انبعث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعثاتها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا أفقر إلى الروية فلاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيها إلى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جرم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحرق نفسه مثلاً لم يمكنه إلا لعدم القدرة في البدول لعدم السكين ولكن لتفقد الإرادة الداعية للشخصية للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً وقته نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عتوة . وولة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردد بين شر الشرين فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للفعل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فأنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأنما أن يكون منه فكلاً ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامتنة ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فاذاهو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على منزلة بين الترتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنهم لا كان فذاثاً واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تخير وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الأماط المذكورة في الفات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يلبق بهذا العلم وبطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وإن أبيت ذلك فإني أعني ترتب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المولى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأمل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنهه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ويان ذلك بطول ولكن بعض القديرات ترتب على البعض في الحدوث ترتب الشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت العامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكشفين بنور الحق والإفلا يتقدم من تقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والزموم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقت السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لأن انتصابه واعتداله هداة إلى الاستقامة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأيد البصيرة فالبصيرة تحيط بالمعلوم التي يستوعبها العقل والتي

لاعين . ما خلقناهما إلا بالحق - فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخراً إلا لا تتطابق شرطه وللشروط قبل الشرط محال والحال لا يوصف بكونه مقدوراً فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لا تفقد شرط الحياة ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لا تفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتديرو تفهم ذلك عسير ولكننا نصرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلاً لا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن تقدر إنساناً محدثاً قد انضم في الماء إلى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرفع وهو ملائق له فقدرة القدرة الأزلية حاضرة ملائمة للمقدورات متعلقة بها ملائمة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أنه الحدث ارتفع عن اليدين برضه عن الوجه لأنه حدث عقيه إذ يقول كان الماء ملائماً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فاذن غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء اللزاق لها لا بفصل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم تقدر على أن تذكرك من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤثته على اللسان وما أسهل اعتقاده مفهوم أظنه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فإن قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول من فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجعلاً مردداً بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى واقعه عز وجل فاعل بمعنى آخر فعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المحترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلوم بالعلو وارتبط المحترع بالمتحرف وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعله فكيف كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فذلك سمي فاعلاً لكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بينهما مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل بتوفاكم ملك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال تعالى - أفرأيتم ما تمحرون - أضاف إليهم قال تعالى - أنا صابنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققاً فانبثقت فيها حيا وعنباً - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم باروخاً فتمثل لها بشراً سوياً - ثم قال تعالى - فنفخنا فيها من روحنا وكان النافع جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التي تنفذ البحر دون نقادها والعقل ترجان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطراً كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الاستمضاء بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استمضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فاذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل .  
وقال تعالى - قاتلوهم يذهبهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو  
عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - وما رميت إذ  
رميت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي  
يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال  
الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه  
البيان - وقال - ثم إن علينا ياناه - وقال - أفرأيتم ماتعون أنتم تحلفونه أم نعم الخالقون - ثم  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده  
ثم يصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق  
الملك <sup>(١)</sup> » وفي لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » . وقد قال بعض  
السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه  
فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمى روحا وما ذكره في مثل هذا الملك  
وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم  
إلا بالتأمل والحكم به دون التأمل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات  
في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه  
لا إله إلا هو - فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من  
طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما  
قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه  
على كل شيء شهيد - وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الحي والميت ثم فوض الموت والحياة إلى  
ملكين ففي الخبر « أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك  
الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المميت  
والحي لا يميت ولا يحيي سواي <sup>(٢)</sup> » فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تناقض هذه المعاني  
إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة « خذها لولم تأتها لأنتك <sup>(٣)</sup> » أضاف  
الانبيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما  
قال الثائب أنوب إلى الله تعالى ولا أنوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم « عرف الحق لأهله <sup>(٤)</sup> »

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا الحديث  
البراز وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا  
فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فإمن شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم وفي سنده  
جهالة وقال ابن عدى إنه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه <sup>(٢)</sup> حديث  
إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الأموات  
فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا <sup>(٣)</sup> حديث قال للذي ناوله التمرة  
خذها لولم تأتها لأنتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصفه الطبراني  
عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح <sup>(٤)</sup> حديث إنه قال للذي قال أنوب إلى الله ولا أنوب إلى  
محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والقول دون الجامدين  
على مجرد القول دون  
البصائر وقد قال بعضهم  
إن العقل عقلان عقل  
للهداية مسكنه في القلب  
وذلك للمؤمنين الموقنين  
ومتعمله في الصديقين  
عيني الفؤاد والعقل  
الآخر مسكنه في الدماغ  
ومتعمله في الصديقين  
عيني الفؤاد قبل الأول  
يدبر أمر الآخرة ،  
وبالثاني يدبر أمر  
الدنيا والذي ذكرناه  
أنه عقل واحد إذا  
تأيد بالبصيرة دبر  
الأمرين وإذا تفرد  
دبر أمرا واحدا وهو  
أوضح وأبين ، وقد  
ذكرنا في أول الباب  
من تديره للنفس  
الطمشة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو التجوز والشعير في كلامه والتجوز وجه كما أن للحقيقة وجهاً واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فيها فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبته إلى الجلال فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعت أيها القوي للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه القوي له ولما جرى حقيقة للفق على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: \* ألا كل شيء ما خلا الله باطل \*» (١) أي كل ما لا قوام له بنفسه وإعما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لا حق بالحقيقة إلا الخالق القوي الذي ليس كمثل شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كُن الآن كَلَمْ تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت قد ظهر الآن أن الكل جبر لتمامي الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلان طول بعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والإيمان بالرحمة وسعها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق الكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليستفده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يترتب فيه وهو أن يصدق تصديقاً يقيناً لا يضاف فيه ولا يرب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تختمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وغفلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار اللسكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرم أمرهم أن يدبروا الملك واللسكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بموضة ولأن ينقص منها جناح بموضة ولأن يرفع منها ذرة ولا أن ينقص منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن بلى به ولا أن يزيل محبة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ماراً أو أفاها من ضاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وهجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالتقدير الذي ينبغي وليس في الامكان أصلاً أحسن منه ولا أنم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفضله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ولو لم يكن قادراً لكان عجراً يناقض الألوية بل كل فقر وضرفي الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تيمم الأصحاء بالصحة ولولا النار

ما يتبته الانسان به إلى كونه عقلاً واحداً مؤيداً بالبصرة تارة ومنفرداً بوصفه تارة والله اللهم للصواب .  
[ الباب السابع  
والحميون في معرفة الحواطر وتفصيلها وتعميرها ]

أخبرنا شيخنا أبو النجيب المشهور روى قال أخبرنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحسوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال أنا هناد قال أنا أبو الأعوص عن عطاء بن السائب عن مرة الحمدي عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد : \* ألا كل شيء ما خلا الله باطل \*

متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشهر كلمة تسكمت بها العرب



لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكأن فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم القوة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لالمب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غرض لا يقفه إلا المالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكترون ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق الشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولترجع إلى علم العامة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

السطر الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والامل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع الضرر وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته .

#### بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرة وقد أكثر الخاضعون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الوكول إليه وكلا ويسمى الفوض إليه متوكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم ينهه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وتصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكيل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقده أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الخيل شيء أصلا وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يخجل فانه ربما يطاع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف الضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعتداله على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تنفى دون العناية به إذا كان لا يهيم أمره ولا يبالى به فظهر خصمه أو لم يظهر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه لم مطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي منزيع القلب مستغرق في المهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذر من تصور

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشیطان لمة بابن آدم ولذلك لمة فأملأه الشيطان فايساد بالشر وتكذيب بالحق وأملأه الملك فايساد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء - » وإنما يتطلع إلى معرفة الدين ويميز الخواطر طالب مرديتشوف إلى ذلك تشوف العاقلان إلى الماء لما يطم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتنا لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال التوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتنا لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدلول كل وهو الذي يسمى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقوام بياونا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال نفس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جائز أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بحملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل على الله قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيه أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وإنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فإن القلب قد يزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نقر طبعه وتغذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو يبيت نقر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه حجاب في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحثيره الآن ولا يخيه وإن كان قادراً عليه كأنها مطردة بأن لا قلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو البيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يغلو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاحتي يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالكسوف في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أؤلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتقوى أن يكون مشاهداً إحياء البيت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس للطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الليل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً وإنما يتبعون الظن وماتوى الأنس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذن الجبن والجرأة غرائز ولا ينفص اليقين معها فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كأن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة ما عمن من تقته إنسان مثله وقد قال عليه السلام «من استعز بالبيد أذه الله تعالى (١)» وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالحظوة صفو اليقين ومنع الوقوفين وأحسب التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

(١) حديث من اعتر بالبيد أذه الله العقيلي في الضمفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر أوردته العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

الدرجة الأولى : ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحالته في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يستمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يغفلها وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفرغه فانه قد وثق بكفالاتها وكفائتها وشغفتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الحصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كاف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لتغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والسكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشعوره بذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الليث بين يدي الغامل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغامل الليث وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون باثنا عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويسدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تغامحه وتقيه وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فسكن من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون للمقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجهل فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع واقتباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع واقتباضه عارض والوجهل عبارة عن اقتباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تتمحى عن ظاهر البشرة الحرارة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فإن البشرة ستر رقيق تراه من وراءه حمرة الدم واقتباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا اقتباض القلب بالسكسية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوما ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فإن قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمهتوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الحصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عاداته وسننه دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه إذ ليس هو فزع عنه

عصيت الله وهذا حال  
عبد استقام قلبه  
واستقام القلب  
اطمأنينة النفس وفي  
طمأنينة النفس يأمن  
الشیطان لأن النفس  
كلما تحركت كدرت  
صفو القلب وإذا  
تكدر طمع الشيطان  
وقرب منه لأن صفاء  
القلب محفوف بالتذكر  
والرعاية وللذكر نور  
بتمية الشيطان كاتقاء  
أحدنا النار . وقد  
ورد في الحسب إن  
الشیطان جاثم على  
قلب ابن آدم فإذا  
ذكر الله تعالى تولى  
وخس وإذا غفل  
التقم قلبه فخذته ومنامه  
وقال الله تعالى سوس  
يشن عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا متمداً له في قوله لما حضر قوله وأما للعلوم من عاداته وأطراد سنته فهو أن يعلم من عاداته أنه لا يحتاج الحزم إلا من السجل فقام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون محولاً على سنته وعاداته ووافياً بمقتضاها وهو أن يعمل السجل مع نفسه إليه عند خاصته فاذا لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولو ترك شيئاً من ذلك كان قصراً في توكله فكيف يكون فعله تصافيه ، نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعاداته وقد ناظراً إلى حاجته قد يقضى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمجهول ينتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعاً إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسأتي تفصيله في الأعمال فاذا فزع التوكل إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل فافهم أن التوكل لا يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بالاجدوى فاذا لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله متمداً لما جتمع معه ذلك بإشارته وسنته فاذا لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإتمامه في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهم مفيدين إذ جعلهم حاشراً طامساً مخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذا لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله (١) وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بفهم لفظها وهيئات قائماً ذلك جزاء على هذه الشهادة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إلى الله فالتفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن التوحيد قسرين ولين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالقسرين وما طرقتوا إلى القبين وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقا من قلبه مخلاً بالفقرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع والمراد به القيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس وإتمام الصدق والإخلاص وراءها ولا ينصب سرير الملك إلا للقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اللين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهى إلى الملك أمارتي أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلاً من قلبه وجبت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الرحمن تقيض له  
 شيطاناً فمؤله قرين -  
 وقال الله تعالى - إن  
 الذين اتقوا إذا مسهم  
 طائف من الشيطان  
 تذكروا فإذا هم  
 مبصرون - فبالنقوى  
 وجود خالص الذكر  
 وبها يفتح باب ولا  
 يزال العبد يتقى حتى  
 يحصى الجوارح من  
 المكروه ثم يحصيها من  
 الفضول وما لا يعبئ  
 فتفسير أقواله وأفعاله  
 ضرورة ثم تنتقل  
 تنوّه إلى باطنه ويظهر  
 الباطن ويقيد عن  
 المكروه ثم من الفضول  
 حتى يتقى حديث النفس  
 قال سهل بن عبد الله  
 أسوأ للعاصي حديث  
 النفس ويرى الإصغاء

سرر موضونة متكئين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر الماء والظل  
والفواكه والأشجار والحوار العين وكل ذلك من لذات المنظر والمشروب والمأكل والنسكوح ويتصور  
ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين  
ولو كان لهذه اللذات قدر لها وسعت على البهائم ولم أرعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم  
وهي مسية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف للأكلات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى  
والدواشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى السكالك مغبوظة من أحوال الملائكة في سرورهم أقرب  
من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيهات هيهات ما بعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون  
حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس  
يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها  
إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالسكاتب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل  
لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء  
هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب  
درجة الملائكة فتركها الطاب للعجز ، وأما الإنسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل السكالك أخرى بالذم  
وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكالك. وإذا كان هذا كلاماً معتزلاً فلنرجع إلى المتصور  
قد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة  
فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله  
فلو قال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول لا، لأن الثواب على قدر درجة  
المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز  
وصفهما بالصغر تجاوزا فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من  
جهة آدميين بل هما من خالق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعزلة والفلاسفة  
وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهي مهلكة  
مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها العاقلون إذ أفتدوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق  
نوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة يتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو  
الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله . وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان . إحداهما النظر  
إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات . والثانية النظر إلى اختيار  
الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها ويقطعها كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة  
أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجعها فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة  
والتوكل على الواحد الحق وسيبضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

#### بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى  
الدبلي قلت لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي  
عن عينك ويسارك ما تحرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة  
يتممون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذكره أبو موسى  
فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم  
الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما أملة الله تعالى فعله بالواجب فلا تميز بين أهل النار

إلى ما يحدث به النفس  
ذنباً فينتقيه ويتقصد  
القلب عند هذا الالتقاء  
بالذكر اتقاد السكواكب  
في كبد السماء وبصير  
القلب سماء عنوظا بزينة  
كواكب الله كذا فاذا  
صار كذلك بسد  
الشیطان ومثل هذا  
العبد يسدر في حقه  
الخواطر الشيطانية  
ولماته ويكون له  
خواطر النفس ويحتاج  
إلى أن يتقيا ويعزها  
بالعلم لأن منها خواطر  
لا يضر إضاؤها  
كطالبات النفس  
بحاجاتها وحاجاتها  
تنقسم إلى الحقوق  
والحفظ وبتعين  
التمييز عند ذلك واتهام  
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغصن أنواع العلم ووراه سر القدر وأبو يزيد قد استكام إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احتراز أبو بكر رضي الله عنه في النار إذ سدت منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه وللنظر في هذا الجمل ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر من أن يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فإن احتراز لم يكن استكاه على تديره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون الصري عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دانيق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسمه القدرة وأن في القدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال تترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولي لذلك فالأول عام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يقضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخزاز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وتغته به واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه وإتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعده والمسلم يكفي بملئه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقوال شتى ما ذكرناه فلان طول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والقل فهذا ملحق بحال التوكل والله الموفق برحمته وطفه .

#### بيان أعمال التوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يشمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللاحم على الوضوء وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أمّن على التوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل تكشف الغطاء عنه وتقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسميه بملئه إلى مقاصده وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالسكب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضار قد نزل به

الحظوظ قال الله تعالى  
يا أيها الذين آمنوا  
إن جاءكم فاسق بنبأ  
فتبينوا - أي فتبينوا  
وسبب نزول الآية  
الوليد بن عتبة حيث  
بعثه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم إلى بني  
المصطلق فكذب عليهم  
ونسبهم إلى الكفر  
والعصيان حتى هم  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بقائلهم ثم  
بعث خالد إليهم فسمع  
أذان المغرب والعشاء  
ورأى ما يدل على  
كذب الوليد بن عتبة  
فأنزل الله تعالى الآية  
في ذلك فظهر الآية  
وسبب نزولها ظاهر  
وصار ذلك تنبيهاً من  
الله عباده على التثبت

(١) حدث إن أبا بكر سدت منافذ الحيات في النار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالتداوى من الرض فمقصود حركات العبد لاندعو هذه الصنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فانذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقررنا بشواهد الشرع .

[ الفن الأول : في جلب النافع ] فقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاشق النفس به ثقة تامة ولاطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت السبب بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الخنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيعا دون الحيز أو يخلق في الحيز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطعمت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاهي اليد والطعام وكيف تعتمد على محبة يدك وربما تحجب في الحال وتفجع ، وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى من يظلمك عليه أو يبعث حبة تزحجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتقول فإذا كان هذا حاله وعلمه فليجد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن السبب لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقتها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاهي الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان بفعله الخواص فان قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقارب به بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما ينفق من الأشياء الحسية فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والرکوة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون للقاء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر بغير دلو ولا حبل ولا ينال وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولمطشه في كل يوم أو يومين مرة فان السافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في هذه الآية القاسق الكذاب والكذب صفة النفس لأنها تملى أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها فتبين الثبوت عند خاطرها وإقامتها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب الثبوت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بحرك النفس وخالفها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتكتشف عورته ولا يوجد القراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الحياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوطا إلى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لاماء ولا حشيش ولا بطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لأنسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي فقدم سبعا فكاد يموت ولم يأتيه رزق فقال يارب إن أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزني لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتقعدين الناس فدخل الصر وقعد لحفاه هذا بطعام وهذا شراب فأكل وشرب وأوحى في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي فاذا التبتاعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يتقاضى التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمضى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت فما قولك في القوم وفي البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب. فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قدينا أخر عنه والصبر يمكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن فتح باب البيت وهو بطل غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لامحالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا وقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلاف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لا رازق ولا يميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وترجع بظانا ولزالت بدعائكم الجبال»<sup>(١)</sup> وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم. فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي التوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكثرون. وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب العرفة والموت منه فانه إذا أتى بهذا الأدب يثاب ويमान ويتبين له هل الحاضر لطلب حظ أو طلب حق فان كان لاحق أمضاء وإن كان لاحظ فقام وهذا التوقف إذا لم يتبين له الحاضر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسه في صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويمضي خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدمنا قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تهذيب قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب الكلي مرسل دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع



بذل كالسؤال وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصانع وبعضهم بعز كالصوبية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى للسبب من غير ثقة ظاهرة كالذي يستغنى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالسكينة عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أغنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يغنى أن ذلك يطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضار فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في السبب مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يعجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى تدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج عن التوكل والذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرأهم وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تشيئة على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده . المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأصاير وهذا أضف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معوله على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن ذلك من الأسباب الجلية إلا أن ذلك لا يطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسحره سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى مكان البلد إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتبريقهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السمر لا يخرج أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أعبائه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدر الله تعالى كإبري القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يعيل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لماله أو لفرق على الساكن فهو يئده مكتسب وقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وأضاف إليه الحال والمعرفة كاسبق أن الصديق رضي الله عنه لما بوع بالخلافة أصبح أخذ الأتواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أمنت الخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني إن أضعتهم كنت لاسواهم أضيع حتى فرضوا له قوساً هل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله  
وهو علم السعة لصد  
مأذون له في السعة عالم  
بالأذن فيمضي خاطر  
الحظ والمراد بذلك  
على بصيرة من أمره  
يحسن به ذلك ويليق  
به عالم بزيادته وتقصانه  
عالم بحاله عكم لعم  
الحال وعلم القيام  
لا يقاس على حاله ولا  
يدخل فيه بالتقليد  
لأنه أمر خاص بعبد  
خاص وإذا كان شأن  
العبد تميز خواطر  
النفس في مقام تخلصه  
من لمات الشيطان  
تكسر لديه خواطر  
الحق وخواطر الملك  
وتصير الخواطر الأربعة  
في حقه ثلاثا ويسقط  
خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا ثم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارتق السوق كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دافعا ولا أستريح منه إلى قبراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرتة وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كنوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم لكنه بعد اشتغال القوم بذلك قد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت فما الأفضل أن يعمدني بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والانسكال على الله تعالى فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان للتوكلون يأخذون ما استشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه فردده فلما ولي قال له أحمد الحق وأعطه فانه يقبل فالحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طعمه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمته الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الحضرة ورضى بصحبي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكله فاذن للكسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو توفى أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقدته ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استمنت على رزقك بالمغازل رأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب يمر بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الدين برزقهم الله تعالى غير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرفت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاص إلى الأرض ومن ضائق النفس على التميز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقرين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سجاويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تتضاءل النفس المظلمة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

أن الله لا يعمل به إلا ما فيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فقلعه لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وحياته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خيرا له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كشيئا حزيناً يطير بجاره وابن عمه من سبقت من دهاني وماهي إلا رحمة رحمه الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا بألي أصبحت غنيا أوفقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فاني ما شئمت منه راحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولعله أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الإيمان بأن لافاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يشئنا العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تتبني على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - فان الانسان بطبعه مشغوف بسباع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضف القلب ومشاهدة التمكنين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له مملوم فقال له الامام لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقا في ضمانه فكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن إماما تغف بين يدي الله وبين الصادق مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل أقال يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليت بها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجى الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن آدم قيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فكتبت به إليه فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرا :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشراف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

بروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهرة وقلبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتسره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعي وجودا وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخواطر

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى  
 هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكُن الضمين لنصفها يابارى  
 مدحى لنفرك لخب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت  
 فأول من لقينى كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ماضل صاحب  
 هذه الرقعة فقلت هو فى المسجد القلانى فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته  
 عن ركب البغلة فقال هذا نصرانى فبشت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يحبس  
 الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب  
 الأقطع البصرى : جمعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثنى نفسى بالخروج فخرجت إلى  
 الوادى لملئ أجدا شيئا يسكن ضعفى فرأيت ساجدة مطروحة فأخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة  
 وكأن قائلا يقول لى جمعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد  
 وقعدت فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدى ووضع قطرة وقال هذه لك فقلت كيف  
 خصصتنى بها قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فندرت إن خلصنى  
 الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت  
 اقتحها ففتحها فإذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كذاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا  
 وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من  
 عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى : وقال عمشاد الدينوى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه  
 فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يا غيلى أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا  
 العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا نصابا ولا غيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت فى طريق  
 مكة أجيء من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت لى يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتوهم  
 أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل فوجدت خالجا فى الطريق فقلت فى نفسى  
 أحمله حتى يحمى صاحبه فرمى بي شيئا فأرده عليه فإذا أنا بملك المرأة فقالت لى أنت تاجر تقول  
 عسى يحمى صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمى لى شيئا من الدراهم وقالت أفققها فاكثفت بها إلى  
 قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له عنها وقالوا  
 هو ذا يحمى النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له  
 فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة  
 من سمرقند فحملت إلى بنان وذكرته له القصة . وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص  
 فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره  
 فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سميد الحرّاز : دخلت  
 البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة فرأيت الرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت فى نفسى أتى  
 سكنت واتسكنت على غيره وآيت أن لأدخل للرحلة إلا أن أحمل إليها ففكرت لنفسى فى الرمل  
 حفرة وواريت جردى فيها إلى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا يا أهل الرحلة إن لله  
 تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية . وروى  
 أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقاتل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى  
 اذهب فتعلم القرآن فانه سينيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتى فى لمكان  
 القرب وخطر النفس  
 بعد عنه بعد النفس  
 وخطر الملك تخلف عنه  
 كتخلف جبريل فى ليلة  
 للعراج عن رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم  
 حيث قال . لودنوت  
 أئمة لا حترقت . قال  
 محمد بن على الترمذى  
 المحدث والكلام إذا  
 تحققت درجته لم يخافا  
 من حديث النفس  
 فكما أن النبوة  
 محفوظة من إلقاء  
 الشيطان كذلك محل  
 الكلمة والمحادثة  
 محفوظة من إلقاء النفس  
 وفتنتها ومخروس بالحق  
 والسكينة لأن السكينة  
 حجاب للكلم والمحدث  
 مع نفسه . وصحت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني فقال إني قرأت القرآن فأغنانني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله الذي وجدت فيه فقال وجدت فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون - فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فبكي عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراساني حجبت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في برز فإزعجت نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الحاطر حتى مر برأس البرج جلال فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البرج لا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموار وأس البرج فهممت أن أصبح قفلت في نفسي إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البرج وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في مهمة له كنت أعرف ذلك فتملقت به فأخرجني فاذا هو سبع فرس وهتف بي هانف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيتك من التلف بالتلف فشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف  
تلطفت في أمري فأبدت شاهدي إلى غائب واللطيف يدرك باللطيف  
ترأيت لي بالغيث حتى صحتما تبشرنني بالغيث أنك في الكف  
أراك وبني من هيتي لك وحشة فتؤنسني باللطيف منك وبالمطيف  
وتعني هبأ أنت في الحب حنفته وإذا عجب كون الحياة مع الحنف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوى الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فلموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه، ثم التوكل بهذه الأحوال والشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

## بيان توكل العيال

اعلم أن من له عيال فحكه يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استئراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الإيمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأت رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مضبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الإيمان فاذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو اللقاع الثالث كدوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكل في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكل في حقهم فهذا حرام وقد يفضى إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعد على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روي أن أبا تراب النخعي نظر إلى صوفي مدبده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف أزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو علي الروذباري إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروهم بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبا محمد بن  
عبد الله البصري  
بالبصرة يقول الحواطر  
أربعة : خاطر من  
النفس واطر من  
الحق واطر من  
الشیطان واطر من  
الملك فأما الذي من  
النفس فيحسن به من  
أرض القلب والذي  
من الحق من فوق  
القلب والذي من الملك  
عن بين القلب والذي  
من الشيطان عن يسار  
القلب والذي ذكره  
إنما يصح لعباد أذاب  
نفسه بالقوى والزهد  
وتصفي وجوده واستقام  
ظاهره وباطنه  
فيكون قلبه كالمرآة  
الجلوة لا يأتيه  
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يدروا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجبن في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجبن ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شامت أم أبت اضطراباً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يرضع به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى الضغ ولكنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انقصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواجه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلك سبيل الآخرة ، فحينئذ بعد البلوغ جهل بحض لأنه ما قصت أسباب معيشته يلوغ به زادت فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفردة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرفق والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان الشفق عاينه واحداً والآن الشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفاية الأم والأب وهو مشفق خاص لما رأوه محتاجاً ولو رأوه يتما لسقط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في منى الحصب يتم قد مات جوعاً مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان للشفق واحداً والشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضمنت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكيف من يتم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ويترك التمس والاعتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جری قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجبن

فإن قلت الناس يكفلون القيم لأنهم يرونه عاجزاً بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثنا فليجهد نفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالاً فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطل والتوكل وإن كان مشتغلاً بالله ملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والمادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويصبره فإذا اسود القاب وعلاه الرين لا يصبر الشيطان .  
روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب نكث في قلبه نكثة سوداء فان هو نزع واستغفر وتاب صقل وإن عاد زيد فيه حتى تملأ قلبه قال الله تعالى - كلاب ران على قلوبهم - ما كانوا يكسبون - »  
سمعت بعض العارفين يقول كلاماً دقيقاً كوشف به فقال الحديث في باطن الإنسان والخيال الذي تراه لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر

في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يفلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وما روى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار لم يأت جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد رزقني الله من قبله فأن كان الله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل أتى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلوب الأم لولدها فقد رزق الله تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم ما دبره تديرا يصل إلى الاشتغال به الخلو والطيور السان والطياب الرقيقة والحيل النفيضة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تديرا يصل إلى كل مشيغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التمتع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والملكوت تديرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فإذا انكشف هذا الأمر وروكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاس من الإفلاس عن وجود المقام ذوقا والإفلاس عن الإيمان به علماء فاذن عليك بالقناعة بالزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على بدى من لا يحتسب فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذات الأطعمة لما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فإن الذي أحاط به تديرا الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم بمناظره للحاق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسأل الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه فقالوا ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الحراز كنت في البداية فتألى جوع شديد فقلت نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أهالي التوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا ينفخ بي ويقول :

وبرزعم أنه منا قريب وأنا لافضيع من أئامنا

وبسأنا على الإقتار جهدا سحنا لائرا ولا يرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتقاه بالله عز وجل فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسأله عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس مناعة ومعادنات وتألفا وتوددا وكلا انطلقت النفس في شئ بهواها من القول والفعل فأثر القلب بذلك وتكدر فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وحمل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتب للنفس وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللأم للنفس والمعاتب لها على ذلك فإذا كان الحاضر أول الفعل

ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما بره عليك من الأرزاق الصيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب بل بسبب الأسباب كالاتكون منتظرا لقم السكائب بل لقلب السكائب فإنه أصل حركة القلم والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو حامل وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحسب ولا يحسب على الدوام بل يأتيه أضافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فإن اشتد به سبب ظاهر يجلب الرزق إليه أنوى من دخول الأمصار في حق الحامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق فيسبح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للعطى على نيل الثواب ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكما عن الأحق الرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولائقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلن البهائم

( بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال )

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يسطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويحتمدوا في أن لا ينفقوا عن واحد منهم وأمر ناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بقلدي إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم ماء ورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فن تلق باللمان وآداهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب اليدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته في معاد معلوم عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أنه من يد الغلام وهو ساكن فأنى أخصه بخلة سنية في اليعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلة له ومن أخطأ غلمانا فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط لللمان ولا قتلا لته أوصل إلى رغيفا فأنى غدا أستوزره وأفوض ملكي إليه فانتسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الوعدة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جاعون فبادروا إلى اللمان فأدوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في اليعاد المذكور فقدموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق باللمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين فلبه الجوع فسلبوا من العقوبة وما فازوا بالخلة وقسم قالوا إنا نجلس بمراى من اللمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلمنا نفوز بالخلة ففازوا بالخلة وقسم رابع اختلفوا في زوايا اليدان وانحرفوا عن مرأى أعين اللمان وقالوا إن اتبعونا وأعطينا قننا برغيف واحد وإن

ومفتحه لمرته من  
ثم شأن العبد لأن  
الأفصال من الخواطر  
نشأ حتى ذهب بعض  
العلماء إلى أن العلم  
للفترض طلبه يقول  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « طلب  
العلم فريضة على  
كل مسلم » هو علم  
الخواطر قال لأنها أول  
الفعل وبفسادها فساد  
الفعل وهذا لعمري  
لا يتوجه لأن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
أوجب ذلك على كل  
مسلم وليس كل المسلمين  
عندهم من القرينة  
والعرفة ما يعرفون به  
ذلك ولكن يعلم  
الطالب أن الخواطر  
بغاية البذر فمنها ما هو



أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلية فلمانا تقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما تفهم ذلك إذ اتبعهم العلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار العلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للعلمان وأخذنا طعامنا فلنا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة في الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهادة أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالعلمان هو العتدى في الأسباب والعلمان المسخرون هم الأسباب والجالس في ظاهر الميدان يرى العلمان هم القيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تفهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الحاق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك في الأنصار السالفة وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التمرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل كل إن كان جائعا وليس إن كان غاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوافي بموجب التوكل لتحقيقها وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية القابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من التوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والخملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المأمور بالعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الحواصص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السبكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فاته يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالمستنع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهم درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود ممن يؤمل سنة وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لليل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر تجرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا» (١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ناء ما وراء

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بذر السعادة ومنها  
ما هو بذر الشقاوة .  
وسبب اشتباه  
الخواطر أحد أربعة  
أشياء لا خامس لها إما  
ضعف اليقين أو قلة العلم  
بعرفة صفات النفس  
وأخلاقها أو متابعة  
الهوى بختم قواعد  
التقوى أو محبة الدنيا  
جاهها ومآلها وطلب  
الرفعة والمنزلة عند  
الناس فمن عصم  
عن هذه الأربعة  
يفرق بين لمة الملك  
ولمة الشيطان ومن  
ابتلى بها لا يعلها  
ولا يطلبها ولا يكشف  
بعض الخواطر دون  
البعض لوجود بعض  
هذه الأربعة دون  
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخر له إلا بحسب ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بأحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فإن أسباب الدخل في الارتماعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب تصرأمله ومن كان أملة شهرين لم تسكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو ينزل في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلاما في ادخاره كان فضله أكثر ، وقدرى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يسلا فسلوا وكفناه يردته فلما دفنه قال لأصحابه « إنه يبعث يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث وجهه كالشمس الضاحية . قلنا وماهى يا رسول الله ؟ قال كان صوامقا وما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أوثيتم اليقين وعزيمة الصبر <sup>(١)</sup> الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أبدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضئيفة يكون دخله واقيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد للذكر لله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محدورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدكم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخاره قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، فأما العيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة ليماله جبرا لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليماله قوت سنة <sup>(٢)</sup> ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخره شيئا لهد <sup>(٣)</sup> ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخارها ليفطر عليها فقال <sup>(٤)</sup> « أنفق بلالا ولا تغش من ذى العرش إقلا » <sup>(٥)</sup>

ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جدا وهو باطل (١) حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فسلوه وكفناه يردته أنه يبعث يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أوثيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا . (٢) حديث ادخر ليماله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة (٣) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لقد تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها (٤) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تغش من ذى العرش إقلا البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

بميز الحواطر وأقوهم  
بعرفة النفس ومعرفتها  
صمة النال لا تكاد  
تيسر إلا بعد  
الاستقصاء في الزهد  
والتقوى . واتفق  
الشايخ على أن من  
كان أكمله من  
الحرام لا يفرق بين  
الإلهام والوسوسة .  
وقال أبو طي الدقاق  
من كان قوته معلوما  
لا يفرق بين الإلهام  
والوسوسة وهذا لا يصح  
على الإطلاق إلا بقيد  
وذلك أن من المعلوم  
ما يقسمه الحق سبحانه  
وتعالى لعباده أن يسرق  
إليه في الأخذ منه  
والنقوت به ومثل هذا  
المعلوم لا يجب عن  
تمييز الحواطر إنما ذلك

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تجب » (١) « اقتداء بسيد التوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لعل لا أبغ » (٢) « وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذا كان لا شئ بما أدخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلياً للأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته وأدخره عليه السلام لعياله سنة للضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٣) « تطيبها لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والاضوط فيتركون اليسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، وبدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي فلما وجد له كفن فقال ﷺ فقصوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كتمان » (٤) « وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كتمان من النار كما قال تعالى - تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الانفاس عنه فهو نوع تلبيس. والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به التقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كتمان في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدرة من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المذخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن بشر قال الحسين الغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أصغر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيتك قام لأحد غيره قال ودفع إليّ كفاً من دراهم وقال اشتري لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال جئت بالطعام فوضعت فأكل معه وما رأيتك أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فأخبرني الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ففجيت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك أنكرت فعله قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح الوصلى زارنا اليوم من الموصل فانما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر مع الادخار [ الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف ] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكان النوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادي أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، فتم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة ترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقبة

يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار لأنه ينحجب لموضع اختياره والذي أشرنا إليه منسلف من إرادته فلا يحجبه السلام وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلع فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ في الخطارين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجليلي الخطار الأول

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تجب الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة . حديث الق الله فقيراً [١] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لا أبغ ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كتمان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[١] قول الرازي حديث الق الله فقيراً الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فلهذه بسخته تأمل.

فان السكى والرقية قد تقدم به على الهذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول الهذور للازاله للقرسول  
 الله صلى الله عليه وسلم لم يصف للتوكلين إلا بترك السكى والرقية والطيرة ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى  
 موضع بارد لم يلبسوا جبة والحجة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم  
 الاستظهار يأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهيجا لقوة الحرارة من الباطن ربما  
 يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الحجة وترك الأسباب  
 الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والقشنى  
 فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى - فاتخذوه وكلاء واصبر على ما يقولون - وقال تعالى -  
 ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون - وقال عز وجل - ودع أدام وتوكل على الله -  
 وقال سبحانه وتعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وقال تعالى - نعم أجر الداملين الذين  
 صبروا وعلى ربهم يتوكلون - وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب  
 فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعائته على  
 الدين وترتيب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب المنافع فلا تطول بالاعادة وكذلك في الأسباب  
 الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب  
 عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير  
 وقال توكلت على الله «اعقلها وتوكل» (١) وقال تعالى - خذوا حذركم - وقال في كيفية صلاة الخوف  
 - وليأخذوا أسلحتهم - وقال سبحانه - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - وقال تعالى  
 لموسى عليه السلام - فأسر ببأسى ليلا - والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب  
 واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر (٢) وأخذ السلاح في الصلاة  
 ليس دافعا قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن  
 المظنون كالتطوع وإنما الوهم هو الذي يقتضى التوكل تركه . فان قلت فقد حكى عن جماعة أن  
 منهم من وضع الأسد يده على كنفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه  
 فلا ينبغي أن يفرك ذلك المقام فإنه وإن كان مهيأ في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير  
 بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطاً في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .  
 فان قلت وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن  
 من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى القضب فلا يزال  
 يمضك وبعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستقل إلا بأشارتك وكان مسخراً  
 لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع وكتب دارك أولى بأن يكون  
 مسخراً لك من كلب البوادي وكتب إهابك أولى بأن يسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب  
 الباطن فلا تطمع في استسغار الكلب الظاهر . فان قلت فاذا أخذ التوكل سلاحه حذراً من العدو وأغلق  
 باباً حذراً من اللص وعقل بعيره حذراً من أن يطلق فبأى اعتبار يكون متوكلاً . فأقول يكون متوكلاً  
 بالعلم والحال فالعلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يدفع بكنايته في إغلاق الباب بل لم يدفع إلا بدفع الله  
 تعالى إياه فكم من باب يفاق ولا يدفع وكم من بعير يعقل ويموت أو يقاتل وكم من أخذ سلاحه يقتل

لأنه إذا بقي رجع صاحبه  
 إلى التأمل وهذا شرط  
 العلم . وقال ابن عطاء  
 الثاني أقوى لأنه ازداد  
 قوة بالأول . وقال  
 أبو عبد الله بن خفيف  
 هما سواء لأنهما  
 من الحق فلا مزية  
 لأحدهما على الآخر قالوا  
 الواردات أعم من  
 الخواطر لأن الخواطر  
 تختص بنوع خطاب  
 أو مطالبة والواردات  
 تكون تارة خواطر  
 وتارة تكون واردة  
 سرور ووارد حزن  
 ووارد قبض ووارد  
 بسط . وقيل بنور  
 التوحيد يقبل الخاطر  
 من الله تعالى وبنور  
 للعرفة يقبل من  
 الملك وبنور الإيمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذى من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في  
 التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد قدها (٢) حديث اختفى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

ينهى النفس وبور  
الاسلام يرد على العدو  
ومن قصر عن ذلك  
حقائق الزهد وتطلع  
إلى تمييز الخواطر  
إلى الخاطر أولا بجزان  
الشرع فما كان من  
ذلك نفلا أو فرضا عليه  
وما كان من ذلك محرما  
أو مكروها ينفيه فان  
استوى الخاطران في  
نظر العلم نفذ أقربهما  
إلى مخالفة هوى  
النفس فان النفس قد  
يكون لها هوى كامن  
في أحدهما والغالب من  
شأن النفس الاعم واج  
والركون إلى الدون  
وقد يلم الخاطر بنشاط  
النفس والعبد يظن أنه  
بنووض القلب وقد  
يكون من القلب تفاق

يسرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربته إلى وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغذاء يضرن ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتده للمريض في الوالد المشفق الحافق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أهله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أي الأسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه : لا بألى أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا ينال للتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا .

### ( بيان آداب للتوكلين إذا سرق متاعهم )

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يضاف الباب ولا يستقصى في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق وبكمه أغلاق كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يلق بابا ولكن يشده جريظ ويقول لولا الكلاب ما شددته أيضا . الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا معرض عليه السراق فيكون هو سبب مصيبتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى الفقيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لأحاجة لي إليها قال لم ؟ قال يوسوس إلى العدو أن الأس أخذها فكأنه احترز من أن يعصى السارق ؟ ومن شغل قلبه بوسوس الشيطان بسرقها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا لما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : إحداها أن يكون ماله مانعا له من المصيبة فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جله في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما بنو حراسة مال غيره بحال نفسه أو ينو دفع المصيبة عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »<sup>(١)</sup> ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وغفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي ولكن يتحقق بالزهدنية فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش قتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له<sup>(٢)</sup> لأنه ليس أمر الولد إلا الواقع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خاف لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينصم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الحيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

بكونه إلى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى قسي ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه خواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك تفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون . وأكثر ما يدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القليل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغي أن يعلم المبدع قطعا أنه مهما بقي عليه أثر

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجده أصلا .

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ثيابه فطلبها حتى أعيانهم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فبعاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن نأفك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إني كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته قلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازل فيها فرأيته قال وهو مع ذلك كتيب حزين قلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم إني لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل في الجنة رفضت لي مقامات في عليين مارأيت مثلها فيها رأيت فقرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له وإنما هي لمن أمضى السبيل ، قلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيت لك . وحكى عن بعض العباد بكه أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فانقبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانك فذكر له لعله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذوه حلالاتيا فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبحث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ففكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فجاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجهم فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الهرام والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعوا على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأذيه على مافات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فبما أصيب به ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد اتصر » (١) . وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ولم يزعج اطلبه فبعاه قوم بعزونه ، فقال أما إني قد كنت رأيته وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلي من ذلك يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فاني قد جعلتها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قبل أن رأيت لورد عليك قال لا أخذه ولا أنظر إليه لأنني كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمني أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه السكين ظلم نفسه حتى أزيد شرًا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال لا تنرق في شتمه فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن اتهمك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من الظلوم » (٢) . السادس أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا في دينه لا نقصا في دينه فقد شكك بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

من الهوى وإن دق  
وقل يبق عليه بحسبه  
بقية من اشتباه  
الحواطر ثم قد يخلط  
في تمييز الحواطر من  
هو قليل العلم ولا  
يؤاخذ بذلك ما لم يكن  
عليه من الشرع  
مطالبة وقد لا يسامح  
بذلك بعض العاطفين لما  
كوشفوا به من دقيق  
الحفاء في التمييز ثم  
استعجالهم مع عليهم  
وقلة التثبت . وذكر  
بعض العلماء أن لملة  
الملك ولمة الشيطان  
وجدتا لحركة النفس  
والروح وأن النفس  
إذا تحركت اتقدح من  
جوهرها ظلمة تنسكت  
في القلب همه سوء  
فيظن الشيطان إلى

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد اتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

قال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما ضحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو بطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويعزن فقال أهي الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن علي للسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل بعضهم ادع علي من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين .

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كدواوة للرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزيل لضرر العطش والحبز للزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتصد والحجامة وشرب الدواء السهل وسائر أبواب الطب أغنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الوهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكي ويليهِ الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة التوسطة وهي المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس منافيا للتوكل بخلاف الوهوم وتركه ليس معظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التداوى غير منافض للتوكل فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا وله دواء عرفة من عرفة وجهله من جهله إلا السام <sup>(١)</sup> » يعني الموت وقال عليه السلام « تداواوا عباد الله فإن الله خالق الداء والدواء <sup>(٢)</sup> » . « وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله <sup>(٣)</sup> » وفي الخبر المشهور « ما مرت ببلأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة <sup>(٤)</sup> » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيخ بكم الدم فيقتلکم <sup>(٥)</sup> » فذكر أن تبخخ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج القرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة بجهل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب تقيه فاتها رد بخلاف ماورد أو على وفق منهي ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات . وذكر أن الروح إذا تحركت انتدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفة من عرفة وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفة إلى آخره وإسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الهرم والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تداواوا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث مثل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه (٤) من حديث أبي خزامة وقيل عن أبي خزامة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٥) حديث ما مرت ببلأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ إن خيرا ما تجتمعون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبخخ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولا بن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر الحديث.



هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الحروق عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحمية (٢) وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لملى رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين «لأننا كل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك (٥)» يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرًا وأنت أرمد فقال إني آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم (٦)» . وأما فضله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنا لكي . وتداوى ﷺ غير مرة من القرب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يظف بالحناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب ونسب طبع النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن جبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على روايته في الصحابي وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوهم تداووا الحديث وسيأتي في قصة على وصهيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد في أكله نفسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمقتضى الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لملى وكان رمداً لأننا كل من هذا الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم النذر (٦) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال إنه منكرو فيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويعني بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من القرب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرفاه الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بماء من فيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيظف بالحناء الزبيري وابن عدى في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبأته بالأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا في سقينا.

ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بفرض أمر به أو بفضله نذب إليه وإما بمباح يعود صلاحه إليه وهذا الكلام يدل على أن حركة الروح والنفس هما الوجهتان للمتين . وعندى والله أعلم أن اللتين يتقدمان على حركة الروح والنفس لحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح بركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهي من شؤم لمة الشيطان فإذا وردت اللتان ظهرت الحركتان

فقالوا له لوتداويت بكذا لبرئت فقال لأتداوى حتى يمافينى هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له إن  
دواء هذه العلة معروف مجرب وإنما تتداوى به فنبأ فقال لأتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه  
وعزنى وجلالى لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكره لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فدأوه فبرأ  
فأوحى فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتى بنوكلك على من أودع العقاقير  
منافع الأشياء غيى . وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاه علة يجهلها فأوحى الله  
تعالى إليه كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فان فيها القوة قبل  
هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم  
أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فانه يحسن الولد . وفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع إذ فيه  
يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والفساء الرطب فهذا تبين أن مسبب  
الأسباب أجرى سنته ربط للسبب بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى  
كسائر الأسباب فكما أن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء والسقمونيا  
دواء الاسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحبز جلى واضح  
يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق  
فى حقه بالأول : والثانى أن الدواء يسهل والسكنجيين يسكن الصفراء بشروط أخرى الباطن وأسباب  
فى الزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يغوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن  
الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب  
دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين  
والإفالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره  
وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر التوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب  
والدواء فقد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الداء والدواء ؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء ؟  
قال يا كلون أرزاقهم وبطيون نفوس عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى فاذا معنى التوكل مع التدوى  
التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التدوى رأسا فليس  
شرطا فيه . فان قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب  
الظاهرة مثل القصد والحجامة وشرب السهل وسقى البردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثلها فى الظهور  
لما خلت البلاد الكثيرة عنه ولما يتبادر السكى فى أكثر البلاد وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب  
فهذا من الأسباب الوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستئناء  
عنه فانه مامن وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء يفتى عنه ليس فيه إحراق فلاحراق بالنار جرح مخرب  
للبنية محذور السراية مع الاستئناء عنه بخلاف القصد والحجامة فان سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما  
غيرهما ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى <sup>(١)</sup> وكل واحد منهما بعيد  
عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه  
الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما كتويت انقطع  
ذلك عنى وكان يقول اكتبونا كتابات فوالله ما أفادحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

وظهر سرّ العطاء  
والابتلاء من معط  
كريم وبيل حكيم وقد  
تكون هاتان اللتان  
متداركتين وينمحي أثر  
إحداهما بالأخرى  
والنفطس للثيفظ  
ينفتح عليه بمطالعة  
وجود هذه الآثار فى  
ذاته باب أنس ويبقى  
أبدامته قد أحاله مطالعا  
آثار اللتين . وذكر  
خاطر خامس : وهو  
خاطر العقل متوسط  
بين الخواطر الأربعة  
يكون مع النفس  
والمدوّ لوجود التميز  
وإثبات الحجبة على  
العبد ليدخل العبد فى  
النسب بوجود عقل إذ  
لو فقد العقل سقط  
العقاب والعقاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس  
وأنهى أمى عن السكى ، وفى الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فى الرقية من كل ذى حمة .

فرد الله تعالى عليه ما كان يحسد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بفتحها فاذن السكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثم هو منموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم .

( بيان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل )

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم )

اعلم أن الدين تداوى من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر فرعا يظن أن ذلك تصان لأنه لو كان كالتوكل تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله ، وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له لو دعوتك طبيباً فقال الطبيب قد انظر إلى وقال إني فعال ما أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبى قيل فأتشهى قال مغفرة ربى قالوا ألا ندعوك طبيباً قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه لوداويتها قال إني عنهما مشغول فقيل لوما لتأتى الله تعالى أن يهلكك فقال أسأله فما هو أم على منها . وكان الريح ابن خنيم أصابه فالج فقبل له لوداوى فقال قد همت ثم ذكرت عاداً وعموداً وأصحاب الرمس وقرودنايين ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك التداوى والدواى ولم تن الرقى شيئاً . وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر للطبيب بها أيضاً إذا سأله . وقيل لسهل بن يصبغ لعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والتقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بهالة ونظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوى وراءه ومنهم من كرهه ولا يوضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله إلا بعصر الصوارف عن التداوى . فتقول إن ترك التداوى أسباباً . السبب الأول : أن يكون المريض من الكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجه وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوماً عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويثب أن يكون تركه الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب فإنه كان من الكاشفين فإنه قال لئلا يشبه رضى الله عنها في أمر اليراث إنما من أختك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأننى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضاً بأنها حامل . ولا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به . السبب الثانى : أن يكون المريض مستحولاً بهالة وبخوف عاقبة وإطلاع الله تعالى عليه فيسببه ذلك ألم المرض فلا تغرق قلبه للتداوى هضلاً بهالة وعليه يدل كلام أبى ذر إذا قال إني عنهما مشغول . وكلام أبى الدرداء إذا قال إنما تشكى ذنوبى فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالحائف الذى يعمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكاراً لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمناً ليعين أكل وقرب من هذا اشتغال الذى يعمل إلى قيل له ما القوت فقال هو ذا كرا الحى القيوم فقيل إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك عن الغذاء قال الغذاء هو الذى كرا قيل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من نولاه أولاً يتولاه آخر إذا دخل عليه علة فردته إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانعها حتى يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علة موهوم النفع جار مجرى السكى والرقية فيترك التوكل وإله يشير قول الريح بن خنيم إذا قال ذكرت عاداً

يكون مع الملك والروح  
ليوقع الفعل مختاراً  
ويستوجب به  
الثواب . وذكر  
خاطر سادس وهو خاطر  
اليقين وهو روح  
الإيمان ومزبد العلم  
ولا يبعد أن يقال الخاطر  
السادس وهو خاطر  
اليقين حاصله راجع  
إلى ما يرد من خاطر  
الحق وخاطر العقل  
أصله تارة من خاطر  
الملك وتارة من خاطر  
النفس وليس من  
العقل خاطر على  
الاستقلال لأن العقل  
كما ذكرنا غريزة يتهبأ  
به الإدراك العلوم ويتبأ  
بها الانجذاب إلى  
دواعى النفس تارة  
وإلى دواعى الملك تارة

وتعود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يظن على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى معمقا في الأسباب كالسكى والرقى فيتركه توكلًا . السبب الرابع . أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر قد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمل فالأمل يبتلى العبد على قدر إيمانه فان كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء (١) » وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمن خرج كالذهب الإبريز لا يربد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا (٢) » وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فان صبرا اجتباء فان رضى اصطفاه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون (٤) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصبح شئ قلبا وأمرضه جسما وتجد المنافق أصبح شئ جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الالتئام على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتيموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويسلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغل المرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلما أن صلاحهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتى (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٦) » قليل مضاعف ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها إذا رأى العبد يصلى من

وإلى دواعى الروح تارة  
وإلى دواعى الشيطان  
تارة فعلى هذا لا يزيد  
الخواطر على أربعة  
ورسول الله صلى الله  
عليه وسلم لم يذكر غير  
المتين وهاتان اللتان  
هما الأصل والمخاطران  
الآخران فرع عليهما  
لان لمة للكل إذا حركت  
الروح واهتزت الروح  
بالهمة الصالحة قربت  
أن تهتز بالهمة الصالحة  
إلى حظائر القرب فورد  
عليه عند ذلك خواطر  
من الحق وإذا تحقق  
بالقرب يتحقق بالفناء  
فتثبت الخواطر الربانية  
عند ذلك كما ذكرناه  
قبل لموضع قربه  
فيكون أصل خواطر  
الحق لمة للكل ولمة

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمل فالأمل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرج له ولده في مسنده ولطبراني من حديث أبي عتبة إذا أراد الله بعبده خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى الحديث الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتدأوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التدأوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء فأنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف. ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل لأنه إن أخذ عينا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يشل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لهم بأن فذة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا. وقال سهل رحمه الله على الأجسام رحمة وعلى القلوب عقوبة. السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التدأوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام «لا تزال الحمى والليل بالبدن حتى يموت على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة» (١) وفي الخبر «حمى يوم كفارة سنة» (٢) فقيل لأنها تهدت قوة سنة وقيل للانسان ثلثة وستون مفلا فتدخل الحمى في جميعها ويحذر من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأله زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمومًا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم (٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم «من أذهب الله كرمته لم يرض له ثوابا دون الجنة» (٤) قال فلقد كان من الأنصار من يتحنى العمى وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالما من لم يفرح بدخوله للصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه. وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أكره ذنوبه وأزيد في درجاته. السبب السادس أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والظفان تطول مدة الصحة فيترك التدأوى خوفا من أن يماجله زوال المرض فتعود الغفلة والبطر والظفان أو طول الأمل والتسويق في تدارك الفائت وتأخير الحيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي وأقلها أن تدعو إلى التنسم في الباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والصائب ولذلك قيل لا تخلو

(١) حديث لا تزال الحمى والليل بالبدن حتى يموت على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها وأسانيده ضيقة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محمومًا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أريت هذه الأمراض تصيننا ما لنا فيها قال كفارات قال أبى وإن قلت قال فان شوكة لنا فوقها قال فدعا أبى أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث وللطبراني في الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله على بن المنذر (٤) حديث من أذهب الله كرمته لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم الرفوع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتحنى العمى.

الشیطان اذا حرك  
النفس هوت بمجانها  
الى مركزها من  
الفریة والطبع  
فظهر منها لحركتها  
خاطر ملاعة لتريزتها  
وطبعها وهوها  
فصارت خاظر النفس  
نتیجة لمة الشیطان  
فأصلها لثان وينتجان  
أخرین وخاطر الیقین  
والعقل مندرج فیها  
والله أعلم

[ الباب الثامن  
والخسون في شرح  
الحال والمقام والفرق  
بينهما ]

قد كثر الاشتباه بين  
الحال والمقام واختلفت  
إشارات الشيوخ في  
ذلك ووجود الاشتباه  
لمكان تشابههما

الأوس من علة أو قلة أوزلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصى فقد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تمس الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من العصية ماعوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة البطح بالمراقى في يوم عيد ما هذا الذى أظهره ؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدكم فقال كل يوم لا يصحى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم مانحون - قيل العوافى - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنار بكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرقى فادعى الربوبية لعنه الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثرنا من ذكر هاهنا اللذات (١)» وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكرة له ودافع للتسوف ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك الموت يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تحب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يغفل المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلة حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تسكن تمريض فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها ممرضة قط ، فقال لا حاجة لى فيها (٢)» - وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٣)» لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار (٤)» . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٥)» وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائده المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أن تقسم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التدأوى قصانا وكيف يكون قصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

في نفسها وتداخلهما قراءى لبعض الشيء حالا وتراعى لبعض المقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمي حال التحول والقام مقاما لثبوته واستقراره وقد يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن يبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بقلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

(١) حديث أكثرنا ذكر هاهنا اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها ممرضة قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال إليك عنى الحديث أبوداود من حديث عامر البرام أخى الحضرمي [١] بنحوه وفى إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الدبلى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وإياها حسن (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟

( بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال )

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجابة والغصد عند تبليغ الدم. فان قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما؟ فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالحية وهذا لا قائل به، ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته، وبدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام واتوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وباء ذريما فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلتى بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في رأيه: أنفر من قدر الله تعالى؟ قال عمر نعم نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب لهم مثلا، فقال: أرايتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعتان: إحداهما خصبة، والأخرى مجربة أليس إن رعى الخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجربة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال عندي فيه يأمر المؤمنين شيء سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا صمعت بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه» (١) ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس، فاذن كيف اتفق الصحابة كلمهم على ترك التوكل وهو من أعلى القامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل. فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر، والهواء هو الضر فلم يرخص فيه؟ فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهي عنه، إذ الحجابة والقصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على القصد ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخص غالبا من الأمر الذى استحکم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الوهومات كالرقى والطيرة وغيرها، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منبها عنه ولكن صار منبها عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقصدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وقعدوا التمهدين ولم يبق في البلد من يستقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم ينجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيرًا وخلاصهم منتظر

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد (١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا صمتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى.

إلى أن تداركه  
المعونة من الله الكريم  
ويغلب حال المحاسبة  
وتستقهر النفس  
وتتضبط وتتملكها  
المحاسبة فخصير المحاسبة  
وطنه ومستقره ومقامه  
فيصير في مقام المحاسبة  
بعد أن كان له حال  
المحاسبة، ثم ينزله  
حال المراقبة، فمن  
كانت المحاسبة مقامه  
يصير له من المراقبة  
حال، ثم يحول حال  
المراقبة لتناوب السهو  
والغفلة في باطن العبد  
إلى أن يتقشع ضباب  
السهو والغفلة ويتدارك  
الله عبده بالمعونة  
فتصير المراقبة مقاما  
بعد أن كانت حالا ولا  
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأسماء منتظر فلما أقاموا لم تسكن الإقامة قاطمة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطما بالخلّاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين وللسلمون كالبقيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو القى ينقذ عندنا في تعليل التبي وينعكس هذا فيمن لم يقدم على البه فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البه حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبه إلا مطعونون واقتروا إلى التمهدين وقدم عليهم قوم فرما كان ينقذ استجباب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وبهذا شبه القرار من الطاعون في بعض الأخبار بالقرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسما في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماصمه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ . فنقول فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لقلبة النفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لتصوره عن مقامات الراضين والتوكلين أو نصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف النافع حتى صار في حقه موهوما كالرقي أو كان شغفه بحاله يعممه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضغفه عن الجمع فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق وقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه اللقائات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وتهدا فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة في المال تقص والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا تقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أو كحل من الحرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء للمدر والذهب عنده وكان لا عسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تفره الدنيا، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيما لأمتة فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك يعظم ضرره، نعم التداوى لا يضري إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصده الصحة ليستعان بها على المصاى وذلك منهى عنه والمؤمن في طالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الحبز مشبعا فحكم التداوى في مقصوده حكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

قراره إلا بانزل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بانزل حال المشاهدة فإذا منع العبد بانزل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يصكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما ويتخلص فحسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالقضاء والتخلص إلى البقاء والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين وحق اليقين نازل يغرق شفاف القلب وذلك أعلى فروع

(١) حديث تشبيه القرار من الطاعون بالقرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تقدم ولقظه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .



والأشخاص والنبات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك الموهومات كالسكى والرقى فان ذلك تسمق في التدبيرات لا يليق بالتوكلين .

### ( بيان أحوال التوكلين في إظهار للرض وكنهانه )

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أعلى اللقائات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمان أسلم عن الآفات ومع هذا فلاظهار لأبأس به إذا صحت فيه النية واللفصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون خرمه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لاني معرض الشكاية بل في معرض الحساية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يغبر بأمراض يعجزها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى في . الثاني : أن يصف لعبد الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وانقاره إلى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلى في مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجملد على الله ؟ فأجاب أن يظهر عجزه وانقاره مع ما علم به من القوة والضرارة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) » فهذه النبات يرخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كذا ذكرته في تحريم السؤال على انقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه في حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الانشاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله - نصبر جميل - لاشكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحران فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواي إلى عبادي فقال يارب آتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أن ين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أبوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه فجعل الأنين حظّه منه ، وفي الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى غير دعواه وإن شكا وذكر شرًا قالًا كذلك تكون (٢) » وإنما كره بعض المباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابَه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهي أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنه أجمعين .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرفت شفاف

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده الحديث تقدم .

كل كتاب التوحيد والتوكل بعمون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفيق .

### ( كتاب الحبة والشوق والأنس والرضا )

( وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للمكوف على بساط عزته ، ثم تجل لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلاله حتى تاهت في يدهاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلاهما بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجلال صبر أيها الأيسر عن نيل الحق بجهله ومجملته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[ أما بعد ] فإن الحبة لله هي الغاية القصوى من اللقائات والقدرة العليا من الدرجات فإما بعد إدراك الحبة مقام إلا هو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل الحبة مقام إلا هو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر اللقائات إن عر وجودها فلم تغل القلوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا الواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة الحبة في حال إلامع الجنس والثال ولما أنكروا الحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة الناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في الحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب للقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأنفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكرهه المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

( بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى )

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفرض الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل - بهمهم ويعبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أهدى حياتهم - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي « يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون

القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق اليقين هي أسنى المطايا وأعز الأحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كمنسبة الآجر من التراب إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم أجرا فالشاهدة هي الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع . ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لا مكتسب سميت كل المواهب من التوازل بالعبد أحوالا لأنها غير مقدورة

الله ورسوله أحب إليك مما سواها (١) « وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها (٢) « وفي حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣) « وفي رواية « ومن نفسه » كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهبة فقال « أحبوا الله ما ينفذكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي (٤) « وروى « أن رجلا قال يا رسول الله إنني أحبك فقال ﷺ : استمد للفقر فقال إني أحب الله تعالى قال استمد للبلاء (٥) « وعن عمر رضي الله عنه قال « نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل ألقى نورا قلبه لقد رأيت بين أبيه ينفذونه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون (٦) « وفي الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن فاقبض (٧) « وهذا لا يعده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد (٨) « وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب (٩) « قال أنس لما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عز جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدين اهتدى فيه والؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزين العقيلي أنه قال يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواها أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما ينفذكم به من نعمه الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك فقال استمد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تحفا دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله الحديث لم أجده أصلا (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوخ أن القامات مكاسب والأحوال مواهب وطى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والقامات طرق المواجيد ولكن في القامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالأحوال مواهب علوية صماوية والقامات طرقها وقول أمير المؤمنين طي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشغلون عنه بالدنيا . وروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد غلثت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى فقالوا الحرف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الحائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائي من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم القربون أنتم القربون . وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الحاج فقلت أما تجد البرد فقال من شغل حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي ندعى الأمم يوم القيامة بأبنائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تتخلع فرحا . وقال هرم ابن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ عفوهُ يستغرق القنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وجهه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسب مادونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب عبيد أنا وحفك لك عجب فبحق عليك كن لي محبا . وقال يحيى بن معاذ إني مقيم بفنائك مشغول بشاؤك صغيرا أخذتني إليك وسر بلتي بمررتك وأمكنتي من لطفك وتمنتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وجبا تسقني من حياضك وتملئني في رياضك ملازما لأمرك ومشغولا بقولك ولما طرت شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنه وبالضراعة إليك هممة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به .

( بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى )

اعلم أن الطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأقول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جاد بل هو من خاصية الحى المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلتذ به وإلى ما ينافيه وينافره ويؤله وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاهم وإلذا فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذية محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذ فان تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمي مقتافهنا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك نوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع المنبلم فلذة العين في الابصار وإدراك المبصرات الخلية والصور اللطيفة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في النغمات الطيبة للموزونة ولذة الشم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللس في اللين والنعومة

السموات فاني أعرف بها من طرق الأرض إشارة إلى القامات والأحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من القامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهي طرق السموات ومتمثل البرصكات وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوى . قال بعضهم الحال هو الذكر الخفى وهذا إشارة إلى شيء مما ذكرناه وسمعت الشايع بالمرق يقولون الحال مامن الله فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون هذا مامن العبد فاذا لاح للمريد

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرعة عيني في الصلاة» (١) فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلا للبصر والشم دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرعة عين وجهلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مغلته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذلك الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يجب فاذن قد بطأت خاصية الإنسان وما تعزز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيئات البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتسكون لامحالة لثة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الليل إلى ما في إدراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا ينسركر إذن حب الله تعالى لإلمن قد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضمراء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأقسامها وبيان أن المحبوب الأول عند كل حى نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للحب وأى شئ أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأى شئ أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه جعد الموت ولا مجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمتفاسدة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بلاء فمحبوبه زوال البلاء فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالحلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب وكان دوام الوجود محبوب فكأن الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقدر للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكأن الوجود كما أنه ممقوت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فاذن المحبوب الأول الإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكما له وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء للأغنياء بها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكما له بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتعمل المشاق لأجله لأنه يخافه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نفسه نوع بقاء له فلا يفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

شئ من اللواهب والواجب قالوا هذا مامن الله وميموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة . وقال بعض مشايخ خراسان الأحوال موارث الأعمال . وقال بعضهم الأحوال حكايل النفس فان بقي لحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فانها تسطرق ثم تستلبها النفس فأما على الإطلاق فلا والأحوال لا تغتزع بالنفس كالدهن لا يغتزع بالماء . وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه الحق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجسلا بكمالهم فان العشرة والمال والأسباب الخارجية كالجنات الكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب الطبع لا محالة فاذا كان المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمسكره عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب السبب الثاني: الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لنا جرحاً على يدنا فيحبه قلبي» (١) إشارة إلى أن حب القلب لله حسن اضطرار لا استطاع دفعه وهو جبله وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال والمونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي يتهيأ الوجود إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه حبيب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذا رجع الفرق إلى تفاوت الرتبة وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فأحب ذاته تحقيقاً بل أحب إحسانه وهو فعل من أنفاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً ولو قصص قصص الحب ولو زاد زاد وينتظر إلى الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه . السبب الثالث أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغیرها ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضاً لذية فيجوز أن يكون محبوباً لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري (٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن الانسان لتفرج عنه الغيوم والمحموم بالنظر إليها لا يطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملذة وكل لذية محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف به جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال» (٣) .

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحموسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافراً على يدنا فيحبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

الإإذا دامت فأما إذا لم تدم فهي لوائح وطوالع وبوادروهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال . واختاف الشايع في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه . وقال بعضهم : لا يكمل المقام الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأولى أن يقال والله أعلم : الشخص في مقامه يمتطي حالاً من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لثمة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن المعين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح فلهذا معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث بطول ولا يليق بعلم العامة الاطئاب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء بمفعاله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى يجمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كركر وفر عليه والخط الحسن كل ما يجمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازينا واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذى يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فان قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فانها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ففى محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإيمانها بغير ذلك في غير المدرك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعبادة والشجاعة والتقوى والكرم والروءة وسائر خلال الخير وسمى من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع محبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخطر بروحه في قتال من يظن في إمامه ومتبوعه فكيف من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعى مثلاف محبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسنه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بحدارك الدين وانتهاءه لافادة علم الشرع ولشهره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبابكر الصديق رضى الله عنه وبفضله على غيره أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه وبفضله ويتعصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره لمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات الحمودة التى هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا

مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات والأحوال مواهب ترقى إلى المقامات التى يترج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزيادة الأحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته لجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومعلمهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوا لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي الخلى وطبعه إذا أردنا أن نحب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فلهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن والقابح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحبهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله الحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أنظار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد الزار ونأى الديار ، فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط إحسانه إلى الحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يعيل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للذاتى الباطنة أكثر من حبه للذاتى الظاهرة فشتان بين من يحب تمشا مصورا على الحائظ لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الحفية بين الحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « لما تعارف منها ائتلف وماتنا كرمها اختلف »<sup>(١)</sup> وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من محائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الانسان وجود نفسه وكاله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع الهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لاحتالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوا لاحتالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فان كانت هذه الصفات في أقصى درجات السكال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، فلتبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الخيري منذ أربعين سنة ما أقامنى الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالاً ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتقرب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة فاذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث لما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة .



( بيان أن الاستحق للمحبة هو الله وحده )

وأن من أحب غير الله لامن حيث نسبت إلى الله لذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأقبياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب وحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بمحملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخييل ، وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تخفيفاً وبأن أن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكأله ودوام وجوده وبضه لهلاكه وعدمه وتقصانه وقواطع كآله فهذه جيلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكأله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المبتدع الوجد له وهو البقى له وهو الكل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصول إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف له لا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالبقاء ، وهو ناقص بتد لوجوده لولا فضل الله عليه بالتكامل لخلقه . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا الله يوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فالضرورة بحب القيد لوجوده والديم له إن عرفه خالقاً موحداً ومختزاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد بالعدمها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع القابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الأرض من الأمثلة التي فهم فلا يطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً عليه لمن به قوامه وأولاد واهم ثانياً في أصاؤه وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا نه اشتغل بنفسه وشهواته وزهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم في التمتع به والانتاع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطاق رضى إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة ويقتصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم : الزجر ضياء في القلب يصير به خطأ قصدوا الزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق السلم وزجر من طريق العقول وزجر من طريق طريق الإيمان فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالبعد ظهور هوى النفس يحويه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصبح مقاماً وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنزلة حال تربيته لغة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبيل له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعوته واتدب  
لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في  
نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فانه  
لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبده فليست  
أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد  
أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير  
متصور إلا بالجواز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خرائته وممكنك  
منها لتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به  
وبعاله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذي أنعم بخلق  
ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه  
أن صلاح دينه أودياه في الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله  
عليه الدواعي وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً  
في التسليم لا يستطيع مخالفته فالحسن هو الذي اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة  
الرهيقة إلى الفعل وأما هذه فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرار  
مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن  
حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما  
الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبدل ماله إلا لنفرض له في البذل إما أجل وهو الثواب  
وإما عاجل وهو اللذة والاستسحار أو التناء والصيت والاشتهار بالسخاوة والكرم أو جذب قلوب الخلق  
إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان  
إلا لنفرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فليست مقصوداً بل بذلك آله في القبض  
حتى يحصل غرضه من الذكر والتناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرتك في القبض  
للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده  
من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجل ذلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر  
والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى  
خازن الأمير فانه لا يرى محسناً بتسليم خزمة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة  
والامتثال لما يرصمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن  
لو خلاه الله ونفسه لم يبدل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أن حظه ديناً  
ودنياً في بذله فبذلك لذلك . والثاني أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما  
لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب  
أو الحمد والتناء أو عوضاً آخر وأيس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها  
أعوض تستحقّر الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من  
غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً  
إليهم ولأنهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فانه يتمالي عن الأغراض فلنفظ الجود والاحسان في حق  
غيره كذب أو مجاز وممنه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد  
بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله

فدمجوا أثره بدلالة  
شره النفس وحرصها  
على الدنيا ورؤية العاجلة  
حتى تتداركه المعونة  
من الله الكريم فيزهد  
ويستقر زهده ويصير  
الزهد مقامه ولا تزال  
نازلة حال التوكل تفرغ  
باب قلبه حتى يتوكل  
وهكذا حال الرضا حتى  
يطمئن على الرضا ويصير  
ذلك مقامه وههنا  
لطيفة وذلك أن مقام  
الرضا والتوكل يثبت  
ويحكم ببقائه مع وجود  
داعية الطبع ولا يحكم  
ببقاء حال الرضا مع  
وجود داعية الطبع  
وذلك مثل كراهة  
مجدها الراضى بحكم  
الطبع ولكن علمه  
بمقام الرضا يغمر حكم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على  
الانسان بشرط الجهول بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن  
لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق  
بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر  
ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد  
في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آيس من خير الأول  
وآمن من شر الثاني لا تقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادها فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن  
فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا  
إلا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن إلى الكفاة والفضل على جميع أصناف الخلائق  
أولا بأجسادهم وثانيا بتكليفهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثا بترفيهم وتنعيمهم  
بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ورابعا بتجملهم بالمزايا  
والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجية عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء  
الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين  
وحمرة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري  
من النعم الخارجة عن بدن الانسان الساء والغذاء ومثال الحاجة السواء واللحم والفواكه ومثال المزايا  
والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذات الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم  
بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل  
صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى القرض فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره  
محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان  
وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه الملة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه  
الملة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لاحظ ينال منه وراء إدراك  
الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين  
الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم  
والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل  
جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة  
حب الأنبياء والمعلماء وذوى السكارم السنية والأخلاق للرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة  
الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره  
الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبه إلا الحسن مظهره  
منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي  
مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف الصنف وحسن  
شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة  
التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان للعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة  
كان العلم أشرف وأجمل وكذا القدر كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل  
رتبة وأشرف قدرا وأجل للمعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهر حكم  
الطبع في وجود  
الكراهية المضمرة  
بالعلم لا يخرج عنه  
مقام الرضا ولا يمكن  
حال الرضا لأن الحال  
تجردت موهبة أحرقت  
داعية الطبع فيقال  
كيف يكون صاحب  
مقام في الرضا ولا يكون  
صاحب حال فيه والحال  
مقدمة المقام والمقام  
أثبت تقول : لأن المقام  
لما كان متبوعا بكسب  
العبد احتمل وجود  
الطبع فيه والحال لما  
كانت موهبة من الله  
نزعت عن مزج الطبع  
حال الرضا أصلا ومقام  
الرضا أمكن ولا بد  
للمقامات من زائد  
الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذا جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور : أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة . والثالث تزهمهم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخاق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتهم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نغلة أو بوضحة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلاق كلهم فبتعليمه عدوه كما قال تعالى - خالق الإنسان علمه البيان - فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم وإن كان الأجهل لا يغلو عن علم ما تقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلاق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلاق وأجهلهم لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلاق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخاق متناهية . وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لذيذ حتى إن الإنسان ليسمع في الحسكية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصافى في قابله اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن الشاهدة وبورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتعصف به فانه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوامهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقهرهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره مامتى قدرته وإنما غاية أن يفكر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الناس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضرراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عد ما يجز عنه في نفسه وبغيره مما هو على الجملة متملق قدرته فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفعله بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط به على أعظم ملك أقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس له بعد قدرة إلا بتحكين مولا كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إن أمكننا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتحكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدرة بالاضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك القدرة ثم تلك القدرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فيه - تحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرة تسياسة وتمكينه واستيلائه وكال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا  
تفرد للمقامات دون  
سابقة الأحوال . وأما  
الأحوال فمنها ما يصير  
مقاماً ومنها ما لا يصير  
مقاماً والسر فيه  
ما ذكرناه أن الكسب  
في المقام ظهر والوهبة  
بطنت وفي الحال ظهرت  
للوهبة والكسب  
بطن فلما كان في  
الأحوال للوهبة غالية  
لم تنقيد وصارت  
الأحوال إلى ما لا نهاية  
لها ولطف منى  
الأحوال أن يصير مقاماً  
ومقدورات الحق غير  
متناهية ومواهبه غير  
متناهية ولهذا قال  
بعضهم لو أعطيت  
روحانية عيسى وكلمة  
موسى وخلة إبراهيم

القاهر والعالم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناحية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خالق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يسه لئوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا هو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والمظنة والكبرياء والقهر والاستبلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التنزه عن العيون والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا لا واحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والاكرام . وأما كل مخلوق فلا غلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله وإيس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو التفرد بالكمال التنزه عن النقائص التقديس عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم السكشافات فلا نطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقة إلهه وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا كما أن للفارس كالا بالاضافة إلى الجمار وللإنسان كالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شمل للكل وإعمايته فتوتون في درجات النقص ؟ فاذن الجليل محبوب والجليل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغنى الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأتلى الذي لا أول لوجوده الأبدى الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان المعدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحوان والنباتات التفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والمالكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تحير في معرفة جلاله العقول وتغرس في وصفه الألسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالجزع عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاترار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحميقا وبجمله مجازا أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والمظنة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بشار العينان غيرته على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسن الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وزك الحاسرين في ظلمات العمى يتبهون وفي مسارج المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوية حقها ، وفي الزبور : من أظلم ممن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عليه السلام لطلب ما وراء ذلك لأن مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه به على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستئزال بركة لازيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزد فيه علما فلا يورك لي في صبيحة ذلك اليوم » وفي دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم ما قصر عنه رأيت وضمنت فيه

عبدني لجنة أوتار لولم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع : ومريم عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم نحلوا خفتهم ونحلوا قارحتهم ، ومريم يقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال أتم أولياء الله حقامعكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفي الخبر «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل»<sup>(١)</sup> وأما السبب الخامس للحب فهو للنسبة والشاكلة لأن شبه النبي منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصبغة فليطلب منه وإذا كانت النسبة سبب المحبة فالنسبة قد تكون في معنى ظاهر كنسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فالعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضى حب الله تعالى للنسبة باطنة لا ترجع إلى الشبهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يبرز عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالتدبير يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أرفها بالافتداه والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان واللاطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنيحية لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لاجتماع طلب القرب بالمسكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يوصي إليها قوله تعالى - وبسئلك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته ويشير إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك النسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته»<sup>(٢)</sup> حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعدي فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولوعدته وجدتي عنده»<sup>(٣)</sup> وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وألسانه الذي ينطق به»<sup>(٤)</sup> وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

عملى ولم تبلغه نيتي وأستيق من خير وعدته أحداً من عبادك أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه» فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي ينفذ البحر دون نقادها وتنفذ أعداد الرمال دون أعدادها والله النعم المعطى .

[الباب التاسع والخمسون في الاشارات إلى اللقائات على الاختصار والايجاز] أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو الجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو منصور بن

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل لم أجده أصلاً (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدي فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو إلهه وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشليل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقول ، ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لأزلت أنزل من ودادك منزلا تحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبا وبقي أصوله حتى تشقت قدماه وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلمها وجودا ، فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان المقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا يفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إله الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذا أصل المحبة والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

( بيان أن أجل الذات وأعلها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة )

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والفرائز وكل قوة وغريزة للذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبيعتها الذي خلقت له فان هذه الفرائز ماركبت في الانسان عشا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبيعتها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبيعتها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم فلا تغلو غريزة من هذه الفرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدرجاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسماء فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة ما يدرك المعاني التي ليست منخبة ولا محسوسة كما دراكه خلق العالم وأفقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذه بعض الصوفية وإلا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن ندم وهذه الغريزة خلقت يعلم بها حقائق الأمور وكلها لمقتضى طبيعتها المعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الفرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير ينغم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتدح به في الأشياء الحقيرة فالعالم بالأمم بالشرائح على خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعاليم وينطلق لسانه بذكر ما يطمع وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن الروزي قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائني قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله إني رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فإني أستغفر الله

من كمال ذاته به فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أمضى عليه بالتكامل وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الشئ كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحرارة والحياة كلفة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الخلق ولذلة العلم بالنحو والشعر كلفة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملسكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويغير بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره في رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده والألمن علمه بأسرار الرئيس فإن كان خبير بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده والألمن علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها وأشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزيناها ومبدئها ومميدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط ببادي جلالها ومعجائب أحوالها وصف الواصفين فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأخرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يظم به الفرح والارتياح والاستبشار وهذا تبين أن العلم لذني وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا كخفافة لذة الوقاع ولذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهي مختلفة بالضعف والقوة كخفافة لذة الشبق الغتلم من الجماع ولذة القاتر للشهوة وكخفافة لذة النظر إلى الوجه الجليل الفائق الجمال ولذة النظر إلى مادونه في الجمال وإنما عرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فإن الخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة القلب في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فمؤدو نقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلفة الحواس الخمس وإلى باطنة كلفة الرياسة والقلب والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للمعين ولا الأنف ولا الأذن ولا لللس ولا للذوق والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستبلاء فإن كان الخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أيما كثيرة فاختاره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من المطعومات الطيبة نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمتموه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والسنه ففقه معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

في اليوم واليلة  
مائة مرة وروى  
أبو هريرة رضي الله عنه  
في حديث آخر «فاني  
لأستغفر الله وأتوب  
إليه في كل يوم مائة  
مرة» وروى أبو بردة  
قال قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «إنه  
ليغان على قلبي فأستغفر  
الله في اليوم مائة مرة»  
وقال الله تعالى - وتوبوا  
إلى الله جميعا أيه  
للمؤمنون لعلكم  
تفلحون - وقال الله  
عز وجل - إن الله يحب  
التوابين - وقال الله  
تعالى - يا أيها الذين  
آمَنوا توبوا إلى الله  
نوبة نصوحا - التوبة  
أصل كل مقام وقوام  
كل مقام ومفتاح كل



أسرار الأمور الإلهية أنه من الرياسة التي هي أعلى الذات الغالبة على الخلق وظاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والدكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحققر الخلق الذين يرأسهم الله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوباً بالكسورات التي لا يتصور الخلق عنها وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالاضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن الزاحمات والكسورات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن القدرات فلا نهاية لمرضاها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ تمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويغلبها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ولا تحبب الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية - ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتنقح في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء <sup>(١)</sup> » فاذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وموضع فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثله من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة منزلاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبيحة ولا لصبي ولا لمتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لدوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار مملكة أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذائقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب ممدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحان على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وتحلل الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتمتع به من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالدوق والحساسة فيه قليلة الجدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتنقح أن يرد في الآخرة إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء الحديث .

حال وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإنى يبلغ على وقد ر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال ومخترتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بمد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها في إفادة الولادة العنوية الحقيقية بمثابة المطابع الأربع التي جعلها الله تعالى بأجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلحج ملكوت السموات

القدر ينهلك على أن معرفة الله سبحانه أله الأشياء وأنه لالة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن لله عبدا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني بأبا محموظ أي شيء هاجك إلى العباد والاعتقاد عن الخلق فكنت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله يده إن أحبته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوقا بطلب الرب تعالى فقد لهما ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشربان قلت فأنت قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الوفي قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملسان عن يمينه وشماله يلتمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص يصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف قلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوف من ناره ولا شوق إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان ليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لأربعة ماحقة إيمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لداكا  
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عن سواكا  
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي المحب حتى أراكا  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنامه عليها بمحظوظ العاجلة وبعبه لما هو أهل له الحب لجأله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواها وأمة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١) وقد تعجل بعض هذه الذات في الدنيا لما انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يا رب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جلسيه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حدته ولهم فيرون مائة وله جنونا أو كفرا فمقصود المارفين كلامهم وصله ولقاؤه فقط فمضى قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم منه وإذا حصلت اتحدت المهدوم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم ينتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلحاح المهدومات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لو عدا الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن الذات الفرق بالشهوات المختلفة كلها تطوى تحت هذه اللفة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المزلزلات ويعطي بجميع الأحوال والمقامات فكلاهما من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت فأحد الثلاث بعد الايمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالية من غير قدور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

هكيات لقي أهواء مفترقة فاستجمعت مذ رأيتك العيين أهواني  
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولاني  
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك ياديني ودنياي  
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جته

وما أرادوا بهذا إلا إثارة لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما ذكره وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده لذة من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويستغفل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويستغفل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون - .

### ( بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا )

اعلم أن المدرجات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور التخيلة والأجسام للتلونة والمشكلة من أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالم والقدر والارادة وغيرها ومن رأى إنساناً غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة وإنما الاتفاق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً وهو كشخص يرى في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لاتفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف ، فاذن الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل للكشوف في الجهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لاتتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين التخيل والرئي فيسمى الثاني أيضاً بالاضافة إلى الأول مشاهدة واقاء ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام  
وقلة المنام والاعتزال  
عن الناس . واتفق  
العلماء الزاهدون  
والشايخ على أن هذه  
الأربع بها تستقر  
المقامات وتستقيم  
الأحوال وبها صار  
الأبدال أبدالاً بتأييد  
الله تعالى وحسن  
توفيقه ونبيه بالبيان  
الواضح أن سائر  
المقامات تدرج في  
صحة هذه ومن ظفر  
بها فقد ظفر بالمقامات  
كلها وأولها بعد الإيمان  
التوبة وهي في مبدأ  
صحتها تنفقر إلى أحوال  
وإذا صحت تشتمل  
على مقامات وأحوال  
ولا بد في ابتدائها  
من وجود زاجر

وما غاب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتمى إلى الشهادة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً بطول ولا يلبق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن ترانى - وقال تعالى - لا تدركه الأبصار - أى في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فاذا ارتفع الحجاب بالمرتبة بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الحب والاصداً فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الحب جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبداً الآباد نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الزين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقع منه الحب الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحد من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه وقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غيرة ولا قنرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالاضافة إلى ما عليه كان انكشاف تجلي المرآة بالاضافة إلى ما تجليه ، وهذه الشهادة والتجلى هي التي نسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية ، فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيتها في الوضوح إلى غاية

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافي مالى أراك مهموماً . قال لأنى ضالاً ومطلوب ظللت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منها المساء فقاتله ألا

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكراً . وقال ابن خزيمة فى القلب من صحة إسناده شيء مع أن فى رواية لأحمد فى حديث أبي ذر رأيت نوراً إني أراه ورجال إسناده رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى الحديث وفيه وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هي بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كأن الصورة المرئية هي التخييلة بعينها إلا في زيادة الكشف وإليه الإشارة بقوله تعالى - إسمي نورم بين أيديهم وبأيامهم يقولون ربنا آتمم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كانتقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل له زرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت العرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة» (١) فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشر عشره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لامحالة يتجلّى انفراد به وكأنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على الطعوم والنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى النكوح والطعوم والشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى الطعوم والنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إثارة لذة العلم والعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة للنكوح والطعوم والشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتقولين في الجنة فقالت الجارم الدار فينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصل أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ولا يعوت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتم به بعينه قط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف النطاء فتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السموات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان. فان فات فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضاعفها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها. فاعلم أن هذا الاستحقاق لذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن اتوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشغون بهلافق الدنيا فكيف يدرك لذتها فلاما رغب في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة كما لانسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته وللا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها وللا لذة اللس باليد إلى لذة الوقاع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فتقول

(١) حديث إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفي الميزان للذهبي أن لدار قطني رواه عن الهاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني إن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تمسح عينك فقال لا لأن الطبيب زجرني ولا خير فيمن لا يزجر فالزاجر في الباطن حال بهما الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق اتقه. وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا كر نفسه اقترع وإذا كر ذنبه استغفر وإذا ذكر الدنيا اء ر وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى افشمر . وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المستوفى في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المشوق ونقصاته فان اللذيق  
النظر إلى الأجل أكمل لاحالة . والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذامن اشتد عشقه  
كالتذامن من ضعف شهوته وحب . والثالث كمال الادراك فليس التذامن برؤية المشوق في ظلمة أو من  
وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذامن يدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك لذة  
الضاحجة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشهوة والآلام الشاغلة  
للتذيق فليس التذامن الصحيح الفارغ للتجرد للنظر إلى المشوق كالتذامن الخائف للدعور أو الرريض  
التألم أو للشغول قلبه بهم من الهمات قدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه معشوقه من وراء ستر  
رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذي بمرئته  
وتشفل قلبه فهو في هذه الحالة لا يغلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه فلو طرأت على القبة حالة انهنك  
بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سلبا فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية  
والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الذات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يستدبرها  
فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب  
والزناير مثال الشهوات للتسلط على الانسان من الجوع والعطش والنصب والغم والحزن وضعف الشهوة  
والحب مثال قصور النفس في الدنيا وقصبتها عن الشوق إلى اللأ الأعلى والتفتاتها إلى أسفل السافلين  
وهو مثل قصور السبي عن ملاحظة لذة الرياسة والفتاة إلى الحب بالصفور والعارف وإن قويت في الدنيا  
معرفة فلا يغلو عن هذه للشهوات ولا يتصور أن يغلو عنها البتة نعم قد تضاعف هذه العوائق في بعض  
الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر  
لعظمته ولكن يكون ذلك كالبريق الخاطف وقفا بدوم بل يمرض من الشواغل والأفكار والخواطر  
ما يشوشه وينقصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى اللوت  
وإنما الحياة الطيبة بعد اللوت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا  
يعلمون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فانه يجب لقاء الله تعالى فيجب اللوت ولا يكرهه إلا من حيث  
ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبنر وبهر المعرفة لا ساحل له فلا حيلة بكنهه جلال الله  
محال فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعم في الآخرة وعظم  
كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ولا يزرع  
إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل السعادات  
طول العمر في طاعة الله (١)» لأن المعرفة إنما تسكن وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة  
التفكير والمواظبة على المجاهدة والانتفاع عن علائق الدنيا والتجرد لطلب ويستدعى ذلك زمانا لا محالة  
فمن أحب الموت أحب لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالناس إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه  
لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحمله قوته لو عمر فهذا سبب  
كره الموت وحب عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا وإن اتسمت

التيقظ فإذا تيقظ  
أثره تيقظه الطالب  
لطريق الرشيد فيطلب  
وإذا طلب عرف  
أنه على غير سبيل الحق  
فيطلب الحق ويرجع  
إلى باب توبتهم يعطى  
باتباعه حال التيقظ.  
قال فارس : أوفى  
الأحوال التيقظ  
والاعتبار . وقيل :  
التيقظ تبيان خط  
الحالك بعد مشاهدة  
سبيل النجاة . وقيل :  
إذا صحت اليقظة كان  
صاحبها في أوائل  
طريق التوبة . وقيل :  
اليقظة خردة من  
جهة الولي لقلوب  
الخائفين تدلهم على  
طلب التوبة فإذا تمت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحارثي في كتاب ذكر الموت من  
رواية ابن أبي عمير عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة  
طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في محبته ولأحمد من حديث جابر  
إن من سعادة المرء أن يطول عمره وبرزقه الله الأناة والترمذي من حديث أبي بكره أن رجلا قال  
يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران معدره الجهل والفطنة فالجهل والفطنة مفترس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية ومعنى لفظة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لفظة الرؤية ومعنى كونها القدس سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى نقصان كالم تكن الرئاسة الله من الطغومات عند الصبيان . فإن قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن اللبقة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن تحكم عليها بالقصور عن أحد الأمور ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر بالضرورة والله تعالى أعلم .

( بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى )

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فإن الآخرة معناها التقدم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبداً الآباد من غير منقوص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فإن القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء - ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - وكما الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومبادم يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الحل المصوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - وبقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أي لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فإن العبد هو القيد والمعبود هو القيد به وكل يحب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرأيت من اتخذ إلهه هواً - وقال ﷺ « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله خلاصاً دخل الجنة » (٢) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله قاله نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم « من مشاهدته محبوبه وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب فما حاله من ليس له إلا المحبوب واحد وقد طال إليه مشوقه وتماهى عنه حبسه غلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبداً بأدأ أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا وحب الأهل والمال والولد والأقارب والمقارب والدواب والبساتين والمتنزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله خلاصاً دخل الجنة تقدم .

يقضه قل بذلك إلى مقام التوبة فهذه أحوال ثلاثة تقدم التوبة ثم التوبة في استقامتها تحتاج إلى المحاسبة ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة . قل عن أمير المؤمنين على رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية - فالمحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس ورعاية الأوقات وإثارة المهمات ومسلم العبد أن

حتى إن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملئت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنه باق ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من للشرق إلا ويعد بالضرورة من المغرب بقدرة ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضررتها فالدنيا والآخرة ضررتان وهما كالشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لدى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمَام الخوف والرجاء فما ذكرناه من القامات كالقوة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخليّة القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «الطهور شطر الإيمان» (١) كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والعرفه وهي السكمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب - أي العرفه - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجمال لهذه العرفه وكالحادهم وإتمام العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه العرفه وأما العلم بكيفية العمل فإفراد العمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإتمام الأول علم العاملة وغرضه العمل وغرض العاملة صفاء القلب وطهارته لينضج فيه حلية الحق ويتزين بعلم العرفه وهو علم الكاشفة ومهما حصلت هذه للعرفه تبعها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعدي المزاج إذا أبصر الجليل وأندركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع العرفه بالضرورة ولا يوصل إلى هذه العرفه بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وبقوله تعالى - شهدا أنه لا إله إلا هو - ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي ربي ولولا ربي لما عرفت ربي وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى - سزيمهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية وبقوله عز وجل - أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - وبقوله تعالى - قل انظروا ماذا في السموات والأرض - وبقوله تعالى - الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاضعاً وهو حاسر - وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنامهما

(١) حديث الطهور شطر الإيمان مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واليلة رحمة منه لعله سبحانه عبده واستيلاء الغفلة عليه كي لا يستعبده الهوى وتستره الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية أداء حق الربوبية وبراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويبد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرقابة ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في



ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو قاطع والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس وللناصح من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشغال أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا ينأى عن قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في بحر علوم لا تكشفه ولا يمكن أن يتطفل به على علوم العامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز يقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتسلككم فيها ولنترك الأعلى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنتطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في هجابها فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعنى بالإضافة إلى اللائكة وما كوت السموات فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها التي هي مركوزة فيه فانه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكسرى كلفة في فلاة والكسرى في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث القادير وما أحرر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار قد قال رسول الله ﷺ « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض <sup>(١)</sup> » ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الأديم المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغرها بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بفعل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للغيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الفاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والمأخضة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ثم انظر كيف أثبت له آلة الطيران إلى الإنسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو معد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يرضيه الخرطوم وكيف علمه اللس والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفًا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتسنى إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويفيد فيه ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بيد بيده منه فيترك اللس ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حذقتين حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حذقة كل حيوان صغير لما لم تحتل حذقه الأجبان لصغره وكانت الأجبان مصقلة لمرآة الحذقة عن القذى والغباز خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض لم أجده أصلًا .

القلب نكته سوداء  
وتنفذ عليه غفدة  
والتنفذ المحاسب هي  
الباطن للصلاة بضبط  
الجوارح ويعتق مقام  
المحاسبة فيكون عند  
ذلك لمصلاته نور يشرق  
على أجزاء وقته إلى  
الصلاة الأخرى فلا تزال  
صلاته منورة تامة بنور  
وقته ووقته منورا  
معمورا بنور صلاته .  
وكان بعض المحاسبين  
يصحّب الصلوات في  
قرطاس ويدع بين كل  
صلتين يابسا وكلمة  
ارتكب خطيئة من  
خط غيبة أو أمر آخر  
خط خطأ وكلماتكم  
أو تمرك فيها لا ينييه  
نقط قطرة ليضرب  
ذنبه وحركته فيها

فتراه على الدوام يمسح حدقيه بيديه وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقيه الأجناف حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتبشكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصفلتين من غير أجناف وعلما كيفية التصفيل بالدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهافت على السراج لأن بصره ضئيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضي فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لقصاتها وجهلها فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة آدمي في الأكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينفس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً فليت كان جهل آدمي بجهل الفراش قائماً باعترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أومدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تنهافت الفراش (١)» فهذه لمعة عجبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه وعجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترارها عن التماسات والأقدار وطاعتها لواحد من جملةاها أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من المدد والانصاف بينها حتى أنه يقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل السدس فلاتبني بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمساً بل مسدسا خاصة في الهيكل السدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستديرة وما يقرب منها فإن الربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك الربع حتى لا تضيع الزوايا فبني فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال للمستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قدمه

لا يعبه لضيق المحاسبة  
مجارى الشيطان  
والنفس الأمارة بالسوء  
لموضع صدقه في حسن  
الانقياد وحرمة على  
تحقيق مقام العباد وهذا  
مقام المحاسبة والرعاية  
يقع من ضرورة محبة  
التوبة قال الجيد: من  
حسن رعايته دامت  
ولابنه . وسئل  
الواسطي: أي الأعمال  
أفضل قال مراعاة السر  
والمحاسبة في الظاهر  
والمراقبة في الباطن  
وبكمل أحدهما بالآخر  
وبهما تستقيم التوبة  
والمراقبة والرعاية حالان  
شريفان وصيران  
مقامين شرفيين  
يصحان بصحة مقام  
التوبة وتستقيم التوبة

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تنهافت الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة ثلثي ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن قائما أخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقصر البخاري على أوله وسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي .

لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتنبأ بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محنرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات فإنَّ القدر الذي يُلته فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علما إلى ما أحاط به الماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما سائر الله تعالى بطله بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالبا لسعادة لقاء الله تعالى فانبد الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فمسالك تحظى منها بقدر يسير ولكن تال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

### ( بيان السبب في تفاوت الناس في الحب )

اعلم أنَّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا يشتركون في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تفاوتت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلغونها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليقين والتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم القريبون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من القربين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فإن كنت لانهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلا فنقول أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن المامى يعرف علمه بحجلا واقفيه يعرفه بفضله فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وجه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاهالة ومال إليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاهالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يستقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذفه وصنعتة ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والمامى قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة بحجلة ويكون له بحسبه ميل بحجمل والبصير إذا فحش عن التصنيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاهالة لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بحجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والمامى يعلم ذلك ويمتقده وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلا من عجائب صنعه ما يثير به عقله ويثير فيه له ويزداد بسببه لاهالة عظيمة الله وجلالة وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدلل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة قوله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب المحممة التي ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعا عليه ولم يحبه لمداته ضغفت محبته إذ تغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ولا يتمتع بالحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا والله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - والآخره أكبر درجات وأكبر تفضيلا -

على الكمال بهما  
فصارت المحاسبة  
والرأفة والرعاية من  
ضرورة مقام التوبة .  
أخبرنا أبو زرعة بإجازة  
عن ابن خلف أبي بكر  
الشيرازي قال سمعت  
أبا عبد الرحمن السلمي  
يقول سمعت الحسن  
الفارسي يقول سمعت  
الجريري يقول أمرنا  
هذا مبنى على فصلين  
وهو أن نلوم نك  
للرأفة لله تعالى ويكون  
العلم على ظاهره قائما .  
وقال المرتضى : للرأفة  
مراعاة السر للاحظة  
الحق في كل لحظة  
ولفظه قال الله تعالى  
- أفن هو قائم على  
كل نفس بما كسبت -  
وهذا هو علم القيام

( بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه )

اعلم أن أظهر الوجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبغها إلى الأفهام وأسألمها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإجماعنا أنه أظهر الوجودات وأجلها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الوجودات لحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخطاطة أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشموته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدره طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمانياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفة لما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسما وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالقل والبصرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهدنا طاعة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والوجودات للمدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتهم وجلاله إذ كل ذرة فأنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك ألا تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تقتصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الحفاش يصير بالليل ولا يصير بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فإن بصر الحفاش ضعيف يبهته نور الشمس إذا شرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره بسبب خفائه فسيحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تسبقنا بأصداها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس الشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويحول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة لا تشرق لا غروب لما لكانت نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والقصان وهو أن يعلم ميار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الحواطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الحواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الحواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لأن من حصر الحواطر كفى مؤنة الجوارح لأن المراقبة اصطلاح عروق إرادة للكارة من

فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت للواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء وانصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعده وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصير شديد وذلك لمشاهدة تلك الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور وهذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهاام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهتد السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيتين في الدلالة ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أوردت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في تصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تضغف منته فأنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونها وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل وينهل عن الفعل من حيث إنه سما وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا قفينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضغف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بمبارة مفهومة موصلة للعرض إلى الأفهام أو باستغنائهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعينهم فهذا هو السبب في تصور الأفهام عن معرفة الله تعالى والنضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند قد العفل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق لهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألهها ففقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للمادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات بالوقوف وكلها شواهد قاطمة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ولو فرض أنك بلغ عاقلا ثم اقتضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحبف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب الخالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة فالتاس في طلبهم معرفة الله كالدهوش الذي يضرب به اللؤلؤ إذا كان راكبًا لحماره وهو يطلب حمارة والجباب إذا صارت مطلوبة صارت معاناة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكنه لا يعسر القمرا

لكن بطب بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالحاسة  
استدراك ما افلتت  
من المراقبة . أخبرنا  
أبو زرعة عن ابن  
خلف عن السلمي قال  
سمعت أبا عثمان المغربي  
يقول أفضل ما يلزم  
الإنسان في هذا  
الطريق المماسية  
والمراقبة وسياسة  
العمل بالعلم وإذا صحت  
التوبة صحت الانابة  
قال إبراهيم بن آدم  
إذا صدق العبد في  
توبته صار منبيا لأن  
الانابة ثانی درجة  
التوبة وقال أبو سعيد  
القرشي المنيب الراجع  
عن كل شيء يشغله  
عن الله إلى الله وقال  
بعضهم الانابة الرجوع  
منه إليه لا من شيء

## ( بيان معنى الشوق إلى الله تعالى )

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن تثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيسكن في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر والوجود لا يطلب ولكن يياته أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فأما لا يدرك أصلاً فلا يشاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكامله لا يشاق إليه وكال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً فلنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعاقب بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثل من الشهادات . فنقول مثلاً من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحي عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته وتعمد الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوحيان جميعاً متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الانضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فإن الخيلات لا تفر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك يضاف إليها شواغل الدنيا فأنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتعمد إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيها اتضح انضاحاً ما الثاني أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيها لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية لقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضررتني القلق قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقاءي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه قلت يارب تهت في حبك فلم أدرك ما أقول فاعف عني وعلني ما أقول فقال قل اللهم رضى بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف له بعد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال البعد عما بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يبعد لذلك شوقاً لئلا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجع من غيره إليه ضيق أحد طرفي الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحاً لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة بتحقيق الرعاية والراقبة . قال أبو سليمان ما استحييت من نفسي عملاً فأحسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

أطراف الكشف والظن متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعم واللذة متزايدا أبدا لا يباد وتكون لذة ما يتجدد من أطراف النعم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعم واقعا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستعرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آتّم لنا نورا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأتمام النور مهما زود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به إنعام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بشماه وقوله تعالى - انظرونا نقبس من نوركم قيل ارجعوا وراكم فالتسوا نورا - يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزاد في الآخرة إشراقا فاما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعدما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فها أشهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك <sup>(١)</sup> » وقال أبو الدرداء لكعب أخبرني عن أخى آية بمعنى التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقاءي وإني إلى لقاءهم لأشد شوقا قال ومكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء أشهد أني لسمعت رسول الله <sup>ﷺ</sup> يقول هذا وفي أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبي ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فافرضوا يا أهل الأرض ما أتم عليه من غرورها واهلوا إلى كرامتي ومصاحبي ومجالسني واتمسوا بي أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم فاني خالفت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبيي ومحمد صفيي وخلقت قلوب الشائقين من نوري ونعمتها بجالي . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادا من عبادي يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويدكرونني وأذكروهم وينظرون إلى وأنظر إليهم فان حدثت طريقهم أحبيبتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكفه عند الغروب فاذا جهن الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إلى بانامي فيبين صارخ وبك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد يعني ما يتحملون من أجل وبسمعي ما يشكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلت بها لهم . والثالثة أقبل بوجهي عليهم فرى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه يادود إلى كم تذكر الجنة ولانسألني الشوق إلى قال يارب من الشائقون اليك قال ان للشائقين إلى الدين صفتهم من كل كدر ونبتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى آخرها ينظرون إلى واني لأحمل قلوبهم بيدي فأحنها على سمائي ثم أدعو نجياء ملائكتي فاذا اجتمعوا

(١) حديث أنه كان يقول في دعائه اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات .

إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا ومن لم يكن نفسه بيزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الانابة وهو في تحقيق مقام التوبة ولا تستقيم التوبة إلا بصديق المجاهدة ولا يصديق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر. وروى فضالة بن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المجاهد من جاهد نفسه ولا يتم ذلك إلا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بمكوف الهم عليه وصدق المراقبة له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لى فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضى في سماءى للملائكى كما تضى الشمس لأهل الأرض .  
 يادادود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فأخذتهم لنفسى محبته ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون فى كل يوم شوقا . قال داود يارب أرنى أهل محبتك ، فقال يادادود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر تمسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فإذا أتيتهم فأقرهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرهم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أجابى وأصفى وأولياى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم فأتاكم داود عليه السلام فوجدكم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إني رسول الله إليكم جيشكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقرهم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادون أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أجابى وأصفى وأولياى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظرا الوالدة الشقيقة الرفيقة . قال جفرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفتجترى على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا فى شئ من أمورنا فأدع لنا لزوم الطريق إليك وأنهم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفتجترى على الكلام من هو مشغل بعظمتك متفكر فى جلالك وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كنت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أولياك وكثرة متك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترى العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتدعنا عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا فى شئ من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن يسمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شئ دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أجبتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فأتى كاشف الحجاب فهما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال داود يارب هم قالوا هذا منك قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها والحلوات بى ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشئ من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى فمدر ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر بعينه إلى الشئ وأرىه كرامتى فى كل ساعة وأقره من نور وجهى ، إن

الحواطر والصبر ينقسم إلى فرض وفضل فالفضل كالصبر على أداء للقرضات، والصبر عن المحرمات ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الأولى وكنان المصائب والأوجاع وترك الشكوى والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنع والكرامات ورؤية العبر والآيات ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم حمة المراقبة والرعاية



مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يادود عمت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يخر عن الاشتغال بـ . يستجلى القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأته يادود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانفجرت قلبه إذا سمع بكركى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزى وجلالى يادود لأقصدته فى الفردوس ولأشفيق صدره من النظر إلى حقى يرضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضاً : قل لبادى للتوجهين إلى محبى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفقت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بيوت قلوبكم وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمس رضائى . وفى أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبى ، فإن كنت تحبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب . يادود خالص حبيبى مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك قلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك قلدنيه فما على آتى أسارع إلى سياستك وتقويك ولا تكن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعنيك على الشدائد وإنى قد حلفت على نفسى آتى لا أنيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزع القدلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطعن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فالحا إلا وكلته إليها أنصف الأشياء إلى لا تضاد عملك فكون متعباً ولا يتفزع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حداً فليس لها غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطيك ولا تجد للزيادة منى حداً ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عنى أجمع لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى يصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الدين حببت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطاع ثوابى عنها فإنى حلفت بزنى وجلالى لا أتسع ثوابى لبعد دخل فى طاعنى للتجربة والتسويق تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على الريدن ، فلو علم أهل محبى منزلة الريدن عنى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يادود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستقنه فأكتبك عنى جيداً ، ومن كتبتك عنى جيداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى الخلقين . يادود : تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتني منها فأحجب عنك محبى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فإنى أعمت الشهوات لنفخة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنى تنقص حلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عنى فى موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهنه عنها . يادود : لا تجعل بينى وبينك عالماً يحجبك بسكره عن محبى . أولئك قطاع الطريق على عبادى الريدن استمن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار فإن محبى للصوم إدمانه . يادود تحبب إلى بمعاذة نفسك امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعنى . وأوحى الله تعالى إلى داود يادود لويلم الدبرون عنى كيف استظاري لهم ورهقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما نوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبى

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة ككينة فى الرقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات المؤمنين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شئ أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعاً وما ذكر شيئاً بهذا العدد وحملة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يصر فيها فى معصية الله تعالى وهذا أيضاً داخل فى حملة التوبة

ياداوود هذه إرادتي في الدارين عني فكيف إرادتي في القلابين علي ياداوود أحوج ما يكون العبد إلى إذا احتجني عني وأرحم ما أكون بعدي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإعجاب تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

### ( بيان محبة الله للعبد ومعناها )

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - بهم ويحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله تعالى - قل فلم يعذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكافر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٤) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : عمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من أن الله يظلمه خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود التبويح ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا خلقه ، وهذا التباعد في سائر الأسماء

(١) حديث أس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصححه إسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن أبي عمير (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصبروا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحول والتواضع والتدل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وتركها بالتوبة

أظهر كالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضح اللفظ وإنما وضع هذه الأسماء أولا للخلق فان الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والثقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فانها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلذذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجدد ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الليثي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - يحبهم ويعبونه - فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكنه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل حبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكن هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب للفتن في له كما قال تعالى ولا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى واطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشير في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرابه فيله إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للآثم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لالارتفاع به ولا للاستعجاب به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والحاصل الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحاصل الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبه نفسه إلى الملك فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشرائطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا فصار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى إذا تغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الأزال ولا يتكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالتزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم فلا يزال دائما في التغير والترق إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترق العبد في درجات القرب فكلما صار لكل صفة وأثم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس إذا تزكت  
بالتوبة النصوح زالت  
عنها الشراسة الطبيعية  
وقلة الصبر من وجود  
الشراسة للنفس وإزالتها  
واستعاضتها بالتوبة  
النصوح تلين النفس  
وتخرجها من طبيعتها  
وشراستها إلى اللين  
لأن النفس بالمحاسبة  
والمرآة تصفو وتطهر  
نيرانها التساجعة  
بمتابعة الهوى وتبلغ  
بطمأنينتها محل لرضا  
ومقامه وتطمئن في  
مجارى الأقدار قال  
أبو عبد الله النجاشي  
له عباد يستحيون  
من الصبر ويتلقفون  
مواضع أقداره بالرضا  
تلقفاً ، وكان عمر بن  
عبد العزيز يقول

الذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التليد على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله تعالى فإنه لا نهاية الكمال وسلك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود لا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب متفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذن محبة الله للعبد بتقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشاق إلى مفاته وإذا أدرك منه شيئاً يلتذبه والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالا <sup>(١)</sup> » فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشتري حماراً فتركه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغاني عن نفسه بحمار ، وفي الخبر « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه فان رضى اصطفاه <sup>(٢)</sup> » وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد يضافيك ، وقال بعض المريدين لأستاذهم قد طولت بشئ من المحبة فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواء فأثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيك عبداً حق قلبه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه <sup>(٣)</sup> » وقد قال « إذا أراد الله بعبده خيراً بصره بيبوب نفسه <sup>(٤)</sup> » فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الشير عليه والمدير لأمره والمزين لأخلاقه وللمستعمل لجوارحه والسدد لظواهره وباطنه والجاعل همومه ما واحداً والفيض للدنيا في قلبه والورح له من غيره والمؤنس له بلذة النجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فاتها أيضاً علامات حب الله للعبد .

( القول في علامات محبة العبد لله تعالى )

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد ومأسأل الدعوى ومأعز المعنى فلا ينبغي أن يفتر الإنسان بتأبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يتمتعها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ونمازها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفاضلة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محباً للموت غير فار منه فان المحب لا يتقبل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

أصبحت ومالى سرور  
إلا مواقع القضاء قال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم لابن عباس  
حين وصاه « اعمل لله  
باليقين في الرضا فان لم  
يكن فان في الصبر  
خيراً كثيراً » وفي الخبر  
عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « من خير  
ما أعطى الرجل الرضا  
بما قسم الله تعالى له »  
فالأخبار والآثار  
والحكايات في فضيلة  
الرضا وشرفه أكثر  
من أن تحصى والرضا  
ثمررة التوبة النصوح  
وما تخلف عبد عن  
الرضا إلا تخلفه عن  
التوبة النصوح فاذن  
تجمع التوبة النصوح  
حال الصبر ومقام الصبر  
وحال الرضا ومقام

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم .
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولله في مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بائناً حسن بلفظه إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً بصره بيبوب نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس زيادة فيه باسناد ضعيف .

ليتم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (١) وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في الصديق بعد لقاء الله من كثرة السجود فقد قدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقیل وهو مع ثقله مرءى والباطل خفيف وهو مع خفته وبى فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرئك وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تمجزه ، وروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجذب أنفي وأذني ويقر بطني فإذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدد أنفك وأذنك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وإن أنه وأذنه لهما لقمان في خيط (٢) قال سعيد بن المسيب أرجو أن يروى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره الموت إلا مربب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد أحب الموت فكانه نوقف فقال لو كنت صادقا لأحببته وتلاقوه تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - قال الرجل قد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يمتنع أحدكم الموت » (٣) فقال إني أقاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا يناقض كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبتة قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلي نظر إلى سالم » (٤) فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجذب أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد (٣) حديث لا يمتنع أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبتة قريش في ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلي نظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو بصير في الحلية الرزق منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

الرضا والخوف والرجاء  
مقامان شريهان من  
مقامات أهل اليقين  
وهما كائنان في صلب  
التوبة النصوح لأن  
خوفه حمله على التوبة  
ولولا خوفه ما تاب  
ولولا رجاءه ما خاف  
فلرجاء والخوف  
يتلازمان في قلب المؤمن  
ومتبادل الخوف  
والرجاء لالتائب المستقيم  
في التوبة . دخل رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
على رجل وهو في  
سياق الموت فقال  
« كيف تجدك قال  
أجدني أخاف ذنوبي  
وأرجو رحمة ربّي فقال  
ما اجتمعا في قلب عبد  
في هذا الموطن إلا أعطاه  
الله ما رجا وآمنه بما

ببقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .  
وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره  
عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الحبر بقدوم  
حبيه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب  
عن الشواغل خفيف الظفر عن الموائق فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته  
الدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يهجه  
في ظاهره وباطنه فيقوم مشاق العمل ويحتمل اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال  
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب  
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم  
لحاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى  
فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قلع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها  
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة واقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه  
نهارا فتدافعه إلى الليل فإذا دعاها ليلا صوفت به إلى التهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل  
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل  
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وحاملهما نبيين فقالت أما إذا كان الله تعالى  
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فمندها سكنت إليه فاذن من أحب الله  
لا يصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إثارته على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل  
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب الناهي وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال  
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاها ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهوته فلا  
يخذه الله ولا يكله إلى هواه وشهوته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى  
بالله نصيرا - فان قلت فالصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم  
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على  
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضاعف والشهوة قد تناب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى  
« أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في مصيبة يرتكبها إلى أن  
آتى به يوما فخلعه فخلعه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه  
وسلم لا تلغنه فإنه يحب الله رسوله (١) » فلم يخرج به بالمصيبة عن المحبة نعم يخرج به بالمصيبة عن كمال الحب

(١) حديث آتى نعيمان يوما فخلعه فخلعه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلغنه فإنه يحب الله  
ورسوله البخاري وقد تقدم .

يغاف ه وجاء في تفسير  
قوله تعالى سولانلقوا  
بأيديكم إلى التهلكة  
هو العبد يذنب  
الكبائر ثم يقول قد  
هلك لا ينعني عمل  
فالتائب خاف ظناب  
ورجال الغفرة ولا يكون  
التائب تائبا إلا وهو راج  
خائف ثم إن التائب  
حيث قيد الجوارح عن  
السكران واستعان بنعم  
الله على طاعة الله فقد  
بشكر النعم لأن كل  
جائحة من الجوارح  
نعمة وشكرها قيدها  
عن المصيبة واستعمالها  
في الطاعة وأي شاعر  
للنعملة أكبر من التائب  
المستقيم فإذا جمع مقام  
التوبة هذه المقامات  
كلها فقد جمع مقام

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قبل لك أحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل العرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى العرفة والمحبة ولم يتحقق شيء من ذلك . ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتقر عنه لسانه ولا يغلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به ف علامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب كلب محبته فإذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحسوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى (١)» وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة النجاة في سن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانتقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتاب قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي . وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغته إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالحلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويستتم هذه الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالحلوة بالحبيب والتتم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألد عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لأبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لاستأنس إلى أحد من خلقي فأتى إنما أقطع عني رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانتقطع ورجلا نسي في فرضي بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هولى إلا أن فيه عيا قال يارب وما عيبه قال يسجبه نسيم الأسفار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلى عي . وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهر طويلا فنظر إلى طائر وقد عشش في شجرة بأوى إليها وصرع عنها فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر

التسوية حال الزجر  
وحال الانتباه وحال  
التيقظ ومخالفة النفس  
والتقوى والمجاهدة  
ورؤية عيوب الأفعال  
والإناابة والصبر والرضا  
والمحاسبة والمراقبة  
والرعاية والشكر  
والخوف والرجاء وإذا  
صححت التوبة النصح  
وتركت النفس انجالت  
مرآة القلب وبان قبح  
الدنيا فيها فيحصل  
الزهد والزهد يتحقق  
فيه التوكل لأنه لا يزهد  
في الوجود إلا لاعتماده  
على الموعد والسكون  
إلى وعد الله تعالى هو  
عين التوكل وكلما بقي  
على العبد بقية في تحقق  
المقامات كلها بعد  
توبته يستدركه

قال فضل فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا ، فاذن علامة المحبة كمال الأنس بمنجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلاوة . وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلاوة ويعوق عن قلة للتناجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بقلعة النجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة يعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلاوة والنجاة قرّة عينه يدفع بها جميع المصوم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الوهمان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن يذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبي إذا جنة الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فيها أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما يغوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطف والاستغفار والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على القامت فلم يشاغلو بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل إليهم ومفاتهم فبحسن تدييره لهم وحق المحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب وبإله ويقول رب بأي ذنب قطعت برّك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسى وبمناجاة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة ونكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا الله لم يتأسف ولم يشك واستقبل السكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته وبذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - ومنها أن يتم بالطاعة ولا يستعظمها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة المحب دوام النشاط والدروب بشهوة تنفّر بدنه ولا تنفّر قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ما اشتغى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستقل السمع في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تماوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهرا لأمالة ما هو دونه فمن كان محبوبه أحب إليه من السكل ترك السكل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض الهيبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت ممرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فايش تنفق على قال يا سيدي أملكك ما أملك

زهد في الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن السروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بغاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت سرا ووزائد في يديها فلما رأى



ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقامت هذا خلق لحاق وعبد أميد فكيف سجد لمعبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء القوم على كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أشداه على الكفار رحماً بينهم - ولا تأخذهم لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكافون محبى كايكاف الصبي بالصبي . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فانه لا يبالى قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فان الصبي إذا كلف بالصبي لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فان قام أخذه معه في ثيابه فإذا التبه عاد وتمسك به ومهما فارقته بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أجه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات قد تمت محبته وخلص حبه فصفاً في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تتم في الآخرة بقدر حبه إذ يزوج شرابه بقدر من شراب القربين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لى نعم - ثم قال - يسقون من رحيق مخموم ختامه منك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون - فإذا طاب شراب الأبرار لشرب الشراب الصريف الذى هو لامة قربين والشراب عبارة عن جملة نعم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لى عليمين - ثم قال - يشهده المقربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون وكان الأبرار يجدون الزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من القربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم فى الآخرة - ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة - كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقاً - أى وافق الجزاء نعماتهم فقول الحاصل بالصرف من الشراب وقول الشوب بالشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه فى الدنيا رجاءاً لنعيم الجنة والخور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فليحب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته فى الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشبهه نفسه وتلك عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يلب عليه إلا حبه بالخالص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتنعمون فى الجنان مع الخور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها يقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقولم آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب (١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون فى حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لتعيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب البزار من حديث أنس بن مالك ضعيف مقتصر على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى وإسناده أدرج فيه .

ذلك رجع ولم يدخل  
ثم جلس فجعل ينكت  
فى الأرض ويقول  
مالى وللدنيا مالى  
وللدنيا فرأت فاطمة  
أنه إنما رجع من أجل  
ذلك الستر فأخذت  
الستر والزوائد  
وأرسلت بهما مع بلال  
وقالت له اذهب إلى  
النبي صلى الله عليه وسلم  
قل له قد تصدقت به  
فضعه حيث شئت فأتى  
بلال إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فقال قالت  
فاطمة قد تصدقت به  
فضعه حيث شئت فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم  
بأبى وأمى قد فعلت  
بأبى وأمى قد فعلت  
اذهب فبعه وقيل  
فى قوله تعالى - إنا  
جعلنا ما على الأرض  
زيناً لها لنلوهم أهم

الحسين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - وإنما عظم هيبته البعد وخوفه في قاب من ألف القرب وذاقه وتنعم به لحديث البعد في حق البعدين يشيب جماعه أهل القرب في القرب ولا يحسن إلى القرب من ألف البعد ولا يبيك لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » (٢) وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة » (٣) وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفنور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أضع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أصله لذيق مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة للمعوم فأما الخصوص فيحبهم عن الزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى مظاهر من مبادئ اللطف وذلك هو السكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته . مع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فالت فهب ما فالت منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان الحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب الزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعه والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله السكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويترجم من النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى والنسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكرواليان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحكمة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلوك وأوصاف الجبرية والمزة والاستغناء وذلك من مقدمات السكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو اللقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبرواقباضه عن دوام الدكر وملاحة لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام اللقت نمود بالله منه وملزمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لامحالة فقد فلا يغلو الحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلمه فالحب لا يغلو عن خوف والخائف لا يغلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

(١) حديث شيبتي هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في مقام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أحسن عملا - قيل  
الزهد في الدنيا . سئل  
أمير المؤمنين على بن  
أبي طالب رضي الله  
عنه عن الزهد فقال  
هو أن لا تبالي بمن  
أكل الدنيا مؤمن أو  
كافر . وسئل الشبلي  
عن الزهد فقال ويلكم  
أي مقسدار الجناح  
بعوضة أن يزهد فيها .  
وقال أبو بكر الواسطي  
إلى متى تصول بترك  
كيف وإلى متى تصول  
ياعراضك عما لا تزن  
عند الله جناح بعوضة  
فاذا صح زهد العبد  
صح توكله أيضا لأن  
صدق توكله مكنته من  
زهده في الوجود فمن  
استقام في التوبة  
وزهد في الدنيا وحقق

حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من مكرز الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فأعما الخوف يبدله ويخفف وقته على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته فقبل ذلك فهم في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب اتقصه من القدرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتك جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة فلو ذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا فأخبرت إجابتهم إلى أن شفقت أنت لهذا فلما أجبتهك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتك فقصمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانه يا أحكم الحاكمين اتقصه مما أعطيت فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد      عن الأحرار منهم والعييد  
غريب الوصف ذو علم غريب      كان فؤاده زبر الحديد  
قد عزت معانيه وجلت      عن الأبصار إلا لكثيره  
يرى الأعياد في الأوقات تجري      له في كل يوم ألف عييد  
ولالأجباب أفراس بعيد      ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيب رحمه الله يشد ألياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهي هذه الآيات :

سرت بأناس في الصيوب قلوبهم      خلوا بقرب الماجد التفضل  
عراسا بقرب الله في ظل قدسه      تجول بها أرواحهم وتنقل  
مواردم فيها على المز والتهى      ومصدرهم عنها لما هو أكمل  
تروح جز مفرد من صفاته      وفي حال التوحيد تمشي وترقل  
ومن جد هذا مائدق صفاته      وما كتمه أولى لديه وأعدل  
سأ كنتم من على به ما يصونه      وأبذل منه ما يرى الحق يبدل  
وأعطى عباد الله منه حقوقهم      وأمنع منه ما يرى النعم يفضل  
على أن لرحمن سرا يصونه      إلى أهله في السر والصون أجل

وأمثال هذه للعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لحربت الدنيا بالحكمة تنفضي فحول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحربت الدنيا لهدم فيها وبطلت الأسواق ولما بقي بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن قد تعالى فيها هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخبر أسرار وحكما ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرة . ومنها كتمان الحب واجتباب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهية منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المني ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم الدعوة عليه في العقبي وتسهل عليه البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون له حب سكرة في جبهته حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين اللقائين استوفى  
سائر اللقائات وتكون  
فيها وتحقق بها وترتيب  
التوبة مع للراقبة  
وارتباط إحداها  
بالأخرى أن يتوب  
العبد ثم يستقيم في  
التوبة حتى لا يكتب  
عليه صاحب الشمال  
شيئا ثم يرتقى من  
تطهير الجوارح عن  
للماضي إلى تطهير  
الجوارح عما لا يضي  
فلا يسمع بكلمة فضول  
ولا حركة فضول ثم  
ينتقل للرعاية والمهابة  
من الظاهر إلى  
الباطن وتستولي  
الراقبة على الباطن  
وهو التحقق بعلم  
القيام بمحو خواطر  
المصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه مغمور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالتقادر على الكتمان يقول: وقالوا قريب قلت ماأنا صانع بهرب شعاع الشمس لو كان في حجرى لئالى منه غير ذكرى بخاطر يهيج نار الحب والشوق فى صدرى والعاجز عنه يقول :

بخفى فيصدى الدمع أسرارى ويظهر الوجد عليه النفس ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكتر التعريض به فى كل شئ ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو محقوت عند الهيبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاده فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال لكنى أقول لا يحبه من لم يتم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لا يحبه من شمر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة تنتهى القمامات وإظهارها إظهار للغير فلماذا يستنكر فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإعما الذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق الحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد الحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الإنجيل إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شئ لك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يحزبك عناية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك ثلاثا لم بذلك غير ربك فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجبه فيه فأخبر بذلك معروفا السكرانى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبوب صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيت من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن الحب إن كان عارفا وعرف أحوال اللائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يهتدون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس الهيبين فى مملكته وأن حبه أتهى من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من الهيبين عبت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل اليهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شئنا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من اللائكة بعد جميع ما خلق الله من شئ فقلت من أنتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نبيده ههنا منذ ثلثة ألاف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تنفيا عنه فى جهنم فاذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيامنه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وترداته كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها صيا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصمت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت إلى السرى فأخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت بأستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول  
فأذا تمكن من  
رعاية الخطرات عصم  
عن مخالفة الأركان  
والجوارح وتستقيم  
توبته قال الله تعالى  
لنبيه صلى الله عليه  
وسلم - فاستقم كما  
أمرت ومن تاب  
معك - أمره الله  
تعالى بالاستقامة فى  
التوبة أمرا له ولأتباعه  
وأمرته وقيل لا يكون  
للريد مريدا حتى  
لا يكتب عليه صاحب  
الشمال شيئا عشرين  
سنة ولا يلزم من  
هذا وجود العصمة  
ولكن الصادق التائب  
فى النادر إذا ابتلى  
بذنوب يمتحن أثر الذنب  
من باطنه فى

لو شئت أقول ما ليس جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ثم غشى عليه وتدل القشبة على أنه  
أضحى في غلبة الوجد ومقدمات القشبة فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما  
سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو  
من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون  
لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا  
ذلك بعرقهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر  
على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد  
بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماء الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذ استحق عندهم المحبة بذلك  
لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواء وعدواقه إبليس وهو مع ذلك  
يلبس على نفسه بحكم الضرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى قدت فيه هذه  
العلامات أو يلبس بها ثقافا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف  
ذلك كمداه السوء وقراء السوء أو تلك بضاء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال  
يادوست أى يا حبيب قليل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال فى أذن القائل سرا: لا يخلو  
إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب  
إبليس وقد قال أبو تراب النخشي فى علامات المحبة آياتا :

لا تتحدث عن فلان حبيب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل

● منها تنعم بمر بلائه وسروءه فى كل ما هو فاعل

فالتنع منه عطية مقبولة والفقر إحكام وبر عاجل

ومن الدلائل أن ترى من عزمه طوع الحبيب وإن ألح العادل

ومن الدلائل أن يرى متبها والقلب فيه من الحبيب بلاجل

ومن الدلائل أن يرى متفهما لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متشفيا متحفظا من كل ما هو قاتل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا فى خرقتين على شطوط الساحل

ومن الدلائل حزنه ونحيبه جوف الظلام لما له من عاذل

ومن الدلائل أن تراه مسافرا نحو الجهاد وكل فصل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى من دار ذل والنعم الزائل

ومن الدلائل أن تراه باحكيا أن قد رآه على قبيح ضائل

ومن الدلائل أن تراه مسلما كل الأمور إلى للبيك العادل

ومن الدلائل أن تراه راضيا بملكه فى كل حكم نازل

ومن الدلائل ضحكك بين الورى والقلب محزون كقلب الثنا كل

( بيان معنى الأنس بالله تعالى )

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب  
نظره وما يطلب عليه فى وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب القيب إلى متبى الجمال واستشعر  
قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال انبث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

الطف حاسة لوجود  
النم فى باطنه  
على ذلك والنم توبة  
فلا يكتب عليه  
صاحب التوال شيئا  
فاذا تاب توبة نصوحا  
نم زهد فى الدنيا  
حتى لا يهتم فى غذاه  
لشائه ولا فى عشاءه  
لغذائه ولا يرى الادخار  
ولا يكون له تعلق  
بم يفسد قد جمع  
فى هذا الزهد  
والفقر والزهد أفضل  
من الفقر وهو فقر  
وزيادة لأن الفقير  
عادم لشيء اضطارا  
والزاهد تارك لشيء  
اختيارا وزهده  
يحقق توكله وتوكله  
يحقق رضاه ورضاه  
يحقق الصبر وصبره

في الازعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقتصرا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشيره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم البالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تأله خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تختصها لا يمكن حصرها فالأنس من استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما قابله وما ينطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظروا بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا قال من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الامكان من مزايا اللطاف ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت؟ فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أهل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذته النسيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبني مستأسا من سواي مستوحشا وقيل لراية بن عتبة قلت هذه الميزة قالت بتركي مالا ينبغي وأنسى بمن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليهم من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت العاملة فقلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع لهم فصارها واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فأعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور ومخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلأنوا ما استوعر الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون محبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهلل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد وقد ذهب بعض التكميلين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجعله بأن جمال اللذات بالبصائر أكمل من جمال البصائر ولذا معرقها أغرب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بسلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والمشتاق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

يحقق حبس النفس  
وصدق المجاهد  
وحبس النفس لله  
يحقق خوفه وخوفه  
يعقق رجاءه ويجمع  
بالثوبة والزهد كل  
القامات والزهد  
والثوبة إذا اجتمع  
صحة الإيمان وعقوده  
وشروطه يعوز هذه  
الثلاثة رابع بهتمامها  
وهو دوام العمل لأن  
الأحوال السنية  
ينكشف بعضها بهذه  
الثلاثة وتيسر بعضها  
متوقف على وجود  
الرابع وهو دوام  
العمل وكثير من  
الزهاد التحققين بالزهد  
للمستقيمين في الثوبة  
تخلفوا عن كثير من  
معنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطلان وليس يدركه بالحول محتال  
والأنسون رجال كلهم نجب وكلهم مصفوة لله عمال  
( بيان معنى الانبساط والادلالات الذي تشره غلبه الأنس )

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكّم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينقصه خوف التغير والحجاب فإنه يشر  
نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه  
من الجرامة وقلة الهيبة ولكنه محتال بمن أقيم في مقام الأنس ومن لم يتم في ذلك المقام ويتشبه بهم  
في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كلمه موسى  
عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام  
ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أغلست عليهم ذنوبهم  
سرائرهم خبيثة بدعوتني على غير يقين ويأمنون مكرى ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ قتل له  
يخرج حتى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق  
إذا ببعد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في ثملته قد عقدتها على عنقه فصره موسى  
عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما صمك فقال اعمى برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين  
اخرج فاستسقى لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حلك وما الذي بدالك أقصت  
عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نقد ما عندك أم اشتد غضبك على الذين أئست كنت  
غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنك تمتع أم تخشى الموت فتعجل  
بالعقوبة قال فابرح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأثبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ  
الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفتي  
فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات وعن الحسن  
قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر  
بذلك فبعث إلى صاحب الحصص قال فأتني بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال إني أقسمت على  
ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضي الله عنه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول  
« يكون في أمي قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرههم »<sup>(١)</sup> قال ووقع حريق بالبصرة  
فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على  
ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فاعزم على النار أن تطأ قال فمزم عليها فطفت وكان أبو حصص  
يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حصص ما أصابك فقال ضل حماري ولا أملك غيره  
قال فوقف أبو حصص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليهما فقال فظهر حماره في الوقت ومر  
أبو حصص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجري لذوى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله  
أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة . وقال مرة لوصيها  
المعوم لكفروهم وهم يحذون الزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تغالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما في القرآن تنبيهات على

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله

لأبرههم ، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

عن هذا الرابع ولا  
يراد الزهد في الدنيا  
إلا لكمال الفراغ  
الاستمان به على إدامة  
العمل لله تعالى والعمل  
لله أن يكون الصبد  
لا يزال ذا كرا أو تاليا  
أو مصليا أو مراقبا  
لا يشغله عن هذه إلا  
واجب شرعى أو مهم  
لا بد منه طبعي فإذا  
استولى العمل القلبي  
على القلب مع وجود  
الشغل الذي أداه إليه  
حكم الشرع لا يفتتر  
باطنه عن العمل  
فإذا كان مع الزهد  
والتقوى متمسكا  
بدوام العمل قصد  
أكمل الفضل وما آلى  
جهدا في العبودية

هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها  
بعين الاعتبار فأعماهى عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام  
وإبليس أما تراها كيف اشتركا فى اسم العصية والخالفه ثم تباينا فى الاجتناء والعصية . أما إبليس  
فأبلى عن رحمته . وقيل إنه من البعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه . ونهى آدم ربه  
فحوى ثم اجتناه ربه فتاب عليه وهدى . وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض  
عن عبد والاقبال على عبد وما فى العبودية بيان ولكن فى الحال مختلفان ، فقال - وأما من  
جاءك يسمى وهو يخشى فأنت عنه تلهى - وقال فى الآخر - أما من استغنى فأنت له تصدى -  
وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، فقال عز وجل - وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام  
عليكم - وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال - وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض  
عنهم - حتى قال - فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - وقال تعالى - واصبر نفسك مع  
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون  
بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام - إن هى إلا تنتكك قتل بها من تشاء  
وتهدى من تشاء - وقوله فى التسليم والاعتذار لما قيل له - اذهب إلى فرعون - فقال - ولهم  
على ذنب - وقوله - إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى - وقوله - إننا  
نخاف أن يخرط علينا أو أن يظنى - وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى  
أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض  
والهية فزوق بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة - لولا أن  
تداركه نعمة من ربه لنبت بالراء وهو مذموم . قال الحسن الراء هو القيامة ، ونهى نبينا  
صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ  
نادى وهو مكظوم - وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والقامات وبعضها لما سبق فى  
الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين  
على بعض - وقد قال - منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فكان عيسى عليه السلام من  
المفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال - والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا -  
وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس . وأما عيسى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم  
مقام الهية والحياة فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، فقال - وسلام عليه - وانظر كيف احتمل  
لإخوة يوسف ماضوه يوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى - إذ قالوا  
ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا  
وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع فنفر  
لهم وغشا عنهم ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر حتى قيل عفى من ديوان النبوة  
وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكبر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان  
آصف من السرفين وكانت مصيته فى الجوارح فضا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان  
عليه السلام يارأس العابدين وياابن محجة الزاهدين إلى كم يصيبني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه  
مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لأن أخذته عصفة من صفاتي عليه لأتركه مثله لمن معه ونكالا  
لن بعده فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :  
من خرج من قالب  
العبودية صنع به ما  
يصنع بالآبق . وسئل  
سهل بن عبد الله  
القسرى : أى منزلة إذا  
قام العبد بها مقام  
العبودية قال إذا ترك  
التدبير والاختيار فاذا  
تحقق العبد بالثبوت  
والزهد ودوام العمل  
لله يشغله وقته الحاضر  
عن وقته الآتى ويصل  
إلى مقام ترك التدبير  
والاختيار ثم يصل إلى  
أن يملك الاختيار ،  
فيكون اختياره من  
اختيار الله تعالى لئوال  
هو وهو وفور عله  
واقطاع مادة الجهل  
عن باطنه . قال يحيى  
ابن معاذ : الرازى مادام



العبد يتعرف بقاله  
 لا تختر ولا تفكن مع  
 اختيارك حتى تعرف  
 فإذا عرف وصار عارفا  
 يقال له إن عشت اختر  
 وإن عشت لا تختر  
 لأنك إن اخترت  
 فباختيارنا اخترت  
 وإن تركت الاختيار  
 فباختيارنا تركت  
 الاختيار فانك بنا في  
 الاختيار وفي ترك  
 الاختيار والعبد  
 لا يتحقق بهذا المقام  
 العالي والحال العزيز  
 الذي هو الناية والنهاية  
 وهو أن يملك الاختيار  
 بعد ترك التدبير  
 والخروج من الاختيار  
 إلا بإحكامه هذه  
 الأربعة التي ذكرناها  
 لأن ترك التدبير فناء  
 وعليك التدبير

اعلم أن الرضا نعمة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات التمرين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقمته في الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فضل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والعاصي وانهدج بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال : اللهم قمه في الدين وعلمه التأويل (٢) .

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث دعاه لابن عباس اللهم قمه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف  
المعنى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

( بيان فضيلة الرضا )

أما من الآيات قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان  
إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى  
- وما كن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - قد رفع الله الرضا فوق جنات عدن  
كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر - فكما  
أن مشاهدة للذكر في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أسمى من الجنة بل هو غاية مطلب  
سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » (١) فسؤالهم  
الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو  
بمعنى آخر يقرب عما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تنصرف أفهام الخلق  
عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادرأكه من نفسه . وطى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فاعلموا  
الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمان لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا  
بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعللوا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولدت بيازيد  
قال بعض للفرسين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية  
من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تحم نفس مأخوف لهم من قرعة  
أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى - سلام قولامن  
رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك  
قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أى من النعم الذى هم فيه فهذا أفضل رضا الله تعالى وهو نعم رضا  
العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا  
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال  
مؤمنون ورب الكعبة » (٢) وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء » (٣)  
وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفايا ورضى به » (٤) وقال عليه السلام « من رضى من الله  
تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى عنه بالقليل من العمل » (٥) وقال أيضا « إذا أحب الله تعالى  
عبدا ابتلاه فان صبر اجتناء فان رضى اصطفاة » وقال أيضا « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة  
من أمم أجنحة فيطفرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فنقول لهم

والاختيار من الله  
تعالى لعبده ورده إلى  
الاختيار تصرف بالحق  
وهو مقام البقاء وهو  
الانسلاخ عن وجود  
كان بالعبد إلى وجود  
يصير بالحق وهذا  
العبد ما بقى عليه من  
الاعوجاج ذرة واستقام  
ظاهره وباطنه في  
العبودية وعمر العلم  
والعمل ظاهره وباطنه  
وتوطن حضرة القرب  
بنفس بين يدي الله  
عز وجل متمسكة  
بالاستكانة والافتقار  
متحققة بقول رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
« لا تنكفى إلى نفسى  
طرفة عين فأهلك ولا  
إلى أحد من خلقك  
فأضيع أكلان كرامة

(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك البراء والطبراني في الأوسط من حديث  
أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقكم وعدى وأتممت عليكم  
نعمى وهذا محل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو يعلى بلفظهم يقول ماذا تريدون  
فيقولون رضاك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا  
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا  
من قههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضا (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفايا ورضى  
به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من  
الله بالقليل من الرزق رضى الله تعالى عنه بالقليل من العمل رويناه في أمالى الهاملى بإسناد ضعيف من حديث  
على بن أبى طالب ومن طريق الهاملى رواه أبو منصور الديلمى في مسند التردوس .

للالئكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزئتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول لللائكة من أمة من أتم؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه النزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نصيبه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول لللائكة بحق لكم هذا <sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «يا مبشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا <sup>(٢)</sup>». وفي أخبار موسى عليه السلام إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فطناء يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم، ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ماله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه <sup>(٣)</sup>». وفي أخبار داود عليه السلام المأولياتي وألم بالهنا إن ألم يذهب خلاوة مناجاتي من قلوبهم. ياداد إن بحق من أولياتي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون. وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلي على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه: إن رضائي في كرهك وأنت لا تصبر على ماتكره. قال يارب دلي عليه، قال فإن رضائي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه الم محبوب سألني قال فأني خلقك أنت عليه ساخط. قال من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي. وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي <sup>(٤)</sup>» ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا مني حتى يلغاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلغاني <sup>(٥)</sup>» وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خالفت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف <sup>(٦)</sup>» وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكوا هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفه من أمي أجنة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماله عند الله الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بإفظ منزلته ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجدهم بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عني.

[ الباب الستون :

في ذكر إشارات

المشايع في القامات

على الترتيب ]

قولهم في التوبة قال

رويم معنى التوبة أن

يتوب من التوبة قيل

معناه قول رابصة

أستغفر الله العظيم

من قلة صدق في قولي

أستغفر الله . وسئل

الحسن الغزالي عن

التوبة ، فقال تسألني

عن توبة الانابة أو

عن توبة الاستجابة

فقال السائل ما توبة

الانابة ؟ فقال : أن

تخاف من الله عز

وجل من أجل

قدرته عليك . قال

فما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أقريرد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما أحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأعونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بين أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يحمل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده يا أبت : أمارى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا فقال يا بني : إني رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تلمسوا إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار السكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن تحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم . وقال أنس بن مالك رضي الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لما قال لي كشيء فقلت لم فعلته ولا كشيء لم أفعله لم لأفعله ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ولا في شيء لم يكن ليته كان وكان إذا خاصني غصام من أهله يقول دعوه لوقضى شيء لكان (١) » . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فإن سلت لما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أبعثتك فيها تريد ثم لا يكون إلا ما أريد . [ وأما الآثار ] فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر . وقيل له ماتشتهي ، فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحظه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : ليس الشأن في أكل خبز الشعير والحل ولا في لبس الصوف والشعر ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول كشيء كان ليته لم يكن أو كشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني . وروى في الاسرائيليات أن تابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة وبطل صائما وتظل منطرة ، فقال أمالك عمل غير ما رأيت ، قالت ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خسيلة واحدة هي في إن كنت في شدة لم آتمن أن أكون في رخاء وإن كنت في مرض لم آتمن أن أكون في صحة وإن كنت في الشمس لم آتمن أن أكون في الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خسيلة هذه والله خسيلة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عني فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر ابن سليمان الضبي فلي يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قدرضى من عبيده بما رضى العبيد من موالهم السنة عن أبي أمامة باسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لي كشيء فقلت لم فعلته الحديث متفق عليه وقد تقدم .

قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلزمه سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . قال ذوالنون توبة الصوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم . مثل أبو محمد سهل عن الرجل

قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن محبة لله من عبده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحبكم وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل النهم والحزن في الشك والسخط (١) » .

( بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى )

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فاعلم أن من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغرق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجري عليه الإؤلوم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الهم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحاق رأسه بمديدة كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط امتلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذلك يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهرة بحيث يدهش ويشقى عليه فلا يحس بما يجري عليه . فقد روى أن امرأة فتحت الوصل عثرت فاقطع ظفرها فضحكت قبل لها أما تجددين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجمعه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعني بقله وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتبس من القصاد القصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتفقد من القصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجري عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمره سفره طيب عنده مشقة السفر وجملة راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا لغير آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوا عنه ومطلوبا وكل ذلك موجود في للشاهدات في حب الخلق وقد توأفها المتوافظون في نظمهم وشرهم ولا مئة إلى الملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فساهو لإجله ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بديته من نقطة ملرة ونهايته جيفة قلرة وهو فيما بين ذلك يحمل المذرة وإن نظر إلى المدرك

(١) حديث إن الله يحبكم وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا والفرح في الرضا الحديث الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بقطعه وقد تقدم .

يتدرب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله أن ينسبه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته قال وإن غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فإنه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحساسة التي تفلط فيما ترى كثيرا فتري الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعد قريبا والقصيح جميلا فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا منتهى لكأله المدرك بعين البصيرة التي لا يعترها القلط ولا يدور بها الوت بل بقي بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار وشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سرياً السقطي هل يجد الحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوطاً في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فنبخته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأن معشوقى كان يحذاني ينظر إلى فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال فزعت زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم فما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفضت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعتى إرباً إرباً ما زددت له إلا حبا . قال بشر لما رأيت بعد ذلك نعمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شاباً وفي يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول      والوت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل قتلست براحل      لكن مهجنى التي ترحل

ثم بقى بالمدينة بطنه وخرميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لى أنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوماً واحداً ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دنى طى أعبد أهل الأرض فدلّه طى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب يصره فسمعه وهو يقول : إلهى متعتنى بهما ماشئت أنت وسلبتنى ماشئت أنت وأبقيت لى فيك الأمل يا رب يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشيئنا طى هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبداً منه فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضىنا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالدّيك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويعمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فنزّله وكان الرجل صالحاً فقال عسى أن يكون خيراً ثم جاء ذئب فنزق بطن الحمار فقتله فنزّله عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيراً ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبى من حولهم وبقواهم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته . والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء شاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله . وسئل السوسى عن التوبة فقال التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مامدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لأنه لا بقاء

والخير والديكة فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفي  
 لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . وروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد  
 مضروب الجنبين بفالج وقد تآثر لجه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى عما ابتلى به كثيرا  
 من خلقه فقال له عيسى يا هذا أى شئ من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله تأخير من لم يعمل  
 الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناولته يده فاذا هو أحسن الناس وجها  
 وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير  
 رجله من ركبتة من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وإيمك لئن كنت أخذت  
 لقد أبتيت ولئن كنت ابتليت لقد عاقبت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول القمروا النقي  
 مطيتان ما أتالى أيهما ركبت إن كان القمروا فى الصبر وإن كان النقي فإن فيه البذل . وقال  
 أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالي منه إلا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل  
 الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال  
 أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لوجعني جيرا على جهنم يعب الخلائق على إلى الجنة ثم ملائبي  
 جهنم تحمّل لقسمة وبدلا من خليفته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمة وهذا الكلام من علم  
 أن الحب قد استغرق همه حتى منه الاحساس بألم النار فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في  
 استتماره حصول رضا محبوبه بالغائه إياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان  
 بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء وبظن أن  
 ما هو عاجز عنه يهجز عنه الأولياء . وقال الروذباري قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمثي قول فلان  
 وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامنه قال يا هذا إن كان هذا من  
 طريق التعظيم والاحلال فلا أعرف . وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال  
 ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم  
 ولا يقعد قد تقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء  
 فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ قال لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فان أحبه  
 إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحذرك شيئا لمأل الله أن يفتكك به وإاكم على حتى أموت إن الملائكة  
 تزورني فأأس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إدهو سبب هذه  
 النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلاءه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعة  
 نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلي فداؤك ما نطعمك  
 مانسقيك فقال طالت الضجّة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لأطعم طعاما ولا أسبيغ شرابا منذ كذا  
 فذكر أياما وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة وقد  
 كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فإذ هو لهذا وكان محاب  
 الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فمرقني وقال أنت قارئ أهل مكة ؟  
 قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها قتلته له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك  
 بصرك فتبسم وقال يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير  
 ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعترض عليه فيما قضى أشد  
 على من ذهب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة  
 وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو ؟ قال قلت مرة لشيء كان ليته

لجعل مع العلم كالإبقاء  
 ليل مع طلوع الشمس  
 وهذا يستوعب جميع  
 أقسام التوبة بالوصف  
 الخاص والعام وهذا  
 العلم يكون علم الظاهر  
 والباطن بتطهير الظاهر  
 والباطن بأخص  
 أوصاف التوبة وأعم  
 أوصافها . وقال  
 أبو الحسن التوري  
 التوبة أن تتوب عن  
 كل شئ سوى الله  
 تعالى . قولهم في الورع  
 قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم « ملاك  
 دينكم الورع » أخبرنا  
 أبو زرعة إجازة عن  
 أبي بكر بن خلف عن  
 أبي عبد الرحمن السلي  
 إجازة قال أنا أبو سعيد  
 الحلال قال حدثني

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول كشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد هبنا رجل قد تعبد خمسين سنة تقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قممت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فأنما مزيتك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتكم خمسين سنة مدخولة وممنه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تعدى طبقات أصحاب اليمين لأن مزيتك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال لمن أنتم ؟ قالوا محبوبك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريوا فقال ما بالكُم ادعيتُم محبي إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، وللشبلي رحمه الله تعالى :  
 إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا وله قد كذبه وذلك أن أحكم لو كان له أصعب من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يوارى بها يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقبل لفسري احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلاحي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما توقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالخط وراعه بل لسكونه مراد المحبوب ورضا له قد يخلب الحب بحيث ينغمز مراد الحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوه ورضاء وتقوى لإرادته ولو في هلاك روحه كما قيل : لما جرح إذا أرضاك ألم • وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدعش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من تقدم من نفسه لأنه إنما تقدمه لقدمه سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف محاببه فلم يجيب محاببه أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الراضي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فغصرت بال غضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولاسيا عاشق إذا لم يجد مشكيا

فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه فمركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد رأيت رجلا متعاقباكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له الهبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى هذا التفاني الذي تظهر لي فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال إن كنت صادقا قلت قال فتحنى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال صمنون المحب كان في جيراننا رجل وله جارية يهبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدعش الرجل وسقطت للأعنة من يده وجلس يحرك مافي القدر يده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البندادي قال رأيت بالبصرة شاعرا بطيحا منفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن خزيمة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقة عن أبي بكر بن أبي مرزوم عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توشا على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يئله الله عز وجل قوما ينفعهم . قال عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف السرخسي احتفظ لسائك من اللحم كما تحفظه من الدم . قال هن الحرث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف أصبحه الوسطى عرق إذا مديده إلى



من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فعملوه ميتا فهذا أو مثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذي قد البصر ينكر جمال الصور والذي قد السمع ينكر لذة الألحان والنعيمات الموزونة فالذي قد القلب لا يبدو أن يشكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

( بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا )

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك الرق . سئل الشبلي عن الورع فقال الورع أن تورع أن ينشئت قلبك عن الله طرفة عين . وقال أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما أن الفناعة طرف من الرضا . وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل . سئل الخواص عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يصكون اهتمامه بما رضى الله تعالى . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلي قال سمعت الحسن بن أحمد

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة للعاصي ومقت أهلهم ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما قلناه في كتاب الدعوات تمل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى القامات من الرضا وقد أنى الله تعالى على بعض عباده بقوله سيد عوثا رغباً ورهباً : أما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال السورضو بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها - وقال تعالى - رضوا بأن يكونوا مع الخوالب وطبع على قلوبهم - وفي الخبر للشهور « من شهد منكراً فرضى به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله »<sup>(١)</sup> وعن ابن مسعود : إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قبل وكيف ذلك ؟ قال يلغى فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبداً قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكاً في قتله »<sup>(٢)</sup> وقد أمر الله تعالى بالحدس والتنافس في الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا حد إلا في اثنين رجل آتاه الله حكمة فهو يبينها في الناس ويطهاها ورجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق »<sup>(٣)</sup> وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاه الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتاني هذا لعمت مثل ما فعل . وأما بعض الكفار والقجار والانكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - وقال تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً - وفي الخبر « إن الله تعالى أخذ البشاق على كل مؤمن أن يفيض كل منافق وعلى كل منافق أن يفيض كل مؤمن »<sup>(٤)</sup> وقال عليه السلام « الرء مع من أحب »<sup>(٥)</sup> وقال « من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم يوم القيامة »<sup>(٦)</sup> وقال عليه السلام « وأوثق

(١) حديث الدال على الشر كفاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جداً (٢) حديث لو أن رجلاً قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكاً في قتله لم أجده أصلاً بهذا اللفظ ولا بن عدي من حديث أبي هريرة من حضر مصيبة فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا حد إلا في اثنين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ البشاق على كل مؤمن أن يفيض كل منافق الحديث لم أجده أصلاً (٥) حديث الرء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قريصة وابن عدي من حديث جابر من أحب قوماً على أعمالهم حشر في زمرة من زاد ابن عدي يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضيف .

عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصلوة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيد. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت المعاصي غير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فسكراتها ومقتهها كراهة امتضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والسكرانة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وممونه حسن الخلق وهو جهل محض بل تقول الرضا والسكرانة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فذكره موته من حيث إنه مات عدو وعدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك العصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه بمحقونا عند الله وبغضه عنده حيث سلط عليه أسباب البعد ولتقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا إلا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه إنني أريد أن أميز بين من يحبني ويخضى وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لي حتى إذا شتمني أبغضته وأخذته عدوا لي فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوي وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة حتى على كل من هو صادق في محبته وعالم بشرط المحبة أن يقول أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإيماؤه وتعريضك إيما للبغض والعداوة فأنا عاب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الواجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرت فأننا راض به ولو لم يحصل لك ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويضا في مرادك وأنا كاره لمرادك ولكن من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جلالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لأن من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحبه له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا من بغض له لأن شرط المحبة أن يكون محبوبا محبوبا ولامدوه عدوا وأما بغضه لك فأنني أراضه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكنك أبغضته من حيث إنه وصف ذلك للبغض وكسبه وفعله وأمته لذلك فهو محقوت عندى لمقتة إياك وبغضه ومقتة لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرس من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاء بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا. وقال الحواص: الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة قولهم في الزهد: قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التبع. وسئل الشبلي عن الزهد فقال لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيها ليس له فليس ذلك زهدا وزهد فيما هو له

(١) حديث أوثق عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصلوة (٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدري الخير حيث كان ثم رضني به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لأنخصي فأذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب العصية ويجره الحب إلى فعل العصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً يجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض الشتم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي العصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بأمره ومقتته فواجب على كل عبد محب لله أن يخضع من أمرة الله ويعتق من مقتله الله ويمادى من أمرة الله عن حضرته وإن اضطره بجهده وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنه بعيد مطرود وملعون عن الحضرة وإن كان بعيداً بأمره بجهده ومطروداً بطرده واضطراره والبعيد عن درجات القرب ينفى أن يكون مقبلاً أيضاً إلى جميع المحبين موافقة للمحسوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بأمره وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتخفيف عليهم وللبالغة في مقته مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في الشئبة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قاله إلهما جميعاً منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضاً مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه بالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تنشوه»<sup>(١)</sup> وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضاً أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب الدينية على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلباً لازالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصاءه في كتاب التوكل فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أى في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقير بلاء وحمة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والملكة لما لكتها ويقول ما قاله عمر رضى الله عنه : لا تأبى أصبحت غنياً أو فقيراً فاني لأدري أيهما خير لي .

فكيف يزهد فيه وهو  
معه وعندة فليس  
إلا ظلف النفس وبذل  
مواساة ، يشير إلى  
الأقسام التي سبقت بها  
الأفلام وهذا لو اطرده  
هدم قاعدة الاجتهاد  
والكسب ولكن  
مقصود السبيل أن يقال  
الزهد في عين اللذة  
بالزهد لا يفر به .  
قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «إذا  
رأيت الرجل قد أوتي  
زهداً في الدنيا ومنطقاً  
فاقربوا منه فإنه يلقي  
الحكمة» وقدمى الله  
عز وجل الزاهدين  
علماء في قصة قارون  
قال تعالى - وقال  
الذين أوتوا العلم وبلغكم  
نواب الله خير - قيل

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تنشوه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

( بيان أن القرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومنميتها لا يقدح في الرضا )

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد يظهره الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما قرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أن تلوث فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا تمتعه لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالقرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للقرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذا عرف للمضى ظهر أن القرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس قرارا من القضاء بل من القضاء الفرع لا بد من القرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التفرغ عن المعصية ليست منسومة لما زال السلف الصالح يتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب القرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب لما رأيت بها شرًا من بغداد قبل وكيف قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها إلا شرطا غضبان أو تاجرا لهنان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه بغداد يقرب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار - وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال لما اتضع به بلفني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا ابتض الله له قرينا من البلاد وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفية الداء الضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدهم في زى الرهبان فإذا سأله أين تسكن قال في عسى الظلة وكان بشر بن الحرث يقول مثال التبعيد بغداد مثال التبعيد في الحبس وكان يقول لا تفتدوا بي في المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثرا في نفسى قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهد وشريرم شرير فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في اللقاه بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون مزعج القلب منها قاتلا على الدوام - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاد وهجر الجميع وشمل الطمحين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - فإذا ليس في شيء من أسباب هجر الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضاعتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها محال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل القامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار شيئا بل أرضى

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالقرار من الزحف تقدم فيه .

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا ، وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر « العلماء أئمة الرسل عالم يدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم » وجاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يألوا ما حص من دينهم فإذا ضلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلمهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال للثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما آتخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقبل لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحب إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الحكمة .

( بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم )

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما محروب والمحب متعوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من الصبة فقال أنا كل الصبة وكان يقول إذا رأيت محباً فدرأته أربعين بدلا وقيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلفا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأحد عجائبتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخضيه مع عقبه عن الأرض ضاربا بذنته على صدره شاخصا بعينه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قصد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم الشيء على الماء والشيء في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم على الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم انقضت فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذهب أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الملك الأسفل فدورني في اللسكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتها إلى الترى ثم أدخلني في الملك العلوى فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أحبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدى حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفغان بك ولأنعمان فذكر أشياء قال يحيى فهالني ذلك وامتلاأت به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لأسألك العرفه به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويملك غرت عليه متى حتى لا أحب أن يعرفه سواء . وحكى أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والبريد مشغول بعبادته ومواجهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكره عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد حاج وجد المريد فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغثناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويملك تعتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبنت الذي من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويملك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والاجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء وسئل الثبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في

عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت فقال احملي اليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننظره  
ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع قال لمربنا وقد قلب نروه على ظهره قتل  
لأفق هذا أبو يزيد فانظر إليه فنظر إليه الفتي فصرق فخر كناه فإذا هوميت فحاونوا على دفته قتل  
لأبي يزيد ياسيدي نظره إليك قتله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم يكشف  
له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضياء للردين فقتله ذلك.  
ولما دخل الزنج البصرة قتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى  
دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبدا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم  
إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله  
أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يحمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها  
فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يغلو عن التصديق والایمان بإمكانها فإن القدرة واسعة والفضل  
عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى  
لا غاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فأطلب  
ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حببتك به وهذا بلاء مثلم  
ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء  
رأيتن يتسعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتشخص ويتثنى معهن فنظرت  
إلین نظرة فوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال،  
وقيل لي انظر إلین قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لثلاث أنظر إلین وقلت أعوذ بك  
مما سواك لاحاجة لي بهذا فلم أزل أنصرع حتى صرفهن الله عني. فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي  
أن ينسكرها للؤمن لإفلاسه عن مثلها فالؤمن يؤمن كل واحد الإيماء يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه  
القاسي اضاق بحال الإيمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة  
أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا، ثم  
مكاشفة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحسن المحول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم  
وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق بغض  
عليه نور اليقين ويكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى  
يجري إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت وقيمت وصقلت وصورت  
بصورة للمرأة فنظر للنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو  
لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف الرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك  
غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك  
ونصور من رآه وبشئ المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يتم روايح المكاشفة من  
سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأى شيء بلغت هذه للزلة قال كنت أكره الله  
تعالى حالي معناه أسأله أن يكتم على ويغني أمرى. وروى أنه رأى الحضرة عليه السلام، فقال له  
ادع الله تعالى لي، فقال بسر الله عليك طاعته. قلت: زدني قال وسترها عليك، فقيل معناه  
سترها عن الخلق، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال أقلفني  
الشوق إلى الحضرة عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئا كان أهم الأشياء  
علي. قال فرأيتة فما غلب على همي ولا همي إلا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئا إذا قاتله حجت عن  
قلوب الخليفة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة، فقال قل: اللهم أسبل على كيف

زهدهم في الدنيا  
لهوائها عندهم وعندى  
أن الزهد في الزهد  
غير هذا وإنما الزهد  
في الزهد بالخروج من  
الاختيار في الزهد لأن  
الزاهد اختار الزهد  
وأرادته وإرادته تستند  
إلى علمه وعلمه قاصر  
فاذا أقيم في مقام ترك  
الارادة وانسلخ من  
اختياره. كاشفه الله  
تعالى بمراده فيسترك  
الدنيا بمراد الحق لا بمراد  
نفسه فيكون زهده  
بالله تعالى حينئذ أو  
يعلم أن مراد الله منه  
التأبى بشيء من  
الدنيا فما يدخل بالله  
في شيء من الدنيا  
لا يقص عليه زهده  
فيكون دخوله في

سترك وحط على سرادقات حبيبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خافك قال ثم غاب فلم أراه ولم أشتق إليه بعد ذلك فإزات أقول هذه الكحات في كل يوم فحكي أنه صار بحيث كان يستدل ويعتم حتى كان أهل الدمة يستخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذله وخوله فهكذا حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والعزرون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيافة وفي الشهور بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأني بالإخفاء كما قال تعالى: أوليائي تحت قباني لا يعرفهم غيري ، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه العان القلوب الشكيرة العجيبة بأنفسها المستبشرة بمهلها وعلما وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستعرة ذل نفسا استتعارها إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاة فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع الطبع صفة ذات لئلا هذا القلب يرجي له أن يستشقى مبادئ هذه الروائح فان قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأنه فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤنابهم فمضى أن يحضر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحبة إلا في قاب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها باذلال النفس إلى منتهى الضعة والحق حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجند دعه رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يردّه ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في الرقة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر دمه يدعى فيرمى له عظم فيعود ولورد دنتي خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة ففرت فيها بالصالح فتشقت على قلبي قد دخلت الحمام وعبدت إلى ثياب فاخرة فسرقها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت وجلت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فترعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتى يخاضعهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان اللتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بهر وتحال حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ، ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أغنيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثة سنة وقت ليلا ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء ؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لا تقبله ، قال فاذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيّتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك غلالة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفني صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسيحتها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

النفس من الدنيا بالله  
وباذن منه زهدا  
في الزهد والزاهد  
في الزهد استوى عنده  
وجود الدنيا وعدمها  
إن تركها تركها بالله  
وإن أخذها أخذها  
بالله وهذا هو الزهد في  
الزهد وقد رأينا من  
المعارفين من أقيم في  
هذا القمام . وفوق هذا  
مقام آخر في الزهد وهو  
لمن يرد الحق إليه  
اختياره لسمة علمه  
وطهارة نفسه في مقام  
البقاء في زهد زهدا  
ثالثا ويترك الدنيا بعد  
وأعيدت عليه  
موهوبة ويكون تركه  
الدنيا في هذا المقام  
باختياره واختياره

وما سبعت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتني على غيره فقال ابتدي به هذا قبل كل شيء فقال لا أطيعه قال قد قات لك إنك لا تقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من دأوى نفسه بعد المرض أو لم يعرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات الصحة الإيمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال عليه السلام «لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف» (١) وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أمر الآخرة على الدنيا» (٢) وقال عليه السلام «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاء في باطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له» (٣) وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية» (٤) فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة على وراء الإيمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليه السلام أن يأخذ لحاق من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيء من خلقه وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجهاً وإن قطع بالمشاير لم يجد لس الحديد إلما . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم» (٥) وفي حديث آخر «إن الله تعالى ثلثائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله السخاء» (٦) وقال عليه السلام

من اختيار الحق قد  
يختار تركها حينئذ  
بالأنبياء والصالحين  
ويرى أن أخذها في  
مقام الزهد فرق أدخل  
عليه لموضع ضمه عن  
درك شأوا الأقوياء من  
الأنبياء والصديقين  
فيترك الرفق من الحق  
بالحق للحق وقد يتناولوه  
باختياره رفقا بالنفس  
بتدبير يسوسه فيه  
صريح السلم وهذا  
مقام التصرف لأقوياء  
العارفين زهدوا ثانياً  
بالله كما رغبوا ثانياً بالله  
كما زهدوا أولاً بالله .  
[ قولهم في الصبر ]  
قال سهل: الصبر انتظار  
الفرج من الله وهو  
أفضل الخدمة وأعلاها  
وقال بعضهم: الصبر

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث طي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلى ابن أبي طلحة إجماع مع التابعين ولم أجده أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم الراذى ضعفه ابن ميمى والنسائى ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبرانى في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن طي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى ثلثائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبرانى في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقت بضعة عشر وثلثائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلثائة شريعة وثلاث عشرة شريعة



« رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمني فوضعت في كفة فرجح بهم (١) » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

( خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالهبة ينفع بها )

قال سفيان : الهبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الله كرو قال غيره إظهار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات الهبة فأما نفس الهبة فلم يتعرضوا لها ، وقال بعضهم الهبة معنى من المحبوب فاهر للقلوب عن إدراكه وتمتص الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى الهبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تسكون بموض فاذا زال العوض زالت الهبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكنت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم      حبك بين الحشا مقيم  
بارافع النوم عن جفوني      أنت بما مر بي عليم  
هجيت لمن يقول ذكرت إلي      وهل أنسى فأذكر مانسيت  
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا      ولولا حسن ظني ما حييت  
فأحيا بالمنى وأموت شوقا      فكم أحيا عليك وكم أموت  
شربت الحب كأسا بعد كأس      فما نفذ الشراب وما رويت  
قلبت خياله نصب ليعنى      فان قصرت في نظري عمت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم ممنون يوما في الهبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فأت وقال إبراهيم بن آدم إلهي إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأستنى بذلك كرك وفرغني للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحمق يغدو وروح في لاش والعافل عن عبوبه فناش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إنى لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب الخلقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاة مولاة وقال الشبلي الحب دهش في لذة وعبرة في تعظيم وتبيل المحبة أن تجو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل الهبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص الهبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن الهبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية النيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الإيمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً الحديث متفق عليه وفقد تقدم.

أن تصبر في الصبر  
أى لا تطالع فيه  
الفرج . قال الله تعالى  
والصابرين في البأساء  
والضراء وحين البأس  
أولئك الذين صدقوا  
وأولئك هم الناقون .  
وقيل : اكل شيء  
جوهرو وجوهرا الإنسان  
العقل وجوهرا العقل  
الصبر فالصبر عرك  
النفس وبالعرك تلين  
والصبر جاز في الصابر  
يجرى الأنفاس لأنه  
يحتاج إلى الصبر عن  
كل مذهب ومكروه  
ومذهوم وظاهره وباطنه  
والعلم يدل والصبر  
يقبل ولا تنفع دلالة العلم  
بغير قبول الصبر ومن  
كان العلم سائسه في  
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة الهب على أربع منازل على المحبة والمحبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين الزلتين يقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحصر في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من التبعذات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يساع لأشترته شوقا إلى الله تعالى وحبا لقلته قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أقترأ بعذبي وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم الديرون عنى كيف استظاري لهم ورفق بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما تروا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبي ياداد وهذه إرادتى في الدين عنى فكيف إرادتى في القبلين على ياداد أوحى ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى وقال أبو خالد الصغار لقي نبي من الأنبياء ما بدا فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لنا معشر الأنبياء نعمل عليه أتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلى رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداد ذكركى لذا كرى وجنتى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فطه ومن اشتاق إليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا منى إليك وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداى والرضا غنيقى والمعز غفرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفعى والطاعة حى والجهاد خلقى وقرة عيني فى الصلاة (١) وقال ذوالنون سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الفاذلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض الشايع خرايت فى جبل السكام رجلا أمير اللون ضيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيرانى كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعبوارض والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله اللوفى للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

### ﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

( وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان المؤمنين ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث على سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى الحديث ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الفريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتعامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال وباتصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح ويان ذلك يدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القرابين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فإله إلا الدين الخالص للدين . فإنه أغنى الأغنياء عن شركة الشراكين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[ أما بعد ] قد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعمل والعبادة فالناس كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا العاملون والعاملون كلهم هلكت إلا المحاصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهولانفاق كفاء ومع المصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا - وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب المحاص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [ الباب الأول في النية ] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

### ( بيان فضيلة النية )

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالقعدة والعشى يريدون وجهه - والراديتلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرس ورب قتيل بين الصنفين الله أعلم بنيته (٢) » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهم - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » وإيمانناظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد يعمل أعمالا حسنة فتصعد للملائكة في صحن مائة فتنزل في يد الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بها فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون ياربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لم أعمل فيها في الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخطب بحمله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فيها في الوزر سواء (٥) » ألا ترى كيف شركة بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرس ورب قتيل بين الصنفين الله أعلم بنيته أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عيب الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد يعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنيته : - واصبر واصبركم - وإلا بالله - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبل فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبل وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبل صرخة كاد أن تلتف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موثقا يخيظ السكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معانا قال حبسهم العذر فسر كواجر حسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئا فهو له فهاجر رجل فزوج امرأة منافس كان يسمى مهاجر أم قيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مائتة (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحق تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مركب ثمان من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لتسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن قتل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك. وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدق به، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بعسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيقه وفارقها أزهى ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم السكر والأجير فقال يحشرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل المقتلون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مرأتهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجهه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أحسن مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا وتنطبق بصبره خجلا وذوبانا ويتغيب في مفارز استكاثته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تستحل بصبرتها باستلحاق نور الجلال وكما أن النفس منازعة لمعوم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر

من حديث أبي كبشة الأنباري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصرا وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا فهو له فهاجر رجل فزوج امرأة منافس كان يسمى مهاجر أم قيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار أجدله أصلا في الموصولات وأعمارواه أبو اسحق القرأوى في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مائتة الحديث في حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحق تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو ومضى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجدله في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي مضى (٦) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهى ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجد من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل المقتلون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يبعث المسلمون على النيات ولا ين ماجه من حديث أبي هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه .

هي العليا فهو في سبيل الله <sup>(١)</sup> » وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على مامات عليه <sup>(٢)</sup> » وفي حديث الأنصف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه <sup>(٣)</sup> » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة <sup>(٥)</sup> » .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز أعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن قصت نفس بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يعملون النية للعمل كما تعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لا أحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كماله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تملوها ولكن أصبحوا توابين وأمسون توابين يغفر الله لهم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن نامت ولا نهم بعصية وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ أو ابتلى منكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأوا أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بلوتنا فاضحتنا وهتكت أستاذنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فإن صلاح نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك ، فإذا عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بمائق .

### ( بيان حقيقة النية )

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها <sup>(١)</sup> حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحلق على مراتبهم فلان يقاتل لادنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله <sup>(٢)</sup> حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه رواه مسلم <sup>(٣)</sup> حديث الأنصف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقاتل والمقتول في النار منفق عليه <sup>(٤)</sup> » حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين دون ذكر الصداق <sup>(٥)</sup> حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى ذلك .  
وقال أبو الحسن بن  
سالم هم ثلاثة متصبر  
وصابر وصبار فالمتصبر  
من صبر في الله فرة  
يصبر ومرة يجزع  
والصابر من يصبر في  
الله وقه ولا يجزع  
ولكن تتوقع منه  
الشكوى وقد يمكن  
منه الجزع وأما الصبار  
فذاك الذي صبره في  
الله والله وبالله فهذا لو  
وقع عليه جميع البلايا  
لا يجزع ولا يتغير من  
جهة الوجود والحقيقة  
لأمن جهة الرسم  
والحلقة وإشارته في  
هذا ظهور حكم العلم  
فيه مع ظهور صفة  
الطبيعة . وكان  
الشبلي يمثل بهذين  
البيتين :

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أغنى كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الإنسان ما لا يبطه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار النافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يصبر الغداء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يصبر النار لا يمكنه الحرب منها غفلت الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغداء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغداء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة وللليل ولقد الداعية الحركة إليه غفلت الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعني به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا غفلت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعثة آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الليل فاذا انبعثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالتنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة والانبعاث النفس بحكم الرغبة والليل إلى ماهو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل فالحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد النوي والانبعاث هو المقصد والنية والانبعاث القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاء القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعا في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملبا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهى عاضدا له ومعاون فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الحرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه فانتهت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نية الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خاصة ويسمى العمل بعوجها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقربته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قربته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غنى فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مراقبة للبواعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الهب من  
ألم الشوق

ق وخوف الفراق

يورث ضرا

صابر الصبر فامتثات

به الصبر

ر فصاح الحب للصبر

صبرا

قال جعفر الصادق

رحمه الله أمر الله تعالى

أنبياءه بالصبر وجعل

الحظ الأعلى للرسول

صلى الله عليه وسلم

حيث جعل صبره بالله

لا بنفسه فقال

وما صبرك إلا بالله -

وسئل السري عن

الصبر فتكلم فيه فذهب

على رجله عقرب فجعل

بضربه يابسه فقبل له لم

لا تدفعه ؟ قال أستحي

من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إتهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه التي فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض التناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصديق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فانفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفت عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكامها في نفسها وإنما الحكم للتبوع .

( بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله » )

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيره من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بالنية أو على العقل لاخير فيه أصلا والنية بمجرد خيره وظاهر الترجيح للشركيين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فعناء نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فن قال الخبز خير من الفاكهة فأنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن الغذاء مقصودا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواص ابن سميان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف ما أتاكم فيه . أخبرنا أبو زرعة بإجازة أبي بكر بن خلف بإجازة عن أبي عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغاني يقول سمعت الجنييد رحمه الله يقول إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالآيمان وأكرم الأيمان بالعقل وأكرم العقل بالصبر فالآيمان زين للمؤمن والعقل زين للأيمان والصبر زين العقل وأنشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله :

صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسي لنفسى فخرت

فالطاعات غذاء للقلوب ، والقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى . فالمقصود لذة السعادة بقاء الله قطع ولن ينعم بقاء الله إلا لمن مات عبدا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا لمن عرفه ولن يأنس بربه إلا لمن طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع للعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها كما يميل المائل إلى القصد والحجامة لعله بأن سلامته فيهما ، وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فإن للمواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتطوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميلا في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميلا ورسخ وعسر عليه التزوع وإن خالف مقتضى ميلا ضعف ميلا وانكسر وربما زال وانحرق بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميلا حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على التزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميلا لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الليل ويكون ذلك زبرا ودفا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه ويتقعق وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا والآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بلمه يموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل للنبوع فكانته الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو القصود والأعضاء آلات موصلة إلى القصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد <sup>(١)</sup> » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعي والرعية <sup>(٢)</sup> » وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لاحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يسود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر بالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن للعدة إذا تأملت فقد تدأوى بأن يوضع الظلاء على الصدر وتداوى بالكرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالكرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما يريد به أن يسرى منه الأثر

وجرعها للكروه

حتى تدرجت

ولولم أجرعها إذن

لاشعأزت

ألارب ذلساق للنفس

عزة

ويارب نفس بالتذلل

عزت

إذا ما مدت السكف

ألتس النسي

إلى غير من قال

اسألوني فشلت

سأصبر جهدي إن في

الصبر عزة

وأرضى بدنياي وإن

هي قلت

قال عمر بن عبدالعزيز

رحمه الله : ما أنعم الله

على عبد من نعمة ثم

اتزعه فعاذه مما

اتزعه منه الصبر

إلا كان معاذه خيرا

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث الزمان بن بشير

وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية تقدم ولم أجده .



إلى العدة ، فما يلقى عين العدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ للطلوب منها تغير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه مسح نوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيده الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض للطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كدمه بل زاده شرا فإنه لم يؤكد الصفة للطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة للطلوب فمعها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بمحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاعمال بالعمل يزيد بها تأكيدها فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلك إثباتا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى هنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شركوا في جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فرقهم بالأبدان لموافق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردها في فضيلة النية فأعرضها عليها ليكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة.

### ( بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية )

اعلم أن الأعمال وإن اتسمت أقساما كثيرة من فعل و قول و حر كة وسكون و جلب و دفع و فسر و ذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات. القسم الأول: المعاصي وهي لا تغفر عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن العصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام وقصد الخير فهذا كله جهل بالنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طاب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل الروح لذلك هل القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان سائلا إلى طالب الجاه واستماله قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالسكية باب التعلم فمن يظن بالسكية بنفسه أنه عالم فكيف يعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما انزعجه منه وانشد  
لسمنون :

تجرعت من حاليه  
نعى وأبؤسا

زمانا إذا أجرى عزاليه  
احتسى

فكم غمرة قد جرعتني  
كثوسها

فجرتني من بحر صبري  
أكوسا

تدرت صبري  
والتحفت صروقه

وقلت لنفسي الصبر أو  
قاهلتي أسي

خطوب لوان الشم  
زاحم خطبها

لساخت ولم تدرك لها  
الكف ملسا

[ قولهم في الفقر ] قال  
ابن الجلاء : الفقر أن

لا يكون لك فاذا كان  
لك لا يكون لك حتى

فان من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكسب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمصيبة عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعليم ، وقد قال الله سبحانه - فاستلوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه <sup>(١)</sup> » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للفسهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على مباراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فان هؤلاء إذا تعلموا كانوا ناطع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى العلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألني سنو طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعماله هو في الفساد فالمصيبة منه لا منى وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإعنا حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلمو العلم بحسن ذلك في قلبه والشیطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عن وهب سيقا من قاطع طريق وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجلية وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الخيل والرباط والقوة للقراءة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو المعاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء <sup>(٢)</sup> » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم يجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمد به غيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد تعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدينه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله ينفقون أحوالهم بتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيراً في نقل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاء عن تعليمه لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل . حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو

نؤثر . وقال الكتاني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح النفي بالله تعالى لأنهم أحالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر . وقال النوري : نعمت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند الوجود . وقال الدراج فتشيت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فنجرت ، فلما جاء قلت له : إني وجدت في كنفك هذه القطعة . قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئاً فقلت : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال ما رزقني

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

لا يذكره حتى قال بلغنى أنك طيبت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو  
أعملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فمكثا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا  
وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيبة والأحكام الواسعة وأصحاب  
اللسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التى لا تشتمل على التحذير من الدنيا  
والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء إليها بل هى العلوم التى تتعاقب بالخلق ويتوصل بها إلى جمع  
الخطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يختص  
من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب  
معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا ، نعم لنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف  
إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وتظم وبالحا كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة . القسم الثانى الطاعات  
وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى  
لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة  
يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل  
حسنة عشر أمثالها (١) كما ورد به الخبر ومثاله القعود فى المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات  
كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات القربين أو لما أن يعتقد أنه بيت الله  
وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال  
«من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زائره» (٢) وثانيها أن ينتظر الصلاة  
بعد الصلاة فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى - ورابطوا - . وثالثها الترهيب  
بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فإن الاعتكاف كفه وهو فى معنى الصوم وهو  
نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمى القمود فى المساجد» (٣) ورابعها  
عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاغترال إلى المسجد  
وخامسها التجرد لذكر الله أولا استماع ذكره وللتذكر به كما روى فى الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر  
الله تعالى أو يذكره كان كالحجاهد فى سبيل الله تعالى» (٤) وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف  
ونهى عن منكر إذ المسجد لا يخلو عن منسى فى صلواته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف وينهى  
إلى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يعلم منه فتضاعف خيراته . وسابعها أن يستفيد أخا  
فى الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله . وثامنها  
أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله ما يقتضى هتك الحرمه ،  
وقد قال الحسن بن على رضى الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع  
خصال أخا مستفادا فى الله أو رحمة مستنزلة أو علما مستظرفا أو كلفة تدل على هدى أو تصرفه

الله تعالى من الدنيا  
صفراء ولا يضاء  
غيرها فأردت أن  
أوصى أن تشد فى كفى  
فأردها إلى الله وقال  
ابراهيم الخواص الفقر  
رداء الشرف ولباس  
المسلمين وجلياب  
الصالحين . وسئل  
سهل بن عبد الله عن  
الفقر الصادق فقال  
لا يسأل ولا يرد ولا  
يعبس . وقال أبو على  
الروذبارى رحمه الله  
سألتى الزقاق فقال  
يا أبا على لم ترك الفقراء  
أخذ البلغة فى وقت  
الحاجة قال قلت لأنهم  
مستغنون بالمعطى عن  
العطايا قال نعم ولكن  
وقع لى شئ آخر فقلت  
هات أفدنى ما وقع لك

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى  
وحق على الزور إكرام زائره ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان والبيهقى فى الشعب نحوه من  
رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدم فى الصلاة (٣) حديث رهبانية أمى القمود  
فى المساجد لم أجده أصلا (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكره كان كالحجاهد فى سبيل  
الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه فى جزء ابن طوق وللطبرانى فى الكبير من حديث  
أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجة أو ساند جدد  
وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح

عن ردى أو يترك الذنوب خشية أوحيا فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمر له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] يوم ما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فلما أعظم خسران من يفعل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا يذنبى أن يستحق العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللاخطات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده بهذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب» (١) وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه» (٢) وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغيره الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنث من الحيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية . فان قلت لما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . قاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الأوقات يتصور أن يقصد التمتع بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرته المال ليجسده الأقران أو يقصد به رياء الخلق أو يقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلا للنظر إليهن ولأموار آخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فذلك يكون أنث من الحيفة فى القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتمتع فان ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعمل ما يغنى ويغنى زيادة نعيم لا يغنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٣) وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا بطيب الرائحة وأن يقصده ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤذى إلى إيذاء مخالطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة عن الغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل: إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفرقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزبد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريح مزاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبية على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعيم الدنيالى لم تحضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ بن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجده له إسنادا (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبوداود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته وفى إسناده اختلاف وفى الصحيحين أن عمر رأى حلة سراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يرم الجمعة الحديث .

قال لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ الله فاقهم ولا تنضمهم الفاقة إذ الله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال السوحي الفقير الذى لا تغنيه النعم ولا تفقره الحن . وقال يحيى بن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله ورحمه عدم الأسباب كلها وقال أبو بكر الطوسى بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أمهاتنا لهذا الفقر على سائر الأشياء فلم يجبني أحد بجواب يقنعنى حتى سألت نصر بن الحامى فقال لى لأنه أولى منزل من منازل

وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء  
والباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من  
السلف إنني لأستعجب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل شئ وشرب شئ ونومى ودخولى إلى الخلاء  
وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من  
مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه  
وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نيل صالح يصعد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان  
طيبا بأكله ونسكاه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممنوع لمن غلب  
على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله وإذا بلغه  
اغتيال غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستقل إلى ديوانه حسناته ولنيز ذلك بسكوته عن  
الجواب في الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من  
الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه  
أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلوك (١) » وفي الخبر « إن العبد لو وافى القيامة بحسنات أمثال الجبال  
لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فاقص له ذامن حسناته ولهذا من  
حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه  
من سيئاتهم ثم صكوا له صكا إلى النار (٢) » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق رشتا من حركاتك فلا تحترز  
من غرورها وشروورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد بما يلفظ  
من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربيه من حائط جارلي فتخرجت  
ثم قلت تراب وما تراب قربة فتفتى بي هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدامن سوء الحساب  
وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوءه فسأله عن ذلك  
فقال إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة  
فيقول يبي وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت ابنة من حائطى وأخذت خيطا من  
نوبي فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فإن كنت من أولى العزم والنهي ولم تكن من اللغتين  
فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن  
ولا تتحرك ما لم تأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك  
من الآخرة وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأعرض عزمك وما خطر  
ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدله من نية  
صحبة فلا ينبغي أن يكون الداعى هو الذى لا يطلع عليه ولا يفرك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات  
وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراض قد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل  
فى حائط بالطين وكان أجيرا لقوم قدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من  
الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور  
الدبلى فى مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوى مختصرا إن العبد  
ليلقى كتابه يوم القيامة منتقرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعلمها فيقال بما  
اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد لو وافى القيامة بحسنات أمثال  
الجبال وفيه ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد فقصمت بذلك  
وسئل ابن الجلاء عن  
الفقر فكنت حتى صلى  
ثم ذهب ورجع ثم قال  
إنى لم أسكت إلا لدرهم  
كان عندى فذهبت  
فأخرجته واستحييت  
من الله تعالى أن أتكلم  
فى الفقر وعنذى ذلك  
ثم جلس وتكلم .  
قال أبو بكر بن  
طاهر عن حكم الفقير  
أن لا يكون له رغبة  
فإن كان ولا بد لا تجاوز  
رغبته كفايته . قال  
فارس قلت لبعض  
الفقراء مرة وعليه أثر  
الجوع والضر لم لا تسأل  
فيطعموك ؟ فقال إنى  
أخاف أن أسألهم  
فيمنعونى فلا يفلحون  
وأنشد بعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتمجّبوا منه لما علموا من سخائهم وزهدهم وظنوا أن الخير في طلب الساعة في الطعام فقال إني أعمل تقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لا تقوى به على عملهم فلوأ كلتم معنى لم يكفكم ولم يكفى وضعت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع القرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلني حتى لقي أصابه ثم قال لولا آي أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما بكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدر ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار .

( بيان أن النية غير داخلية تحت الاختيار )

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكبيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمنزلة من جميع ذلك وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبان نويت أن أشهى الطعام وأميل إليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبثق النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا توجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد قائما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوراف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال وبالأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعثة إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التنبؤ وغيره فإذا فعل ذلك ربما انبثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فإذا اتهمته القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان أو يافان لم يكن كذلك فليقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري فقالت أجيء بالمرأة فسكت ساعت ثم قال نعم قفيل له في ذلك فقال كان لي في المدري نية

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه  
قلت خاخصة ساق  
عبد الجرجا  
فقر وصبرهما ثوبان  
تحتهما  
قلب يرى ربه الأعياد  
والجمعا  
أحرى اللابس أن تلقى  
الحبيب به  
يوم التزاور في التوب  
الذي حلما  
الدهر لي مأنم إن غبت  
يا أملي  
والعيد مادمت لي  
مرأى ومستعما .  
[ قولهم في الشكر ]  
قال بعضهم الشكر  
هو الغيبة عن النعمة  
برؤية النعم . وقال  
يحيى بن معاذ الرازي  
لست بشاكر مادمت  
تشكر وغاية الشكر

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

ولم تحضرني في للرأية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة قيل للشورى ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عما من أعمال البر يقول إن رزقني الله تعالى نية فقلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث ولا يسأل فيبدي قبيلا في ذلك قال أنتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرته نية فقلت. وحكي أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد فصفاورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فأنظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فاستغفرت قال أحمد فردته على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجده نية. وقال بعضهم أنا في طاب نية لزيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه المشاء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعث القلب يحرك مجرى الفروع من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في القرض إلا بمجهود وجهه وقيامه أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعم الجنة ويرغب نفسه فيها فرجما تنبث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيتته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويمر على بساط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى اللوعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فانها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جبالها وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعم وفي الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتممون بالنظر إلى وجه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتمم بالنظر إلى الحور العين مما يتمم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإقالتها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فانها لا تنظر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لا تحسنت عقل من يلتفت إليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم -

التحيز وذلك أن  
الشكر نعمة من  
الله يجب الشكر  
عليها وفي أخبار داود  
عليه السلام إلهي  
كيف أشكرك وأنا  
لا أستطيع أن  
أشكرك إلا بنعمة  
ثانية من نعمك فأوحى  
الله إليه إذا عرفت  
هذا فقد شكرتني  
ومعنى الشكر في اللغة  
هو الكشف والانتهاز  
يقال شكر وكشر  
إذا كشف عن قعر  
وأظهره فكشر النعم  
وذكرها وتصادها  
بالسان من الشكر  
وباطن الشكر أن  
تستعين بالنعم على  
الطاعة ولا تستعين بها  
على المعصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون من الجنة إلا أبا يزيد فان يطلبنى ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلى . ورؤى السبلى بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطلبنى على الدعوى بالبرهان إلا على قوله واحد قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فاقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة المباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه بقصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبت نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفساعة بلم ووحدث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشئ من الله فيكون ذلك عوناً لى على الحق وقال على كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا كرهت عمت وهذه دقائق لا يدركها إلا بحساسة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستعبده القاصر في الطلب وإنما ينتفى به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالصدوا الحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجازاً ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويؤليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيسكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستعملها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمحل إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا لا تعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمهما لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

### (الباب الثانى فى الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - ألا لله الدين الخالص - وقال تعالى - ألا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - وقال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً - نزلت فيمن يعمل لله ويجب أن يعبد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله <sup>(١)</sup> » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « ظن أبى أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائهم وإخلاصهم وصلاتهم <sup>(٢)</sup> » وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

### (الباب الثانى فى الاخلاص)

(١) حديث ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذى ومحمد بن حنبل والنعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم وإخلاصهم روى النسائى وهو عند البخارى بلفظ هل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

الزعمة . وصممت شيخنا رحمه الله ينتد عن بعضهم : أوليتى نعماً أبوح بشكرها وكفيتى كل الأمور بأسرها فلا شكرتك ما حيت وإن أمت فلتشكرتك أعظمى فى قبرها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصر وأعطى ف شكر وظلم ففقر وظلم فاستغفر » قيل فما باله قال « أولئك



أحببت من عبادي (١) « وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لاتبهوا لفظة العمل واهتموا بالعمل فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل يحرك منه القليل (٢)» وقال عليه «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه (٣)» وقال عليه السلام «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله ما لا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أنصدق به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتل فيقول الله كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله ﷺ على غندي وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسمعون جهنم بهم يوم القيامة (٤)» فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكي حتى كادت نفسه تزحف ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وفي الأسرار ليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحلك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذلك تركت عبادتك واشتغلتك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذته العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلعتني حتى أكلت قدام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولوشاء بعبادهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فإذا به لاقتال فقلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فجزئ إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنشع قال وما هو قال أطلعتني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لاشئ لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودنته قلب من أحببت من عبادي رويته في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواه سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء المجيعي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل يحرك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم.

لهم الأمن وهم مهتدون . وقال الجليلي فرض الشكر الاعتراف بالنعمة بالقلب واللسان . وفي الحديث «أفضل الذكر لإله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» . وقال بعضهم في قوله تعالى - وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - قال الظاهرة العوافي والغي والباطنة البسلاوي والفقر فان هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء . وحقبة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعمًا غير ما يضره في دينه لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئًا إلا أوهو نعمة في حقه فإما عجلة

وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينار بن عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيراث فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالمصفور بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال لتبين عن هذا الأمر أولاً فغلبتك فأنظر العابد فاذا لاطاقة له به قال يا هذا غلبتني غلتي غني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله فلهذه المرة غضبت لنفسك وللدينا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالأخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن سحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأعمري : من خلعت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص الية في أعمالك بكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخلّص النيات على العمل أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . وروى بعضهم في التمام قليل له كيف وجدت : عمالك ؟ فقال كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسان وكان في قلنسوة خيط من حرير فرأيتها في كفة السيئات وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فمارأيتها له ثواباً فقلت موت سنور في كفة الحسان وموت حمار ليس فيها قليل لي إنه قد وجه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجره فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسنتك . وفي رواية قال وكنت قد صدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لأعلى ولألى . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من القث والهم ، وقيل كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى تنقش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالأخلاص وقال إن نجوت من هذه القضية لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدال فسار به بشي فقال أبو عبيد لا ، فمر كالمسحاح يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك ؟ فقال سألتني أن أحج معك فقلت لا قلت فملا فقلت ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد زويت أن أتم هذه الأرض العتية فأخاف إن حججت معه لأجله تهرضت لمقت الله تعالى لأنني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حبة . وروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فمرض بضنا حملاً فقلت اشتريها فأتفّع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعثها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك اليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الفزاة فأملى عليه خرج فلان منزها وفلان مرأيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت

يرفها ويغفها وإما آجلة بما يقضى له من المكارة فاما أن تكون درجة له أو تمجيصاً أو تكفيراً فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر .

[قولهم في الخوف]  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة مخافة الله» وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «كان داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضاً وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياة منه» قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من

الله في أمرى ماخرجت أنجر وما منى تجارة أنجر فيها ماخرجت إلا للزوفقال باشيخ قد اشتريت  
أمس حجلة تريد أن تبيع فيها فبكيت وقلت لا تسكتبوني تاجرأ فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال  
اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه حجلة ليربع فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى.  
وقال سرى السطةطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تسكتب  
سبعين حديثا أو سبعائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نحاة الأبد ولكن الاخلاص عزيز  
ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أنقض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه  
ثلاثا أعطاه محبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه  
الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط . وقال  
الجنيد : إن لله عبادا عقلوا فلما عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب  
البر أجمع . وقال محمد بن سعيد الروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له  
فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سمعت بهذين وفزت في الدارين .

### ( بيان حقيقة الاخلاص )

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل  
الصفى الخالص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فرت ودم لنا خالصا سائغا للشاربين - فاعلموا خلوص  
اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرت ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده  
الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشريك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك  
في الإلهية والشريك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب  
فمحله القلب وإنما يكون ذلك في التصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة  
البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد مسمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى النوى  
فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخاص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص  
ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب  
كما أن الاتحاد عبارة عن البيل ولكن خصصته العادة بالبيل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء  
فهو معرض للهلاك وإنما تتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع الماهلكات  
وأقل أموره ماورد في الخبر من « إن المرأى يدعى يوم القيامة بأربع أسماء بامرأى يا عبادع يا مشرك  
يا كافر (١) » وإنما تتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن أمتزج بهذا الباعث باعث آخر  
إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحلمة الحاصلة بالصوم مع  
قصد التقرب أو يستق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصبح مزاجه بحركة السفر  
أو يتخلص من شر يعرض له في بلد أو ليهرب عن عدوله في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو يشغل  
هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليفزو ولجارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيفه  
العساكر وجرحها أو صلى بالليل وله غرض في دفع الناس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتم  
العلم ليسهل عليه طلب ما يكتفيه من المال أو ليكون عزيزا بين المشركين أو ليكون عقاره أو ماله محروسا  
بمن العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدريس والوعظ ليتخلص عن كرب الصحة ويتفرج بلذة الحديث  
أو تسكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرقة عندهم وعند الناس أو لينال برفقا في الدنيا

(١) حديث إن المرأى يدعى يوم القيامة بامرأى يا عبادع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة  
والاخلاص وقد تهدم .

نفسه أكثر مما يخاف  
من الشيطان . وقال  
بعضهم ليس الخائف  
من بيكى ويمسح  
عينه ولكن الخائف  
التارك ما يخاف أن  
يغضب عليه . وقيل  
الخائف الذى لا يخاف  
غير الله قيل أى  
لا يخاف لنفسه إنما  
يخاف إجلالا له  
والخوف للنفس خوف  
العقوبة . وقال سهل  
الخوف ذكر والرجاء  
أنهى أى منهما تتولد  
حقائق الإيمان . قال  
الله تعالى - ولقد  
وصينا الذين أوتوا  
الكتاب من قبلكم  
وإياكم أن اتقوا  
الله - . قل هذه الآية  
قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفاً ليجود باللواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء أو تواضاً  
ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلوم الاستناد أو اعتكف في المسجد  
ليخف كراء السكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله  
الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود من رضا العباد إذا مرض  
أو يشيع جنازة ليشيع جنازة أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويدكر به وينظر إليه بعين  
الصلاح والوفاء فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى والسكن انضاف إليه خطرة من هذه  
الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج  
عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»  
وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويعيل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق  
إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما  
ينفك فقل من أماله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك  
فيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب  
عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا يباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ  
إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيها إذا كان القصد  
الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة المواقفة أو في  
رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث  
الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخلص العمل  
عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا  
لا يتصور إلا من يحب الله مستمراً بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى  
لا ينجب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجلبة  
فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج  
إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلقاً باعده  
لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان  
خالص العمل صحيح الية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلاً حتى يرجع - ليتقوى على العبادة بعده  
كان نومه عبادة وكان له درجة الخاصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود  
عليه إلا على الدور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتمت حركاته الاعتيادية صفة همه  
وصارت إخلاصاً فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله فقد اكتمت جميع  
حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً فإذا نزل علاج الاخلاص كسر  
حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد الآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا تيسر  
الاخلاص وكمن أعمال يتعب الإنسان فيها وبظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مفروراً لأنه لا يرى  
وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول  
لأنى تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى في الصف الثانى  
فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرئى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق  
غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى والفائفون عنه يرون حسناتهم كلها فى  
الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .  
وقيل إن الله تعالى جمع  
للخائفين مافرقه على  
الؤمنين وهو الهدى  
والرحمة والعلم  
والرضوان فقال تعالى  
- هدى ورحمة للذين  
هم لربهم يرهبون -  
وقال - إنما يخشى الله  
من عباده العلماء -  
وقال - رضى الله عنهم  
ورضوا عنه ذلك لمن  
خشى ربه - . وقال  
سهل كالإيمان بالعالم  
وكالعلم بالخوف .  
وقال أيضاً: العلم كعب  
الإيمان والخوف  
كعب المعرفة . وقال  
ذوالنون: لا يسقى المحب  
كأس المحبة إلا من بعد  
أن ينضج الخوف قلبه .  
وقال فضيل بن عياض

وبقوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وأشدّ الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فإن الباطن كثيرين على نشر العلم لذة الاستبلاء والفرح بالاستبصار والاعتبار بالحمد والثناء والشهادة للشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسره من نصرة الدين ولو ظهر من أفرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يغلبه ويقول إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا انصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت الثابت واغتمامك لقوات الثواب محمود ولا يدرى السكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده ، وليست شعري لو اعتمدت عمر رضى الله عنه بتصدع أبي بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة أ كان غمه محمودا ومذموما ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصح منه أعود عليه في الدين من تكلفه بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد يتخذه بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فإن النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يبق بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحناتها ، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد القدر وهو المستثنى في قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - فليكن العبد شديد التقدير والراقة لهذه الدقائق وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر.

### ( بيان أقوال الشيوخ في الإخلاص )

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ماصفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالفرض وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعباد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لدوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

إذا قيل لك تخاف الله  
اسكت فانك إن قلت لا  
كفرت وإن قلت نعم  
كذبت فليس وصفك  
وصف من يخاف .  
[قولهم في الرجاء] قال  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول الله  
عز وجل أخرجوا من  
النار من كان في قلبه  
مثقال حبة من خردل  
من إيمان ثم يقول  
وعزنى وجسالى  
لأجعل من آمن بي  
من ساعة من ليل  
أو نهار كمن لا يؤمن  
بي . قيل « جاء أعرابي  
إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال من يلى  
حساب الخلق ؟ فقال  
الله تبارك وتعالى قال  
هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشوائب الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعمد الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء نوعون عوام في من لفظة الطاعة والناجاة وملزمة الشهود للحضرة الإلهية سرّا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقاقه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط وذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : ما استر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة قد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الخواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمد عليه أحد وهذا أيضا تمرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص . وقال الجليل : الاخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحفظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة . ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي يان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الاخلاص قال : أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

( بيان درجات الشوائب والآفات المكذرة للاخلاص )

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضئيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلي مهم ، من مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتابك فتخضع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يغني ذلك على البتدين من الريدين . الدرجة الثانية يكون المرید قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخبر ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فمساء يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذی وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفی قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به قال قل ربّي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فتبسم الأعرجي فقال النبي صلى الله عليه وسلم م ضحككت يا أعرجي ؟ فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح . وقال شاه الكرمانی : علامة الرجاء حسن الطاعة . وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجلال . وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب . قال أبو طي الروذباري : الخشوف والرجاء يجذبا الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه . قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو . قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم  
لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا بعض التلبس  
بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما  
عذا فمحض النفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويقاب على إظهاره  
من نفسه مالم يسبغ به . الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد  
الشیطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمجاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون  
صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا  
رائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ويصلي في الملأ  
أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد  
فرق بينها فالفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة  
الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي  
من نفسه أن يكون في صورة للرأين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلوة وللأوهيات  
بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملا جميعا وهذا من شخص  
مشغول بهم بالخلق في الملأ والخلأ جميعا وهذا من السكايد الخفية للشیطان . الدرجة الرابعة هي أدق  
وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف  
أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه  
واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه ويظن أن  
ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والحداع فان خشوعه لو كان نظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة  
تلازمه في الخلوة ولما كان لا يغمض حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون  
هذا الخاطر مما يألوه في الخلوة كما يألوه في الملأ لا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون  
حضور البهيمة سببا لما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن  
صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب  
الخمالة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من  
دق نظره وسعد بصحة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى  
لا ينفصل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب  
وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لا يرتبط بنظر  
الخلق بها ولا ستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تحركها  
وتكون ابتعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شواها يخرج عن حد الاخلاص  
بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجده مودع نظيف حسن  
العمارة بأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكره عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك  
الحفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد  
المجدين أو أحد للوضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشواهب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الخمالة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة

تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف اللؤم  
ورجاء لا اعتدلا .  
والخوف والرجاء  
للإيمان كالجناحين  
ولا يكون خافها إلا  
وهو راج ولا راجيا  
إلا وهو خائف لأن  
موجب الخوف الإيمان  
وبالإيمان رجاء  
وموجب الرجاء الإيمان  
ومن الإيمان خوف  
ولهذا للعق روي  
عن لقمان أنه قال  
لابنه خف الله تعالى  
خوفا لا تأمن فيه  
مكره وارجه أشد من  
خوفك ، قال فكيف  
أستطيع ذلك وإني  
لن قلب واحد ؟ قال  
أما علمت أن اللؤم  
لقدو قلبين يخاف  
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري النفس الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش القاب ودغل الشيطان وخبت النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدنار الموهو واستدارته وهو مفشوش زائف في نفسه وقبراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر القبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات التطرفة إلى ذنوب الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والظن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

### ( بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به )

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس قد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب العقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تغلوا الأخبار عن تعارض فيه والذي يتقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأثير صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وقته وداعية الخير من النجيات وإنما قوتها بالعمل على وقعتها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالتضرر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يغلب الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة

بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان . [ قولهم في التوكل ] قال السري : التوكل الانخلاع من الحول والقوة . وقال الجنيد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وفقا غير التوكل فانه وجه بلا تفا قال بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال - وعلى الله فتوكلوا وإن كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال لنبية - ونوكل على الحى الذى لا يموت - وقال

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تغلوا الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتحم الأجر والدكر ماله فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتنى به وجهه وللمزمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجزان أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .



من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يصيب منال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إثارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء ما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا قد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل بما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض غفيه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما اشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب. وما عدى أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تسكر فيها القنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والزعج القوي هو إغلاء كلمة الله تعالى وإتمام الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة. فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر المحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يعمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا -» (٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره ممن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل على عملا فلا يشرك معي غيره ودعت نصيبى لشريكى» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون تدملا دفق راحته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له» (٦) فتقول هذه الأحاديث لاتناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعبد من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يعمد ويؤجر فنزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسل وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله (٥) حديث أنس بن موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

فوالثوب: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة. وقال أبو بكر الرقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد. وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق القاعة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره. وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه ويسف الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله. وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركه حيث ورد فمطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجح عليه ثواب ثم إن الإنسان عند الشركه أبدا في خطر فانه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاولئك قال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أى لا يرجح لقاء مع الشركه التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص فى الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث ترضيه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنمة وقدر على غزوطا فنتين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لا علماء كلمة الله والغبطة لا ثواب له على غزوه ألبته ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج فى الدين ومداخل للبأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا بالندور فيكون تأثير هذا فى حصان الثواب فأما أن يكون فى إحباطه فلا نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الخط النفسى وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من نوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال مفيان رحمه الله لأعتد بما ظهر من عملى وقال عبدالعزيز بن أبي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولاهلى ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسعيد الحارثي ويخف فى أعماله فكلم أبو سعيد فى الاخلاص يوما يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يفتنه دقا به عند كل حركة ويطلبه بالاخلاص فمذمر عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بطلالته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الاخلاص فما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث فى الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهتدى إلى البر والبر يهتدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإن الكذب يهتدى إلى الفجور والفجور يهتدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (١) ويكنى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال - واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً - وقال - واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً - وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال جرير بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث فى الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهتدى إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

حكيت بين يدي  
الفاصل يقبضه كيف أراد  
ولا يكون له حركة  
ولاندير وقال حمدون  
القصار : التوكل هو  
الاعتماد بالله . وقال  
سهل أيضا : العلم كله باب  
من التمسك والتعبد كله  
باب من الورع والورع  
كله باب من الزهد  
والزهد كله باب من  
التوكل . وقال :  
التقوى واليقين مثل  
كفك اليزان والتوكل  
لسانه به تعرف الزيادة  
والانقصان ويقع لى أن  
اتوكل على قدر العلم  
بلوكل فكل من كان  
أتم معرفة كان أتم  
توكلا ومن كل توكله  
فأب فى رؤية الوكيل  
عن رؤية توكله ثم إن

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام قلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل قلت له أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا قال الصدق وأصبح متوجه به الكذب . وقال أبو سليمان أجمل الصدق مطبتك والحق سيفك والله تعالى غايه طلبتك . وقال رجل للحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن طي السكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياد اود من صدقي في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فالله تعالى ينجه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والمطاء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب الطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل مجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها . لاكثر أنفع من العلم ولا مال أربح من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أسمى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قهر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد الروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة يديك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقيت من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعواوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة قليل زدنا فقال التقي والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق<sup>(١)</sup>» وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم- قال بسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

( بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراقبه )

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والأرادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن انصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبئ عليه والخبر إيمان بتعلق الماضي أو بالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة للمعرفة فبصرف العلم بالعدل في القسمة وإن الأقسام نصبت بأزاء للقسوم لهم عدلا وموازنة فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل ما أحس بشيء يقدر في توحيده يراه من منبع النفس فقصاص التوكل يظهر بظهور النفس وكاله ينبت بضية النفس وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإنما شغلهم في تضييب النفس بتقوية مواد القلب فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر إليه وكلا تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبيد أن يحفظ ألفاظه فلا ينكسروا إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن المعارض فصدق قيل في المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار تلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويتقضيه الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد لداته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره (١) وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نهي خيرا» (٢) ورخص في النطق على رفق المصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناسب بها ربه كقوله - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله - إياك نعبد وإياك نستعين - إذا ما تصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طوّل يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لم يجز عن تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تعبد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة» (٣) فسمى كل من تعبد قلبه بشيء عبدا له وإتباع العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لحقت فيه العبودية لله فدخله الله وبعبته وتقيد بآطئه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقتنع بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتفي إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبت عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعنت عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه ابتلاه رضى لم يبق فيه متع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كاليت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تعس عبد الدينار الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيقلب وجود الحق الأعيان والأركان ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا التوكل ما يقصد في توكل الضمء في التوكل من وجود الأسباب والوسائل لأنه يرى الأسباب مواتا لا حياة لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة [فولهم في الرضا] قال الحرف الرضا ضكون

لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده مولاه لانه هذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبمدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثماني : في النية والأرادة ويرجع ذلك إلى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كإروينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال فمات كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يتقدم يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مختصا . الصدق الثالث : صدق العزم فان الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعة أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتل وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خالق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لقائل شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضئيفة فقد بطل الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصاديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم الصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أعدم فاضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فهم أبوبكر رضي الله عنه تامة لأنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه وكذلك بما ذكره من القتل . ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبوبكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق . الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فإذا حققت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فتشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أباهمرو إلى أين فقال واهلج الجنة إني أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جده وضع وثمانون مائين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا بيناته ، فنزلت هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (٢) . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت تقدم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

القلب تحت جريان الحكم وقال ذوانون الرضا سرور القلب عبر القضاء . وقال سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحي أن تطلب رضا من است عنه براض فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى فقالت إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة . وقال سهل إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة - فطوبى لهم وحسن مآب - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا» وقال عليه السلام «إن الله

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أثناء سهم عاتر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملا من الناس فعود قتالا إن رزقنا الله تعالى مالاً لندفن فجلوا به فزلت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو نبى نووه فى أنفسهم لم يشكروا به قتل - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله غلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسح عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التحكك وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يثقل عليا ذلك فتخبر عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخراز رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فتالاه ما لصدق قلت الوفاء بالعهود فقال لى صدقت وعرجا إلى السماء الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء لأن للرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن أعراها خوفه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مراثيا إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلاية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر وليس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذن مخالفة الظاهر لباطن إن كانت عن قصد سميت رياء وبغوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيغوث

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثلاثون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسل (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمحبة كالحوف والرجاء فانهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة . وقال ابن عطاء الرضا مكون القلب إلى قدیم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فبرضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس بال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحة » (١) وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريره أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريره فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه الردود لا يقتضى الثنا

للدنيا في قلبه مقدار.

وقال السري : خمس

من أخلاق القربين

الرضا عن الله فيما يحب

النفس وتكفره

والحب لله بالحب

إليه والحياء من الله

والأنس به والوحشة

مما سواه. وقال الفضيل

الراضي لا يتحنى فوق

منزله شيئا وقال ابن

سمعون الرضا بالحق

والرضا له والرضا عنه

فالرضا به مدبرا ومختارا

والرضا عنه قاما

ومعطيا والرضا له إلها

وربا . سئل أبو سعيد

هل يجوز أن يكون

العبد راضيا ساخطا قال

نعم يجوز أن يكون

راضيا عن ربه ساخطا

على نفسه وعلى كل قاطع

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا واقمت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة بقوله هذا عبدي حقا . وقال معاوية بن مرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أشمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الراهد يقول إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالحيانة ويكي ، وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبادي تنطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته متى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى - إنا المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقبله سألناك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية (٢) » ولنضرب للخوف مثلا فلما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرسه ويتنخم عليه عبسه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفا من مدرك المهدور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان نصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها (٣) » فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه اللقائات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبده منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى فإذا قوى مسمى صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرتى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق بيني وجوانب السماء فوق النبي ﷺ مغشيا عليه فأفاق وقد عاد

(١) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألت عن الإيمان فقرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - رواه محمد بن نصر للروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده إسنادا .  
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم .

جبريل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لملئ كاهله وإن رجله قد مرقنا تحت نخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوضع (١) ۝ يعنى كالصغير، فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والمهية حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى (٢) ۝ يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا يلبثوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حقى في دين الله . وقال مطرف مامن الناس أحد إلا وهو أحقق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير (٣) ۝ فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزز ثم درجات الصدق لانهايتها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن أقوى وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت حدثت نفسى حتى أفرغ منها ولا شيت جنازة حدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقتها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن السيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة وآتوا الجناز ولم يلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لاتعرض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد عامة للؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والوزع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتباكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبدا ابتليته بيلابا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيا وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذته ولا أبالى فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها . ثم كتاب الصدق والاحلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحد لله .

يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحمه الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التى اختار الله له وقال على رضى الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال . وقال يحيى رجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فعل منه بك وفعل

- (١) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التى هي صورتك فقال لا تطيق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا الذى ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (٢) حديث مرت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيدى ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل (٣) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجده أصلا في حديث مرفوع .



## ﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

( وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يهرب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على التقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت التفضل بقبول طاعات العباد وإن سفرت التطول بالغفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما محاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها للزجاة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمة الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت بنبهات فضله انسمت القلوب للإيمان وانشرحت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأذبت وبمحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكاييد الشيطان واندفعت وبلطيف عنايته ترجع كفة الحسنات إذا قتل وبتييسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه العطاء والجزاء والاباء والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

[ أما بعد ] قد قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يبعثهم الله جميعا فلينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - وقال تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الأثام من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات والاحتفات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي في القيامة حاسبه وحضر عند السؤال جوابه وحسن من قلبه وما به ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفانه وقادته إلى الحزى ولقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والرابطة فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا صبروا وصبروا واورابطوا - فربطوا أنفسهم أولا بالمشاركة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في المراقبة مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقة فضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الحسبان للمعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

( المقام الأول من الرابطة المراقبة )

اعلم أن مطاب للتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكان التاجر

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

منك له قرضي بما  
عمل وتخلص فيما تعمل  
وقال بعضهم الراعي  
من لم يندم على قامت  
من الدنيا ولم يتأسف  
عليها . وقيل ليحي  
ابن معاذ يبلغ البعد  
إلى مقام الرضا قال إذا  
أقام نفسي على أربعة  
أصول فيما يعامل به يقول  
إن أعطيني قبلت  
وإن منعتني رزيت  
وإن تركتني عبت  
وإن دعوتني أجبت  
وقال الشبلي رحمه الله  
بين يدي الجنيد لا حول  
ولا قوة إلا بالله . قال  
الجنيد قولك ذائق  
صدر فقال صدقت قال  
فضيق الصدر ترك  
الرضا بالقضاء وهذا  
إنما قاله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما  
مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أفلح من زكاها وقد خاب من  
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستخرجها  
فيها بزكيا كما يستعين التاجر بشريكه وغلामه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا  
يحاذيه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويحاسبه أوجابته رابعا فكذلك  
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويحصر عليها الشروط ويرشدها إلى  
طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يربحها  
إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجؤ واتهم بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن  
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرطت عليها فان هذه تجارة ربحتها الفردوس الأعلى وبلوغ سدره للتسبي  
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها  
محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت قصيرها إلى التصرم والاقتضاء ولا خير في خير لا يدوم بل  
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح باقيا وقطاعة دائما وقد انقضى  
الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل :

أشد النعم عندى في مرور تبين عنه صاحبه استقلال

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها  
وسكناتها وخطواتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها يمكن أن  
يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فاقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى  
ما يحب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة  
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك  
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا العمر ومهما فى فقد فى رأس المال  
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أهملنى الله فيه وأنسى فى أجلى وأنعم على  
به ولو توفانى لسكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا لحاسبى أنك قد توفيت  
ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضيق هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهره لا قيمة لها واعلمى يا نفس  
أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع  
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة  
فيقال له من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار الملووزع  
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة  
ففرح تنقها ويغشاها ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيقال له من الهول والفرع الموقم على أهل  
الجنة لتنقص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) وهى الساعة  
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتعسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما يناله  
القادر على الربح الكبير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا  
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها  
فارغة عن كنوزك التى هى أسباب مسلكك ولا تعبلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

الله تنبيها منه على  
أصل الرضا وذلك أن  
الرضا يحصل لا بشرط  
القلب وانفساحه  
وانشراح القلب من  
نور اليقين قال الله تعالى  
- أفمن شرح الله صدره  
للإسلام فهو على نور  
من ربه - فإذا تمكن  
النور من الباطن اتسع  
الصدر واقتضت عين  
البصيرة وعان حسن  
تدبير الله تعالى فيتنوع  
الخط والضرر لأن  
اتساع الصدر يتضمن  
حلاوة الحب وفعل  
المحبوب بوقوع الرضا  
عن الحب الصادق لأن  
الحب يرى أن الفعل  
من المحبوب مراده  
واختياره فيفى في لذة  
روية اختيار المحبوب

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها  
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أشد له أصلا .

درجات عليين ما بدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم العين وحسرت  
لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن السوء قد عفى عنه أليس قد طاعتنا ب  
الحسين أشار به إلى العين والحسرة وقال الله تعالى - يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن -  
فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان  
والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فاتها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم  
أعمال هذه التجارة وإن لهن سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب  
لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى  
وجه من ليس له بحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى  
عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن  
هذا لم تنفع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله  
بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله ورسوله ومطالعة كتب  
الحكمة للانعاط والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولها لسان والبطن  
أما اللسان فلائنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنائه عظيمة بالقيسة والكذب والتميمة  
وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة والامن والدعاء على الأعداء والمهارة في الكلام وغير ذلك  
مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق لذلك والتذكير وتكرار العلم  
والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيرات فليشترط على نفسه أن  
لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبدة وصمته فكرة وما يلفظ  
من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب  
الشبهات وبعثه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة وبشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً  
من ذلك عاقبها بالنس عن شهوات البطن ليفونها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشترط عليها في  
جميع الأعضاء واستقصاء ذلك بطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ليستأنف وصيتها في وظائف  
الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في التوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها  
ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفترق إليها في كل يوم  
ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن  
الشارطة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد الشارطة فيها بقي ولكن لا يخلو كل يوم  
عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه في ذلك حق ويكره هذا على من يشتغل بشيء  
من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن  
يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتزام للحق في مجاريها ويحذر بها  
مغبة الإهمال ويحفظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستحبة  
عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - فهذا  
وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد  
العمل وتارة قبله التحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - وهذا للمستقبل  
وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالتنظر فيما بين يدي العبد  
في نهاره يعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم  
في سبيل الله فتيقنوا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما  
قيل :

وكل ما يفعل المحبوب  
محبوب .

[ الباب الحادى

والستون في ذكر

الأحوال وشرحها ]

حدثنا شيخنا شيخ

الاسلام أبو النجيب

السهروردي رحمه الله

قال أنا أبو طالب الزيني

قال أخبرتنا كريمة

السرورية قالت أنا

أبو الهيثم الكشميري

قال أنا أبو عبد الله

الفسري قال أنا

أبو عبد الله البخاري

قال ثنا سلمان بن حرب

قال حدثنا شعبة عن

قنادة عن أنس بن

مالك رضى الله عنه

عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال ثلاث من

- ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه وبسطه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فأنته عنه » (١) . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (٢) . دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أننا لمدينون - أي لحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تموت . وحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتبشروا بالمرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء فعلاء بالدرة وقال إلامن حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلامن حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للـ مستقبل إذا قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فبأشرفها . [ للرابطة الثانية الرقابة ] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا الرقابة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائنة فانها إن تركت طفت وفسدت . ولتذكر فضيلة الرقابة ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه » (٣) وقال عليه السلام « عابد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) . وقد قال تعالى - أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان الغربي : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والرقابة وسياسة عمله بالملم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصلين أن نلزم نفسك الرقابة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره كقائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض الساجين . هذه الطائفة تليذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا هو شاب ونحن شيوخ فدعا بمدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال اذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراى فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان فاستحسنوا منه هذه الرقابة وقالوا حق لك أن تكرم .

كن فيه وجد حلاوة  
الايمان : من كان الله  
ورسوله أحب إليهما  
سواهما ومن أحب عبدا  
لا يحبه إلا الله ومن يكره  
أن يعود في الكفر بعد  
إذ أنقذه الله منه كما  
يكره أن يلتقى في النار .  
وأخبرنا شيخنا  
أبو زرعة طاهرين  
أبي الفضل قال أنا  
أبو بكر بن خلف قال  
أنا أبو عبد الرحمن قال  
أنا أبو عمر بن حيوة  
قال حدثني أبو عبيد بن  
مؤمل عن أبيه قال  
حدثني بشر بن محمد  
قال حدثنا عبد الملك  
ابن وهب عن إبراهيم  
ابن أبي عبلة عن  
العرباض بن سارية  
قال « كان رسول الله

- (١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة وزواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث عابد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

وحكى أن زليخا لما خات يوسف عليه السلام قامت فغطت وجهه ضم كانهما فقال يوسف مالك أنتسحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال عن أستحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب قالت فأين مكوكبا . وقال رجل للجنيديهم أستعين على غض البصر فقال بملك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيدي : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبون والذين اثبتت أصلابهم من خشيق وعزتي وجلالي إني لأهم بصذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل الهاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للرعش : المراقبة مراعاة السرب لاحظة الغيب مع كل لحظة ولقطة . ويرى أن الله تعالى قال ملائكته أنتم موكلون بالظاهروا بالربيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تنيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يترن القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه - فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذوالنون بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السرو والملاينة وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل لم ألق رقيب  
ولا تحسبن الله يفضل ساعة ولا أن مانخيه عنه يضيف  
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا لناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظمي فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية عليك بالرجاء ممن يملك الوفاء عليك بالخذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبادة بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فمرسنا في بعض الطريق فأنعذر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بعني شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك فقال قل لسيديك أكلها الذئب قال فأين الله قال فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

( بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها )

اعلم أن حقيقة للمراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة القلب يشمرها نوع من المعرفة وشمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي شمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشيرة لا خلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت بقلنا

صلى الله عليه وسلم  
يدعو : اللهم اجعل  
حك أحب إلى من  
نفسى وصمى وبصرى  
وأهلى ومالى ومن  
الماء الباردة فكان  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم طلب  
خالص الحب وخالص  
الحب هو أن يحب الله  
تعالى بكليته وذلك  
أن العبد قد يكون في  
حال قائما بشروط  
حاله بحكم العلم والجلية  
تتفاضل بحد العلم مثل  
أن يكون راضيا  
والجلية قد تنكره  
ويكون النظر إلى  
الانقياد بالعلم لا إلى  
الاستعصاء بالجلية  
قد يحب الله تعالى  
ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لاشك فيه لا يظلم على القلب كالموت فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه واللوثون بهذه المراقبة هم القربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليقين ، لمراتبهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة القريبين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والاحلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للثغرات إلى التبر أصلا وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب . أما الجوارح فانها تهمل عن الالتفات إلى اللباحات فضلا عن المخطورات ، وإذا هزمت بالطاعات كانت كالمتعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحدا فكفاه الله سائر المهوم ، ومن نال هذه الدرجة قد يخل عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو قانع بعينه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، قال لمن عاتبه إذا مررت بى فركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المظلمة للملوك الأرض حتى إن خدم للملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهجات الدنيا فيفوس الرجل فى الفكر فيه ويمشى قريبا يجاوز للوضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لبيد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ، قال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريما حتى دخل عتبة القلعة ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت بأعبته ، فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من أبيت فى الطريق فقال ما رأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسمعت على وجهها قفيل له لم قلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى قلت أنت وحدك فقال معى ربى وملسكأى قلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له قلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومنى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا به فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبل على أبى الحسين النورى وهو متكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، قال من سنور كانت لنا فسكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شمرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال للمراقبة ، فلو نظرت إليهما انظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتنى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فلما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . قلت : نشدتك بالله إلا أرددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكلىتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صليت الظهر والعصر

وعب الأهل والولد  
بحكم الطبع . وللمحبة  
وجوه وبواعث المحبة  
فى الانسان متنوعة  
لنفس محبة الروح  
ومحبة القلب ومحبة  
النفس ومحبة القلب  
قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
وقد ذكر الأهل  
والمال والماء البارد  
معناه استئصال عروق  
المحبة بمحبة الله تعالى  
حتى يكون حب الله  
تعالى طالبا فيحب الله  
تعالى بقلبه وروحه  
وكلته حتى يكون  
حب الله تعالى أغلب  
فى الطبع أيضا والجليلة  
من حب الماء البارد  
وهذا يكون حبا  
صافيا لخواص تنضم

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظمى فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب الصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندها ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعظاني لعل أن أتفع بهما فرفع الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيئته على قلبك يعظك بلسان فضله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة للمراقبين الذين غلب على قلوبهم الاحلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم ولسكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة لانتفاء إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يعجمون إلا بعد التثبت فيه ويعتدون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فاتهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمجاهدات فانك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتجسج جلودك وتراعى أحوالك لاعتن إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيب الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظر أن مظهره وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لغير الله استجبا من الله وانكشف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعزفها سوء فعلها وسعيها فى فضيلتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بصمته وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا يحصى لأحد عنه فان فى الخبر « إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن <sup>(١)</sup> » ومعنى لم أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تظله لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان شئ فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له كيف فعلت أبعلم محقق أم يجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو للطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت الوجه الله خالصاً وفاء بقوله لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمرا آة خالق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجبته مقى وعقابى إذ كنت عبداً لى تأكل رزقى وترفعه بعمق ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - ويحك أما سمعتنى أقول - ألله الدين الحامس - فاذا عرف العبد أنه يصد هذه الطلبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وليسكن الجواب صواباً فلا يبدى ولا يعبد إلا بعد التثبت

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن . لم أنف له على أصل .

به وبنوره نار الطبع والجليلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بمكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى فى قوله تعالى - يحبه ويحبونه - كما أنه بذاته يحبه كذلك يحبون ذاته فالحباء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . وقال بعضهم الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فاذا كان الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامتنال الأمر وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء

ولا يحرك جفنا ولا أتملة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذاب الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لسه ثوب أخيه (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فان كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم فان كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عندك إذا هممت (٢) » وقال محمد بن علي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كعاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه الرقابة ولا يخلص من هذا إلا العالم اللين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكاييد الشيطان فحق لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يعز بينه وبين ما يحبه الله وبرضاه في نيته وهمة وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلط في هذه الرقابة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يفتد هبات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكاييد الشيطان ومواقع التورق فتتق ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يعتز منه فلا يزال الجاهل في نعب والشيطان منه في فرح وهجامة فتعود بالله من الجهل والفتنة فهو رأس كل عقاوة وأساس كل خسران لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالقل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه قد تعالى فيمضيه أو هو لموى النفس فيتقيه ويحذر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فان جميع ما ورأه يتبعه وهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فينكسر في ذلك بنور العلم ويستفيد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان هجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيمتضى بنور علماء الدين ولغير من العلماء المضلين للقلبين على الدنيا فرارهم من الشيطان بل أشد قد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى طالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوية فكيف يستضي بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضا ومقبتها وهى شهوات الدنيا فتتمكن همه المريد أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أضعف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات (٣) » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا قارقه عقل لا يعود إليه أبدا (٤) » فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الأدمى به حتى يعد إلى محوه ويحط بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا

واللهاء وهذا الحب محرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لبيده واصطفاؤه بإياه وهذا الحب يصكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد » لأنه

(١) حديث قال لما ذاب الرجل ليسأل عن كحل عينيه الحديث تقدم في الذي قبله (٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عندك إذا هممت أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا قارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم ولم أجده .



بالوسط بين الخلق في الخصومات النائرة في اتباع السموات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم ونجدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الإلادف الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المارح وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت» (١) ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كعمد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك» (٢) وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقوله عليه السلام «ياكم والظن فان الظن أ كذب الحديث» (٣) وأراد به ظناً بغير دليل كما يستق بعض المواقف قلبه فيها أشكل عليه ويتبع ظنه واصهوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعله متتابعاً علي فأتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رعيته فاتبعه وأمر استبان غيبه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عاله» (٤) وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» (٥) فاعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتثنا على عبده - وكان فضل الله عليك عظيماً - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الدين إن كنتم لا تعلمون - وقال تعالى - إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - وعلى الله قصد السبيل - وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العنى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصديق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يهدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التسكريم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العرائق وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أذاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الأمور أشباه والراء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تسكترن به فرحاً وما فاتك منها فلا تقبه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذا نظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرى بشيء من عمله وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا» (٦) وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحولاً لكن

(١) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المارح وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً الحديث تقدم (٣) حديث ياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

كلام عن وجدان روح  
تلتد بحب الذات  
وهذا الحب روح  
والحب الذي يظهر عن  
مطالعة الصفات ويطلع  
من مطالع الإيمان  
قال هذا الروح ولما  
صحت محبتهم هذه أخبر  
الله تعالى عنهم بقوله  
أذلة على المؤمنين - لأن  
الحب يذل المحبوبة  
والحبيب محبوبه  
وينشد:  
لعين تغدى ألف عين  
وتتق  
ويكرم ألف للحبيب  
المكرم  
وهذا الحب الخالص  
هو أصل الأحوال  
السنية وموجبها وهو  
في الأحوال كالنوبة  
في المقامات فمن صحت

لا يمتنع فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»<sup>(١)</sup>. النظر الثاني للرقابة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليتقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه وبكامل صورته ويتعاطاه على أكل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يغفل في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلا فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما مستقبل به القبلة»<sup>(٢)</sup> ولا يجلس متربا إذ لا يجالس للولك كذلك وملك للولك مطلع عليه قال إبراهيم بن آدم رحمه الله جلست مرة متربا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس للولك فلم أجلس بعد ذلك متربا وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في الرقابة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراته لآدابها وفاء بالرقابة فاذن لا يغفل البعد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحرصها عن الآفات وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم شهود للنعم في النعمة والشكر عليها ولا يغفل البعد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الضرب عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من الرقابة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو نذوب عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام الرقابة - ومن يمتد حدود الله قد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد البعد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتبس أفضل الأعمال ليستغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مضنون والأرباح تال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى - ولا تنس نصيحتك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تنب فيها على البعد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا بدري البعد أبشيش إليها أم لا ولا بدري ما يقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه وراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتت الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أنه خمسين سنة فيطول عليه العزم على الرقابة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فقله آخر أنفاسه وهو لا بدري وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدرك الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن طاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو وقعة في غير هرم»<sup>(٣)</sup> وما روى عنه أيضا في معناه «وطى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يغفل فيها للمعظم والشرب»<sup>(٤)</sup>

نوبته على الكمال  
تحقق بسائر اللقائات  
من الزهد والرضا  
والزكوى على ما شرعناه  
أولا ومن صحت  
عجته هذه تحق  
بسائر الأحوال من  
الفناء والبقاء والصحو  
والحو وغير ذلك  
والتوبة لهذا الحب  
أبضا بمثابة الجسدان  
لأنها شاملة على الحب  
العام الذي هو لهذا  
الحب كالجسد ومن  
أخذ في طريق  
المحبوبين وهو طريق  
خاص من طريق  
الحبة يتكامل فيه  
ويجتمع له روح الحب  
الخاص مع قالب  
الحب العام الذي  
يشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما مستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون المؤمن طاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو وقعة في غير هرم (٤) حديث وطى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يغفل فيها للمعظم والشرب وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والشرب لا ينبغي أن يغلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فضلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الأبواب وقسم ينظرون فيه بعين الفت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذا ألهم إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد البعد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب المكوت وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جلته ويذمون منه ما لا يوافق هوامهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطباخ والطباخ ولقد رتبته ولعله هو الله تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (١) فهذه المراقبة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

( المراقبة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولتذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها )

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لنفسها وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر « أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمتوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيياً فأنته عنه » وفي الخبر ويذنبى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » (٢) وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جبه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريك أن يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضي الله تعالى عنه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز علي من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكفاة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها « وحدثني أبي طلحة حين شغلته الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى فلما ورنى ما ورنى محافاته » (٣)

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة تقدم غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغلته الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة لله غير مرة .

النصح وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات لأن القلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - ومن قدوله تعالى - ويهدي إليه من ينيب - أثبت كون الانابة سبباً للهداية في حق المحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتناب غير معال بالكسب فقال الله تعالى - يجتبي إليه من يشاء - فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أيوسف قد كان في بيتك وغلمانك ما يكفيونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره . وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه محاسبها شوقا عما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء بسجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجق ولكن ههنا حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعثر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فافسده ثم يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتتقين الله أو لعذبك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قال لا يلقي المؤمن إلا صاب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربي والفاجر يعصى قسما لا صاب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذهبا ثم خطمها ثم أزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاناة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أعد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعانق سلاسلها وأغلغلها فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدني فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت في الأمانة فاعلمي ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكيا له رحم الله امرأ نظر في ميزانه فازال يقول حق أبكاني ، وحكي صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

### ( بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل )

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوعية بالحق فيذنب أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها ومكذاتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبدا الآباد ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه بالأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكب معصية اغتفل بعقوبتها وتعذيبها ومعانيبها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقبراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغب في شيء منها فينبغي أن يفتي غيبة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكاراة فليطالها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأنم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسها وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانزاعه صفوها وخالصها لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلعت ملابس صفات النفس ونسوتها والمقامات كلها مصففة للموت والصفات النفسانية فالزهد يصفيه عن الرغبة والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود النفس ما أشرق عليها فتموس المحبة الخاصة فيبقى ظلها

من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنه قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي القدي على شريكه على قلبه وفي جريمة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها بالقراءة والضمآن وبعضها برد عينه وبعضها بالقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما تقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي واحد عشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : يا وليق ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف . وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هويت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأطل فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قرية من عمره ولكنه يتساهل في حفظ العاصي والمساكين يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

### ( الرابطة الرابعة في معاينة النفس على تفصيلها )

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارنة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارنة للعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بغير النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بجمعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على غذاها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبت . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعه لمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فانتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بساقية فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال هيئات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعوذ معي في صومعه لئلا يكون والله ذلك أبدا فتركم معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكربي يقول أصابت ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتفصيلا فخدمتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء وأدخل الحمام ولا أعنى على نفسي فقلت وإهيجاء أنا أطامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجدي المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعي هذه وآليت أن لا أزعمها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيمهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى جفرت وقال إنك للحاظلة إلى ما يضر لك ونظر بهضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بخرقة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا ينيك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق  
بالحب الخاص لانت  
نفسه وذهب جمودها  
فإذا ينزع الزهد منه  
من الرغبة ورغبة  
الحب أحرق رغبته  
وماذا يصفي منه التوكل  
ومطالعة الوكيل حشو  
بصيرته وماذا يسكن  
فيه الرضا من عروق  
المنزعة ممن لم تسلم  
كليته . قال الروذباري  
مالم تخرج من كليتك  
لا تدخل في حد الهبة  
وقال أبو يزيد من  
قتلته محبته فدينه  
رؤيته ومن قتلته عشقه  
فدينه مذامته ، أخبرنا  
بذلك أبو زرعة عن  
ابن خلف عن أبي  
عبد الرحمن قال سمعت  
أحمد بن علي بن جعفر

أبي بعد العصر قلنا إنه قائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقفه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عن شيئاً أدركته وهو يدخل القابرو وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أنسكان هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تكلمين بما لا تملين أما إن لله على عهداً لا أقضه أبداً لا أؤسذك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوءة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيبك لا تنتهين قال وجعل يسكي وهو لا يشعر بما كان فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . وعيكي عن تميم الداري أنه نام ليلة لم يقم فيها بتجدد فقام سنة لم يقم فيها عقوبة لذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال «انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتعرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً أجيفة بالليل بطلاة بالتهار فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأقام فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد بابهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيك فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبي صلى الله عليه وسلم وعمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم<sup>(١)</sup> . وقال حذيفة بن قبادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شروعاتها فقال ما طي وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شروعاتها ودخل ابن السهاك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبباً يأكل في كل سبت إحدى عشرة مرة ثم سأل حاجته فلم يطمها فرجع إلى نفسه وقال منك أثبت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فزول إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك قتل لأرمقته اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشفوا فكان فى موضعه حتى أنكشفوا امرأتاً وهوناً ثابتة فقاتل فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأته صريماً فعددت به وبدائه ستين أو أكثر من ستين طعنه وقتل كرهاً حديث أبى طلحة لما اختل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن جمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا . وأنسكرو هيب بن الورد شيئاً طي نفسه فتنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه وعيكم إنما أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبراً بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسى لندعوى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام فى الدنيا فمكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

يقول سمعت الحسين ابن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فإذا التلب في أطوار للقامات لروام المحبين وطى بساط الأطوار لحواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن همهم القامات وربما كانت القامات على مدارج طبقات السموات وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بغيته . قال بعض الصكبار لأبراهيم الحواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسمى فى عمران باطنك أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتعرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبي الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا .

أنك تعاقب عبدك وأمنك وأهلك وولدتك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبضوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك وضرك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غابتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

### [ الرابطة الخامسة المجاهدة ]

وهو أنه إذا حسب نفسه فرأها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تنوأنى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورود من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتقيل الأوراد عليها وبلومها فتوأنى من الوظائف جبرا لما فات منه وتدارك لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياتك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعق رقتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذه لها بما فيه نجاتها . فان قلت إن كانت نفس لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فماسبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين <sup>(١)</sup> ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صفة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتاده فعملت على ذلك أسبوعا إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد قد في هذا الزمان من مجتهد في العبادة اجتهد الأولين فينبغي أن يعمل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجيد وقد انقضى تسبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع لها أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكذرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي به أبد الآباد فعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وميامم مرضى» <sup>(٢)</sup> قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة - قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» <sup>(٣)</sup> ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادي مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنساء وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فضلى وأبقت امرأته وللترمذي من حديث بلال عليكم بقيام الليل فإنه ذاب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك (٢) حديث رحم الله أقواما يحسبهم مرضى وميامم مرضى لم أجده له أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بال قوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذي من حديث أبي بكره خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفها متفلة من  
دائرة الزهد يردها  
الزاهد إلى الدائرة  
بزهد والتوكل إذا  
تحركت نفسه يردها  
بتوكله والراضى يردها  
برضاء وهذه الحركة  
من النفس بقايا  
وجودية تفتقر إلى  
سياسة العلم وفي ذلك  
تنسم روح القرب  
من بعيد وهو أداء  
حق العبودية مبلغ  
العلم وبحسبه الاجتهاد  
والكسب ومن أخذ  
في طريق الخاصة  
عرف طريق التخلص  
من البقايا بالتستر  
بأنوار فضل الحق  
ومن اكتفى ملابس  
نور القرب بروح دأمة  
المكوف محمية عن

فيقولون إلينا خوقهم شيئا يخفوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف نوراني عبادي لسكانوا أشد اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهم كانت أهون في أعينهم من هذا القرب الذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليمش عمره كله ماطوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفترون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزتهم وسألوا الله أن يضرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . وعني أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب نازل الجسم فقال عمر له يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يأمر المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله لإصداقتي فقال يأمر المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقابل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم كان داود الطائي يشرب القيت ولأبأكل الحبز قليل له في ذلك فقال بين مضغ الحبز وشرب القيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزيق من غدوة إلى العصر لما التفت بمنة ولايسرة قليل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خالق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقه متفتختان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظأ لله بالحواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطياب الكلام كما ينتقى أطياب الثمر ، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به ، وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتجى ثم قال عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلائلك عجبت للخلقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري أمت عليه ثمان وتسعون سنة ما روى مضطجعا إلا في علة الموت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأهوال وهم غافلون قد اعتسكفوا على حظوظ أنفسهم وسوا حظهم الأكبر من ربهم فيكي القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد المغازلي قال جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يشك ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجله ففسر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني

الطوارق والصروف لا يزججه طلب ولا يوحشه سلب فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه وهو غير كائن فيها على معنى أنه كيف تغلب كان زاهدا وان رغب لأنه بالحق لا بنفسه وإن روى منه الالتفات إلى الأسباب فهو متوكل وإن وجد منه الكراهة فهو راض لأن كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها صار عين الداء دواء وصار الاعلال شفاء وناب طلب الله له مناب كل



فأتاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قال دخلت على فتى الموصلي  
فأرأته قد مد كفيه يكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد  
خالطها صفرة فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما  
فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع  
ثلاثا يكون ما صحت لي الدموع قال فأرأته بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت  
له لماذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربى عز وجل وقال لي يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على  
تخلفي عن واجب حقه فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يافتح  
ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد سعد حافظك أربعين سنة بصحيفة منك ما فيها خطيئة ، وقيل  
إن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فاتهبوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم  
من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم  
ما أراد فقالوا ياراهب إنا سألوك فهل أنت مجيبنا ؟ قال سلوا ولا تسكروا فإن النهار إن يرجع والعمر  
لا يعود والطالب حيث فجبب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الحاق غدا عند مليككم فقال  
على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بالغ البنية ثم أرشدهم إلى الطريق  
وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين  
فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا  
براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده  
على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر  
في حسابيه وعقابه فتهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا  
فكليب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس ثلاثا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع  
الحاق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الحاق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها عمل  
المعاصي والدنوب والمعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من  
ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن افارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه  
ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل  
كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رقت بنفسك  
قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتمتع طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان  
الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند المات يحمد القوم التقى . وقال عبد الله بن داود :  
كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن  
يصل كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان  
يكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت ما لي أرى الناس ينامون  
وأنت لاتنام ؟ فيقول يا ابتناء إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يليق الربيع من البكاء  
والسهر نادته يا بني لملك قتلت قتيلًا قال نعم يا أماء قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك نوا الله  
لو يطلون ما أنت فيه لرحمك وعفوا عنك فيقول يا أماء هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت جبر بن  
الحارث قال سمعت خالي جبر بن الحارث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب على قتالت له  
أمي يا أختي أنا أنذني لي ختي أصليح لك قليل حياء بكف دقيق عندي تمحساه برم جوفك فقال لها  
ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فبكت أمي وبكى معها

طالب من زهد وتوكل  
ورضا أو صار مطالبه  
من الله ينوب عن كل  
مطلوب من زهد  
وتوكل ورضا . قالت  
رابعة : عجب الله لا يسكن  
أنيته وحنينه حتى  
يسكن مع محبوبه .  
وقال أبو عبد الله  
القرشي حقيقة المحبة  
أن تهب لمن أحببت  
كلك ولا يبقى لك . نك  
شيء . وقال أبو الحسين  
الوراق : السرور بالله  
من شدة المحبة له والمحبة  
في القلب نار تحرق كل  
دنس . وقال يحيى بن  
معاذ صبر المحبين أشد  
من صبر الزاهدين  
واحبها كيف يصبر  
الإنسان عن حبيبه .  
وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذا ولدتني لم يدر نديها على . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الريح : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمسكت مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقلبت عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ومن بطن لا تشبع ققلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا بطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى العشاء فعمدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا إلخا كذلك في صدرى ققلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجد وضوءا فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش وتزل السماء في إحدى عينيه فمسكت عشرين سنة لا يلم به أهله وقيل كان ورد صمنون في كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردى في شبيبتي كل يوم ليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي ، وكان منصور بن للشمز إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لانسكت لعلك يابني أصبت نفسا لملك قتلتي قتيلا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم لما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم لما ينام حتى يمسى فاذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . وروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انقلبت عن يمينه وعليه كآبة فمسكت حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرأ قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الحولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون السكل منك لامي فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابق وكان يقول ايظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما حتى يملوا انهم قد خلفوا ورواهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

عجة الله من غير توزع  
عن محارمه فهو كذاب  
ومن ادعى عجة الجنة  
من غير إغناق ملسكه  
فهو كذاب ومن ادعى  
حب رسول الله صلى  
الله عليه وسلم من غير  
حب الفقراء فهو كذاب  
وكانت رابعة تشدد :  
تعصى الإله وأنت  
تظهر حبه

هذا العمري في القفال  
يبيع  
لو كان حبك صادقا  
لأطعته

إن الحب لمن يحب  
مطيع

وإذا كان الحب  
للأحوال كالنسوة  
للمنقابات فمن ادعى  
حالا يعتبر حبه ومن  
ادعى محبة تعتبر توبته

مالوقيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحِبّ لقائي . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذا غدت بدأت بمائسة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ - فنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم - وتبكي وتدعو وتردد الآية قصت حتى مللت وهى كاهى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أنفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كاهى تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال طى بن أبى طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاء من الصوم عليهم غبرة الحاشئين . وقيل للحسن : ما بال التمجدين أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤامرني وتميتنى ولا تملنى وخلقتنى معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استمسك إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى إلهى فى الدنيا المموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأبى الراحة والترح ، وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صبيحات كان إذا صلى الصلوة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد حدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيدانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالحصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب للمرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيثابون فيسمع من ههنا هاك ومن ههنا داع ومن ههنا قارى ومن ههنا متوضى ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنهم عليهم فرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ويوتا للحكمة وتوايت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى اللسكوت وتلوح بمحجوب النجوم ثم ترجع ومعها طوائف من الطوائف القوائد وما لا يمكن واضفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالدياج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبفولون لمن أرادهم تواضعا ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بيننا أنا وأسير فى بعض جبال بيت القدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تحييه لها دوى عال فانبعث الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية - يوم تجد كل نفس نفسا معملت من خير محضرا إلى قوله - وعذركم الله نفسه - قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرم من شيا عليه فقلت وأسفاه هذا لشقائى ، ثم انتظرت إفاقته فأناق به ساعة فسمعته وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إغراض الغافلين ثم قال لك خست قلوب الحاشئين وإليك فرغت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفص يده فقال مالى وللدنيا

فإن التوبة قال الروح  
الحب وهذا الروح  
قيامه بهذا القلب  
والأحوال أعراض  
قوامها بخوهر الروح  
وقال صمدون : ذهب  
المحبون لله بشرف  
الدنيا والآخرة لأن  
النبي صلى الله عليه وسلم  
قال «الراء مع من  
أحب» فهم مع الله  
تعالى وقال أبو يعقوب  
السوسى لا تصح المحبة  
حتى تخرج من رؤية  
المحبة إلى رؤية  
المحبوب بفناء علم  
المحبة من حيث كان  
له المحبوب فى الغيب  
ولم يكن هذا بالمحبة  
فإذا خرج الحب إلى  
هذه النسبة كان  
محبا من غير محبة

ومال الدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى عيبك فاذهي وإياهم فاخذعي ثم قال  
 أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة في التراب يملون وعلى الزمان يغنون فناديته يا عبد الله أنلمننك  
 اليوم خافك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتتبادر مخاف سبقها بالموت إلى نفسه  
 أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها وللسل شدّة أتوقع زولها ثم لها على  
 ساعة وقرأ - وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ثم صالح صيحة أخرى أشد من الأولى وقرأ  
 مفشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقطم من أنا ما خاطري  
 هب لي إسماعلي من فضلك وجللي بترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت  
 له بالدي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كتني فقال عليك بكلام من ينطق كلامه ودع كلام من أوقته  
 ذنوبه إني لفي هذا اللوح مذ شاء الله أجاهد إبليس وبجاهدي فلم يجد عوناً على ليخرجني مما أنا فيه  
 غيرك فإليك عني يا مخدوع قد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي وأنا أعوذ بالله  
 من شرك ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويغفر لي برحمته . قال فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله  
 فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير في مسيرى إذ ملت إلى  
 شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرقت على فقال لي يا هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه  
 فاتبعته فسمعته وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لي في الموت فقلت وفيما بعد الموت  
 فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت  
 الوجوه يبض وجهي بالنظر إليك واملاّ قلمي من المحبة لك وأجرني من ذل التوبيخ غدا عندك فقد  
 آن لي الحياء منك وحن لي الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسحق أجلى ولولا  
 عفوك لم يتسبط فيما عندك أملي ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا المعنى :

نحيل الجسم مكثب الفؤاد	تراه بقعة أوبطن وادي
ينوح على معاصي فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان حاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغنى يا عمادي
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الضجع عن زلل العباد
ألف من التلذذ بالقواني	إذا أقبان في حلال حسان
منيب فر من أهل ومال	يسبح إلى مكان من مكان
ليحمل ذكره ويعيش فردا	ويظفر في العباد بالأماني
تلذذه التسلاوة أين ولي	وذكر بالأسود وباللسان
وعند الموت يأتيه بشر	يشر بالنجاة من الهوان
فيسدرك ما أراد وما تمنى	من الراحة في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقبل له  
 قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا قليل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة قليل خمسون  
 ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعني أنك لو عشت عمر الدنيا  
 واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقبارة خمسين ألف سنة لكان ربحك  
 كثيرا وكنت بالرضا فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف  
 الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فلهما تدرت نفسك عليك وامتنعت من الواطئة على العبادة  
 فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثله ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجح

سئل الجنيد عن  
 المحبة قال : دخول  
 صفات المحبوب على  
 البديل من صفات  
 المحب . قيل هذا على  
 معنى قوله تعالى « فإذا  
 أحببته كنت له سمعا  
 وبصرا » وذلك أن  
 المحبة إذا صفت وكثرت  
 لا تزال تجذب بوصفها  
 إلى محبوبها ، فإذا  
 انتهت إلى غاية جهدها  
 وقفت والرابطة متصلة  
 متأكدة وكالوصف  
 المحبة أزال للوانع من  
 المحب وبكمال وصف  
 المحبة تجذب صفات  
 المحبوب تطفأ على  
 المحب الخاص من  
 موانع قادحة في صدق  
 الحب ونظرا إلى  
 قصوره بعد استفاد

في القلب وأبحت على الاقتداء فليس الخبر كالمأينة وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل لمعزى وخبر نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زمريتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجميلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لما أن تنخرط في سلك الحق وتضع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس رجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات قد دروي عن حبيبة المدوية أنها كانت إذا صلت الصلوة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت يا إلهي قد غارت النجوم ونامت السيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم قبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت يا إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شمري أقبلت مني ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما بقيتني وعزتك لو اتبرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك . ويروى عن هجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفقني لديك في عليين في درجة القربين وأن تلحقني بصادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تفر ساجدة فيسمع لها وجة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها إذا خلعت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لورقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد بن قال فبكيت ثم قالت والله لوددت أن أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جراحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتبعدات قالت رأيت في منامي كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة قليل أمة سوداء من أهل الأيكة قال لها شعوانة قالت فقلت أخفى والله قالت فيينا أنا كذلك إذ أقبل بها على ناحية تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أخفى أما ترى من مكان من مكانك فلو دعوت لي مولدا فألحقني بك قالت فتبسمت إلى وقالت لي بأن لقدومك ولكن احفظي عن اثنين ألزمني الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضركم قمت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فقممت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لي ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاي بحبى لي أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبحبى لي أبقيت عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القريشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريفة فزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لحام لي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فلما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبله القبلة تقول خلقت سريفة ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلاتك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لخطئك بالتوب على معاصيك فلتة جد قلته أترأها أظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصري خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيعود الحب  
ينمو والاكساب  
الصفات من المحبوب  
فيقول عند ذلك :  
أنا من أهوى  
ومن أهوى أنا  
نحن روحان حللنا بدنا  
فإذا أبصرتى أبصرته  
وإذا أبصرته أبصرتنا  
وهذا الذى عبرنا عنه  
حقيقة قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« تخلقوا بأخلاق الله »  
لأنه بزاهة النفس  
وكال الزكية يستمد  
للمحبة والمحبة موهبة  
غير معللة بالزكية  
ولكن سنة الله  
جارية أن يركب نفوس  
أحبابه بحسن توفيقه  
وتأييده وإذا منح  
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ويسكن فلما قرب من السواد إذا هم امرأه عليها جبة صوف ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فزعة مني قهلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لي ما الذي أبكاك قهلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قهلت يرحمك الله والصادق لا يسكني قالت لا قلت ولم ذلك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعبا من قولها . وقال أحد بن علي استأذنا على غفيرة فحجبتنا فلما زلنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك من جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي للنفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فمات منه نظرة فغمضا عليه فأصابه فتق في بطنه فباليت غفيرة إذا رفعت رأسها لم تمس وباليها إذا عصت لم تعد . وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبسنا في موضع ناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحني حتى أنصرف اليك قال فانصرفت فلم أجدها في اللوضع فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها فلما رأيته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تسجل على إنك أجلسني في موضع لم أر فيه ذا كر الله تعالى خفت أن يخسف بذلك اللوضع فحببت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أجدها . وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها بريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في الصحف فكلمها أمت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعلمها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فباريرة كيف أصبحت قالت أصبحت أصبغا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنحجب قلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعيني عند الله خير لما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وإن كان لهما عند الله شرف فسيزيدها بكاء أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فمسي والله في شيء غير ما نحن فيه . وكانت معاذة العبدية إذ جاء النهار تقول هذا يومى الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فصلى حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقلت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قابعة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قواني على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شحوانة تقول في دعائها إلهي ما أشوقني إلى لقاءك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يغيب لديك أمل الآملين ولا يطل عندك شوق المشتاقين إلهي إن كان دنائي إلى ولم يقربني منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالتدب وسائل عظمى فان عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها إلهي إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت من تولاني في حياتي بأحسناته أن يسقني عند مماتي بنيرانه إلهي كيف أياأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجليل في حياتي إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فان عجبني لك قد أجارتني تقول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره بجهله إلهي لو أردت إهاتني لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بماله هديتني وأدم لي ماله سترتني إلهي ما أظنك تردني في حاجة أنفيت فيها عمري إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عجمت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفوليهون عليها الأمر قال فتشبهت

جذب روحه بمجاذب  
الحبة خلغ عليه خلغ  
الصفات والأخلاق  
ويكون ذلك عنده  
رتبة في الوصول فتارة  
ينبعث الشوق من  
باطنه إلى ما وراء ذلك  
لكون عطاي الله  
غير متناهية  
وتارة يتسلى بما منح  
فيكون ذلك وصوله  
الذي يسكن نيران  
هوقه ويأبى الشوق  
بمستقر الصفات للهوبة  
الحققة رتبة الوصول  
عند الحب ولولا باعث  
الشوق رجح القهقري  
وظهرت صفات نفسه  
الحائلة بين الرء وقلبه  
ومن ظن من الوصول  
غير ما ذكرناه أو تخاليل  
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفى فرح فزادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقى ولم أك شيئا مذكورا  
ثم أقبلت على صلاتها . فليك إن كنت من الرابطين الراغبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء  
من المجتهدين ليبحث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فأنك إن قطع أكثر  
من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن  
أردت مزيدا فليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة  
والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن  
حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان  
والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك  
إلا ما يجرى عليهم والصلية إذا عمت طابت فأياك أن تتدلى بعجل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل  
لها أرايت لو هجم سبيل جارف يشرق أهل البلد ويثبوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم  
بحقيقة الحال وقد رت أنت على أن تفارقهم وتركى فى سفينة تتخلصين بها من الترق فهل يخلج  
فى نفسك أن للصلية إذا عمت طابت أم تركين مواضعهم وتستجھلهم فى صنيعهم وتأخذين حذر  
عما دهاك فإذا كنت تركين مواضعهم خوفا من الترق وعذاب الترق لا يتماضى إلا ساعة فكيف  
لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب للصلية إذا عمت ولأهل  
النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك السكفار إلا بواقعة أهل زمانهم  
حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فليك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك  
وحملها على الاجتهاد فاستصمت أن لا تترك معانيها وتوبيخها وتقريرها وتحريفها سوء نظرها لنفسها  
فصاها تنزجر عن طغيانها .

### ( الرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعانيها )

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميلة إلى الشر فرارة من الخير  
وأمرت بتركها وتويعها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها  
عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تنظر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاينة والعدل  
والملازمة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس اللطيفة المدعوة  
إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تنفلن ساعة عن تذكيرها ومعانيها ولا تشغلن  
بوعظ غيرك ما لم تشغلن أولاً بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ  
نفسك فإن اعطت فمظ الناس وإلا فاستحي منى وقال تعالى - وذكر فإن الله كرى تنفع المؤمنين -  
وسبيلك أن تقبل عليها فقرر عندها جهلها وغبوتها وأنها أبداً تعزز بظننها وهدايتها ويشد أنفها  
واستكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة  
وأنت أشد الناس غباوة وحماة أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على  
القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجيم وعساك اليوم  
تختطفين أوغدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن  
البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بضعة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة  
وأنة لا يأتى فى شيء دون نسي ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل  
دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأناس يمكن أن يكون  
فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم ينفى إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت

متعرض للذهب  
النصارى فى اللاهوت  
والناسوت. وإشارات  
الشيوخ فى الاستغراق  
والقناء كلها عائدة إلى  
تحقيق مقام المحبة  
بامتلاء نور اليقين  
وخلاصة الذكر على  
القلب وتحقيق حق  
اليقين بزوال داعج  
البقايا وأمنت اللوث  
الوجودى من بقاء  
صفات النفس وإذا  
صحت المحبة ترتبت  
عليها الأحوال وتبينها.  
سئل الشبل عن المحبة  
فقال كس لها وهج  
إذا استقر فى الخواص  
وسكن فى النفوس  
تلاشت. وقيل للمحبة  
ظاهر وباطن ظاهرها  
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أمانتدين قوله تعالى - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - وعحك يا نفس إن كانت جرائمك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع عحك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . وعحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومفتك له فبأي جسارة تمرضين لقت الله وغضبه وشده بعقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيات هيات جري نفسك إن الهالك البطر عن أليم عذابه فاحتبس ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستثنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لاتمولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكتفين إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تزعين الروح في طلبها ونحصيلها من وجوه الخيل فلم لاتمولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أتحسين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلا ماسعى . وعحك يا نفس ما أعجب ثقافتك ودعائك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للانسان إلا ماسعى - فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تكالبن على طلبها تنكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض للفرور المستحقر ما هذان علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان الناقضون في الدرك الأسفل من النار . وعحك يا نفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيات أتحسين أنك تركين مدى ألم تكوني نقطة من مئى مئى ثم كنت علقة تغلق فمدى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فان كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك أمانتفكرين أنه عماذا خلقك من نقطة خلقك قدرك ثم السبيل يسرك ثم أمانتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله ثم إذا شاء أشرك فان لم تكوني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرك ولو أن يهوديا أخبرك في الله أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لعبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء للوידين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه للزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع قصان عقل وقصور علم والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغللها وأنكأها وزقومها ومقامعها وصديدها ومومها وأفاعها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لاتعسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ماهذه أفعال العقلاء بل لو انكشف لبيها ثم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان حكمت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولطه يختطفك من غير مهلة فبا إذا أنت استجبال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العبة يفلح ويقدر على قطع العبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرايت لو سافر رجل ليتفقه في الفرية فأقام فيها سنين متعللا بطلا بد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطمع فيه بمدة قرية أو حسانه أن مناصب القمهاء تنال من غير تفقه اعلموا على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال ينفها المحب إلا يعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم : حزنى كحسبك لالدا أمد

ينهى إليه ولا لدا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبي الحواري دخلت على أبي سليمان



ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشغل نفسك فيه بذلك فإن أوحى إليك بالامهال لما للنافع من اللبادة وما يباعث لك على التسويف هل له سبب إلا هجرتك عن مخالقة شهواتك لما فيها من التعب والشقة أنتتظرين يوماً يأتيك لا تنصر فيه مخالقة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلق فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأس لابل تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أهجر وأهجر لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا هجر العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن هجر عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول اللذة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً وهذا لما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في الشباب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب القديب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فإذا كنت أيها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة وتركبين إلى التسويف لما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما عني عن الاستقامة إلا حرص على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والشقات فما أجد غباوتك وأفسح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن السكذورات الدائمة أيد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالقتها فرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنا بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزناً وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيسر ثلاثة أيام ليتنم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثة أيام وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، ولست شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بمظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراج واستغفاله عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من اللؤلؤ أو كلة واحدة تسميها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها ونهى على الله الأمانى » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تترك الحياة الدنيا ولا يتركك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أو قاتك فالأفاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعصك فاعتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والنقى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقاءك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجملين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تسكبين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبدو حطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أنتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلاً أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فرأته يسكني  
قلعت ما يسكنك رحلك  
الله قال ويحك يا أحمد  
إذا جن هذا الليل  
افترشت أهل الحبة  
أقدامهم وجرت  
دموعهم على خدودهم  
وأشرف الجليل  
جل جلالة عليهم  
يقول « يعني من تقدذ  
بكلامي واستراح إلى  
مناجاني وإني مطلع  
عليهم في خلواتهم أجمع  
أنينهم وأرى بكاءهم  
يا جبريل ناد فيهم  
ما هذا البكاء الذي  
أراه فيكم هل خبركم  
خبر أن حبساً يندب  
أحبائه بالنار كيف  
يجعل بي أن أعذب  
قوماً إذا جن عليهم  
الليل فماتوا إلى فيه

في الشدة والبرودة أنتظنين أن البعد ينجو منها بغير سعي هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجيلة والنار  
وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى  
في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لافي أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كأن كرم  
الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهذاك للطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفع  
بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجيلة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشربنه  
لنفسك إذ خلقه سبيلا لاستراحتك فطاعتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى  
نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فطليها والله غني عن العالمين . ويحك يا نفس انزعى عن جهلك  
وقبى آخرتك بدنيك فما خلقتكم ولا بمشكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما  
بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لأتجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا  
وألست بها فصر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودتها فاحسبي أنك  
غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنت مؤمنة بالموت الفرق بينك وبين عبادك  
أقربين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فهدب بصره إلى وجه ملبس يعلم أنه يستغرق ذلك  
قلبه ثم يضطر لاحتالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الخلق . أما تعلمين أن الدنيا دار الملك  
للكلوك ومالك فيها إلا عجاز وكل ما فيها لا يصعب المجاوزين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله  
عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة فاعمل ما شئت فانك تجزي  
به وعش ما شئت فانك ميت (١) » . ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس  
بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكبر من الحسرة عند المفارقة وإنما يزود من السم المملوك وهو لا يدري  
أو ما تنظيرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلاؤهم ذهبوا واخلوا وكيف أورش الله أرضهم وديارهم أعداءهم  
أما تربنهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون بين كل واحد  
قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حرق واشتكاس أعظم من  
هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويحرب آخرته وهو سائر إليها قاطعا ، أما تستحيين يا نفس  
من مساعدة هؤلاء الخلق على حماقتهم واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تعلمين  
بالطبع إلى التشبه والافتداء فتنبسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا  
واقنتى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقد في نفسك العقل والذكاء يا نفس ما أعجب  
أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجبك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس  
أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لامع له إلاميل القلوب من بعض  
الناس إليك فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أقما تعرفين أنه بعد خمسين سنة  
لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر  
من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا  
فكيف تبين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكا  
من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أدعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى  
إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين  
للدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترضا عن خسة شركائهم ونزها عن  
كثرة غنائمها وتوقيا من سرعة فناها أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدت في كثيرها ومالك

حلفت إذا وردوا  
القيامة على أن أسفر لهم  
عن وجهي وأيحيهم  
رياض قدسي وهذه  
أحوال قوم من المحبين  
أقيموا مقام الشوق  
والشوق من المحبة  
كالزهد من التوبة  
إذا استقرت التوبة  
ظهر الزهد وإذا  
استقرت المحبة ظهر  
الشوق . قال الواسطي  
في قوله تعالى - عججات  
إليك رب لترضى - قال  
شوقا واستهانة بمن  
وراءه - قال هم أولاء  
على أنرى - من شوقه  
إلى مكاملة الله ورمى  
بالألواح لما فاته من  
وقته . قال أبو عثمان  
الشوق نعمة المحبة فمن  
أحب الله اشتاق إلى

تفرحين بدنيا إن ساءرتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويبريدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون في زمرة القربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أريد الآبدية لتسكن في صف النعمان من جملة الحق الجاهلين أياما قلائل في أحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس قد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن انجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك . أماتلين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتركاب فراشك والدود أئيسك والفرع الأكرين يديك ، أماعلت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالآيمان الغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أماتلين يا نفس أنهم يتنحون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستقلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهن ويوم من عمرك لو يبع منهم بالدنيا بخذا فيرها لا يشروه لو قدروا عليه وأنت تضيئين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أماتستحيين تزئين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعتائم أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتاأمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أماتلين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بثؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس بقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأيت رأسا لكان الريح في يديك وكيف تعجبين بملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لمن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتقصين ويحك كم تهملين فتفتردين ويحك يا نفس أتستغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أماتنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جرموا كثير أو بنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنائهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أملك بهم عبرة أم أملك إليهم نظرة أنظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ماتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدورسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والمعجب كل المعجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تم ضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوما لا يستكملهم وكم من مؤمل لمد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري أيها النفس السكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دبقه وجليله سرا وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله لآت - تقرية للمشتاقين معناه آلى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشاقون إليه وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القامات إذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء لقائه والنظر إليه . وعندى أن الشوق السكأن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى بكاشف أهل وده بطلايا مجدونها

فانظري يا نفس بأي بدن تغفين بين يدي الله وبأي لسان تهجين وأعدى للسؤال جوابا والجواب صوابا واعلمي هبة همرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دارزوال والدار مقام توفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملى قبل أن لاتعملى اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا قرب مسرور منبور ورب منبور لا يشرفويل لمن له الويل ثم لا يشمر بضحك وضحك ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار فليكن نظرك باقيا إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يجز عن فكر ما أوتي ويتنهي الزيادة فيبقى وينهي الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف من كانت مطيته الليل والنهار فانه يساره وإن لم يسر فاقطعي يا نفس بهمة للوعظة واقبلي هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعدة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعدة واعية فان كانت المساواة تمنحك عن قبوله الموعدة فاستعيني عليها بدوام التهجذ والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة الحماطة والكلام فان لم تزل فبصلة الأرحام والطف بالأيام فان لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقلل عليه وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئي نفسك على النار قد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للموعظة فاقطعي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر فعوذ بالله من ذلك فلا سيول لك إلى القنوط ولا سيول لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه للصية التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان صحت فاستقي الدمع من بحر الرحمة قد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تمل طول الشكاية لله أن يرحم منك وبينك فان مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتعادبك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك الطل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستنات ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع واخشي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم للتضرع الدليل ويثبت الطالب التلطف ويحب دعوة الضطر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق واقطعت منك الحيل ولم تجمع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمستول جواد والمستغاث به برّ رءوف والرحمة واسعة والكرم فائض والفضول شامل وقولي بأرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلیم يا عظیم يا كريم أنا للذنب الصرّ أنا الجريء الذي لا أفلح أنا للهادي الذي لا أستحي هذا مقام للتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الضيق فاجل أغاثني وفرجني وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومعذرتك وارزقني قوة عظمتك بأرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام قد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترفأ له فمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو عززون كتيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم مله هذا الجهد الذي أرى بك قال يارب عظمت مصيبي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربّي نصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار اللوت والقناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي ألم أخلقك يدي وتحت فيك

علما ويطلبونها ذوقا  
فكذلك يكون شوقهم  
ليصير العلم ذوقا وليس  
من ضرورة مقام الشوق  
استبطاء اللوت وربما  
الأسحاء من المحبين  
يتلذذون بالحياة لله  
تعالى كما قال الجليل  
لرسوله عليه الصلاة  
والسلام قل إن خلاني  
ونسكى ومحباي ومحباي  
له رب العالمين فمن  
كانت حياته لله منه  
الكرم لله للنجاة  
والهبة فتمت عينه  
من التقدير ثم يكلفهم من  
النخ والعطايا في الدنيا  
ما يتحقق مقام الشوق  
من غير الشوق إلى  
ما بعد اللوت وأنكر  
بعضهم مقام الشوق  
وقال إنما يكون الشوق

من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصيت أمرى ونسيت عهدي وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى  
لو ملأت الأرض رجلا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحونى ثم عصونى لأنزلهم منازل العاصين فبكى آدم  
عليه السلام عند ذلك ثلثة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله: إلهى أنا  
الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها  
خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا ومأوى واعبيدها إن كانت  
المقامع لرأسك تهباً واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت  
فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أردت بعصيتك مخالفتك ولا عصيتك  
إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى  
وأعانتى على ذلك شقوتى وغرنى سترك الرخى طى فصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى قن عذابك  
الآن من يستغنى أو يجهل من اعتصم إن قطعت جبلك عنى واسوأته من الوقوف بين يديك عدا  
إذا قيل للمعفين جوزوا وقيل للمعتلين خطوا مع المعفين أجوز أم مع المعتلين أحطوب لى كلما كبرت سنى كثرت  
ذنوبى ولى كلما طال عمرى كثرت معاصى فالى متى آتوب ولى متى أعود أما أن لى أن أستجى من ربى  
فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترخاء ومقصدهم  
من المعاتبة التنبيه والاسترخاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن نفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون  
الله تعالى عنه راضيا والسلام . ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى  
والحمد لله وحده وصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

### (كتاب التفكير)

( وهو الكتاب التاسع من ربح النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذى لم يقدر لانهاء عزته نهرا ولا قطرا ولم يجعل لمرأى أقدام الأولهام ومرمى سهام الأنفهام  
إلى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين فى يدهاء كبريائه والهمة حيرى كلما اهتزت لنيل  
مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجلال صبرا  
صبرا ثم قيل لها أجيلى فى ذلك البوذية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى  
له قدرا وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالى عليك  
تترى وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملى فى بحار القادير كيف فاضت على العالمين خيرا  
وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطبا ونشرا وإيمانا وكفرا وعرفانا  
ونكرا فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا أو خاطرت بنفسك  
بمجازة حد طاقة البشر ظلما وجورا قد انهرت العقول دون مبادئ إشراقه وانقصت على أعقابها  
اضطرابا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته غرا صلاة تبقى لنا فى  
عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا  
وطوايف للسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »<sup>(١)</sup> وكثر الحديث فى كتاب

### (كتاب التفكير)

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة

لغائب ومتى يغيب  
الحبيب عن الحبيب  
حتى يشاق ولها مثل  
الأنطاكي عن الشوق  
قَالَ إِنَّمَا يَشَاقُ إِلَى  
الغائب وما غبت عنه  
منذ وجدته وإنكار  
الشوق على الإطلاق  
لا أرى له وجهاً لأن  
رتب العطايا والنسج  
من أنصبة القرب إذا  
كانت غير متناهية  
كيف يشكر الشوق  
من الحب فهو غير غائب  
وغير مشتاق بالنسبة  
إلى ما وجد ولكن  
يكون مشتاقاً إلى ما لم  
يجد من أنصبة القرب  
فكيف يمنع حال  
الشوق والأمر هكذا  
ووجه آخر أن الإنسان  
لا بد له من أمور يردّها

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يغني أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته لكن جيلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم ثمرة تستفاد منه فان كان ثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير ثم حقيقة التفكير وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

### ( فضيلة التفكير )

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تسكلمون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فان بهنا المغرب أرضا بيضاء نورها يياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يصعوا الله طرفه عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا أنا في ليلتي حتى مس جلده جلدى ثم قال ذريني أتعبد لربى عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى آتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله مايكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال وعحك يا بلال وما يمنعني أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » قيل

بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الدبلى في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصهباني في التريغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تسكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله الحديث رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض - وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء.

حكم الجلال لموضع  
بشريته وطبيعته  
وعدم وقوفه على حد  
العلم الذى يقتضيه حكم  
الحال ووجود هذه  
الأمر مثير لآثار الشوق  
ولا نغنى بالشوق إلا  
بطلبه تنبعث من  
الباطن إلى الأولى  
والأعلى من أنصبة  
القرب وهذه للطالبة  
كاشفة في المحبين فالشوق  
إذن كائن لا وجه  
لإنكاره وقد قال قوم  
شوق للشاهدة واللقاء  
أشد من شوق البعد  
والغيوبة فيكون في  
حال الغيبة مشتاقا  
إلى اللقاء ويكون في  
حال اللقاء والشاهدة  
مشتاقا إلى زوائد  
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فهن قال يقرؤهن ويملهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لأبراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يمثل بقول القائل :

إذا للره كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظرا اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - قال أمنع قلوبهم التفكير في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في الصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه <sup>(١)</sup> » ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تفر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاة فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آتس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي وراه ساكتا متفكرا أين بلغت ؟ قال الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله بما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركتان مقصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يبكي ف قيل له يبكيك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب . وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو أهو فإذا كان همه وهو أهو لم جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يودون بالذكر على الفكر والفكر على الله كره حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال اسحاق بن خاف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء تفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جارية له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف وظن أنه لاس فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيدي أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنسيم المعرفة والشرب بكأس الحبة من بحر الوداد والانتظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا لها من مجالس ما أجملها ومن شراب ما ألذ طوبى لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

وإفضاله وهذا هو الذي أراه وأختاره . وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله فإذا تحركت اشتد أضاء . النور مزين للشرق والغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أنني إليهم أشوق . وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار . سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأرباب من البعد بعد القرب . سئل بعضهم هل الشوق

وقال الشامي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفریط والندم والرويعة والفكر بكشفان عن الحزم والقطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة فذكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تهم . وقال أيضا الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

### ( بيان حقيقة الفكر ونعته )

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان : أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدق من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيقبل بطله إلى إيثار الآخرة اعتقادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأتقي أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فعبارة مترادفة على معنى واحد ليس تخها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل اللفظ واحدا كما أن اسم الصارم والهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار للمعرفتين من حيث إنه يعبر منها إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع الصور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينتقل عليه اسم التذكر لاسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس بطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التذكر أن تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنسى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة تاج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك تاج آخر وهكذا يتمادى التاج ويتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنفسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعواقق . هذا لمن يقدر على استقمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فاعما منوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالتي لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج للفضى إلى التاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهي في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم للتفكير قد يحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها فقله بممارسته لصناعة التعبير في الإرادة فكأن من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ولو شغل عن سبب معرفته لم يقدر على إبرائه والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأتقي أولى

أعلى أم الحجة ؟ فقال  
الحجة لأن الشوق  
يتولد منها فلا مشتاق  
إلا من غلبه الحب فالحب  
أصل والتوق فرع  
وقال النصر اباضى :  
للخلق كلهم مقام  
الشوق لمقام الاشتياق  
ومن دخل في حال  
الاشتياق هام فيه  
حق لا يرى له أثر ولا  
قرار . ومنها الأنس  
وقد مثل الجنيد عن  
الأنس فقال : ارتفاع  
الحشمة مع وجود  
الهيئة . ومثل  
فو النون عن الأنس  
قال : هو انبساط  
الحب إلى المحبوب قيل  
معناه قول الخليل -  
أرني كيف نجي لآلئ -  
وقول موسى - أرني



بالإيثار وأن الآخرة أبقي من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة . وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرة الخاصة العلم لا غير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالتفكير إذن هو اللبداً والفتاح للخبرات كلها وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فإذن التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذي ينقل من المكروه إلى المحبوب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لهم ينقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والغفلة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته وتورغبت ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والانبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار المرفقين في القلب . وثانيها التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح لقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضي بها للوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنفض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المرفقين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما ينبعث النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنفض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينفض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يصبره ، فإذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لانهايتها والأحوال التي تصورها أن تغلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريها وأنه فباذا تفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجهت في ضبط مجاريها بالإضافة إلى مهجات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليلا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فاتها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

### ( بيان مجارى الفكر )

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بشير الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلترك القسم الآخر ونعني بالدين المعاملة التي بين الصديقين الرب تعالى لجميع أفكار العبد إيمان أن تتلقى بالبعد وصفاته وأحواله وإما أن تتلقى بالمبود وصفاته وأفضاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالبعد إيمان أن يكون نظرا فيها هو محبوب عند الرب تعالى أو فيها هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إيمان أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ولهذا أن يكون في أفضاله وملكه وملكه وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما وبكسيف

أنظر إليك وأنت

لروم :

تخلت قلبى بمالك فلا

يفضك طول الحياة

عن فكر

أستنى منك بالوداد قد

أوحشتنى من جميع

ذا البشر

ذكرك لى مؤنس

يعارضنى

يوعدنى عنك منك

بالظفر

وجينا حكمت

يامدى همى

فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف

ابن السخيرة كتب إلى

عمر بن عبد العزيز

ليكن أنك بالله

واقطعك إليه فان

فه عبادة استأنسوا

بأنه وكانوا في وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثل وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقاءه يضاهاى حال العاشق فلننخذ العاشق المشتهر مثالا ، فنقول : العاشق المستغرق الهم بهشقه لا يدو فكره من أن يتعلق بمشوقه أو يتعاقى بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفضاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعا للذمة ومقويا لهبته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوه حتى ينزله عنها أوفى الصفات التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فان تفكر في شئ خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متما لغيره فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يدو نظره وتفكره محبوه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدا بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفضال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم العاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التي عليها القلب وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالقرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروه التفكير في ثلاثة أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثاني التفكير في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات النجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقى به المرید سائر ما يفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصى] ينبغي أن يفشى الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجلبة هل هو في الحال ملابس لمصيبة بها فيتركها أو لا بسببها بالأسس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغبية والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والممازاة والممازحة والحوض فيها لا ينعى إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والافتراء وبأن لا يجالس إلا صالحا تقيًا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله والإفضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له أنه فكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في معناه أنه يصنى به إلى البقية والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالتهنى عن النكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يصنى الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ومالكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم

أشد استئناسا من الناس في كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون . قال الواسطي : لا يصل إلى عمل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها . وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تحظي به إلا الله تعالى فانك لا تزايد به أنسا إلا ازددت منه هية وتعظيما . قالت راجية : كل مطيع مستأنس وأنشدت : ولقد جعلت في الفؤاد محدنى

يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحترار من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضامة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهم حاصل بالتفكير حقيقة العرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولاً في الفرائض للكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكرة التوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتطير في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لأفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لأفعله وكذلك يقول في سمعه إنى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فإلى أعطله وقد أتم الله على به وأودعني لأشكره فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إنى قادر على أن أقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالأسوال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال القليل فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الأيثار أحوج منى إلى ذلك المال وهكذا يفكر عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلماؤه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بديق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيها يري في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات الهلكتة التي محلها القلب] فيعرفها مما ذكرناه في ربيع الهلكتات وهي امتلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والفتنة والغرور وغير ذلك ويتقدم من قلبه هذه الصفات فان ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلايات عليه فان النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتختلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فتنبئ أن تجرب بحمل حزمة حطبي في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب بناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع الهلكتات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والفتنة وخبث البدخلة كالورأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول إنما عملي يبدى وجارحى وبقدرتى وإرادتى وكل ذلك ليس منى ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على فهو الذى خلقنى وخلق جارحى وخلق قدرتى وإرادتى وهو الذى حرك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وإرادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفى ولا أقوم لنفسى بنفى فاذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الخماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك بنكشاف بند اللوث وكمن كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقياً

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه

مجهول وقد تقدم .

وأبحت جسمى من

أراد جلوسى

فالجسم منى للجلوس

مؤانس

وحبيب قلبى فى القواد

أنيسى

وقال مالك بن دينار:

من لم يأنس بمحادثة

الله عن محادثة الخلقين

فقد قل عليه وعى

قلبه وصنيع عمره .

قيل لبعضهم من معك

فى الدار قال الله تعالى

معى ولا يستوحش من

أنس بربه . وقال

الحراز: الأنس بمحادثة

الأرواح مع المحبوب

فى مجالس القرب .

ووصف بعض العارفين

صفة أهل المحبة

الواصلين فقال: جدد

لهم الود فى كل طرفة

بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فإذا عرف أن الكبير مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتطلى أفعال التواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الثمرة عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن للملائكة المقربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتبع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [ وأما النوع الرابع وهو للنجات ] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهدي في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الريع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي للقربة إلى الله تعالى فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فإذا أراد أن يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لعتاب الله تعالى حتى يثبت له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحتنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتنفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال المنكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في الناقشة في الحساب والمضايقة في التقيير والقطيع ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى التبال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى التبين فيزول دار القرار ثم ليحضر بسوء أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودرجاتها ومقامها وأحوالها وسلسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدها ونعيمها للقيم وملكيها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التزهد عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فإنه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأ العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتى جوامع الكلم <sup>(١)</sup> وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

بدوام الاتصال وآوام  
في كنهه بحقائق  
السكون إليه حتى  
أنت قلوبهم وحت  
أرواحهم شوقا وكان  
الحب والشوق منهم  
إشارة من الحق إليهم  
عن حقيقة التوحيد  
وهو الوجود بالله  
فذهبت مناهم وانقطعت  
آمالهم عنده لما بان  
منه لهم ولو أن الحق  
تعالى أمر جميع الأنبياء  
يسألون لهم ما سألوه  
بعض ما أعد لهم من  
قديم وحدانيته ودوام  
أزليته وسابق علمه  
وكان نصيبهم معرفتهم  
به وفراغ همهم عليه  
واجتماع أهوائهم فيه  
فصار يحسد من  
عبيده العموم أن

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم.

العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أوسكره واهة والبتدى. ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يسمر قلبه بالأخلاق الحمودة والقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن السكراء وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية للطلب بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحواله ومقاماته فيبقى كالمهتوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة الشاق. فأما ما ذكرناه فهو نسكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فحق ينتم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصليح حالي في التوكل فقال الحسين أفيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين. وأما التزهد عن الصفات المهلكات فيجربى مجرى الخروج عن السدة في النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجرى تهية المرأة جهازها وتزئيق الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب، فكذا استغرقت جميع عمرها في تبرة الرحم وتزئيق الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب، فكذا ينبغي أن تفهم طرائق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة فدونك وإتمام البدن بالأعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون وإذ اعرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبى أن تتخذ ذلك عادتك وديندك صباحا ومساء فلا تنفل عن نفسك وعن صفاتك البعده من الله تعالى وأحوالك للمقربة إليه سبحانه وتعالى إلى كل مرید فينبى أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات للمنجات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه إن سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشراء الطعام وشراء الوقاع وحب المال وحب الجاه . ومن المنجات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهدي في الدنيا ، والاخلاص في الأعمال ، وحنن الخالق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وركله إلى نفسه لم يقدر على محو أفل الرذائل عن نفسه فيقبل على الذمعة الباقية وهكذا يعمل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجات ، فاذا اتصف بواحدة منها كالنوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر .

رفع عن قلوبهم جميع  
المحوم . وأنشد في  
معناه  
كانت قلبي أهواء  
مفرقة  
فاستجعت إذا رأيتك  
النفس أهواء  
ضار يصدني من  
كنت أحسنه  
وصرت مولى الورى  
مدصرت مولائي  
تركت للناس دينام  
ودينهم  
شعلا بذكرك ياديني  
ودنيائي  
وقد يكون من الأنس  
الأنس بطاعة الله  
وذكره وتلاوة كلامه  
وسائر أبواب القربات  
وهذا القدر من الأنس  
نعمة من الله تعالى  
ومنحة منه ولكن

وأما كثر الناس من الموددين من الصالحين فينبغي أن يشتوا في جرائم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والتمنيّة والرأى والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء، وموالاته الأولياء والداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بصيانة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يطلب عليهم نوع من العصية فينبغي أن يكون تقدم لها وتفكرهم فيها لا في معاصيهم بمنزل عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يغلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا يجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وإن ردّ كلامه لم يغل عن غيظ وأفة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلامه غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعتراض لم يغل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها ينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له الاعتقاد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلفظه أشد فرحا واستبشاراً مما يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاته وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغايروا النساء فيشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستندة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما يكشف ذلك بهذه العلامات فتنة العالم عظيمة وهو إما ممالك وإما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى ومهازل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يغنى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الانس إذا قالوا لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندurst العلوم من بين الخلق وليقل لهم إن دين الاسلام مستغن عنى فإنه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ولومت لم تهتم أركان الاسلام فإن الدين مستغن عنى وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم خيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وثوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرابطة والعلو يحلهم على كسر القيود وهزم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياضة والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز لنشر العلم أقواما لاصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»<sup>(١)</sup> و «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»<sup>(٢)</sup> فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذور النفاق

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم.

ليس هو حال الأنس الذي يكون للجبين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والمواجس وحقيقته عندى كنس الوجود بفعل لأنح العظمة وانتشار الروح في ميادين الفسوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهية وفي الهية اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس وهذا الذي وصفناه من أنس القادات وهية القادات يكون في مقام البقاء بعد العبور على

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال يثبت النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل »<sup>(١)</sup> وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان ضاريان أرسلاني زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم »<sup>(٢)</sup> ولا ينقل حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والحرب من محاسنهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن العالم في التنظير لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم التي فاما أمثالا فينبى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطما إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فإعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيئا هرب منه ومن رجاشيا طلبه وقد علمنا أن الحرب من النار ترك الشبهات والحرام وبترك للعاصي ونحن منه محكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذا متنا مات معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا بهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم العامة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتمتع بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع الهلكات والانصاف بجميع النجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معولاً مكذرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتفنى عليه لغة الشهادة ولا طريق له في كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان اللام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبحارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصير الحفاس بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطيق البتة بل يغشى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويغشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث الهمش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله تعالى يورث الحيرة والذهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تختم له بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن للكان ومتره عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعف طاقة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يتعظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحق من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن السكين أن الجلالة

(١) حديث حب المال والجاه يثبت النفاق في القلب الحديث تقدم (٢) حديث ما ذنبان جاثان أرسلاني زريبة غنم الحديث تقدم .

محر القناء وما غير  
الأنس والهيبة اللذين  
يذهبان بوجود القناء  
لأن الهيبة والأنس  
قبل القناء ظهرا من  
مطالعة الصفات من  
الجلال والجمال وذلك  
مقام التلويح وما ذكرناه  
بعد القناء في مقام  
التمكن والبقاء من  
مطالعة الذات ومن  
الأنس خضوع النفس  
المطمئنة ومن الهيبة  
خضوعها والخضوع  
والخشوع يتقاربان  
ويفترقان بفرق لطيف  
يدرك بإعناء الروح .  
ومنها القرب قال الله  
تعالى لنبيه عليه الصلاة  
والسلام - واسجد  
واقرب - وقد ورد  
« أقرب ما يكون العبد

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الانسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالس على سريره وبين يديه غلمان يتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طير أن لا أنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أنقص مني أف يكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثله وهو خالقي ومصوري وعقولي أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان لجهول ظلم بما كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخظرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره ومجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلالة وكبريائه وتقدمه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى تقاض مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أنا نطبق النظر إلى الأرض مهما استتارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لا ظلة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته اليوم بنفسه كأن قولم نور الأجسام بنور الشمس الضئيلة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يفيض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهري بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

( بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى )

اعلم أن كل مافي الوجود بما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لكتب بذلك لغد البحر قبل أن ينفد عشر عشره ولكننا نشير إلى جل منة ليكون ذلك كالتال لما عدها . فنقول للوجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكما من الوجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى - ويخلق ما لا تعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يحلون - وقال - وننشك فيما لا تعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجلتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن تفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر فكاللائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويضيق فلتعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي الدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهد بكواكبها ومحسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وتلوجها ورعدها وبرقها وصور أعفها وشبهها وعواصفها رياحها فمن هذه الأجناس الشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جلس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام وينشعب كل قسم

من ربه في سجوده  
فالساجد إذا ذيق طعم  
السجود يقرب لأنه  
يسجد ويطوي  
بسجوده بساط الكون  
ما كان وما يكون  
ويسجد على طرف  
رداء العظمة يقرب .  
قال بعضهم إني لأجد  
الحضور فأقول يا الله  
أو يارب فأجد ذلك  
على أنقل من الجبال  
قيل ولم قال لأن النداء  
يكون من وراء حجاب  
وهل رأيت جليسا  
بنائى جليسه وإنما  
هي إشارات وملاحظات  
ومناغاة وملاطقات  
وهذا الذي وصفه مقام  
عزير متحقق فيه  
القرب ولكنه مشعر  
بتعوي ومؤذن بسكر



إلى أصناف ولا نهاية لانشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة  
وجميع ذلك مجال القسرك فلا تحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا  
فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك  
شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلالة وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث  
على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار  
آيات لأولي الأبصار - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر  
في بعض الآيات ، فمن آياته الإنسان مخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من الجوانب  
الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنه ، فيا من هو غافل  
عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه  
العزیز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قتل الإنسان  
ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه قدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء  
أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون - وقال تعالى سألتم  
بك نطفة من متى متى ثم كان علقه خلق فسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه  
في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال  
- إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة علقه والعلقة مضغة واللضغة عظاما  
فقال تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة  
علقه - الآية ، فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزیز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر  
الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنت كيف أخرجهما  
رب الأرباب من الصاب والتراب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف  
قدم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف  
استجاب دم الحيض من أعماق المروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسقاء بهاء  
الحيض وغذاء حتى ينجوا ربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاء مشرقة علقه جمرات ثم كيف جعلها  
مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والمروق والأوتار واللحم  
ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والمروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر  
والأنف والتم وسائر الناذن ثم مديد الرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأظفار ثم كيف  
ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والثلاثة والأمعاء كل واحد  
على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء  
بأقسام آخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة  
منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في أحاديث هذه الأعضاء  
من المعجائب والآيات لانتفى في الأعمار فانظر الآن إلى النظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقتها  
من نطفة سخيصة رقيقة ثم جعلها قواما لبدن وعماد له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة  
فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الإنسان محتاجا  
إلى الحركة بجملة بدنه ويبيض أعضاءه مفتقرا للتدبر في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل  
عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وقد شكل كل واحدة منها على وفق الحركة  
الطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتا من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غاب  
نفسه في نور روحه  
لغلبة سكره وقوة محوه  
فاذا محوا آفاق تتخلص  
الروح من النفس  
والنفس من الروح  
ويعود كل من الصبد  
إلى محله ومقامه فيقول  
يا الله ويلرب بلسان  
النفس للطمثنة العائدة  
إلى مقام حاجتها وهل  
مبسوديتها والروح  
تستقل بفتوحه وبكمال  
الحال عن الأقوال  
وهذا أتم وأقرب من  
الأول لأنه وفي حق  
القرب باستقلال الروح  
بالفتوح وأقام رسم  
المسبودية يعود حكم  
النفس إلى محل الانتصار  
وحظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفر اغاصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا الفاصل اعتذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كهبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فيها ستة تخمس المقحف وأربعة عشر للحي الأعلى واثنان للحي الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريكات وزيادات وتقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فينصل به من أسفله عظم الحوض وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلانطول بذلك عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان ما تناه عظم وعمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل الفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نقطة سخيفة رقيقة ، وليس للقصور من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء وللمرحون وإعما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ومدبرها وخالق بين أشكالها وأقدارها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فنتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهي مختلفة القادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفانها لوقفت واحدة من جلستها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرين وعددها ومنابتها وانشعاعاتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فلنذكر بحال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والمنة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغاريبها فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطى ليها وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمما أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو مخلقا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلداً أو شعرا لم يقدر أن يخلقوا ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة

بتوفر نصيب الروح  
باقامة رسم العبودية  
من النفس - وقال  
الجنيد إن الله تعالى  
مقرب من قلوب  
عباده على حسب  
ما يرى من قرب قلوب  
عباده منه فانظر ماذا  
يقرب من قلبك .  
وقال أبو يعقوب  
السوسي مادام العبد  
يكون بالقرب لم يكن  
قريبا حتى يقرب عن  
رؤية القرب بالقرب  
فاذا ذهب عن رؤية  
القرب بالقرب فذلك  
قرب وقد قال قائمهم:  
قد تحققتك في الله  
ر فناجك لسان  
فاجتصنا لمعان  
وافترقنا لمعان

إنسان مصور على حائط تأتى النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تسببك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك عمله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد والحائط وبالقدرة والعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكبر تسببك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة خلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها للنشابة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها مبيعة بصيرة عالة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهياكلها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلبها وتدفع الأذى عنها ثم أظهر في مقدار عذمة منها صورة السموات مع اتساع اكتافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت قرده إلى صاخبها ولتحس بدبيب الهوام إليها وجعل فيها تحريكات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصد لها دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعه وأغذيته وليستنشق بمنفذ للتخزين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعها اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا مما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسروالقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبياض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متساقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتتطبق على الفم فتسد منفذه ولتحميها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهياكلها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والنقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكبرتها ثم خلق الخارج مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والحشونة واللينة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه بالجلية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لتضج الغذاء والسكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بمجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بمجذب الصفراء عنها والكلية تخدمها بمجذب للثانية تخدم الكلى بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستبطنوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبعا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التمد  
ظلم عن لحظ عياني  
فلقد صيرك الوجـ  
د من الأحشاء داني  
قال ذو النون ما ازداد  
أحد من الله قرابة إلا  
ازداد هيبه . وقال  
سهل أدنى مقام من  
مقامات القرب الحياء  
وقال النصراني  
باتباع السنة تال  
المعرفة وبأداء  
الفرائض تال القرية  
وبالمواظبة على النوافل  
تال المحبة . ومنها  
الحياء والحياء على  
الوصف العام والوصف  
الخاص فأما الوصف  
العام فما أمر به رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
في قوله «استحيوا من  
الله حق الحياء قالوا

ضما غير تام كانت منفردة له وإن بسطها وضم أصابها كانت مجردة له ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخصى الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكمة لكان أهجر الخلق وأضعفهم ولم يتم أحد مقامه في حك بدنه ثم هذى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والنظرة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يضر على موضع الحك إلا بعد تب طول ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الطاء والقشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها هيئا فشيئا ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كل قدرته إلى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبل حتى تنكس ونحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب للنفذ كانه عاقل صبر بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التمام الذي ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرت والهم سائما خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلة الثدي تقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا باليد للتمس تدريجا فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك الضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الإنسان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتنذى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يواقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى الضغ والطحن فأثبت له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك القنات اللينة ثم حثن قلوب الوالدتين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل والمداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كنورا أو شكورا مطيعا وأصايا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن هيئا مذكورا إما خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة بهزك هجاب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقسا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والخطا وأنه كيف نفسه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكل صنعة وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفكر عن صانعه ومصوره فلا تدعشه عظيمته ولا يحيره جلالة وحكمته فهذه نبذة من هجاب بدنه التي لا يمكن استنفاذاها فهو أقرب مجال لتسكرك وأجل شاهد على عظمة خالقك وأنت فاعل عن ذلك مشغول يطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن مجموع فتا كل وتشتع فتنام وتنسى فتجامع وتتضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصة الإنسان التي حجب البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وهجاب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل البعد في زمرة اللانكسة للقرين ويحشر في زمرة النبيين والصدقيين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا شهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحي يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحي من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلو ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء وهذا الحياء من اللصامات وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال إني لأغسل في البيت للظلم فأطوى حياء من الله . أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس للبفسداهي يقول سمعت أحمد السقطي

السياسة على ذلك وأما هو قد خلق الله القسرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق التفكير في قسك تفكر في الأرض التي هي مفرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبيلا فجاءا وجعلها ذلولا تمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسي فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى همز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم قال تعالى - والسماء بانيها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فقم للهادون - وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أكتفى في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرفد للأموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأخضرت وأنبثت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع للماء نعمتها فجعل العيون وآسال الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر مائعا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به خيون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لأغصان مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح بفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فحق كان في النواة نطفة مطوقة ببقايد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي ونفس ظاهرها وباطنها قراها تراها متشابهة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبثت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة لكل واحد طعم وريح ولون وهكل بخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعها وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الفرية فهذا النبات يذو وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قلع الصفراء من أحماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليها وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالتخلل تؤبر والسكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت بيت البلد في الأرض وبعضه بفرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لاقضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة بسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروز واللؤلؤ وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروز واللؤلؤ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والسكرية والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لطيب الطعام ولو خلقت عنه هذه لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبعة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقة لا يمكن تناول متقال منه

ابن صالح يقول سمعت  
محمد بن عبدون يقول  
سمعت أبا العباس  
المؤدب يقول قال لي  
سري : احفظ عنى  
ما أقول لك إن الحياة  
والأنس يطوفان  
بالقلب فإذا وجد فيه  
الزهد والورع حطا  
وبالإرحلا والحياة  
إطراق الروح إجلالا  
لعظيم الجلال والأنس  
التذاذ الروح بكمال  
الجمال فإذا اجتمعا  
فهو الغاية في النى والنهاية  
في العطاء وأنشد  
شيخ الاسلام :  
أشفاقه فإذا بدا  
أطرق من إجلاله  
لاخيفة بل هية  
وصيانة لجماله  
الموت في إداره  
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطيباً لطعامك إذا أكلته فبينما تعيش وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثاً ولا لباً ولا هزلاً بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه واطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بعين ما خلقناهما إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يعيش وانقسام ما يعيش إلى ما ينشئ على رجلين وإلى ما ينشئ على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما شاهد في بعض الحشرات ثم انقسامها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرته مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقّة والنحلة والنحلة أو الفسكيوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلقائها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نهدر على ذلك فترى الفسكيوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع لها دونه حتى يمكنه أن يصل بالحيط بين طرفيه ثم يبتدىء ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب يلتصق به ثم ينفذ إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الحيط ثم كذلك يردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسياً حتى إذا أحكم معاقده القمط ورب الحيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادري إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى نفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الضنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أولاً هادي له ولا معلم أفيتشك ذو بصيرة في أنه ممكن ضعيف عاجز بل القليل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكائه وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لظاهرة الحكيم وخالقه القادر العليم فالصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للبر وجلاله وكما لا قدرته وحكمته ما تعجب فيه الأبواب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنهم أبكروا الشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولدوداً تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجب ولا لسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي آفها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لحلقها وأكادنا لهم في ظلمهم وإقامتهم وآتية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والقفارات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فإنه ما خلقها إلا بطل محيط بجميع منافعها سابق على خاقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استمالة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فامد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المارفين بتوحيده فما للخلق إلا الأذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والازرار بالعجز عن معرفه جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا  
وأروم طيف خياله  
قال بعض الحكماء  
من تكلم في الحياء  
ولا يستحي من الله فيما  
يتكلم به فهو مستدرج .  
وقال ذو النون : الحياء  
وجود الهيبة في القلب  
مع حشمة ما سبق منك  
إلى ربك . وقال ابن  
عطاء . العلم الأكبر  
الهيبة والحياء فإذا  
فهب عنه الهيبة  
والحياء فلا خير فيه .  
وقال أبو سليمان : إن  
العباد عملوا على أربع  
درجات على الخوف  
والرجاء والتسليم  
والحياء وأشرفهم منزلة  
من عمل على الحياء  
لما أيقن أن الله تعالى  
يراه على كل حال

معرفة فسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورافته . ومن آياته البحار العميقة المكتشفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإسطبل في الأرض <sup>(١)</sup> » فأنسب إسطبل إلى جميع الأرض . وأعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها تأمل الآن عجائب البحار فأن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاعف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سعة أضاعف سعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فيزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحار مثله وأضاعفه وفيه أجناس لا يسدها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف للأحيين موارد الرياح ومهاجها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع التبول للتطبيع كأنه منفصل وسخر للتصرف قابل للانفصال والانصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو هلك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من آدمي وكيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها متسع للكرو ومجال ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكيمته فيها منادية أرباب القلوب بنفائسها قائلة لكل ذي لب أماراني وترى صورتي وتركبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدني أنظن أنني كوت نفسي أو خلقتي أحد من جنس أوما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله يجعل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقي وأجفاني وجهي وخدي وشفتي قري التفويس يظهر شيئا فشيئا على التدرج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للآم ولا للآب ولا للنطفة ولا للرحم أقام هذا النقاش بأعجب مما تشاهده بنقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإسطبل في الأرض تقدم ولم أجده .

استحيا من حسنة  
أكثر مما استحيا  
العاصون من سيئاتهم .  
وقال بعضهم : الطالب  
على قلوب المستحيين  
الاجلال والتعظيم دائما  
عند نظر الله إليهم .  
ومنها الاتصال . قال  
النوري : الاتصال  
مكاشفات القلوب  
ومتشاهدات الأسرار .  
وقال بعضهم الاتصال  
وصول السر إلى مقام  
الدهول وقال بعضهم  
الاتصال أن لا يجهد  
العبد غير خالق  
ولا يتصل بغير خالقه  
لتعير صانعه . وقال .  
سهل بن عبد الله  
حركوا بالبلاء فتحركوا  
ولو سكنوا اتصلوا .  
وقال يحيى بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لاتعجب من هذه السجائب ولا تفهم بها أن الذي صور  
ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وضع فبين  
الفاعلين من البايئة والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لاتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه  
أعجب من كل عجب فان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنك من التبيين مع هذا البيان  
جدير بأن تعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبائه  
فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بزمه وثلاثه فله الخلق  
والأمر والامتنان والفضل واللفظ والقهر لا أراد لحكمه ولا معقب لقضائه [ومن آياته الهواء اللطيف  
المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض] لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى  
بالمين شخصه وجمته مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها  
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كأنه اضطرب أمواج  
البحر فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هبته فان شاء جعله شرايين يدي رحمة كما قال سبحانه - وأرسلنا  
الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعمله وإن شاء جعله عذاباً  
على العصاة من خلقه كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس  
كأنهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطيف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالتفتيح  
يتعامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تغمسه في وجه الماء فيسب فيه  
فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه  
الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يفوس في الماء لأن الهواء ينقبض عن القوس في الماء فلا يفصل  
عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف  
كالذي يقع في بحر فيتعلق بذيل رجل قوي يمتنع عن الهوى في البحر فالسفينة بمقعرها تثبت بأذيال  
الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والقوس في الماء فسبحان من خلق الركب الثقيل في الهواء اللطيف  
من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والبرق والرعد والبرق  
والأمطار والثلوج والشهب والمواقي فمى عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة  
ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عباداً - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى  
تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى - والسحاب السخريين السماء والأرض - وحيث - تعرض للبرق  
والبرق والسحاب والمطر فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنك  
فالبيئة تشاركك في هذه المعرفة فارفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم اللاألهي فقد فتحت عينيك  
فأدركت ظاهرها فتمض عينك الظاهرة وانظر بعصرتك الباطنة ترى عجائب باطنها وغرائب  
أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه تأمل السحاب الكثيف المظلم كيف  
تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رعايته حامل  
لقاء الثقل وممسك له في جو السماء إلا أن يأذن الله في إرسال الماء وتطبيع القطرات كل قطرة بالقدر  
الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاء فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات  
متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم  
لها لا تتدخل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون  
والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة  
لمجز حسابها لجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي : العمال أربعة  
ثائب وزاهد ومشتاق  
وواصل فالثائب  
محبوب بتوبته  
والزاهد محبوب بزهده  
والمشتاق محبوب  
بماله والواصل لا يحبه  
عن الحق شيء . وقال  
أبو سعيد القرشي :  
الواصل الذي يصله الله  
فلا يخشى عليه القطع  
أبداً والمتصل الذي  
يجهده يصل وكما دنا  
القطع وكان هذا  
الذي ذكره حال  
المريد والمراد لكون  
أحدهما مبادئاً  
بالكشف وكون  
الآخر مردوداً إلى  
الاجتهاد . وقال  
أبو يزيد : الواصلون  
في ثلاثة أحرف مهم



لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة القلانية التي في ناحية الجبل القلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت القلاني هذا مع ما في انقصاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن للندوف من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر لا أحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس له مؤننين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا لعميان الجاهدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلمته فيقول الجاهل الغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقیل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله وبظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له ما معنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقى الماء المسبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقیل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيمضى كل جزء من كل ورقة ويمجرى إليها في تجاويف عروق شجرية صفار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير للمدود في طول الورقة عروق صفار فكأن الكبير نهروما انتشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل للماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك يجذب جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وطاقته عجائب السموات قد فاته الكل تحقيقاً فالأرض والنبع والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فأمين سورة إلا وتشتمل على تفصيلها في مواضع وكمن قسم في القرآن بها كقوله تعالى - والسماء ذات البروج، والسماء والطارق، والسماء ذات الحجب، والسماء وما بناها - وكقوله تعالى - والشمس وضحاها والقمر إذا تلالها - وكقوله تعالى - فلا أقسم بالجنس الجوار الكنس - وقوله تعالى - والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - فقد علمت أن عجائب النطفة القنطرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأثنى على التفكير في خلق السموات والأرض - وقال الرسول الله صلى الله عليه وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» (١) أي تجاوزها من غير تفكير وضم للعرضين عنها فقال - وجلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون - فأى نسبة لجميع البعابر والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يباغ الكتاب أجله ولذلك ساء الله تعالى محفوظا فقال - وجلنا السماء سقفا محفوظا - وقال سبحانه - وبينا فوقكم سماءً ثغالباً - وقال - أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفعت محكما قسواها - فانظر إلى الملكوت ترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم

(١) حديث وبل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي قوله تعالى - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - تقدم -

له وشغلهم في الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعد . وقال الجيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال ربيع أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبداً . وقال ذوالنون ما رجعت من رجعت إلا من الطريق وما وصل إليه أحد قرع عنقه . واعلم أن الاتصال وللواصلة أشار إليه الشيخ وكل من

تشاركك في هذا النظر فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله - وكذلك ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمضى فتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأي قلمي ربى . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مقرك ثم الهواء الكثيف لك ثم النبات والحايوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم اللاسكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما فينبك وبين هذه المقارن العظيمة والسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفتك برك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه فقبها ذا أضكر وإلى ماذا تطمع فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وحسها وقرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة المقر وبعضها على صورة الحل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بمسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف الواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت العاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إماتته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطلق في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا وقته تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي يجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لافي كبر جسم ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فانت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بحواشيها وقد اتفق الناظرين على أن الشمس مثل الأرض مائة وثلاثين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها (١) ثم الكواكب

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال « في نار الله الحامية لولا ما زعمها من أمر الله لأهلك

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفق وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى بتمام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين وللشاهدة مفعيا في

التي تراها أصفرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها يتسنى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وهذا تعرف ارتفاعها وبعدها إذ لبعده صارت ترى صفارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال - رفع صمكتها ففساها - وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام<sup>(١)</sup> فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضمافا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتعص بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة قد مدار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت فافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام<sup>(٢)</sup> فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورته مع اتساع أكتافها في حدة العين مع صفرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفة فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبح يموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكروا وصف حسنه طول عمره وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنيانه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت بيطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تلاء بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مائتا كلة بهيمة فتكون البهيمة فوقك بشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقفون بألسنتهم بين يديك ويضمررون خبايا الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأتقسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا القورور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملك وما مثلك ومثل غفلتك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي خربت في قصر مشيد من تصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواويرى والقلبان وأنواع الدخائر

ما على الأرض وللطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقت<sup>(١)</sup> حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصره عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصره سماع من أبي ذر<sup>(٢)</sup> حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانهم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا .

شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى القات لحواص القريين وهذا القام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا لا خواص لمع وهو سريان نور الشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قلبه وهذا من أعلى رتب الوصول فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول هيئات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدى فكيف في العمر القصير الدنيوى ومنها

والتماس فإيا إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تحدث لو قدرت على النطق إلا عن بينها وغداها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمنزلة عنه وعن التفكير فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبينها إلى غيره وكما غفلت الخلة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن مكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه الخلة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه الخلة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للنحلة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب تصرفك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في السموات وتعرف من عجائب ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة القربون كما سرافيل وجبريل وغيرهم جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - فهذا يان معاقدا للجل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن استفاد من الفكر في الخلق لاحتالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيد محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل مافي الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر مازرق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضيف إلى هذا ما فضلناه في كتاب الشكر فانا نظرننا في ذلك الكتاب في فضل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرننا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرننا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والوقوف ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن ينجبنا منزلة أقدام الجبال بتمه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

( تم الكتاب التاسع من ربيع النجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه )

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما  
حالان شريفان قال الله  
تعالى - والله يقبض  
ويبسط - وقد تكلم  
بهما التيسوخ وأشاروا  
بإشارات هي علامات  
القبض والبسط ولم  
تجد ككشافا عن  
حقيقتيهما لأنهما كنهوا  
بالإشارة والإشارة  
تخضع الأهل وأحببت  
أن أشبع الكلام فيهما  
لهذه يشوق إلى ذلك  
طالب ويجب بسط  
القول فيه والله أعلم .  
واعلم أن القبض  
والبسط لهما موسم  
معلوم ووقت محتم  
لا يكونان قبله ولا  
يكونان بعده ووقتهما  
وموسمهما في أوائل حال  
الحبة الخاصة لافي نهايتها

## ( كتاب ذكر الموت وما بعده )

( وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجواري والعلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التعم بالطعام والشراب إلى التترغ في التراب ، ومن أنس العنصرة إلى وحشة الوحدة ، ومن الضجع الوثير إلى الصرع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، وانخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا - فسيبجان من اتقوا بالقهر والاستيلاء ، واستأثروا باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقائه وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فجدد بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، وإقامة مواعده ، والجنة والنار مورد ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعرج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وترقب إلا له ، وتحقيق بأن بعد نفسه من الموت وبراهها في أصحاب القبور ، فإن كل ماهو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت <sup>(١)</sup> » وإن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأصغاء إلى المذكرات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمم الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحذا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فمات في من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

( الشطر الأول في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب : )

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

( كتاب ذكر الموت وما بعده )

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة  
الخاصة فمن هو  
في مقام المحبة العامة  
الثابتة بحكم الايمان  
لا يكون له قبض ولا  
بسط وإنما يكون له  
خوف ورجاء وقد يجد  
شبه حال القبض وشبه  
حال البسط ويظن  
ذلك قبضا وبسطا  
وليس هو ذلك وإنما  
هو ثم يستريح فيظنه  
قبضا واهتزاز قضائي  
ونشاط طبيعي يظنه  
بسطا والهم والنشاط  
يصدران من محل  
النفس ومن جوهرها  
لبقاء صفاتها ومادامت  
صفة الأمانة فيها بقية  
على النفس يكون منها  
الاهتزاز والنشاط والهم  
وهج ساجور النفس

## ( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره )

اعلم أن التمهك في الدنيا المسكب على غرورها المحب لشهواتها بفعل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أو لك هم الدين قال الله فيهم - قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ. أو عارف منته أما التمهك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبش به من قلبه الخوف والحشية فينبى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره لقاءه»<sup>(١)</sup> فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجه رضاه فلا يعد كارهًا للقاءه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء وإلا التحق بالتمهك في الدنيا وأما العارف فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقاءه لحبيه والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطنه بحسب الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفلق من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فأذن التائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثوابه وفضل فإن التمهك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفوته وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

## ( بيان فضل ذكر الموت كيفما كان )

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر هَازِمِ اللذات»<sup>(٢)</sup> معناه نفصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها صمينا»<sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»<sup>(٤)</sup> «وإنما سبب هذه القضية كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت»<sup>(٥)</sup> «وإنما قال هذا

## ( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه )

(١) حديث من كره لقاء الله كره لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثرُوا من ذكر هَازِمِ اللذات الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها صمينا البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلًا بسند حسن .

والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة بصير ذاحل وذاق قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايقان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي يقبضك عمالك ويبسطك فيها له وقال النوري يقبضك بآيك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبها وظهور البسط لظهور صفة القاب وغابته

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداومة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والإطلاق تحفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) «وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصفائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنبه الكبائر وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراساني «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعجلس قد استعلي فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت» (٢) وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا» (٣) «وقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالموت مفرقا» (٤) «وقال عليه السلام «كفى بالموت واعظا» (٥) . «وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال: اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (٦) . «وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فاحسنوا الثناء عليه ، فقال: كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك» (٧) «وقال ابن عمر رضي الله عنهما «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال: أكثرهم ذكر الموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (٨) «وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع ابن خثيم ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسالوني إلى ربى سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تبعى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعنا عن لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج الرابدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بعجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مر سلا وروينا في أمالي الخلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقا الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الجبلي مر سلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكاه باسناد جيد .

والنفس ما دامت لولامة  
فتارة مغلوبة وتارة  
غالبة والقبض والبسط  
باعتبار ذلك منها  
وصاحب القلب تحت  
حجاب نوراني لوجود  
قلبه كما أن صاحب  
النفس تحت حجاب  
ظلماني لوجود نفسه  
فاذا ارتقى من القلب  
وخرج من حجاب  
لا يقيد الحال ولا  
يتصرف فيه فيخرج  
من تصرف القبض  
والبسط حينئذ فلا  
يقبض ولا يبسط مادام  
متخلصا من الوجود  
النوراني الذي هو القلب  
ومتحققا بالقرب من  
غير حجاب النفس  
والقلب فاذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وذل مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قاتلا يقول  
في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائمين فوالله ما ترام إلا والهيمن . وقال أشعث كنا  
ندخل على الحسن فأنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها إن امرأة  
اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أكرهى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق  
قلبا فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يطر جلد له  
دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى يتخلع أوصاله فإذا ذكر الرحمة رجعت  
إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن  
عبد العزيز لبعض العلماء عظمي فقال ألت أول خليفة تموت قال زدني قال ليس من آباءك أحد إلى  
آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا في داره  
فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلوب ساعة  
واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نقص على أهل النعم نعيمهم  
فاطلبوا نعيمًا لموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش  
ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأبي هرون :  
أعجبين للموت ؟ قالت لا ، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته  
( بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب )

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكركم له ومن يذكركم ليس  
يذكركم بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا يجمع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ  
العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة  
أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل  
فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وجميع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله  
فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف يحا التراب  
الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتما أولادهم وضيعوا  
أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجلا رجلا وفصل في قلبه حاله  
وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه  
بعوادة الأسباب وبركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت  
الذريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق  
وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما  
لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى  
جاء الموت في وقت لم يحتسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع صمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فند  
ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كففلتهم وستكون عاقبتهم كما قبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله  
عنه : إذا ذكرت الموتى فقد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ  
بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غدا بأوراخا إلى الله عز وجل تضعونه  
في صعد من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب فلازمة هذه الأفكار وأما لما هم  
دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب حتى يغاب عليه بحيث يصير نصب  
عينه فعند ذلك يوشك أن يستمد له ويتجافى عن دار القروور وإلا فالذكر يظهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء  
والبقاء يسود إلى  
الوجود والنوراني الذي  
هو القلب فيعود القبض  
والبسطة إليه عند ذلك  
ومهما تخلص إلى الفناء  
والبقاء فلا قبض ولا بسطة  
قال فارس أولا القبض  
ثم البسطة ثم لا قبض  
ولا بسطة لأن القبض  
والبسطة يقع في الوجود  
فأما مع الفناء والبقاء  
فلا ثم إن القبض قد  
يكون عقوبة الإفراط  
في البسطة وذلك أن  
الوارد من الله تعالى  
يرد على القلب فيمتلئ  
القلب منه وحوافرها  
واستبشارا فتسترق  
النفس السمع عند  
ذلك وتأخذ نصيبها  
فإذا وصل أثر الوارد



قليل الجدوى في التحذير والتنبية ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتهام بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور اقربت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .  
( الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته )

### ( فضيلة قصر الأمل )

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لضعفك فانك يا عبد الله لا تدري ما معك غدا <sup>(١)</sup> » وروى طي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويمنع وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن الدين أبناء والدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتفعت مولية ألا إن الآخرة قد ارتفعت مقبلة ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل <sup>(٢)</sup> » وقالت أم النضر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون <sup>(٣)</sup> » وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة أطول الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عينا إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ولا لقيت لقمة إلا ظننت أنى لأسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بنى آدم إن كنتم تقولون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده - إن ما نؤعدون لآت وما أنتم بمعجزين - <sup>(٤)</sup> » وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبأه <sup>(٥)</sup> » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فحز عودا

### ( الباب الثاني في طول الأمل )

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث كنى في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث طي إن أعد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلامه ضعيف (٣) حديث أم النضر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى قالوا وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقى في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبرانى في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب بإسناد ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبأه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بإسناد ضعيف .

إلى النفس طنت بطبعها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا فقس لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تهر بالطنبان تارة وبالصبيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض وما دام روحه وأنس ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكتف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل <sup>(١)</sup> وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته النايا وقع في الهرم <sup>(٢)</sup>» قال ابن مسعود وهذا الهرم وهذه الخوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الخوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الخوف شوارع إليه فأمر به أخذه فإن أخطأته الخوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبدالله «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا وذلك الأمل يعني الخط الخارج <sup>(٣)</sup>» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل <sup>(٤)</sup>» وفي رواية وتنبأ معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل <sup>(٥)</sup>» وقبل بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يشير بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل ففسأله عيسى عن ذلك فقال بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فممت إلى مسحاتي وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم يجب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء <sup>(٦)</sup>» وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل <sup>(٧)</sup> الآثار : قال مطرف بن عبدالله لو علمت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتت نساؤه بعيش ولانامت بينهم الأسواق وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولا ههما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحق ولولا ذلك لم يهناه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

ولا يستوجب صاحبه النفس سببا إذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء إلى الله وإذا لم يلتجئ بالايواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى الممنوع منه فمن ذلك القبض في بعض الأحيان وهذا من أطف الذنوب الموجبة للقبض وفي النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ثم الحروف والرجاء لا يدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة لأنهما من ضرورة الإيمان فلا يعدمان وأما القبض والبسط

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الزاهر مزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبدالله بن الشخير وقال حسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل وفي رواية ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلكم يجب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهه ولا أدري من حوشب.

عمزت الدنيا بقله عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجزتني حتى أضحكنتي مؤمل الدنيا ولذوت بطابه وغافل وليس يفقل عنه وضاحك مله فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأخية محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أي الأعمال أبلغ عنكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهدي الدنيا قصر الأمل ليس يأكل الفليظ ولا لبس العباءة وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سيدة لا تنسل قبضك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل باد عنقه والسيب عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا رأيتني قد أتيت عظما وكيف أوئل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبوهاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مصرور فقال له أستاذة إيش هذا معك فقال لوزات دفعها إلى أخ لي وقال أحب أن تنظر عليا فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلتك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه رغبوا ورهبوا ولا يطلون عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتتقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا عسى بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات الناياء كم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وإعما تفرعين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإعما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا ينهي عنه نفسي فتخسر صفقة وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به النجوم لانكدرت ولو عنيتم به الجبال للدايت ولو عنيتم به الأرض لشقةفت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صاثرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب ولانقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادي بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطيء أمه خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول جعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميط سمعت أبي يقول أيها الغتر بطول محنته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها الغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا فطم من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبا لصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظرا لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو بكر الصديق بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى يوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك واقصرت من حرصك وحيلك وإعما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلك أهلك وحشمتك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسانك زائدة فاعمل

فيه دمان عند صاحب  
الإيمان لنقصان الحظ  
من القلب وعند صاحب  
الفناء والبقاء والقرب  
لتخلصه من القلب  
وقد يرد على الباطن  
قبض وبسط ولا  
يعرف سببها ولا  
يخفى سبب القبض  
والبسط إلا على قليل  
الحظ من العلم الذي  
لم يحكم علم الحال ولا  
علم المقام . ومن أحكم  
علم الحال والمقام لا يخفى  
عليه سبب القبض  
والبسط وربما يشبهه  
عليه سبب القبض  
والبسط كما يشبهه عليه  
الهم بالقبض والنشاط  
بالبسط وإعما علم  
ذلك لمن استقام قلبه  
ومن عدم القبض  
والبسط وارتقى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فبكى سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلكك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكرو ونكير فيقعدانك وينتيرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليتك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحث الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجرى بالبين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالى وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فاعلمنا نحن بهوله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلعوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم خباب وشقي غدا عبيد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجته التي عرضها السموات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وقانيا يباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين وسبخلف بعدكم البائون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غدا ياورأعنا إلى الله عز وجل قد قضى نهبه واقطع أمله فنضونه في بطن صدع من الأرض غير موسى ولا محمد قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب وأبى الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ولكننا سنرى من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يسرى حق بلى دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القعقاع بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أ كفاك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فاتقيد قعده ناحية وهي تدفن جثت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد نصر عليه البعيد ومن طال أمله ضف عمله وكل ما هو أنت قريب . واعلم يا أخى أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشغوم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما خلفون ويفرحون بما يقدمون لما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى تنوذب الله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرّب وكم من مقيم متبسط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى إنما الدنيا كنز ظلال قلبي فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قدير العين إذ دعاه الله بقدره ورماء يوم حنقه فسلبه آثاره ودياره وصيرته قوم آخرين مصانعه ومضاه إن الدنيا لا تسر بقدر ماتفسر إنما تسر قليلا ونهزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

ففسه مطمئنة  
لا تتدح من جوهرها  
نار توجب القبض ولا  
يتلاطم بحر طبعها من  
أهوية الهوى حتى  
يظهر منه البسط وربما  
صار مثل هذا القبض  
والبسط في نفسه لا من  
نفسه فتكون نفسه  
الطمئنة بطبع القاب  
فيجري القبض  
والبسط في نفسه  
الطمئنة وما لقلبه قبض  
ولا بسط لأن القاب  
منحصن بشعاع نور  
الروح مستقر في دعة  
القرب فلا قبض ولا  
بسط ( ومنها الفناء  
والبقاء ) قد قيل  
الفناء أن يفنى عن  
الخطوط فلا يكون له  
في شيء حظ بل يفنى

أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوهمهم المعبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدن  
وحصنوها بالخيطان أين الذين كانوا يعطون القلبة في مواطن الحرب قد تضع بهم الدهر فأصبحوا  
في ظلمات القبور الواح الواح ثم النجا .

### ( بيان السبب في طول الأمل وعلاجه )

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها  
وشهواتها ولذاتها وعلاقتها نقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها  
وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده  
وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج  
إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كفا على هذا الفكر موقوفا  
عليه فلمه عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد  
له سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخا  
فاذا صار شيخا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة  
أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك  
فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يغوص في شغل إلا ويتعلق بتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى وهكذا  
على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تحتطفه النية في وقت  
لا يحتسبها فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف  
والسوف للسكين لا يدري أن الذي يدعو إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما زاد بطول الله  
قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ فطويها ففراغ  
منها إلا من أطرحها :

### لما قضى أحد منها لبائسه وماتتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله **﴿أحب من أحببت فانك  
مفارقة﴾** (١) . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ولا يس  
يتفكر السكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا الآن لموت في الشباب  
أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا  
يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالارض فجأة غير بعيد وكل مرض فائما يقع فجأة وإذا  
مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا القائل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب  
وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد  
له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب  
فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز  
ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه  
فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر  
وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويهمل أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يشطى  
به لحد قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل  
وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسبب الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها  
شغلا بمن في فيه  
وقد قال عامر بن  
عبد الله لأبالي  
امرأة رأيت أم حانظا  
ويكون محفوظا فيها  
لله عليه مصروفا  
عن جميع المخالقات  
والبقاء بعقبه وهو  
أن يخفى عماله ويخفى  
بما لله تعالى . وقيل  
الباقى أن تصير  
الأشياء كلها له شيئا  
واحدا فيكون كل  
حركته في موافقة  
الحق دون مخالفة  
فكان قانيا عن  
المخالقات باقيا في  
المواقفات . وعندى  
أن هذا الذى ذكره  
هذا القائل هو

الباقية من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالدواء في إخراجها من القلب شديد وهو الدواء المضال الذي أعيى الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان، باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطيئة هو الذي ينجس القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا وثماسة الآخرة استبكت أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منفس فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يعتسبوا بأمان كان مستمداً قد فاز فوزاً عظيماً وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خساراً مبيناً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاهالة وكيف تنفت عظامها ولينفكر أن الدود يبدأ بعدته التي أولاً والبسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيها سنورده من عذاب القبر وسؤال المنكرين وكبر ومن الحشر والنسر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

( بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره )

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى - يودّ أحدكم لو يعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا جداً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم» (١) ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستمد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستمد إلا للهاره وأما لفد فلا قال عيسى عليه السلام : لاتهموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح» ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول املئ لأهلكه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الإنسان هو الذي يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلى ليلاً ويلتفت يمينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس واكل درجات عند الله وليس من

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضيف .

مقام صحة التوبة  
النصح وليس من  
الفناء والبقاء في شيء  
ومن الإشارة إلى الفناء  
ماروى عن عبد الله  
ابن عمر أنه سلم عليه  
إنسان وهو في الطواف  
فلم يرد عليه فشكاه  
إلى بعض أصحابه فقال  
له كتنا تراءى الله في  
ذلك المكان . وقيل :  
الفناء هو التوبة عن  
الأشياء كما كان فناء  
موسى حين تجلى ربه  
فجبل . وقال الحرّاز :  
الفناء هو التلاشي  
بالحق والبقاء هو  
الحضور مع الحق .  
وقال الجنيد : الفناء  
استجمام الكل عن  
أوصافك واستغفال  
الكل منك بكتبته

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فإن الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه قصر الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يمتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يفل عنه ساعة فليست معد للموت الذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يأسكين فإن السير حثك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتاما لكل نفس أمهات فيه .

### ( بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير )

اعلم أن من له أخوان غائبان وينظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فلا استعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا فإنه أبدا يرى لنفسه متعصا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هروما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة أو الساعة أدهى وأمر » (١) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يمشي « اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » (٣) أي أنه لا ينتفع بهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة » (٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه » (٥) « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع ألتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة » (٦) وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الوعد » (٧)

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ للصف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدی مرسل (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه ابن حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع ألتكم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين .

وقل إبراهيم بن  
شيدان علم الفناء  
والبقاء يدور على  
إخلاص الوجدانية  
وصحة العبودية وما  
كان غير هذا  
فهو من الخاليط  
والزندقة . وسئل  
الحراز ما علامة  
القائي ؟ قال علامة من  
ادعى الفناء ذهب  
حظه من الدنيا  
والآخرة إلا من الله  
تعالى . وقال أبو سعيد  
الحراز : أهل الفناء  
في الفناء صحتهم أن  
يصحبهم علم البقاء  
وأهل البقاء في البقاء  
صحتهم أن يصحبهم  
علم الفناء .

واعلم أن أقاويل  
الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه (١) وقال صلى الله عليه وسلم «مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع (٢)» وقال جابر «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيبتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه (٣)» وقال ابن مسعود رضى الله عنه «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح قليل يارسل الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الغرور والالابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٤)» وقال السدي - الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا - أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر في الموت وقال سعيد مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال أرحني بحاجتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمتك الله قال فقامت عنه وقام إلى صلاته ومرداود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضى الله عنه التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة ، وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتك الأمر حتى كرر ذلك سنين مرة أسمع ولا يراني. وكان الحسن يقول في مواعظته للبادرة البادرة فأنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تقرّبون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم تراها هذه الآية - إنما نعد لهم عدا - يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهاد موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا فقبل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرعلت تقارب رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحيهم ثاقبوا وعلوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم ورحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر للذة وإن غابا يجد به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يئتيه التوبة ليسوفها ويزين إليه العصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيها حشرة على ذى غفلة العبد فيغلب كون

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء الخالقات وبقاء الواققات وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف الحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يتولى من أمر الحلق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن والترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والافظ له (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .



أن يكون عمره عليه حجة وأن تردبه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تنصربه  
عن طاعة الله معصية ولا يخل به بعد الموت حسرة إنه مبيع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فاعمال لما يشاء وقال  
بعض المفسرين في قوله تعالى - فنتم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قال بالتوبة - وارتبتم -  
قال شككنكم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغرکم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن  
تصبروا وتشددوا فأنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب  
ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بعضرتكم وقال ابن مسعود مامنكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله  
عارية والضيف مرتحل والمعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات  
فيه فقال مرحبا بكم وأهلا بكم الله بالسلام وأهلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم  
وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه  
الأذن فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لينة على ابنه ولا فصة على قصبة  
ولكن رفع له علم فشمم إليه الوحى الوحى النجاة لئلا يعلم تمرجون أيتيم ورب الكعبة كأنكم والأمر  
معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة  
وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك<sup>(١)</sup> . وقال عاصم الأحول  
قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر بخلص إليك  
دونهم ولا تنقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لاشئ فإن الأمر بحفظ عليك ولم تر شيئا  
قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثه لذنب قديم .

#### ( الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده )

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد للسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت مجرد هال كان  
جديرا بأن يتنصص عليه عبسه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بأن يطول فيه  
فكره ويعظم له استمداده لاسيما وهو في كل نفس بصده كما قال بعض الحكماء كرب يبديسواك لا تدري  
متى يغشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن  
الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس  
خشبات لتكدرت عليه لذته وفد عليه عبسه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت  
بسكرات التزع وهو عنه غافل لما لهذا سبب الإلجاء والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات  
الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فأنما يعرفها بما بالقياس إلى الآلام التي أدرکہا وإنما  
بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو  
لأرواح فيه فلا يحس بالألم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح  
أو حرق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم ومما أثر  
الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم  
ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق  
جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي  
يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر  
الاحتراق لأن أجزاء النار تعوض في سائر أجزاء البدن فلا يفيى جزء من العضو المحترق ظاهرا

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث  
ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى  
على كون العبد وهو  
ينقسم إلى فناء ظاهر  
وفناء باطن فأما الفناء  
الظاهر فهو أن  
يتجلى الحق سبحانه  
وتعالى بطريق الأفعال  
ويستلب عن العبد  
اختياره وإرادته فلا  
يرى لنفسه ولا لغيره  
فعلا إلا بالحق ثم  
بأخذ في المعاملة  
مع الله تعالى بحسبه  
حتى سمعت أن بعض  
من أقيم في هذا  
المقام من الفناء كان  
يبقى أياما لا يتناول  
الطعام والشراب حتى  
يتجرد له ففعل  
الحق فيه ويقبض  
الله تعالى له من

وباطنا وإلا تصيبه النار فتحسسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فأنما تصيب للوضع الذي منه الحديد قطع فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فالتم التزعج بهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه التزعج المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من العرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان التناول للبشر نفس الروح وأنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وأنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغانة . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغانة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارجا وغرغرة من خلقه وصدره وقد تغير لونه واربدا حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأذنيان إلى أعالي موضعيهما وتخضر أنامله فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح التأم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فترد أو لا قدما ثم ساقا ثم غفدا . ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الخلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويفلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تقبل توبة العبد ما لم يفرغر» (١) وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عاين الرسل فسد ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم هون على محمد سكرات الموت» (٢) والناس إنما لا يستحيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام بامعشر الخواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة بيني وبين الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفا من الموت على الموت . وروى أن قرأ من بني إسرائيل مرأيا مقبرة فقال بعضهم لبعض لودعوتهم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد دقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول «اللهم إنيك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهو» (٣) وعن الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمري فناء لأنه في عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغر الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنيك تأخذ

الروح من بين العصب والقصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة

ابن غيلان الجعفي وهو مهمل سقط منه الصحابي والتابعي .

هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف<sup>(١)</sup>». «وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف<sup>(٢)</sup>». «ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إني أعلم ما يلقي مأمته عرق إلا وبألم للموت على حدته<sup>(٣)</sup>» وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا نموتوا والذي نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالناشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدرور ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا ببئس ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقى على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليلبلغ بسكرات الموت وكره درجته في الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفة فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف يجدون الموت فلما مرض قيل له فأنف كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من قف إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر<sup>(٤)</sup>» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو أن شجرة من شجر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بأذن الله تعالى لأن في كل شجرة للموت ولا يقع للموت شيء إلا مات<sup>(٥)</sup>» وروى «لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت<sup>(٦)</sup>» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسى كالصفور حين يقلى على القلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تسلم يد القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هوّن على سكرات الموت<sup>(٧)</sup>»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغضته وأله فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث سئل عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني أعلم ما يلقي مأمته عرق إلا وبألم للموت على حدته ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بنسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذة أسف (٥) حديث مكحول لو أن شجرة من شجر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفته وفيه لو أن ألم شجرة ، وزاد وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من الموت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجده أصلاً ولعل المصنف لم يورده حديثاً فإنه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هوّن على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة .

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الحنفى وكان عندي أن ذلك من الشرك الحنفى فقال لى هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الحنفى أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقعت أسطوانة في الجامع فارتعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فقرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطنياً ثم قد يتسع دعاؤه حتى لعله يكون

وفاطمة رضى الله عنها تقول واكرباه لسكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أيك بعد اليوم<sup>(١)</sup> وقال عمر رضى الله عنه لسكرب الأخبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كمنصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديدا لجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقك إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن التهمكون في المعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزاع كاذكرناه . الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القاب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترينى صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فثقى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت لإصورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي رجل في الدار قالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا أهلب الملوك ولا يمنع منى الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه<sup>(٣)</sup> » وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضرها برجله فقال تكلمنى بأذن الله قالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرى رملكى إذ بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله ثم خرجت نفسى إليه فبالت ما كان من تلك الجموع كان فرقة وبالت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها الصاة ويكفأها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنعص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال . وأما المطيع فانه يراه فى أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا رجل فى جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة المسكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يترأى له ملكاه

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله يباطنه فى جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باقى والباقى فى مقام

(١) حدثت إن فاطمة قالت واكرباه لسكربك يا أبتاه الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ واكرب أبتاه وفى رواية لابن خزيمة واكرباه (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رويناه فى الأربعين لأبى هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبى هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بلفظه .

الكتابان عمله فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر البت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم مالم يسعوا لعملة ملك الموت بأحد البشريين إما أشر ياعدو الله بالنار أو أشر يأولى الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب لقاء الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه <sup>(٢)</sup> » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أرى ساعة هي قيام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم نار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله إذا رضى عن عبد قال ياملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه حسبي من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الریحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة مسفين لخروج روحه معهم الریحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك يا سيدنا فيقول أمانتوني هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان مصوما <sup>(٣)</sup> » وقال الحسن لأراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى قيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرقه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال يا إخوانا ما الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا إخوانا عليكم السلام إلى النار أو إلى فؤادهم أن يبقى في التزع أبا ولا يمت لثواب ولا عقاب . نخوف سوء الخاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن طي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام طي نفس أن يخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال ياملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الدار ي باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللإمامي من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أنه ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيه ولون أخرجه راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا يحجب الحق عن  
الخلق ولا الخلق عن  
الحق والقاني محبوب  
بالحق عن الخلق  
والقناء الظاهر لأرباب  
القلوب والأحوال  
والقناء الباطن لمن  
أطلق عسن وثاني  
الأحوال وصار بالله  
لا بالأحوال وخارج  
من القلب فصار مع  
مقلبه لاعم قلبه .  
[ الباب الثاني والستون ]  
في شرح كلمات مشيرة  
إلى بعض الأحوال في  
اصطلاح الصوفية [   
أخبرنا الشيخ الثقة  
أبو الفتح محمد بن  
عبد الباقي بن سليمان  
إجازة قال أنا أبو الفضل  
أحمد بن أحمد قال أنا  
الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الحاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الوضع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .  
( بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت )

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اربقوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويشت شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيته الخنوق وأحمر لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به <sup>(١)</sup> » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله <sup>(٢)</sup> » وفي رواية حذيفة « فاتها تهديم ما قبلها من الخطايا <sup>(٣)</sup> » وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة <sup>(٤)</sup> » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : احضر وأموت كما ذكرهم فأنهم يرون مالا يرون ولقنوه لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحيه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكته يقول لا إله إلا الله ففخر له بكلمة الاخلاص <sup>(٥)</sup> » وينبغي للملقن أن لا يبلغ في التلقين ولكن يُلطف فربما لا ينطق لسان المريض فيشوق عليه ذلك ويؤدي إلى استنفاة التلقين وكراهيته للكلمة ويغنى أن يكون ذلك سبب سوء الحاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغوبا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره . وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء <sup>(٦)</sup> » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجحدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا

الأسفها قال تاج محمد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تملك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل في علم مالم يعلم قلة الاستغناء بما قد علم » فمشايخ الصوفية أحكوا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع خوام قلوبهم لله تعالى مالم

(١) حديث اربقوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فاتها تهديم ما قبلها تقدم (٤) حديث من بات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طاحه وهو ضعيف (٦) حديث دخل واثلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا .

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف<sup>(١)</sup> وقال ثابت البناني كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يا بني إن لك يوما فاذا ذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتب عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرك هذا وأقول إن لك يوما فقال يا أمه إن لي ربا كثير للعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصني بشي قال نعم خافي لاتسليبيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن روى في اللام فقال أخبروا أمي أن السكينة قد نعتني وأن الله قد غفر لي . ومريض أعرابي فقيل له إنك يموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو العتمر بن سليمان قال أي لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعل ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبدة محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

( بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها )

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أَدْعُو الأرواح بأذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام الملك الموت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي مصحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فعدا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ففلاها كبراً ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال امبر حتى أزل قال لا الآن قهره على اللجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فخير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتملك أبداً قبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته على فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روحه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتى بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى نحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فو الذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيات انقطعت عنك المهلة فهل كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روحه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذناه وابتنى قصراً وجعل عليه بايين وثيقين وجمع عليه حراماً من غلمانة ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد على سريره ورفع إحدى رجله على الأخرى وهم يأكلون

(١) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم.

يطمأ من غرائب  
العلوم ودقيق الاشارات  
واستنبطوا من كلام  
الله تعالى غرائب العلوم  
ومحائب الأسرار  
وترسخ قدمهم في العلم  
قال أبو سعيد الخزاز  
أول الفهم لكلام الله  
العمل به لأن فيه العلم  
والفهم والاستنباط  
وأول الفهم إلقاء السمع  
والمشاهدة لقوله تعالى  
- إن في ذلك لذكرى  
لمن كان له قلب أو ألقى  
السمع وهو شهيد  
وقال أبو بكر الواسطي  
الراسخون في العلم هم  
الذين رسخوا بأرواحهم  
في غيب الغيب وفي  
سر السر ففهمهم  
ما عرفهم وأراد منهم  
من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال ياتمس انعمي لسنتين فقد جمعت لك ما يكفيك فم يخرج من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه محلاة يتشبه بالمساكين قمرع الباب بشدة عظيمة قرعاً أفزعوه وهو على فراشه فوثب إليه الغلمان وقالوا ما شأنك فقال ادعوا إلى مولانا كم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فسلم به وفعلتم قمرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه آتى ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم التل والتخشم فقال قولوا له قولاً لنا وقولوا له تأخذ به أحداً فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي فأنطق الله اليك فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد التقى عن بابهم وكنت تنكح التمتع بي وتجلس بجالس الملوك بي وتتفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فتطلق يري ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فقطع وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت لللائكة لمن كنت أشد رحمة بمن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لثربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا تمتهد له بها فقالت لللائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك الولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإن البعد ليعرس الفراس وينكح الأزواج ويبنى البنايان وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بضادتي الباب فيقول والله ما كنت له رزقا ولا أفيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحداً قال الحسن فوافقه لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهبوا عن مبيتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بيننا جبار من الجبابرة من بني اسرائيل جالس في منزله قد خلا يعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فرعا مضطربا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري فقال أما الذي أدخلني الدار فربها وأما أنا فإلهي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف مولاة للتسلطين ولا يمنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذ ن ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهدا قال هيأت انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك وتفتت ساعاتك فليس لي تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته قال فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فإني لظي نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وبك قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء القلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خزيمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال أقدر أيتيه ينظر إلى كأنه يريدني قال فإذا تريد قال أريد أن تخلصني منه فأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي . قال نعم كنت أتعجب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك ففعلت من ذلك.

مالم يرد من غيرهم  
وخاضوا بحر العلم  
بالفهم لطلب الزيادات  
فانكشف لهم من  
مدخور الخزان  
والخزون تحت كل  
حرف وآية من الفهم  
وعجائب النصوص  
فاستخرجوا الدرر  
والجواهر ونطقوا  
بالحكمة . وقد ورد  
في الخبر عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
فيما رواه سفيان بن  
عيينة عن ابن جريج  
عن عطاء عن أبي  
هريرة أنه قال إن من  
العلم كثرة المسكون  
لا يملئه إلا العلماء بالله  
فإذا انطقوا به لا ينكره  
إلا أهل الفترة بالله .  
أخبرنا أبو زرعة قال



(الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)  
(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفلاوة ولا جميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام والوكلاء بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها والجلوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسن بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر أنينه وترادف قائمه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط فماله ويمنه حتى بكى لمصرعه من حضره واتجب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيات بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض الورد وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالجيب أنا لا نعتبر به ولنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء العاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المؤمنين وحبیب رب العالمين لعلنا نظن أننا غفلدون أو تنوم أنامع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيات هيات بل تتيقن أناجيما على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتقون فنحن للورد مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لئلا يظن منتظرين لما نحن والله من المؤمنين وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فليظن كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المؤمنين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وقفوا له من الحقائق ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أموره على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المؤمنين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنسة المأوى قال ابن مسعود رضي الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله إلى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاده وعبادته وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنسة المأوى وإلى السكاس الأولى فاقروا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١)». وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

(الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصماني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود وروينا في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطمان وضعيفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كإرواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

أنا أبو بكر بن خلف  
قال ثنا أبو عبد الرحمن  
قال سمعت الصراباذي  
يقول سمعت ابن عائشة  
يقول سمعت القرشي  
يقول هي أسرار الله تعالى  
ييدها إلى أمنا أوليائه  
وسادات النبلاء من  
غير صماع ولا دراسة  
وهي من الأسرار التي  
لم يطلع عليها إلا  
الحواصن . وقال  
أبو سعيد الخزاز  
للعارفين خزائن  
أودعها علوما غريبة  
وأبناء عجمية يشككون  
فيها بلسان الأبدية  
ويغترون عنها بصارة  
الأزلية وهي من العلم  
المجهول فقله بلسان  
الأبدية وعجالة الأزلية  
إشارة إلى أنهم بالله

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بشوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قوت عيني (١) وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقسه بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أهدود ما لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبى التي أوتيت إليها فأكرموا كريمهم يعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصعبة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضي الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتى وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربيقى وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأوماً برأيه أن نعم فتناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوماً برأيه أن نعم فليتنه وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلأطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثل ذلك فمد يده وقالها فتناولوه فقال ماتقولون قالوا تقول نخشى أن نموت وتصاح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على طى والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلقى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وماتسكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم هل خلدني قبلى فيمن بعث فأخذه فيكم ألا إنى لاحق برى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا عملتكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لمجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين نبؤوا بالدار والايمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى قال أشير يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسى وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نقسه بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل الدارمى في مسنده وفيه إبراهيم بن الحنار مختلف فيه عن محمد ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالنعنة (٣) حديث عائشة قبض في بيتى وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربيقى وريقه عند الموت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر - آتيناها رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما - فمات اولته ألسنتهم من الكلمات ففهمنا من بعضهم البعض وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يرفونها قولهم الجمع والفرقة قيل أصل الجمع والفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللاسلكة وأولوا العلم - وقوله تعالى - آمنا بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أنزل إلينا - والجمع أصل والفرقة

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الفخار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة  
ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ألا ولا تستأثروا عليهم  
ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن موعدكم الخوض حوضي أعرض مما بين بصري الشام  
وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد يابضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد  
من شرب منه لم يظمأ أبدا حضاؤه اللؤلؤ وبطحاؤه للسك من حرمه في اللوقف غدا حرم الحيرة  
ألا فمن أحب أن يردني على غدا فليكنف لسانه ويده إلا عما ينبغي فقال العباس يابني أله أوص بقريش  
قال إنما أوصي بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش يرمي ليرم وفاجرهم فاجرم فاستوصوا  
آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن القنوب تغير النعم وتبدل القسم فإذا بر الناس يرمي أئمتهم  
وإذا فجر الناس عقومهم قال الله تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بضامنا كانوا يكسبون (١) »  
وروى ابن مسعود رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه سل يا أبا بكر  
قال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتدلى ليهتك يابني الله ماعد الله فليتشمري  
عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدره للنهي ثم إلى جنة اللاوي والفردوس الأعلى والسكاس الأوفى  
والرفيق الأعلى والحظ والعيش اللهم قال يابني الله من يلى غسلك قال رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى  
قال فقيم نكفك ؟ فقال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي يابض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا  
وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نيككم خيرا إذا غسلكموني وكفتموني فضعوني  
على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي على الله عز وجل هو  
الذي يصلي عليكم وملائكته - ثم يأذن للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله  
ويصلي على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك اللوت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى  
الله عليهم أجمعين ثم أتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني  
بزيكة ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان  
قال فمن يدخلك القبر ؟ قال زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا رونهم وهم يرونكم  
قوموا فأدوا عني إلى من بعدى (٢) » وقال عبد الله بن زمة جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن  
بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلي بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عفرى  
رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت ثم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع  
رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابني الله ذلك والسلمون قالها ثلاث  
مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق  
القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا  
مصبوب الرأس يخط رجله حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر فذكر خطبته بطولها هو حديث  
مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي روى عن  
ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث في  
سؤالهم له من يلى غسلك وفيهم نكفك وكيف الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد  
ابن عمر وهو الواقدي باسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كاتقدم.

فرع فكل جمع  
بلا خفزة زندقه  
وكل خفزة بلا جمع  
تعطيل . وقال الجنيدي  
القرب بالوجد جمع  
وغيبته في البشرية  
تفرقة وقيل جمعهم في  
الفرقة وفرقهم في  
الأحوال والجمع اتصال  
لا يشاهد صاحبه إلا  
الحق فمى شاهد غيره  
فما جمع والتفرقة مشهود  
لمن شاء بالبيان  
وعباراتهم في ذلك  
كثيرة والمقصود أنهم  
أشاروا بالجمع إلى  
تجريد التوحيد  
وأشاروا بالتفرقة إلى  
الاكتساب فملى هذا  
لا جمع إلا بتفرقة  
ويقولون فلان في عين  
الجمع يذنون استيلاء

قال صلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك وعك ماذا صليت لي والله لولا آتي ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إنني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والمأساة إلا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويغفون عليه ويتشاءمون به فأذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه وعصمه الله من كل ما غوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائحهم يستبشرون وأخلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقاء فيينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أخرجني عن هذا الملك يستأذن عليّ فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجرى وجلست وتحتيت في جانب البيت فاجى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأدور رأسه في حجرى وقال للنفوس ادخلن قتل ما هنا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بأذن فان لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أبضك حتى تأمرني فإذا أمرك قلت اكفف عني حتى يأتي جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصخرة مانعير إليه شيئا وما يتكلم أحدهم أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملائكة أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فلم تعرفت حبه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمك فقال أجذني وجما فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يملك ما أعد لك فقال يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليّ وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يملك الذي يريدك لا والله ما استأذن ملك للموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك من شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يجيء وأذن للنداء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى مني رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وهي تضعك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها هجيا فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال إنني ميت اليوم فبكيت ثم قال إنني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يجعلك مني فضحك وأدنت ابنها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك سأتا مرنا يا محمد قال ألحقني ربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مروا من يصل بالناس وقال يابى الله ذلك وللؤمنون مرتين وفي رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبي قحافة يقول ذلك منفضيا وأما ما في آخره من قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنك من صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه  
فاذا عاد إلى شيء من  
أعماله عاد إلى التفرقة  
فضحة الجمع بالتفرقة  
وصحة التفرقة بالجمع  
فهذا يرجع حاصله  
إلى أن الجمع من العلم  
بالله والتفرقة من العلم  
بأمر الله ولا بد منها  
جميعا . قال للزين  
الجمع عين القضاء بالله  
والتفرقة العبودية  
متصل بعضها ببعض  
وقد غلط قوم وادعوا  
أنهم في عين الجمع  
وأغاروا إلى صرف  
التوحيد وعطلوا  
الاكتساب فتردقوا  
ولمّا الجمع حكم الروح  
والتفرقة حكم القالب  
وما دام هذا التركيب  
باقيا فلا بد من الجمع

ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بأذن غيرك ولسكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما نزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يعبر إليه في ذلك كلمة ولا يمشي إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقا قالت قممت إلى النبي ﷺ حتى أضمر رأسه بين يدي وأمسكت بصدري وجعل يغمي عليه حتى يظلب وجبهته ترشح ترشحا مارأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك الفرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شذقيه كنفس الحمار فشد ذلك ارتبنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إلى أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإنما صدم الله عنه لأنه ولاء جبريل وميكائيل وجعل إذا أغشى عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الخيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متأسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة (١) قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضي الله عنها ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بمظيعة

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالهم مستبشرين وأخبروا رسول الله ﷺ بالنساء فيينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجن عني هذا للكم يستأذن علي الحديث بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهب ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذنه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته في سماء الدنيا واللائكة يزورونه فيك لما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فأتته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت بهالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد التعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تمجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضا وفيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولا واستئذنه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال ابن جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث (٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

والتفارقة . وقال  
الواسطي إذا نظرت  
إلى نفسك فرقت وإذا  
نظرت إلى ربك  
جمعت . وإذا كنت  
قائما بغيرك فأنت فان  
بلا جمع ولا تفرقة .  
وقيل جمعهم بذاته  
وفرقتهم في صفاته وقد  
يريدون بالجمع والتفرقة  
أنه إذا أثبت لنفسه  
حكما ونظرا إلى  
أعماله فهو في التفرقة  
وإذا أثبت الأشياء  
بالحق فهو في الجمع  
وجمع الاشارات  
بني أن الكون يفرق  
والمكون يجمع فمن  
أفرد المكون جمع  
ومن نظر إلى الكون  
فرق فالتفرقة عبودية  
والجمع توحيد فإذا

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فمأقيت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتعنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتكم<sup>(١)</sup> وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسفي هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والهدى وإن كان الناس لم يعرفوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يهود محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يمسد رب محمداً فإنه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم -<sup>(٢)</sup> الآية فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والقول فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهل طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجد له أصلاً وهو منكرو (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله ﷺ وهو منثني بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد منها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيها .

أثبت طاعته نظرا  
إلى كسبه فرق وإذا  
أثبتها بالله جمع وإذا  
تحقق بالقاء فهو  
جمع الجمع ويمكن أن  
يقال رؤية الأفعال  
تفرقة ورؤية الصفات  
جمع ورؤية الذات جمع  
الجمع . سئل بعضهم  
عن حال موسى عليه  
السلام في وقت  
الكلام فقال : أفنى  
موسى عن موسى فلم  
يكن لموسى خبر  
من موسى ثم كالم  
فكان المكلم والمكلم  
هو وكيف كان  
يطبق موسى حمل  
الخطاب ورد الجواب  
لولا إياه جمع ومعنى  
هذا أن الله تعالى  
منحه قسوة بذلك

حيا ومينا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ف عظمت عن الصفة وجللت عن  
البكاء وخصمت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك  
لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع فيه  
عنا ففكده وادكار محالفان لا يرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن  
من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يتم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه  
فينا (١) . وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجيبا سمع أهل الصل  
كلما ذكر شيئا ازدادوا فما سكن عجبهم إلا نسلم رجل على الباب صبت جلد قال السلام عليكم يا أهل  
البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل  
عقابة فآله فارجوا وبه ففقدوا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته  
فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فإدام مناد آخر لا يعرفون صوته بأهل البيت اذكر والله  
واحمدوه على كل حال تكونوا من المحاصنين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله  
فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الحضر والبسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه  
وسلم (٢) واستوفى القمعاق بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضى الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس  
خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبي  
صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفقل والمقال فأكب  
عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من  
حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب  
عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في معجم التعزية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خلفا  
من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عقابة فآله فارجوا وبه ففقدوا ثم معموا آخر بعده إن  
في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا  
الحضر والبسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الحضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب  
الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه  
ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله  
عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يكون فدخل عليهم رجل طويل شعر للسكرين في إزار ورداء  
يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم  
أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك قالى الله  
تعالى فأنبؤا ونظروا إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال  
أبو بكر على الرجل فنظروا فينا وشمالا غم بوا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الحضر أخو نبينا عليه  
السلام جاء بمنزلة ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من  
حديث على بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أت نسمع حسه ولا نرى شخصه  
قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل  
فائت فبآله ففقدوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال على تدرؤن من  
هذا هو الحضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تسكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على  
والعروف عن على بن الحسين مرسل من غير ذكر على كما رواه الشافعى في الأم وليس فيه ذكر الحضر .

القوة مع ولولا  
تلك القوة ما قدر  
على السمع ثم أنشد  
القائل مثالا :

وبدا له من بعد  
ما اندمل الهوى  
بقى تألى موها  
لمانه

ينو كاشية الرداء  
ودونه  
صعب القدرى تمنع  
أركانه

فبدا لينظر كيف لاح  
فلم يطق  
نظرا إليه ورده  
أشجانه

قالنار ما اشتملت عليه  
خلوعه  
وللأ ما صبحت به  
أجانه

ومنها قولهم التحلى  
والاستار . قال الجنيدي

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده الله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كأنزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومما فاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الحير وإمام الحير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابثه مقاما محمودا يعظمه به الأولون والآخرون وانفضا بقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشفلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالحير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا وكذا أو كذا أو يوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه - إنك ميت وإنهم ميتون - فقال والله لكأنى ! أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نختبب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لصلته قالوا : والله ما ندري كيف نفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتجرده عن ثيابه كما نضع بموتانا أو تنسله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره فأنما سم قال قائل لا يدري من هو عسلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فنقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبضه حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلق قبضه فنودينا لا نخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه ففعلناه في قبضه كما فنقل موتانا مستلقيا مانثاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه وإن معنا لحفيقا في البيت كالريح الرخاء وبصوت بنا ارفقوا رسول الله ﷺ فأنكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحدده بفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة (١) في وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

( وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه )

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحدده بفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أما وضع الفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فقد تقدم أيضا .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القاب (ومنها التجلي) ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه



لمسرك ما يفتى الثراء عن الفتى إذا حشر جثتي وما وضاق بها الصدر  
فكشفت عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولي - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه  
تعيد - انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفوني فيهما فان الحى إلى الجديد أحوج من الميت .  
وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستقى الفمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طيبا ينظرك إليك؟  
قال قد نظر إلي طيبى وقال إني ضال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه  
بحوده فقال يا أبا بكر أوصنا قال : إن الله فاع عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك . واعلم أن  
من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تضرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك، ولما نقل  
أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس  
له استخلفت علينا فظا غليظا لماذا تقول لربك فقال أقول استخافت على خلقك خير خاكت ثم أرسل  
إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن  
الله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي القرية وإنما نقلت موازين من نقلت  
موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وتلقه عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يتقل  
وإما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع  
فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل  
أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم وورد عليهم صالح الذي عملوا  
فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للؤمن راغبا راها  
ولا يلقى يديه إلى التهلكة ولا يمتحن على الله غير الحق فان حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب  
إليك من اللوت ولا بذلك منه وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من اللوت ولا بذلك  
منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن السيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة  
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زدنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء  
الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين ؟ قال قاع بين بدي العرش  
فيه رياض الله وأنهار وأشجار يشاء كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا  
الكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا  
للسعير فأجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت  
منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشفق بمصايك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل  
أن تخلقها فلا تجعل لها مما علمت فأجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء  
فاجعل مشيتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا تتحرك شيء  
إلا بأذنك فأجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا  
يعمل به فأجعلني من خير القسامين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا  
فأجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم فأشرح صدري  
للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحيني بعد اللوت حياة  
طيبة وقربني إليك زلفي . اللهم من أصبح وأمسى فتمته ورجاؤه غيرك فأنت تقى ورجائي ولا حول  
ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل .

لهم ولغيرهم فأما لهم  
فلا تنهم به يرجعون  
إلى مصالح النفوس وأما  
لغيرهم فلا تنلوا مواضع  
الاستئثار لم ينتفع بهم  
لاستغراقهم في جمع  
الجمع وبروزهم لله الواحد  
القهار . قال بعضهم  
علامة تجلي الحق  
للأشرار هو أن لا يشهد  
السر ما يتسلط عليه  
التصير ويحويه القهم  
فمن عبر أوفهم فهو  
صاحب استدلال لا ناظر  
اجلال . وقال بعضهم  
التجلى رفع حجة  
البشرية لأن يتلون  
ذات الحق عز وجل  
والاستئثار أن تكون  
البشرية حائلة بينك  
وبين شهود الغيب .  
(ومنها التجريد والتفريد)

( وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه )

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر مائتي وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفيين قام بينهما فإذا رأى خلا قال استنوا حتى إذا لم يرفهم خلا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فهاهو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلى أو أكلنى السكب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملح بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد بيننا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملح أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله صلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلى قال فجاب ساعة ثم جاء فقال غلام الغيرة بن شعبة فقال عمر رضي الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني يد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكرم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فقلت : أي إن شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلكم وحجوا حجتكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال قائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأني ببنيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فزفروا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبتري أمير المؤمنين يبشري من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم ولبت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا على ولاي فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أتقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين لحسبوه فوجدوه ستة وعثمانين ألفا أو نحوه فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل في بني عدي بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تدهم إلى غيرهم وأد عني هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تنقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريدك لنفسى ولأثرته اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال مالك ذلك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فأحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قلنا فوجئت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فوجئت داخلنا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعمية له فإن أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستن به أيكم أمرفاني لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصي لخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرماتهم وأوصيه بالأصاخير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خير فانهم رددوا الاسلام

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وإقيادا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن حكمه ( ومنها الوجد والتواجد والوجود ) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ويضيره عن هيبته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فاتهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حوائج أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بنسمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بمقدمهم وأن يقاتلهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر <sup>(١)</sup> » وعن ابن عباس قال « وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجلا قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو على بن أبي طالب رضي الله عنه ترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبك وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهب أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر <sup>(٢)</sup> » فاني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

( وفاة عثمان رضي الله عنه )

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور قد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلو فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين يدي وبين كتفي وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشبط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشبط ؟ قالوا معناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال اتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم على قال غيى بهما كأنهما هما حملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم للدينة وليس بها ماء يستعذب غير بر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين غير له منها في الجنة فاشترتها من صلب مالى فأتهم اليوم تمنوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن للسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشترتها من صلب مالى فأتهم اليوم تمنوني أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فحرك الجبل حتى تساقطت حجارتها بالحضيض قال فركبته برجله وقال اسكن ثبير لما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا إلى ورب الكعبة أتى شهيد <sup>(٣)</sup> . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول على بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذى وقال حسن والنسائى .

وتطلع إلى الله تعالى وهو فرجة يجدها القلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالله كره والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربنى وجدى فأفقدنى عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود والوجد يطرب من فى الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدعاء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم  
إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

( وفاة على كرم الله وجهه )

قال الأصمعي الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر  
يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عثرته وهو يقول:

اشدد حيازيك للموت فان الموت لا يكا

ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول  
مالي ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن  
علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنه  
ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسين بن علي رضي الله عنه ما دخل عليه الحسين رضي الله  
عنه فقال يا أخى لأى شيء تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب وهما أبو الكوكلى خديجة  
بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجعفر وهما عمك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله  
وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه ما يؤمن أنهم قاتلوه قام في أصحابه  
خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمراء من وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدير معروفها  
وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصابة الإناء ألا حسبي من عيش كالمري الويل ألا ترون الحق لا يعمل به  
والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى للموت لإسماعدة والحياة مع الظالمين إلا جرماً .

( الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين )

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أتعذون فأعذوني فبعل يسبح الله تعالى ويدكره ثم بكى  
وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضريان وبكى حتى  
علا بكأوه وقال يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحملك  
على من لم يبرح غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه  
في مرضه فرأوا في جلده غصونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإني أجمع لإماما جريئاً ورأياً  
أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا  
بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من  
دار ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع  
قد استحصد وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر مني كما كان من قبلي خيراً مني  
ويا يزيد إذا وفي أجلى قول غسلى رجلاً ليلاً فان الأيب من الله يمكن فليغم الفل وليجهر بالتكبير  
ثم اعمد إلى منديل في الحزاة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره  
فاستودع القراضة أنقى وفي وأذى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفاني ويا يزيد احفظ  
وصية الله في الوالدين فإذا أدرجتموني في جسد يدي ووضعتوني في حفرتي فقلوا معاوية وأرحم  
الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتني كنت رجلاً من قريش بنى طوى  
وإني لم آل من هذا الأمر شيئاً . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق  
يلوى ثوباً بيده ثم يضرب به لفظة فقال عبد الملك ليتني كنت غسلاً لا آكل من كسب يدي يوماً يوم

( ومنها الغلبة ) الغلبة  
وجد متلاحق فالوجد  
كالبرق يبدو والغلبة  
كتلاحق السبق  
وتواتره يغيب عين  
للمتميز فالوجد ينطق  
سريماً والغلبة تسبق  
للأمرار حرزاً منيعاً .  
( ومنها السامرة ) وهي  
تفرد الأرواح بحسنى  
مناجاتها ولطيف  
مناجاتها في مر السر  
بلطيف إدراكها  
للقلب لتفرد الروح بها  
فتلذذ بها دون القلب  
( ومنها السكر والصحو )  
فالسكر استيلاء  
سلطان الحال والصحو  
المود إلى ترتيب الأفعال  
وتهذيب الأقوال  
قال محمد بن خفيف

( الباب الخامس في كلام جماعة من المحتضرين )

ولم آل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضروا الموت يشعرون ما نحن فيه وإذا حضروا الموت لم تمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تحمدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدي كما قال الله تعالى . ولقد جثمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم - الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولوساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعتة يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين - ثم هدأ فجلست لأسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هوميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصر عى هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبدالعزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولأنتم الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فعالج يا أمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال رب خبر مذهب إليه والله لو علمت أن شغافى عند شحمة أذنى ما رفعت يدي إلى أذنى فتناوله اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقبل لما حضرته الوفاة بكى قفيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سنا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحففت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا سيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلموني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فصبت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأشدد النظر قفيل له في ذلك فقال إنى لأرى خضرة ما هم بأفس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وحدث عن هرون الرشيد أنه انتهى أ كفافه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانيه وفرش المؤمن رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان العتصم يقول عند موته لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت وكان للتصير يضطرب على نفسه عند موته قفيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبيته من يأخذها بما فيها ليه كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لى فان الناس يقولون إنك لا تنفرد لى فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويخطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها ؟ قيل نعم قال عسى .

( بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم )

( من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين )

لما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظما لها وجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر ولما اشتد به التبع ونزع نزعاً لم يزرعه أحد كان كما أفاق من غمرة فتش طرفه ثم قال رب ما أخفنى خفتك فوعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى قفيل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب  
عند معارضات ذكر  
المحبوب وقال الواسطى  
مقامات الوجد أربعة  
الذهول ثم الحيرة ثم  
السكر ثم الصحو كمن  
صبح بالبحر ثم دنامته  
ثم دخل فيه ثم أخذته  
الأمواج فقلى هذا من  
بقى عليه أثر من  
سريان الحال فيه  
فعلية أثر من السكر  
ومن عاد كل شئ منه  
إلى مستقره فهو صاح  
فالسكر لأرباب القلوب  
والصحو لكاهن  
بحقائق القيوب .  
( ومنها الهو والإنبات )  
الهو بإزالة أوصاف  
النفس والانبات بما  
أدبر عليهم من آثار  
الحب كؤوس أو الهو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلفة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب (١) فلما مات سلمان نظرت في جميع مارك فاذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزنانه فقال بل واطرباه غدا تلقى الأحبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال سئل هذا فيعمل العاملون - ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى قبيل له مايكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن النكدر الوفاة بكى قبيل له مايكيك فقال والله ما بكى لذب أعلم أني أميته ولكن أخاف أني أميت شيئا حسبه هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى قبيل له مايكيك قال ما بكى جزعا من اللوت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما يغوتني من ظمأ المواجه وطى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينه وقال وإبعد سفره واقلة زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له مايكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقبرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يميتني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له لقي ولأعد على ما لم أنكم بكم ثامن . وقال عطاء بن يسار تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت قال ما آمنتك بعد وبكى بعضهم عند اللوت قبيل له مايكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل - إنما يتقبل الله من المتقين - ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل مجود بنفسه فقال إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهدي أوله . وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم التبرؤ وهو يقرأ القرآن فتمت قلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم قال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال ربيع بن خزيمة حضرته وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول:

حين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكرهم وقت للناجاة للسر  
أدبرت كؤوس الدنيا عليهم فأغفوا عن الدنيا كغاف ذي الشكر  
همومهم جواله بمسك به أهل ود الله كالأنجم الزهر  
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو الملائكة  
لما عرسوا لإقرب حبيبهم وما عرجوا من مس يؤس ولاضر

وقيل للجنيد إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت فقال له ما يكن بهجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لدى النون عند موته ما تشتهي قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة وقيل لبعضهم وهو في الزرع قل الله قال إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري قد تم قعر وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجعد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومدرجاه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفت إليه وقالت قد مت ووقمت ميتة . ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجرى فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغت الرتبة القصوى وإن لم ترد هاهنا أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواك بسنين مودة حتى أراكا  
أراك معذبي بفتور لحظ وبالحد الموردد من حياكا

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلفة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

محو رسوم الأعمال  
ينظر الفناء إلى قبه  
ومامنسه والاثبات  
إثباتها بما أنشأ الحق  
له من الوجود به  
فهو بالحق لا بنفسه  
بأثبات الحق إياه  
مستأنفا بعد أن  
عمده عن أوصافه .  
قال ابن عطاء بمحو  
أوصافهم وثبت  
أسرارهم (ومنها علم  
اليقين وعين اليقين  
وحق اليقين) فطم  
اليقين ما كان  
من طريق النظر  
بالاستدلال وعين اليقين  
ما كان من طريق  
الكشف والنوال  
وحق اليقين ما كان  
بتحقيق الانفصال  
عن لوث الصلصال



ولما قسا قلبي وضاعت مذاهي جعلت رجائي نحو عفوك سلما  
تعاظمي ذنبي فلما قرئت به بعفوك ربي كان عفوك أعظما  
فما زلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تجود وتغفو منه وتكرما  
ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صنك آدم

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة شغل عن مسئلة قدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا  
وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالمادة أو الشقاوة فآن لي أوان الجواب فنهت  
أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فقلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى  
بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.  
(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم  
يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون  
ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرين ولا يتفكرون أن الممواتين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون  
فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها  
فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولطه في غد أو بعد غد. ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا  
رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رايعون  
موعظة بليغة وغفلة سرية يذهب الأول والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة  
فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه والمات أخو مالك بن دينار خرج مالك  
في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الأعمش  
كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا ندري إلا  
متنعما بما كنا فيه فكنا كان خوفهم من الموت والآن لا تنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم  
يضحكون ويلهون ولا يتسكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكرون أقرانه وأثر به إلا في الجيلة  
التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل  
عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر  
والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا ينبتنا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه  
الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكائهم على الميت ولو عقلوا بالسكوا على أنفسهم لا على الميت  
نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم إنه  
نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحاتمة وقد  
أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جريح وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة  
فأسك وقال شينئني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

فروعا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات

مكروعة ثلة لغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والتي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا  
آدابه وسننه في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن  
كان ظاهرها الصلاح فان الحاتمة محظرة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر)

قال له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« ماذا أبقيت لميتك »  
قال الله ورسوله « وقال  
بعضهم : علم اليقين  
حال التفرقة وعين  
اليقين حال الجمع وحق  
اليقين جمع الجمع  
بلسان التوحيد وقيل  
ليقين اسم ورسم  
وعلم وعين وحق  
فالاسم والرسم للموالم  
وعلم اليقين للأولياء  
وعين اليقين لخواص  
الأولياء وحق اليقين  
للأنبياء عليهم الصلاة  
والسلام وحقية اليقين  
اختص بها نبينا محمد  
صلى الله عليه وسلم .  
(ومن الوقت والمراد  
بالوقت ما هو غالب  
على العبد وأغلب



واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو أخطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا . ويعجبي أن رجلا من القهقهين في الفسادات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يبينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى الصلي فاصلى عليه أحد خدمتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليعصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لى في المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلت عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في المأخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح بيدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعة ثم يعود إلى المأخور ويشتمل بالفسق ، والثاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمة وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم ، والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الحبيث بمنى تهمه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فأنى لإخالك ناجيا

( بيان حال القبر وأقاربهم عند القبور )

قال الضحاك قال رجل « يا رسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور (١) . وقيل لى كرم الله وجهه ما شأنك جاورت القبرة قال لى أجدهم خير جيران لى أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضح منه (٢) » وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكى فقال ما يبكيكم قلنا بكى البكاء قال هذا قبر أمى آمنه بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة (٣) »

(١) حديث الضحاك : قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلى الحديث تقدم (٢) حديث : ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضح منه تقدم في الباب الثالث من آداب الصلاة (٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر أمية بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى الحديث وتقدم في آداب الصلاة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانى ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

ما على العبد وقته  
فانه كاسف يعصى  
الوقت بحكمه وبقطع  
وقد يراد بالوقت  
ما يجمع على العبد  
لا يكسبه فيتصرف  
فيه فيكون بحكمه  
يقال فلان بحكم  
الوقت يبنى مأخوذا  
عما منه بما للحق.  
(ومنها النية والشهود)  
فالشهود هو الحضور  
وقد بنى المرافقة  
ووقفا بوصف  
الشهادة لآدام العبد  
موصوفا بالشهود  
والرافقة فهو حاضر  
فاذا قصد حال  
المشاهدة والمرافقة  
خرج من دائرة  
الحضور فهو غائب  
وقد يبنون بالنية

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه لم يبعده أيسر منه وإن لم ينج منه لم يبعده أشد» (١) وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين قليل له هذا شي لم تكن تصنع فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لي . وقال أبوذر ألا أخبركم بيوم تقرى يوم أوضع في قبري وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور قليل له في ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرون معادى وإذا قت لم يتأبونى وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بـ أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرتقت الليلة أنفكر في القبر وسأكنه إنك لو رأيت لبيت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قبره بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويمر في الصديد وتغترقه الديدان مع تغير الريح ويلي الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح وبقاء الثوب قال ثم شق شهقة خرمشيا عليه وكان يزيد الرقاشي يقول أيها القبور في حفرته والتخلي في القبر بوحدته المستأنس في بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغبط والله بأخوانه للتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يغور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان يكر العابد يقول يأماه ليتك كنت بي عقيما إن لابتك في القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه إن أجبتك من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبتك من قبرك منعتها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهركم وإنما الدواهي في بواطنكم وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعانيتم أعمالكم فواعملاهم ثم يقول غدا عطاء في القبور غدا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فسكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لعل أعمل صالحا فيها تركت- يرددها ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب توجب الأرض من رجل يهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شي وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم الثلاث واستحك فيهم البلى وأصاب الهوام مقيلا في أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يفرنك صوت أهلها فكم

الغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق إيمان والشرب علم والرى حال فالذوق الأرباب البواده والشرب لأرباب الطوابع واللىوامع والأوامع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هي التي تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوابع وقيل الحال لا تستقر لأنها تحول فاذا استقرت نكون مقاما (ومنها المحاضرة والكاشفة والشاهدة) فالمحاضرة لأرباب التساوين والشاهدة

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصعبة .

من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فنظت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أموار زية      لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يشعروا فاتقبلوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافى      أشد من القبر التهابا وأصفا

إذا جاءني يوم القيامة قائدا      عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مثي      إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على صاحبها      من منكم للمعمور في ظلماتها

ومن المكرم منكم في قعرها      قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لدى العيون فواحد      لا يستبين الفضل في درجاتها

لو جابوك لأخبروك بالسن      تصف الحقائق بعد من حالاتها

أما المطيع فإزل في روضة      يفضى إلى ماشاء من دوحاتها

والمحرم الطاغى بها متقلب      في حفرة يأوى إلى حياتها

وعقارب تسعى إليه فروجه      في شدة التعذيب من لدعاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها      إذا كنت في القبر قد ألدوكا

فكيف أذوق لطم الكرى      وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناء بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أنيب القبور فناديتها      فأين للعظم والمختر

وأين المدل بسلطانه      وأين الزكي إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما خبر      وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتقدو نبات الثرى      فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائل عن أناس مضوا      أما لك فما ترى مضير

قال فرجعت وأنا باك .

آيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تتاجيك أجدات وهن صموت      وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه      لمن تجمع الدنيا وأنت نموت

لأرباب النكبين

وللكاشفة بينهما إلى

أن تستقر فالمشاهدة

والمحاضرة لأهل العلم

والكاشفة لأهل العين

والشاهدة لأهل الحق

أى حق اليقين (ومنها

الطوارق والبوادي

والباده والواقع

والقاص والطوالع

واللوامع واللوائح)

وهذه كلها ألفاظ

مقاربة المعنى ويمكن

بسط القول فيها

ويكون حاصل ذلك

راجعا إلى معنى واحد

يكثر بالعبارة فإفادة

فيه والمقصود أن هذه

الأسماء كلها مبادئ

الحال ومقدماته وإذا

صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم  
وما ينفع القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه ينهم  
وقال ابن السكك مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنبات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني  
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن يجدوا ديوني  
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا في الله أسرع ما نسوني  
ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب غنّس لا ينفع الموت بواب ولا حرس  
فكيف تفرح بالدنيا ولذاتها يامن يعد عليه اللفظ والنفس  
أصبحت يا غفلا في النفس منغما وأنت دهرك في اللذات منغس  
لا يرحم الموت ذا جهل لفرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس  
كم أخرس الموت في قبر وقتت به عن الجواب لسانا مابه خرس  
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندرس  
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحية حين صفت قبورهم كأفراس الرهان  
فلا أن بكيت وفاض دمي رأيت عيناى بينهم مكاني  
ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لي قائل صار لقمان إلى رسمه  
فأبني ما يوصف من طبه وحذفه في الماء مع جسمه  
هيئات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه  
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل  
فلتلق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل  
ما أنا وحدي قلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

فلهذه آيات كتبت على قبور لتقصير مكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصر هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بخلافها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فأنعسا حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيخلص من العقاب وليستزيد الموفق به ربه فيتضاعف له الثواب فانهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة واعلمك تقدر على أمثالهم ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التضرع على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتداء فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لي في الله فيها يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفونني فإن فلانا

هذه الأسماء كلها ومعانيها .

( ومنها التلون والتحكين )

فالتلون لأرباب القلوب لأنهم تحت

حجب القلوب وللقلوب تخلص إلى الصفات

وللصفات تمدد تعدد جهاتها فظهر لأرباب

القلوب بحسب تعدد الصفات تلونيات ولا

تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما

أرباب التحكين فخرجوا عن مشام

الأحوال وخرقوا حجب القلوب

وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات

فارتفع التلون لعدم

قد قام فصلي ركعتين لأن أكون أقدر على أن أوصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها .

( بيان أقويلهم عند موت الولد )

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كان في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا للوثة فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق التأخر وإذا عتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسمها وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإعنا ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لدواد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فبذل ما كان عدله عنده قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار» قالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان (٢) وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب به إلى الاجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فأغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في الحدة فقال باذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شمرى ماذا قالت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر متعتني به مامتعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمت طاعتك وطاعتك اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تنذبه فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة باذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فأقدم مضينا وتركنك ولواقنا ما نفعناك . ونظر رجل إلى امرأة بالصرة فقال ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان باميان فقال أكبرهما للآخر أريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا امتسحط في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب القلام فاجأ إلى جبل فرمته ذنب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادني الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تذكر عند موت الأولاد لينسلى بها عن شدة الجزع فإمن مصيبة إلا ولا يتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

( بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به )

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار بزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجده فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خنبي (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في النكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التغير في القدرات إذ جلّت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما اخلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة بحلى الذات ارتفع عنهم التلوين فالتساوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتاوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبها عن حال التمكن لأن جريان التساوين في النفس بقاء رسم الإنسانية وثبوت التقدم في التمكن كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكن أن لا يكون للعبيد تغير فإنه بشر وإنما المعنى

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا (١)» وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ (٢) وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار (٣) كأوردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيئ عنها قالت نعم ثم أمر بها (٤) ولا ينبغي أن يمسك بهذا يؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فانهن يكنن الهجر على رؤوس المقابر فلا يني خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام والزياراة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها ، نعم لأبأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاختصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «زار القبور تذكروا بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله (٥)» وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ «زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة (٦)» وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا (٧)» وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين (٨)» وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا ينقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون نبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال للنفس الممتنى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكانه إشارة منهم إلى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمتنهي صاحب نفس

(١) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له وأبو يعلى غير أن لا تقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جده عن ربيعة بن النابتة قال البخاري لم يصح وريضة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأحنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قالت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيئ عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زار القبور تذكروا بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرصلا وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان برفعه وهو مهضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين أن الرجل لموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عتبة بن أبي العيرار عن محمد بن جعدة

« من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من زارني بالمدينة محبتا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة » (٢) وقال كعب الأحبار: ما من قبر يطاع إلا أنزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. والستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه البيت وأن يسلم ولا يسبح القبر ولا يسبه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رايتاه مائة مرة أو أكثر يعرجي إلى القبر فيقول السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فوقف ورفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٣) وقال سليمان بن سحيم رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقهم سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رايت عاصم في منامي بعد موته بهنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا واقف في روضة من رياض الجنة أنا وقر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فتتلقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيئات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تملكون زيارتنا إياكم قال نعم نعم لها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن اللقي يملكون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبري قبل طلوع الشمس يوم السبت علم لبيت بزيارته قيل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آتني الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فادعوا كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذا بخناق كثير قد جاءوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عندنا نصرافك إلى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعوذ لذلك فما تركتها بعد ذلك. وقال بشر بن غالب النجرائي رايت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشر بن غالب هداياك تأتيها على أطباق من نور حمرة بناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بناديل الحرير ثم آتت به البيت فقيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما لبيت في قبره إلا كالغريق القوت ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس وعبيد بن عتبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعة تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا امتأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن معاذ ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه ومحمه عبد الحق الاشيلي -

متمكن من الحال  
 لا يتناوب عليه الحال  
 بالنية والحضور بل  
 تكون للواجب  
 مقرونة بأفاسه مقيمة  
 لا تتناوب عليه وهذه  
 كلها أحوال لأربابها  
 ولهم منها ذوق وشرب  
 والله ينفع بركنهم  
 آمين

[ الباب الثالث  
والستون في ذكر  
شئ من البدایات  
والنهایات ومعتها ]  
حدثنا شیخنا شیخ  
الاسلام أبو النجیب  
السهروردی قال أنا  
الشریف أبو طالب  
الحسین بن محمد الزینی  
قال أخبرتنا کریمة  
ماروزیة قالت أخبرنا  
أبو الهیثم محمد بن مکی

أوأخيه أوصديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأخياء للأموال  
الدعاء والاستغفار<sup>(١)</sup>. وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت  
في قبرك قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعاني لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب  
تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي «شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في  
الترغ فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم  
فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجب  
ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعدة ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرحمنا  
يرحمك الله ولكن لا تسمون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله  
وأن محمدا رسول الله وأنت رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً والقرآن  
إماماً فان منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما ينعنا عند هذا وقد لقن حجة  
ويكون الله عز وجل حبيبه دونهما فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى  
حواء<sup>(٢)</sup> ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحدا قال: كنت مع أحمد بن  
حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضربه عند القبر فقال له  
أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله  
ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرني مبشر بن  
اسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة  
البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد  
ابن أحمد الروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقراءوا وبفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل  
هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة  
فنزات الخندق فظهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فسمعت ثم نثبت فإذا صاحب القبر  
يشتكي يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا تقدر على العمل ثم قال للركعتان  
اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خير أقرهم السلام فإنه قد يدخل  
علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمتصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه  
فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور  
في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاءه وكيف يبعث من قبره وأنه على القبر سيالحق به كما روى  
عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل  
تخزمت ثم قامت إلى المهراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت في كثرة اتيانها للمقابر

الكشميني قال أنا  
أبو عبد الله محمد بن  
يوسف القريري قال  
حدثنا أبو عبد الله محمد  
ابن اسمعيل بن إبراهيم  
البخاري قال حدثنا  
الحسين بن علي قال حدثنا  
سفيان بن عيينة قال  
حدثنا يحيى بن سعيد  
الأنصاري قال أخبرني  
محمد بن إبراهيم التيمي  
أنه سمع علقمة بن  
وقاص قال سمعت عمر  
ابن الخطاب رضي الله  
عنه يقول على المنبر  
سمعت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يقول  
«إنما الأعمال بالنيات  
وإنما لكل امرئ  
ما نوى فمن كانت  
هجرته إلى الله  
ورسوله فحجرتها إلى  
الله ورسوله ومن

(١) حديث ما لي في قبره إلا كالفرق المغوث ينتظر دعوة تاحته من أيه أو من أخيه أو صديق له  
الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن  
عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي  
قال شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول  
يا فلان ابن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف .



قالت إن القلب القاسى إذا جفأ لم يلينه إلا رسوم البلى وإلى لآلى القبور فسكأن أنظروا وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدصمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لورأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدتان فسالتا على الحدين وتقصمت الشفتان عن الأسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم وتآ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرايت أعجب مما تراه الآن ويستعجب الثناء على الميت والأليذكر لإلابلجل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تنموا فيه»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا»<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار نخسبهم ما هم فيه»<sup>(٣)</sup> وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أثبتتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثبتتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء لله فى الأرض»<sup>(٤)</sup> وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن البديوت فينقى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبيدى وتجاوزت عن عفى فى عبيدى»<sup>(٥)</sup>

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نمحة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عقاب ولا خير ولا شر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للحدادين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتمتع بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما الثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبيث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تنموا فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلفظ هل سكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن البديوت فينقى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبرانه الأدينين بخير لإقال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادى على ما علموا وغفرت له ما علم.

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر)

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه النية أول العمل ومحسبها يسكون العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيمهم ويحالى طاعتهم لله تعالى فإن دخوله فى طريقهم هجرة حاله ووقته. وقد ورد «الهاجر من هجر ما نهاه الله عنه» وقد قال الله تعالى - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله - فالمريد ينبغى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن للموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمامة مذبذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبسط باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بساكن مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة لتدرك باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استنصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام الغموم وللذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام والذات والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام والذات وذلك لا يموت أى لا يندم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمان خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالوقت زمانة مطلقا في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية . ثم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه غيته وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء فإن المؤلم هو القراق والفرق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين ، وإتمام معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويحترج إليه ويعتد بوجوده فيه عظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقه بل ياتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعائته إذ دخل بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك حسياساً - وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتغل فيه نيران القراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا القانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الحلي قال سمعت الجنييد يقول أكثر العوائق والحوائل والوانع من فساد الابتداء فالمريد في أول مسأله هذا الطريق يحتاج

بمفارقة بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان  
يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب  
والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب  
وقد يعني عنه ويكون حال التمتع بالدنيا المظنين إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره  
وملكه وحرمة اعتقاد على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح  
أفعاله فأخذه الملك بئنة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحته وجنایاته ذرة ذرة وخطوة  
خطوة والملك قاهر مبتسوط وغيور على حرمة ومتنقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع  
إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف  
والخجلة والحياء والتجسس والندم فهذا حال الميت الفاجر المظن بالدنيا المظنين إليها قبل نزول عذاب  
القبر به بل عند موته نفوذ بالله منه فإن الحزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد  
من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهداً وأول البصائر مشاهدة باطنة  
أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه  
حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك  
ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربي (١) »  
فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه وإنما للأدوين فيه ذكر حال  
الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار  
كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل  
أحياء عند ربهم يرزقون فرحين - ولما قتل صناديق قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدت ما وعدكم ربي حقاً فقل  
يا رسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام  
منكم إلا أنهم لا يفتدرون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشق وبقاء إدراكها ومعرفة  
والآية نص في أرواح الشهداء ولا يغلو الميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر  
إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن الموت معناه  
تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتمجّل عند الموت من غير تأخر وإنما  
يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال  
« الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه  
مقدمه غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا  
مقدمك حتى تبصت إليه يوم القيامة وليس يغنى ما في مشاهدة المتعدين من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث  
ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - ويسلونك عن الروح - وقد تقدم  
(٢) حديث ندائه من قتل من صناديق قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث  
مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة  
الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس الموت القيامة من مات  
فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في الموت بأسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم  
عرض عليه مقدمه بالغداة والعشي الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

إلى إحكام النية وإحكام  
النية تنزيهاً من  
دواعي الهوى وكل  
ما كان للأنفس فيه حظ  
عاجل حتى يكون  
خروجه خالصاً لله تعالى .  
وكتب سالم بن عبد الله  
إلى عمر بن عبد العزيز  
اعلم يا عمر أن عون الله  
للعبد بقدر النية فمن  
تمت نيته تم عون الله له  
ومث قصرت عنه نيته  
قصر عنه عون الله  
بقدر ذلك . وكتب  
بعض الصالحين إلى  
أخيه أخلص النية في  
أعمالك يكفك قليل  
من العمل ومن لم يهتد  
إلى النية بنفسه يصحب  
من يعلمه حسن النية .  
قال سهل بن عبد الله  
التستري أول ما يؤمر به

وعن أبي قيس قال كنا مع عاقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال علي كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة (١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في الملحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فإن لم يمت قال يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يجبه إلا للمؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالديار والأنس بين لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل مأسوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين يخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من يخاف عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراجه بمحبوه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم والذات وأكل الذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا وبالآخره والبائع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وأقل التفاتة إلى ما باعه إذا فارقته وتجرد القلب لحب الله تعالى قد بنفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا أعظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن ينزع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما أنقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك بإجبار وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالجبر فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعد بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيكه فقال يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع (٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأنني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب

للريد المبتدى التبري  
من الحركات المذمومة  
ثم النقل إلى الحركات  
المحمودة ثم التفرد  
لأمر الله تعالى ثم  
التوقف في الرشد ثم  
الثبات ثم البيان ثم  
القرب ثم المناجاة ثم  
الصادقة ثم الموالاة  
ويكون الرضا والتسليم  
مراده والتفويض  
والتوكل حاله ثم يمن  
الله تعالى بعد هذه  
بالمعرفة فيكون مقامه  
عند الله مقام التبرين  
من الحول والقوة  
وهذا مقام حملة العرش  
وليس بعده مقام  
هذا من كلام سهل  
جمع فيه ما في البداية  
والنهاية ومتى تمسك  
الريد بالصديق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا فان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك بإجبار الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقعد بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللمزمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه فقال يا عبدى تمن على أعطاك قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون.

إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والشمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسره أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه<sup>(١)</sup>» فمفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه<sup>(٢)</sup>» وكذلك المؤمن يخرج من الموت فإذا أنقى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلاناً قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه<sup>(٣)</sup>» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقا مربنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة، وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإتهم ليخلونه ويكنفونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلات تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فأنشأ الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم<sup>(٤)</sup>» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم ببيات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور<sup>(٥)</sup>» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رباحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال في حواصل طير يبيض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسره أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلمي عن سليم بن عامر الجنائري مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة باللفظ مرّ عليه بجزالة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فأنشأ الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدّى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكاه الأزد في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكاه في ترجمة أبي اسمعيل السكوني رواية عن مالك بن أدّى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزد لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدّى (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم ببيات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والمحاملي باسناد ضعيف ولأحد من رواية من مع إنسانا عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث.

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر التمر وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالآباء عزم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغرة» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيّد بعباداتهم - قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فيلزم

صلى الله عليه وسلم يقول «إن للبت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدلّه في قبره» (١). وقال صالح الرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مآلوك وفي أى الجسد كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا أتاهم البت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم فيقولون إن الله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد: إن الرجل ليشر بصلاح ولده في قبره وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عنده كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فإذا سألوهم عن رجل مات قبله وقال مات قبلى قالوا إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية» (٢).

(بيان كلام القبر للبت)

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم أنى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك في إذ كنت تمرى فذاذا فان كان مصلحا أجاب عنه بحسب القبر فيقول أرايت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إنى إذا تحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصدر روحه إلى الله تعالى» (٣) والقد اذهو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسر الرواى . وقال عبيد بن عمير اللبى ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك همة أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج منبورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فغذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فيما تعتبر أما كان لك في متقدمنا إليك فكرة أماريت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فلا استدركت ما فات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها القبر بظاهر الدنيا هلا عتبرت بمن غيب من أهللك في بطن الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا لها داء أحبه إلى المنزل الذى لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشى بلغنى أن للبت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله؟ فقالت أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجى ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليك عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله

(١) حديث أبي سعيد الخدرى إن الميت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدلّه في قبره رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عنده كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبرانى في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفعه ابن حبان في زوائد على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم أنى بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبرانى في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالى بإسناد ضعيف.

الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصدق يهdy إلى البر» ولا بد للمريد من الخروج من الملك والنجاء والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أسامه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأقع شئ للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية . قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك نصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسيّل لكم عليه قد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه قد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجهه لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتبه ملائكة الرحمة فتنشر له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفصح له في قبره مد بصره ويؤتى بتعديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعث الله من قبره . وقال عبيد الله بن عمير في جنازة بلغي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيق وتنتي وهولي ودودي لماذا أعددت لي (١) » .

( بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير )

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبر من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروهم ما أعددت لهم من الكرامة فإني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبى محمد ﷺ قال فيتهراته انتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى - ثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنت فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عبدك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة واقتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل لىام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فانه إذا كان في قبر من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتشونونه فإذا خرجت نفسه عنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله ساء ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروهم ما أعددت له من الشر إني وعدته - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا أدريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عبدك الحيث والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغنى ولم يرضه .

لا تهم لله بمصيبة وتوسى  
ولا تهم لله بمصيبة فإذا  
أحكم الزهد والتقوى  
انكشفت له النفس  
وخرجت من حجبها  
وعلم طريق حركتها  
وخفى شهواتها  
ودسايتها وتلبساتها  
ومن تمسك بالصدق  
قد تمسك بالعروة  
الوثقى . قال ذو النون  
الله تعالى في أرضه  
سيف ما وضع على شيء  
إلا قطع وهو الصدق  
وقل في معنى الصدق  
أن عابدا من بنى  
إسرائيل راودته  
ملكة عن نفسه ،  
فقال اجعلوا لى ماء فى  
الحلاء أنتظف به ثم  
صعد على موضع فى  
القصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شرًا ثم يقبض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يملوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابًا فيضربه بها ضربة فيصير ترابًا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسحق بها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار واقتحوا له بابًا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن علي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسنة وبطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بهريرة فيها مسك وضائر الریحان فتسل روحه كاتسل الشجرة من العجين ويقال : أيتها النفس الطمينة اخرجي راضية ومرضا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه حجارة فتزع روحه انزعاجًا شديدًا ويقال : أيتها النفس الحثيئة اخرجي ساخطة ومسغوظة عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجرة وإن لها نشيًا يطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين (٢) وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلى أعمل صالحًا فإني تركت - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتقرس القراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحًا فإني تركت قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها - أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « للؤمن في قبره روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعًا وبيض حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما إذا أنزلت - فإن له معيشة ضحكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنين هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخذشونه ويلعنونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون » ولا ينبغي أن يتمجب من هذا العدد على الخصوص فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق للذمومة من الكبر والرياء والحسد والذل والحقد وسائر الصفات فإن لها أصولًا معدودة ثم تنشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذى إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأما هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والنسليم. فإن قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئًا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف الشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن ازمع عبيدي قال فآزمعه ووضعته على الأرض وضعا رفيقا فقبيل إبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لاستصحي النفس ونجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكمسا رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكاه وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضرته الملائكة بهريرة فيها مسك وضائر الریحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز بافظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعًا الحديث ورواه ابن حبان



والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولستكك لان شاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور للكونية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم المكنوت أما ترى الصحابة رضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحى أم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما أن الملك لا يشبه الأعميين والحيوانات فالحيات والعقارب التى تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هى جنس آخر وتدرى بحاسة أخرى [ للقام الثانى ] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو ينام بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية والحية موجودة في حقها والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد [ للقام الثالث ] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذى يلفق منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذى يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفروا وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذى يقضى إليه في العادة فإنه لو خلق في الانسان لمدة الوقوع مثلا من غير مباشرة صورة الوقوع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لادائه وهذه الصفات للمهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية بضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت العشوق فانه كان لذيذا فطرات حالة صار اللذيق بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتحن معه أن لم يكن قد تتم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشقى ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليت له لم يكن لى مال قط ولا جاء قط فكنت لا تأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة الهجوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

لما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يعجبه عن لقاء الله والنعم به فيؤلى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبدأ الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذى يمدب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيم أوقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبدأ الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب ، فاذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذى يلدغه فإذا أخذ منه فرسه فليست له هذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضائه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شئ من رفق  
النفس لا لله بغير نية  
صالحة صار ذلك وبالاً  
عليه وقد ورد في الخبر  
«من تطيب لله تعالى  
جاء يوم القيامة وريحه  
أطيب من السك الأذفر  
ومن تطيب لقبر الله  
عز وجل جاء يوم  
القيامة وريحه أنين  
من الجنة» . وقيل  
كان أنس يقول طيبوا  
كفى بمسك فان ثابثا  
يصالحى ويقبل يدي  
وقد كانوا يحسنون  
اللباس للصلاة متقربين  
بذلك إلى الله بنيتهم  
فالمريد ينبغي أن يفقد  
جميع أحواله وأعماله  
وأقواله ولا يسمع  
نفسه أن تتحرك  
بحركة أو تكلم  
بكلمة إلا لله تعالى

من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حيّ فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قد بينا أن  
 للحي الذي هو للدرك للآلام والذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه في الحياة يتسلى بأسباب  
 يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء الموضع منه ولاسلوة  
 بعد الموت إذ قد انسدت عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث  
 كان يشقّ عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومغذبا به فإن كان غضا في الدنيا سلم وهو للحيّ  
 بقولهم نجا الخفون وإن كان متغلا عنظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من  
 يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو للحيّ بقوله  
 صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين» (١) وما من شيء من الدنيا  
 يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت فإن شئت فاستكر وإن شئت فاستقل  
 فإن استكرت فلتستكر بمستكر إلا من الحسرة وإن استقلت فلتستخف لإعني ظهرك واتمناك  
 الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها  
 فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدري  
 أبنا له قد مات في المنام فقال له يابني عظمي قال لا تخاف الله تعالى فما يريد قال يابني زدني قال يا أبت  
 لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قيما فالبس قيما ثلاثين سنة . فإن قلت فما الصحيح  
 من هذه القامات الثلاث . فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر  
 الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الخلق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار  
 أن كل ذلك في حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلة وجهه باتساع قدرة الله  
 سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل  
 هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه  
 الأنواع ورب عيد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليلا وكثيرا ، هذا  
 هو الحق صدق به تقليدا فيز على بسيط الأرض من عرف ذلك تحققا والذي أوصيك به أن  
 لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان  
 فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وجبهه ليقطع يده  
 ويجمع أنفه فأخذ طول الليل يفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بعوسى وأهمل طريق  
 الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن البعد لا يخلو بعد  
 لاوت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فاما البحث عن تفصيل  
 العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

( بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضفطة القبر وبقية القول في عذاب القبر )

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال  
 لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله  
 ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم فسخ له  
 في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له ثم يقول دعوني أرجع إلى أهلي  
 فأخبرهم فيقال له ثم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه  
 ذلك وإن كان منافقا قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا لنعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده أصلا .

وقد رأينا من أصحاب  
 شيخنا من كان ينوي  
 عند كل لقمة ويقول  
 بلسانه أيضا أكل  
 هذه اللقمة لله تعالى  
 ولا ينفع القول إذا لم  
 تسكن النية في القلب  
 لأن النية عمل القلب  
 وإنما اللسان ترجمان  
 لما لم تشتمل عليها  
 غزيرة القلب لله  
 لا تكون نية . ونادى  
 رجل امرأته وكان  
 يسرح شعره فقال  
 هات الدرري أراد  
 الليل ليفرق شعره  
 فقالت له امرأته أجبني  
 بالمسدي وللراة  
 فسكت ثم قال نعم  
 فقال له من معك سكنت  
 وتوضعت عن المرأة  
 ثم قلت نعم فقال إني

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثني عليه فلتثني عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال المعذب حتى ييمته الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهولوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكروا ونكبر أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الحاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنبياهما فتتلاك وترتاك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقل الآن ؟ قال نعم قال إذن أكفيكما (٢) وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مذكراً كالآلآم والذات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا يتقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا يتقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسلط عليه في قبره دابة عجماء صامدة يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لاتراه فتقيه ولا تسمع صوته فتحرقه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فان أتاه من قبل رأسه جاء قرايته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت الديدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعتك فعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أمحباك . وعن حذيفة قال « كن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط الوؤم في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة فقبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما اتينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأناً لم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأنتيت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلان ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلان . قلت ووصله ابن بطه في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد خرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أريد إلينا عقولنا فقال نعم كبريتكم اليوم فقال عمر بئيه الحجر (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدري  
بنية فلما قالت والمرأة  
لم يكن لي في المرأة  
فتوقفت حتى هيا الله  
تعالى لي نية فقلت  
نعم وكل مبتدئ  
لا يحكم أساس بدايته  
بمهاجرة الألف  
والأصدقاء والمعارف  
ويتمسك بالوحدة  
لا تستر بدايته ، وقد  
قل من قلة الصدق  
كثرة الخطاء وأتبع  
ماله لزوم الصمت وأن  
لا يترك صممه كلام  
الناس فإن باطنه يتغير  
ويتأثر بالأقوال المختلفة  
وكل من لا يعلم كمال  
زهده في الدنيا وعسكه  
بخفايق التقوى  
لا يعرفه أبداً فان عدم

قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الحافقين (١) .

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام )

اعلم أن أنوار البصائر للاستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن خالد زيد وعمر وبينه فلا ينكشف أصلاً فانا إن عولنا على إيمان زيد وعمر فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من المتقين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمر إلا بعاشدته ومشاهدة ما يجري عليه وإذامات قد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملوكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملوكوت مالم تنفتح تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة متفشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملوكوت وشاهدوا عجائبه واللوت في عالم الملوكوت فشاهدوه وأخبروا، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر، ومثل هذه الشهادة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضئيلة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعلى بها الشهادة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» (٣) وهو أيضاً انكشف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤيته ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتكلمة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كأنه انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) وقبلنا نخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدناها محيطة بالرؤيا وسرقة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة آدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملوكوت والحق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره (١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الحافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواة سليمان الأعشى عن أنس ولم يسمع منه .

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة )

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعت فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابتداء كالشمع قبل كل نقش وربما استضر المبتدىء بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بفضل النظر أيضاً وفصول المشى فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بيمينه ويساره ثم يبقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالزعاية والاحتراز فإن علم الناس منه بذلك أضرم عليه من ضله ولا يستحق فضول

علاوة على علم للعامة ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثله مثال امرأة تراهي فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب البين وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن لجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغي أن نفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثالا يقرّبه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرأه ينظر إليه ولو فتشبت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا الخط ينبغي أن نفهم كون اللوح منقوشا لجميع ما قدره الله تعالى وقضاء والوحي في المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلوضع في مقابلة المرأة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرأة تراهي في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته وقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفقته تلاحق في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد ثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورد له الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورد له على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء منافي للوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه لما يقع في القلب ينتدرة الخيال فيحاكيه مثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج العبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالنسبة التي بين التخييل والمعاني وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير وبكيفية مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان قال صدقت فأنظر أن روح الختم هو المنع والأجله يراد الختم وإعنايكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألبس المنع عند الختم بالختم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر بحجابه وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضئيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل لماذا تراهي في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف النطاء بالسكية حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكسار والمجازي والفضائح نحو ذبائه من ذلك وإما كنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف النطاء - لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - ويقال - أفسر هذا أم أتم لا تبصرون أصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون -

الشيء فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسامع خرج عن حد الضرورة جبر إلى الفضول ثم يجر إلى تضييع الأصول . قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول فكل من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومضى نسيدي الضرورة تداعت عزائم قلبه وأغلقت شيئا بعد شيء . قال سهل بن عبد الله من لم يبعد الله اختيارا يبعد الخلق اضطرابا وينفتح على البعد أبواب الرخص

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء يتكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذير ترفع وما الذي يتكشف عنه النطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وفزعنا بتنازل بأعضائنا وسمنا وبصرنا مع أننا لم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد البينين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعنى ماشئت فانك ميت وعمل ماشئت فانك مجزى به (١)» فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بان اليقين كان في الدنيا كما برسيل لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة (٢) ولم يغلف ديناراً ولا درهما (٣) ولم يتخذ حياً ولا خليلاً نعم قال «لو كنت متخذاً لئلا لا تغتذ أبابكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن (٤)» فيبين أن خلة الرحمن تخلص باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه مقسماً لحليل ولا حبيب وقد قال لأمته - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبسكم الله - فأتى أمته من أتبعه وماتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه ماداً إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة قد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله قد اتبعته وبقدر ما اتبعته قد صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ودرغبت عن متابته والتحققت بالدين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى - فلو خرجت من مكن التورور وأنصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه ما أبعد ظنك وما أبعد طمعك - أفجعل المسلمين كالجحيم من مالكم كيف تحكمون - ولترجع إلى ما كنا فيه وبصده قد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال الموت ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت البشائر وليس ذلك إلا للامات

(بيان منامات تكشف عن أحوال الموت والأعمال النافعة في الآخرة)

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى في المنام قدراً آتى حقا فإن الشيطان لا يمثل بي (٥)» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيت لا ينظر إلى قهات يار رسول الله ماشاً في فائت إلى وقال ألت القبل وأنت صائم قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً . وقال العباس رضي الله عنه كنت ود العرف فاشتيت أن أراهم في المنام فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيت يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أو أن فراخى إن كان عرشى ليهدي لولا آتى لقيته رءوفاً رحباً . وقال الحسن بن علي قال لي على رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لي الليلة في منامى فقلت يار رسول الله ما لقيت من أمك قال ادع عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فخرج نضرباً ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يار رسول الله استغفر لي فأعرض عني فقلت يار رسول الله إن

والإتباع وبهلك مع  
المالكين ولا ينبغي  
للبتدى أن يعرف  
أحد من أرباب  
الدنيا فان معرفته لهم  
سم قاتل . وقد ورد  
«الدنيا مبغوضة الله  
فمن تمسك بعجل منها  
قاده إلى النار» وما  
جبل من جبالها إلا  
كأبنائها والطالين  
لها والمحبين فمن  
عرفهم انجذب إليها  
هاء أو أي ويحترز  
للبتدى عن مجالسة  
الغفراء الذين لا يقولون  
بقيام الليل وصيام  
التهار فانه يدخل عليه  
منهم أشمر ما يدخل  
عليه بمجالسة أبناء  
الدنيا وربما يشيرون  
إلى أن الأعمال شغل

- (١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة أيضاً (٣) حديث لم يغلف ديناراً ولا درهما تقدم أيضاً (٤) حديث لو كنت متخذاً خليلاً لا تغتذ أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم أيضاً (٥) حديث من رأى في المنام قدراً آتى حقا فإن الشيطان لا يتخيل بي متفق عليه من حديث أبي هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن سميد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل علي فقال غفر الله لك <sup>(١)</sup> وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزفت عليه وأمنى أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يرزق إياه في المنام قال فرأيت يلقب ناراً فسألت عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به واعتقت وليدة لي فرحاً به فأناهي الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألت عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فداخلى من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبني عيني فتمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تتحوا فمسح وجهه يده ثم أتاني فقال قم فقد يرض الله وجهه أيك قلت له من أنت باني أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض لما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده فجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعل ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر لما كان بأسرع من أن أخرج على رضى الله عنه وهو يقول قفى لي وزب الكعبة وما كان بأسرع من أن أخرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفضها إلى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤى الصديق رضى الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً في لسانك هذا أوردني الموارء فلماذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

( بيان منامات للشايع رحمة الله عليهم أجمعين )

قال بعض الشايع رأيت متمما الدورى في المنام قلت يا سيدى ما فعل الله بك فقال دبرني في الجنان قيل لي يا متمم هل استحسنيت فيها شيئا قلت لا يا سيدى فقال لو استحسنيت منها شيئا لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى ورؤى يوسف بن الحسين في المنام قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي قبل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله البزار في النوم قلت ما فعل الله بك قال أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا فأتى استحييت أن أقربه فأوقفني في المرق حتى سقط لحم وجهي قلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنيت فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما يده طشت ويد الآخر إبريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل يده ثم أمر حق غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما مثل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

التعبدن وأن أرباب  
الأحوال ارتضوا عن  
ذلك . وينبغي للفقير  
أن يختصر على الفرائض  
وصوم رمضان حسب  
ولا ينبغي أن يدخل  
هذا الكلام صممه رأسا  
فانا اخترنا ومارسنا  
الأموال كلها وجالسنا  
الفقراء والصالحين  
ورأينا أن الدين يقولون  
هذا القول ويرون  
الفرائض دون  
الزيادات والنوافل  
تحت القصور مع كونهم  
أصحاب في أحوالهم على  
العبد التمسك بكل  
فريضة وفضيلة فبذلك  
يثبت قدمه في بدايته  
ويراعى يوم الجمعة  
خاصة ويحمله لله تعالى  
خالصا لا يمزجه بشيء

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فإنه ليس منهم فقلت يا رسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت «المرء مع من أحب» قال بلى قلت يا رسول الله فاني أحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فإنه منهم وقال الجنيدي رأيت في المنام كأنني أتكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا فعلت عمل خفي بيمينان وفي فؤلي للملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤي مجمع في النوم قليله كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهد بن في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام لعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فزلت عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فصمت منه فأشخص رجلا يقتلني . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تضره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أغفني ذلك راحة طويلا وفراحا دائما فقلت في أي الدرجات أنت - فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية . وسئل زرار بن أبي أوفى للناس أي الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلني على عمل أقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المهزولين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال علي الطلمي رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجي نفسك قالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني فقلت وما مهرك قالت حبسك عن آفاتنا وقال إبراهيم بن اسحق الحاربي رأيت زيدا في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لي بنيتي ولما مات سفيان الثوري رؤي في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الحواري رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نورا فقلت لها لماذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعتك فمسحت به وجهي فمن ثم ضوء وجهي كما ترى وقال السكتاني رأيت الجنيدي في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصلهما في الليل ورؤيت زيدا في المنام فقلت له ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أدخل بها جدي لا إله إلا الله ألقى بها ربي ورؤي بشر في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال رحمى ربي عز وجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف ورؤي أبو سليمان في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال رحمى وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر السكتاني رأيت في النوم شابا بالمرأ حسن منه فقلت له من أنت قال التفوي قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكن قالت كل قلب فرح مرح قال فالتفت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة وقال أبو سعيد الخزاز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرج منها فهتف بي هاتف إن هذا لا يخاف من هله وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحي رأيت إبليس في النوم يمشي عريانا فقلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألبس بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالسكر بالسكر بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخزاز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي

من أحوال نفسه  
ومآربها ويسكر إلى  
الجامع قبل طلوع  
الشمس بعد الغسل  
للجمعة وإن اغتسل  
قريبا من وقت الصلاة  
إذا أمكنه ذلك لحسن  
قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «يا أبا  
هريرة اغتسل للجمعة  
ولو اشتربت الماء  
بشائك وما من  
شيء إلا وقد أمره  
الله تعالى أن يغتسل  
للجمعة فإن غسل  
الجمعة كفارة للذنوب  
ما بين الجمعتين» ويستنفل  
بالصلاة والتضرع  
والدعاء والتلاوة وأنواع  
الذكر من غير خور  
إليه أن يغسل الجمعة  
ويجلس متكئا في



صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فاجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لكل هذا فإعمل العالمون فقلت له أوصى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضى عنك يا ابن سعيد  
قد كنت قواما إذا أظلم الدجى بمبرة مشتاق وقلب عميد  
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلبي بعد موته بثلاثة أيام قفيل له ما فعل الله بك قال ناقض حتى أيسر فلما رأي بأسى تمدني برحمته وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على الهبين وروى الثوري في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال رحمى قفيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو عمن يلج على ربه في كل يوم مرتين وروى بعضهم فستل عن حاله فقال : حاسبوا فقد قوا ثم منوا فأعتقوا وروى مالك بن أنس قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنائز سبحان الحى الذى لا يموت وروى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كان أبواب السماء مفتحة وكان مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض وروى الجاحظ قفيل له ما فعل الله بك فقال :

ولانكتب بخطك غير شئ يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الحديث وروى النصر أباضى بمكة بعد وفاته في النوم قفيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعده الاتصال انفصال فقلت لا يا أبا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أتألك عاشقة فأنظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لي عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب - قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذ أمسكم خشية الانفاق - وقال بعضهم رأيت في الليلة التى مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكي في المنام فقلت أيها الشيخ قال دع التشيع قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لمن عنى فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها المجز وقال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسي المعلم في النوم فقال لي قل لأبي سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لنحول عن الهوى فقد وحيه الحب حلتهم وما حلنا

قال فانقبت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مات قال بلى قالت فما صنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال يخبر ذلك - من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى  
فرض العصر وبقية  
النهار يشغله بالتسبيح  
والاستغفار والصلاة  
على النبي صلى الله عليه  
وسلم فانه يرى بركة  
ذلك في جميع الأسبوع  
حتى يرى ثمرة ذلك  
يوم الجمعة وقد كان من  
الصادقين من يضبط  
أحواله وأقواله وأفعاله  
جميع الأسبوع لأنه يوم  
المزيد لكل صادق  
ويكون ما يجده يوم  
الجمعة معيارا يعتبر به  
سائر الأسبوع الذى  
مضى فانه إذا كان  
الأسبوع سليما يكون  
يوم الجمعة فيه مزيد  
الأنوار والبركات وما يجد  
في يوم الجمعة من الظلة  
وسأمة النفس وقلة

قال أجلسني على كرسى من ذهب وشرطى الأؤلؤ الرطب ورأى رجلا من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - فاصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القارى الذى رآه فى منامى رجلا آدم طوا والوال الناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرنى فأثبته فقلت أوصنى رحمك الله فكلمنى فى وجهى فقلت مسترشدا فأرشدنى أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر قهقهة عند مصيبتها ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ثم ولى وتركنى وقال أبو بكر بن أبى مريم رآيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد فقلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرأها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة قالت يا أبت قدما على أمر عظيم نعم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسيحبة أو تسيحبتان أو ركبة أو ركبتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رآيت عتبة فى المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فاذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت يا هادى المضلين ويا راحم المؤمنين وباقيل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رآيت سفيان التورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله هم نلت هذا فقال بالورع قلت فمأبال على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب ورأى رجلا من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يا رسول الله عظمى قال نعم من لم ينفق النقضان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمى فى هذه الأيام أمر مضى وآلئى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لأملك لنفسى نقما ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقفتى اللهم فوقى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عاقبة فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فعليك بهذه اللدعوات لا تخفلوا عنها فهذه جملة من الكاشفات تدل على أحوال اللوتى وعلى الأعمال المفربة إلى الله زلتى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي اللوتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[ الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار ] وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهبها وأسماها وصفة المسألة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الحصاء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الخوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

( صفة نفخة الصور )

قد عرفت فيما سبق عدة أحوال الميت فى مكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

( الشطر الثانى من وقت نفخة الصور )

الانشرائح فلما ضيع فى الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس للناس اما للترفع من الثياب أو ثياب التشفين ليرى بعين الزهد ففى لبس للترفع للناس هو فى لبس الحسن رياء فلا يلبس إلا الله . بلقنا أن سفيان لبس القميص مغلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخضع ويضرب ثم أمسك وقال لبسته بنية الله فلا غيره فألبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا يبدل البتدى أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لنسكر ونكبر وسؤلها ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من فسخ الصور والبث يوم النشور والعرض على الجبار والشؤال عن القليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دفته وحدثه ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاستعداد وإما بالاستقاء فهذه أحوال وأحوال لا بد لك من معرفتها إيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثرت الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أقدنتهم وبدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرق الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرق جهنم وزمهرير هاجع ما تكتنفه من المصاعب والأحوال بل إذا استلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتناوله كان مصداقاً لبسائه ومكذباً بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمته ابني فيقول إن لي ولها وأما تكذبه فيقول له لن يسديني كابداني (١) » وإيمان الدور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم الأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعاً يصنع من النطفة القدرة مثل هذا الآدمي الصور العاقل التكلم التصرف لا شدة نور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى « وأولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال تعالى أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني ثم كان علقة غلقة فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - ففى خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب به وإعادته في فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعه وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقول الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتضكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فإنها سيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزهجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من المغموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى - ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - وقال تعالى - فإذا نفخ في النافور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير - وقال تعالى - ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بشرنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جذيراً بأن يتقي فاتها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصحني إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما ينبغي بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض الشايع أن يديم الريد ذكر واحد ليجمع لهم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيد التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد فإذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر تصانعة وينزل من التلاوة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) « قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرئيل عليه السلام وضع فاه على القرن كهية البوق ودائرة رأس القرن كقرص السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صفق من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرئيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرئيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيى الله إسرئيل فيأمره أن ينفخ الثانية فنفخ قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين يبعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فانتقوا النفخة (٢) » فتفكر في الخلائق وذلمهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من معادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفين والأغنياء التتمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أدل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطئون بالأقدام مثل الذر وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رهوسها غخلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أبليت الشياطين للردة بعد تمردها وعثوها وأذعنت خاشعة من هبة العرش على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا - فتفكر في حالك وحال قايتك هناك .

### ( صفة أرض المحشر وأهله )

ثم النظر كيف يساقون بعد البعث والنشور خفاة عراغرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع مصف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ولا ترى عليها بؤة يخفى الإنسان وراهها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا فسيحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أنظار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها ماء لم لأحد (٣) »

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التزم القرن وحتى الجبهة الحديث الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرآن يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين يبعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرئيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرئيل فهو واضعهم على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخارى ولم يصح وفى رواية لأبى الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينه كوكبان دريان وإسناده جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها ماء لم لأحد

إلى الله كره فانه أخف على النفس وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يستد به كل الاستعداد فانه عمل ناقص ولا يحضر الوساوس وحديث النفس فانه مضر وداء عضال فيطالب نفسه أن تصبر فى تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن فى القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم

قال الراوى : والمفردة بياض ليس بالناصع والنفى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لانباء يستمر ولا تنافوت برد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتعد مد الأديم العكاظى أرض بياض مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسماوات تذهب شمسه وقررها ونجومها فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدة فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لحدود سراجها فبيناهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانشقت مع غلظها وشدت في خمسة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فياهول صوت انشقاقها في ممعك وياهيبة ليوم تشق في السماء مع صلابتها وشدت في ثم نهار وتسيل كالفضة المذابة تغالطها صفرة فصارت ورده كالدهان وصارت السماء كالهل وصارت الجبال كالعلمن واشتبك الناس كالفراس الميثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان . قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يا رسول الله واسوأنا ما ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) » فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والاتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمتاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (٢) » في طبع آدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهى تمتشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوبا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

### ( صفة العرق )

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقواب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا القربون فمن بين من استظل بالعرش وبين مضج لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغممه من وهجه ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلهم من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة راوية الحديث واسوأنا الحديث التملبي والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأنا ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأنا (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس ألقى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة . قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة فليتمسك المرید بهذه الأصول وليستعن . بدوام الافتقار إلى الله فبذلك ثبات قدمه . قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليهم شدة الحجلة والحياة من الانتضاح والاختراء عند العرض على جوار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحترق القلوب بنار الحياة والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى مال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبهضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه» (١) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعوا يلجمهم ويلغ أذانهم» (٢) كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح وفي حديث آخر «قيامًا شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب» (٣) وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ نغذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه، وأشار يده فألجمها فاه، ومنهم من يغطي العرق، وضرب يده على رأسه هكذا» (٤) فتأمل يا مسكين في عرق أهل المنكر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بمد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم ونحو ذلك مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياة والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو لم يكن ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصائب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاحصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يعبدون في عروج نسيم . قال كعب وقادة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم» (٥) وقال الحسن ما ظنك يوم قاموا فيه على أقداسهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجه في الصحيحين كما ذكره للصف (٣) حديث قياما شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يعتمد الكذب لكن له تشبه عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمر وتلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمرو رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق التسوم وهذا الانتقام مع كل الأقداس لا يقبض بحركة ولا يستقل بكلمة دون الانتقام إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلعت عن مراجعة الله والانتقام فيها لا تعقب خيرا قطعا علنا ذلك ونحفظه . وقال سهل من اتقى من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا يعنيه وتركه ما بينه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه القدر ثم رجع إلى

لأبأ كلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آتية قد آن حرها واشتد لقمها فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي هقلني أمرى عن أمر غيى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا»<sup>(١)</sup> فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يبق لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تريح ربعا لا تمتد إلى لسوره واستحق عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا البكان ربحك كثير أوتعبك يسيرا .

(صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه)

فاستعد بالمسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والكواكب من هولاء قد انثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سحرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سمعت ، والجنة قد أزلت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيزلازلها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض الجبال قد كسا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفرش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه المعاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجماع بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تحرس فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لمية وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لمية وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتندي الشمس للغروب إلى أن تغرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفقه بافظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال نالى وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لاتعنينى وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أذنها وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا . أخبرنا أبو زرعة بإجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأنصاري يقول سمعت الجنيدي يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما نالاه وهذه

وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضي الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال «شيتني هود وأخواتها»<sup>(١)</sup> وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛ فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك أن تجمع القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جدرا بأن تنشق مرارتك عما شاب منه شعر سيد المرسلين وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسماء والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب فحتم كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعمت من نعمتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميا . وهي : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم الحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدسمة ويوم الساعة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الفاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم الساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المكاب ويوم العذاب ويوم القرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم النهي ويوم التأوى ويوم الليقات ويوم اليعاد ويوم الرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الانتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا ينفي مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يمر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيمتدرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفهم العاذر وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الحفريات وتظهر الحطيات يوم يساق العباد ومعهم الآلهة وشيبي الصغير وبكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الحميم وزفرت النار ويشس الكفار وسمرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت الستور واستترت عن الخلق تقارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك كل لويل كل لويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة

الجملة يحتاج البتدى أن يحكمها والنهسى عالم بها عامل بحقائقها فالمبتدى صادق والنهسى صديق قال أبو سعيد القرني الصادق الذي ظاهره مستقيم وباطنه ميل أحيانا إلى حظ النفس وعلامته أن يجد الخلاوة في بعض الطاعة ولا يجدها في بعض وإذا اشتغل بالله كر نور الروح وإذا اشتغل بحظوظ النفس عجب عن الأذكار والصدى الذى استقام ظاهره وباطنه بعد الله تعالى بتلويح الأحوال لا يجيبه عن الله وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .



وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ويزاهقون - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا - ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميهِ ولا نستمد للتخلص من دواهيهِ فنمؤذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

(صفة المسألة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والتغير والقطمير فيينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظامها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرش على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن قه عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام (١) » لما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء اللائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرش وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذون فهذا حال المقرين لما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يدار أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفبكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع اللائكة من سؤالهم إجلالا لحاقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لملكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم اللائكة صفحا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الدل والخضوع وهيئة الخوف والهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنسلأن الذين أرسل إليهم ولنسلأن للرسلين فلنقصن عليهم علم وما كنا غائبين - وقوله - فو ربك لنسلأنهم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيأشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وأعمت العلوم إلى أن يقوبهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أئانا من نذير ويؤتى عيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشجطا تحت هبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل اللائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان بن فلانة هلم إلى موقف العرش وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملائكة الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرفت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد بأقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواء وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل اتقنى بالنار فيجىء لها جبريل ويقول يا جبريل أجيبي خالقك ومليكك فيأصافهم جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تعيظها وزفيرها واتهضت خزنتها متوبهة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا احتيا على الركب

ولا نوم ولا شرب  
ولا طعام والصديق  
يريد نفسه لله وأقرب  
الأحوال إلى النبوة  
الصدقية . وقال  
أبو يزيد : آخر  
نهايات الصديقين أول  
درجة الأنبياء . واعلم  
أن أرباب النهايات  
استقامت بواطنهم  
وظواهرهم لله  
وأرواحهم خلصت  
عن ظلمات النفوس  
ووطئت بساطا تقرب  
ونفوسهم متقادة  
مطوعة صالحة مع  
القلوب عجيبة إلى كل  
ما تحبب إليه القلوب  
أرواحهم متعلقة  
بالمقام الأعلى انطفات  
فيهم نيران الهوى  
وتخمر في بواطنهم

(١) حديث إن قه عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

وولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جاثية - وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السمداء والأعقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجيتم فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والآخر من أخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا » قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا » قال فوالقى نفسى يده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل وأذكرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقى فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى (١) فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بمضدك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب قضا إذا أبلتة ألم أمهل لك في العمر فقضا إذا أقيتته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيا إذا أنفقته ألم أكرمك بالملم فإذا عملت فباعلت فكيف ترى حياتك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وآيديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضى الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فاني لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام السكاكين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكن وسحقا فضكن كنت أنا ضل (٢) فتعذبا فله من الاتضاح على ملا الحاق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم (٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة (٤) » فهذا إنعابى لبعده مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تصغيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك ليس قد فرغ صمكت النداء إلى المعرض فيسكتك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والمالم عليك من عدة المول مظلم تقدر

صریح العلم وانكشف  
لم الآخرة كما قال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم في حق أبى  
بكر رضى الله عنه « من  
أراد أن ينظر إلى ميت  
يمشى على وجه الأرض  
فلينظر إلى أبى بكر »  
إشارة منه عليه  
الصلاة والسلام إلى  
ما كشف به من  
صریح العلم الذى  
لا يصل إليه عوام  
المؤمنين إلا بعد الموت  
حيث يقال - فكشفنا  
عنك غطاءك فبصرك  
اليوم حديد - فأرباب  
النهايات ماتت أهولتهم  
وخلصت أرواحهم .  
قال يحيى بن معاذ وقد  
سئل عن وصف  
العارف فقال رجل

(١) حديث أبى هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بهما مسلم (٢) حديث أنس أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوم نفسك أنك في أيدي الوككين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم أدن مني فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذي لا يفاد بصغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فقد كرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فكشف لك عن مساوينا فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وهجز فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان نجيب وبأي قلب تمقل ماتقول ثم تفكر في عظم حياثك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذا يقول يا عبدي أما استحييت مني فبارزني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجليل أ كنت أهون عليك من سائر عبادي استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري ألم أنعم عليك فإذا غرك بي أظننت أني لا أراك وأنتك لا تلتفتاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليتنق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة» (٢) وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا سيخو الله عز وجل به كما يخو أحدكم بالقرمزية البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيبا على أذنك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفماذا أنفق فاعظم يأمسكين بحياتك عند ذلك ويخطر بك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فعد ذلك أعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون وإما أن يقال لله لا تسكة خذوا هذا العبد السوء فخلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم معصيتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بئت آخرتك من دنيا دنيتك فبق معك.

## (صفة الميزان)

ثم لا تنفل عن الفكر في الميزان وتطير الكتب إلى الأيمان والتمائل فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلهم النار وينادي عليهم شقاوة لا سعادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد ليقيم الحادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم عن لم تشغلهم نجارة الدنيا ولا يبعها عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويبنى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يغنى عنهم ولا يغنى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليعين فضلهم عند العفو وعدله عند العقاب فتطير الصحف والكتب منظوبة على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أ تقع في اليمين أو في الشمال ثم إلى لسان الميزان أي ميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ إلا سيكلهم الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخاري من حديث عدي بن حاتم .

مهم بأش منهم وقال  
مرة عبد كان فبان  
فأرباب النهايات هم  
عند الله بحقيقتهم  
موقوفين بتوفيت الأجل  
جعلهم الله تعالى من  
جنوده في خلقه بهم  
يهدى وبهم يرشد  
وبهم يجذب أهل  
الارادة كلامهم دواء  
واظفرهم دواء ظاهرهم  
محفوظ بالحكم وباطنهم  
معمور بالعلم . قال  
ذو النون علامة  
العارفين ثلاثة لا يطفىء  
نور معرفته نور ورعه  
ولا يستفقد باطنه من  
العلم ينقض عليه ظاهرا  
من الحكم ولا يحمله  
كثرة نعم الله وكرامته  
على هتك أستار محارم  
الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنفس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسى بيده في ثلاثة مواطن فان أحدا لا يذكرك إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أعنف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ كتابه أو جماله ، وعند الصراط (١) . » وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سمد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبأسوا حتى مأوضوا وباحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لحليقين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرة مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما آتتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة (٢) »

### (صفة الخصماء ورد الظالم)

قد عرفت هول البزاة وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان - فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فألمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حاسبه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويستدرك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد الظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلدانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد الظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعاق بلبيه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأساءت جوارى وهذا يقول عاملتني فمشتتني وهذا يقول أباعدتني ففبتتني وأخفيت عني عيب سلتك وهذا يقول كذبت في سمر

- (١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد
- (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعون وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

كلما ازدادوا نعمة  
ازدادوا عبودية وكلما  
ازدادوا دنيا ازدادوا  
قربا وكلما ازدادوا  
جها ورفعة ازدادوا  
تواضعا وذلة - أدلة على  
الؤمنين أعزة على  
الكافرين - وكلما تناولوا  
شهوة من شهوات  
النفوس استخرجت  
منهم شكرا صافيا  
بتناولون الشهوات - آفة  
رققا بالنفوس لأنها  
مهمهم كالطفل الذي  
يلطف بالكى ويهدى  
له شيء لأنه مقهور  
تحت السياسة مرحوم  
ملطوف به وتارة  
يمنعون نفوسهم  
للمشهورات تأسيا بالأنبياء  
واختيارهم التقليل من  
الشهوات الدنيوية قال

متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا لما أطعنتي وهذا يقول وجدنتي مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عن فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك وقد أنشبت الحصاء فيك بحالهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مبهوت متعير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلفك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - ففند ذلك بتخلع قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبور وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخركم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعين رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس الآفة أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً ففند ذلك تؤخذ حسناتك التي تمبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من الفلّس قلنا الفلّس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال الفلّس من أمق من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيمطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار (١) » ، فأنظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القرناء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله بدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبت واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المباينة والمجاورة والمناظرة والمذاكرة والدارسة وسائر أصناف العاملة .

يحيى بن معاذ الدنيا  
عروس تطلبها مشقتها  
والزاهد فيها يسخم  
وجهها وينتفشمرها  
ويحرق ثوبها والعارف  
بالله مشغول بسيده  
ولا يلتفت إليها .  
واعلم أن المنتهى مع  
كمال حاله لا يستغنى أيضاً  
عن سياسة النفس  
ومنعها الشهوات وأخذ  
الحظ من زيادة الصيام  
والقيام وأنواع البر  
وقد غلط في هذا  
خلق وظنوا أن المنتهى  
استغنى عن الزيادات  
والنوافل ولا على قلبه  
من الاسترسال في  
تناول اللذات والشهوات  
وهذا خطأ لا من حيث  
إنه يحجب العارف  
عن معرفته ولكن

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من الفلّس ؟ قالوا الفلّس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله بدرى وسيقضى بينهما أحمد من رواية أبي داود لم يسموا عن أبي ذر .

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يش أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليحىء يوم القيامة بأعمال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه لما يزال عبد يحىء فيقول رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول أمع من حسناته لما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ففترق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أيكسر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن اطمئة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غبرا بما قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصه منه حتى الاطمئة قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بما قال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله وظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ففساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به نطفه الذى ابدخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأينا ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله أبى أنت وأمى قال رجلان من أمى جثا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى أعطاك مظلمته فقال يا رب لم يبق من حسناتى شيء فقال الله تعالى للطالب كيف أصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يا رب يتحمل عني من أوزارى قال وقاضيت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يا رب أرى مدائن من فضة

يوقف عن مقام الزبد  
وقوم لما رأوا أن هذه  
الأشياء لا تؤثر فيهم  
فسوة ولا تورثهم حجة  
ركنوا إليها واسترسلوا  
فيها وقنعوا بأداء  
القراض واتسعوا في  
للأكل والشرب وهذا  
الانسياط منهم بقية  
من سكر الأحوال  
وتفقد بنور الحال  
وعدم النخاس  
بالكلية إلى نور الحق  
ومن نخاس من نور

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد آيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات الحديث وفى آخره وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث رواه أحمد وأحمد والبيهقى فى الشعب مختصرا على آخره إياكم ومحقرات الذنوب فانهم يجتمعون على الرجل حتى يهلكه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد آيس أن يعبد الصائون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أيكسر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله ابن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا .

خرنفة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لؤلؤى نبى هذا أولى صدق هذا أولى شهيد هذا قال لمن أعطاني  
الغن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إني قد عفوت  
عنه قال الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله  
وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق  
الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتذكر الآن في نفسك إن خلت محبة منك عن الظالم أو تظلم  
لك حتى عفائك وأقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع  
عليك خلة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعم لا يدور بمحاشيه الفناء وعند ذلك طار  
قلبك سرورا وفرحا وابتسم وجهك واستنار وأشرق كإشراق القمر ليلة البدر فوهم يتحرك بين الخلائق  
راضا راسك خاليا عن الأوزار ظهر لك ونصرة نسيم النسيم وبرد الرضا تلا لأمن جبينك وخلق الأولين  
والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويضطرونك في حسنك وجمالك واللائكة يحشون بين يديك ومن  
خائفك وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد وسعادة لا يشقى  
بعدها أبدا أقرى أن هذا للنسب ليس بأعظم من للسكينة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك  
ومداهنتك وتضعك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فوصل إلى إدراك هذه  
الرغبة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به وإن تسكن الأخرى  
والعياذ بالله بأن خرج من محبتك جرمية كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة ففتكت لأجلها فقال  
عليك لعننى يا عبد السوء لأتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تقضب  
للائكة غضب الله تعالى فيقولون عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تنال إليك الزبانية  
وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك  
يسحبونك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون إلى أسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت  
تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثورا واحدا وادع ثورا كثيرا وتنادى لللائكة  
ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه وعجائبه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد  
بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للسكينة في قلوبهم أو خوفا من  
الافتضاح عندهم لما أعظم جهلك إذ تحتز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا  
للتفرقة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك إلا العظيم مع التمرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق  
بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

( صفة الصراط )

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى - يوم نحشر النقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين  
إلى جهنم وردا - وفي قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقفوهم إنهم مسئولون - قال ناس بعد هذه  
الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر محدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن  
استقام في هذا العالم على الصراط للمستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا  
وأثقل ظهره بالأوزار وعصى صراطي أول قدم من الصراط وتردى ففكر الآن فيما عمل من الفزع بغوادك  
إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بمرسك على سواد جهنم من تحتك ثم قرع صمرك شريق النار ونفيطها

(١) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيت ضحك حتى بدت ثناياه فقال  
عمر ما أضحكك يا رسول الله أبني وأمي قال رجلان من أمي جثاين يدي رب العالمين الحديث بطوله  
ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في الاستدراك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق  
بنهب عنه بقايا  
السكر وبوقف نفسه  
مقام العبيد كأحد  
عوام المؤمنين يتقرب  
بالصلاة والصوم وأنواع  
البر حتى يطمأنة الأذى  
عن الطريق ولا  
يستكبر ولا يستكف  
أن يسود في صور  
عوام المؤمنين من  
إظهار الإرادة بكل  
بر وصلة فيتناول  
الشهوات وقتا رقتا

وذكرت أن تمتد على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وتقل ظهرك بالأوزار  
الساكنة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه  
إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطربت إلى أن ترفع القدم الثانية والحلائق بين يديك تزلون  
وتعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب وأنت تنظر إليهم كيف يتكسون فتسفل  
إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم فيأله من منظر ما أنظعه ومضى ما أصعبه مجازما أضيقه فانظر  
إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت متقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق  
وهم يتماتفون في النار والرسول عليه السلام يقول «يارب سلم سلم» والزقات بالويل والثبور قد  
ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الحلائق فكيف بك لو زلت قدمك  
ولم ينفعك ندمك فنادت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياقي باليتني  
انخذت مع الرسول سبيلا يوليئنا ليتني لم آخذ فلانا خيلا ياليتني كنت ترابا ياليتني كنت نسياما نسيا  
ياليت أُمِّي لم تلدني ، وعند ذلك تحتطفك النيران والعاذ بالله وينادي النادى اخشوا فيها ولا تكلمون  
فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأعين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عتلك وهذه الأخطار  
بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت  
به مؤمنا وعنه غافلا وبلاستعداد له متهاونا فما أعظم خسارتك وطفيلتك وماذا ينفعك إيمانك إذا  
لم ينفعك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلم يكن بين يديك إلا هول الصراط  
وارتياح قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فذاهيك به هولا وفزعوا ورعبا قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج بأمنته من الرسل ولا يتكلم يومئذ  
إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان هل رأيتم  
شوك السعدان قالوا نعم يا رسول الله قال فأنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى  
تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بمعله ومنهم من يغردل ثم ينجو<sup>(١)</sup> وقال أبو سعيد الخدري  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرى الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف  
تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق  
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من  
يجبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأم أهل النار الذين هم أهلها فلا يعوتون ولا يحيون وأما ناس  
فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فخما ثم يؤذن في الشفاعة<sup>(٢)</sup> وذكر إلى آخر  
الحديث . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين  
ليقات يوم معلوم قيا ما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث  
إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فرفعوا رؤوسهم فيعطهم  
نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسمى بين يديه ومنهم من  
يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من  
ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخجو مرة فإذا أضاء  
قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس الطاهرة للزكاة  
للقادة الطواعة لأنها  
أسيرته وبنعمها  
التسويات وقتا لأن  
في ذلك صلاحها  
واعتبر هذا سواء  
بحال الصبي فانه إن  
جاوز حد الاعتدال  
من إعطاء المراد  
وقتا ومنه وقتا  
انفس طبعه لأن  
الجليلة لا بد من فهمها  
بسياسة العلم ومادامت  
الجليلة باقية لا بد من

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج بأمنته من الرسل حديث أبي هريرة  
في أثناء حديث طويل (٢) حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين  
ليقات يوم معلوم قيا ما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث



يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كاشعشع السكوا كب  
ومنهم من يمر كشدة القرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو  
على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار  
قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط  
أحدًا إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتل (١) « وقال أنس بن  
مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة  
ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام يأخذ بحجزتي وإني لأقول يا رب سلم سلم فلما ألون  
والزلات يومئذ كثير (٢) » فنهذه أهوال الصراط وعظائم فطوله فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال  
يوم القيامة من طال فيها فسكره في الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال  
في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كركة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السباع  
ثم تنسأ على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئاً هرب منه  
ومن رجا شيئاً طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحذرك على طاعته وأبعدك من  
رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعذت بالله نعوذ  
بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من  
استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن فادارأي أبواب السبع وصولته  
من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك  
بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى ينفي عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول  
لا إله إلا الله صادقاً ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن أخذ بالله  
هو أهو فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره محط في نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن بحال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على تعظيم سنته ومقتدواً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أئمة ومتبركا  
بأدعيتهم فعاك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

## ( صفة الشفاعة )

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء  
والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة في أهله  
وقرابة وأصدقائه ومعارفه فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن  
لا تحقر آدمياً أصلاً فان الله تعالى خبياً ولايته في عباده فاعل الذي تزدرب عينك هو ولي الله ولا تستصغر  
معضية أصلاً فان الله تعالى خبياً غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقراً أصلاً طاعة فان الله تعالى  
خبياً رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجرا  
وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولستوف يعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة  
أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث  
بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصراً (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو  
كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضيف قال وروى عن زياد الثميري عن  
أبيه مرفوعاً الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من  
حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة العلم وهذا  
باب غامض دخل  
في النهايات على التنبيه  
من ذلك ودخل ووقع  
الركون وانسد به  
باب المزيد فالتمس  
ملك ناصية الاختيار  
في الأخذ والترك ولا بد  
له من أخذ وترك  
في الأعمال والحظوظ  
ففي الأعمال لا بد له من  
أخذ وترك فتارة  
يأتي بالأعمال كآحاد  
الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إن الله قد غفر لك ما مضى من ذنوبك فأتاه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إن الله قد غفر لك ما مضى من ذنوبك ولا نسوءك (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحللت لي القتائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وطريقاً ما طهوراً فأنا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيته الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غفر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحت آدم لمن دونه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة (٤) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقيمون منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً مخافة أن يبعثني إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى فأقول يا رب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يا رب عجل حسابهم فما أزال لأشفع حتى أعطى صكاً كرجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لتغضب ربك في أمتك من بقية (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر (٦) » وقال أبو هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهمشة ثم قال أنا سيد الرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقفاً  
بالنفس وتارة يأخذ  
المخطوط والشهوات رقفاً  
بالنفس وتارة يتركها  
افتقاداً للنفس بحسن  
السياسة فيكون في  
ذلك كله مختاراً فمن  
ساكن ترك المخطوط  
بالكلية فهو زاهد  
تارك بالكلية ومن  
استرسل في أخذها  
فهو راغب بالكلية  
والنهي شغل الطرفين  
فانه على غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إن الله قد غفر لك ما مضى من ذنوبك فأتاه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إن الله قد غفر لك ما مضى من ذنوبك ولا نسوءك (١) » وقال عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطيته الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقيمون منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث مريدة بسند حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بانكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بأدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فصيته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد صمالك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويدكرها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسائه وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفسا وأمر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فأطاعني فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحني على أحد قبلي ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول آمين آمين يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذي نفسي بيده إن بين المصريين من مصارع الجنة كباين مكه وحمير أو كما بين مكة وبصري (١) وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله في السكوا كب هذا ربي وقوله لأهلهم بل ضله كبيرهم هذا وقوله إنني سقيم فهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعته أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع في قوم الرجل فيشفع للقبيلة

(١) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجهما مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر ورويناه في جزء أبي عمر بن السكك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فسكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعداء يدخل الجنة بشفاعته الرجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا سواك قال سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط  
بين الافراط والتفريط  
فمن ردت إليه  
الأقسام في النهاية  
فأخذها زاهدا في  
الزهد فهو تحت قهر  
الحال من ترك الاختيار  
وتارك الاختيار الواقف  
مع فعل الله تعالى مقيد  
بالحال وكأن الزاهد  
مقيد بالترك تارك  
الاختيار فكذلك  
الزاهد في الزهد الآخذ  
من الدنيا ماسيق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول  
 يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني  
 شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني  
 أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني ؟ فقلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذي  
 استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من  
 النار (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا  
 وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا ينسوا لواء الحمد يومئذ يدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي  
 ولا خفر (٣) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة  
 من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (٤) «  
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه  
 فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجباً إن الله عز وجل اتخذ من  
 خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كليمه نكحاً ، وقال آخر فعيسى  
 كليم الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فلم وقال قد سمعت  
 كلامكم ونعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نبي الله وهو كذلك وعيسى روح الله  
 وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا خفر وأنا حامل لواء الحمد  
 يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك خلق  
 الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى ققراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) «  
 (صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه  
 ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه  
 لم يظم أبداً . قال أنس « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقالوا له  
 يا رسول الله لم ضحكك ؟ فقال آية أنزات على آفقا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك  
 السكوتر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما السكوتر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعديته

(١) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على  
 قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمي من يشفع للثلاث ومنهم من يشفع للقبيلة  
 الحديث وقال حسن والبرار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس  
 إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول  
 يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا وما فاستسقيتني  
 شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس  
 بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب  
 (٤) حديث فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث  
 أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم  
 عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليل الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرؤيته فعل الله مقبدا  
 بالأخذ وإذا استقرت  
 النهاية لا يتقيد بالأخذ  
 ولا بالترك بل يترك وقتا  
 واختاره من اختيار الله  
 ويأخذ وقتا واختياره  
 من اختيار الله وهكذا  
 صومه النافلة وصلاته  
 النافلة يأتي بها وقتا  
 ويسمح للنفس وقتا لأنه  
 مختار صحيح في الاختيار  
 في الحالين وهذا هو  
 الصحيح ونهاية النهاية  
 وكل حال يستقر

ربى عز وجل في الجنة عليه خير كثير حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آتيته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرِب الملك يده فاذا طينه منك أذفر (٢) وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة ومنعاه أو مثل ما بين المدينة وعمان (٣) وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان (٤) وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أو كره الناس ورودا عليه قراءه الهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن ثم يارسول الله قال ثم الثمت رويها الدنسي ثابا الذين لا ينكحون التمتع ولا يفتح لهم أبواب السدد (٥) قال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت التمتع فاطمة بنت عبد الملك وفتح لي أبواب السدد لأن ربحني الله لجرم لأدهن رأسي حتى شعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ وعن أبي ذر قال «قلت يارسول الله ما آتية الحوض؟ قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للضحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل ظوله ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٦) وعن حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي حوضا وإنهم يقيهاون أيهم أكثر واردة وإنه لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متخيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراخي للحصاد من بيت البذر وتقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أو ان الحصاد فأما من ترك الحرثة أو الزراعة وتقى الأرض وسقى وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم غفاه فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكك فقال آية نزلت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف الحديث الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة ومنعاه أو مثل ما بين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب الحديث الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف (٥) حديث ثوبان إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء الحديث الترمذي وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث أبي ذر قلت يارسول الله ما آتية الحوض قال والذي نفس بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث حمزة إن لكل نبي حوضا وإنهم يقيهاون أيهم أكثر واردة الحديث الترمذي وقال غريب قال وقد روي الأئمة بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن حمزة وهو أصح

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غصير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل إني عزم أن لا أكل اللحم قال فإني آكل اللحم وأجبه ولو سألت

فهذا مقتر ومتمنّ وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء كثير الخلق وهو غرور الخلق نموذجاً لله من الغرور والنفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى - فلا تترنكم الحياة الدنيا ولا يترنكم بالله الغرور -

(القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها)

يا أيها الغافل عن نفسه الغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا الشرف على الاقضاء والزوال دفع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النازم مورد للجميع إذ قيل - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحيراً فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فساك تستعد لك جأته منه وتأمل في حال الخلاق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا في حياتهم في كربها وأهوالها وقوا فينتظرون حقيقة أنبأها وتشفيح شفعاؤها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وصموا لها زفيراً وجررة تفصح عن شدة القبط والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالطيب وجنت الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء المقلب وخرج السادي من الزبانية قائلاً : أين فلان ابن فلان السوف نفسه في الدنيا بطول الأمل للضيع عمره في سوء العمل فيأدرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بهظام التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم - فأسكنوا هاهنا ضيقة الأرجاء مظلمة السالك بهيمة المهالك غلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمهم والهاوية تجمعهم أمانهم فيها الهلاك ومالم منها فسكك قد شدت أقدامهم إلى النواصي وأسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد فضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لا نعود فنقول الزبانية هيئات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فآخسوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكانتم إلى ما نهيتهم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتم والنار عن أيانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرايل القطران وضرب القامع وتقل السلاسل فهم يتجلجلون في مضائقها ويتحطمون في دركاتهما ويضطربون بين غواصيات تغطي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والويل ومهما دعوا بالثور صب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيفتجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحوها ويتمتع من الأطراف شعور هابل جلودها وكلما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنفس في لفتح تلك النيران وهم مع ذلك ينعنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواداً من الحميم وأعجمت أبصارهم وأبكت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يحشون على النار بوجوههم ويطنون حاك الحديد بأحداقهم فليهب النار سار في بواطن أجسادهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

(القول في صفة جهنم)

ي أن يطعمني كل يوم لأطعمني وذلك يدلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختاراً في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل وكان يترك الأكل اختياراً وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرباً وهذا إذا

جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله <sup>(١)</sup> » وقال طي كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أو جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء الرايين <sup>(٢)</sup> » فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشعابها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يصي العبد بعضها فوق بعض الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهبوت الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمنا وجية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا جبر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها <sup>(٣)</sup> » ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فن من منهمك مستكثر كالفریق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقامهم عذابا لوعرضت عليه الدنيا بخلافها لا تقدي بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغل دماغه من حرارة نعليه <sup>(٤)</sup> » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضوا طائمين هربا عما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا <sup>(٥)</sup> » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمز الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة <sup>(٦)</sup> » وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها فسبغ في سبغ

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بحملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث طي تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمنا وجية الحديث وفيه هذا حجر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار الحديث متفق عليه من حديث التعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولو لا ذلك ما انتفع بها أحد وللبزاز من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتنمى عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل بعض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخصه وفعله لأرباب العزائم ثم إن المنتهى يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق فكل

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما يجدونه في الصيف من حرها وأشد ما يجدونه في الشتاء من زمهريرها (١) وقال أنس بن مالك يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار يقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس حرًا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في السجدة ألف أوزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لما توارى وقد قال بعض العلماء في قوله - تلغح وجوههم النار - إنها لغتهم لحة واحدة لما أبت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في نفع الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يعرفون فيه وهو الضنق ، قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ «لو أن دلوان من غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢) » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وبأبيه الموت من كل مكان وما هو بيت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعها . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فمائلون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الحميم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رهوس الشياطين فانهم لا تكون منها فمائلون منها البطون ثم إن لهم عليها الشوبان من حميم ثم إن مرجعهم إلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارًا حامية تسقى من عين آنية - وقال تعالى - إن الدنيا أنكالا وجهيا وطعاما ذا غصا وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ «لو أن قطرة من الزقوم تطرت في بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم (٤) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يفتي من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كما كانوا يجيزون القصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال قال فيقولون ادعوا ما لك لا تدعون فيقولون يا مالك ليقتض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ما كنون (٥) » قال الأعمش أنبت أن

ما كان يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد فمكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يغلو إما أنه كان ليقتدى به وإما أنه كان لمزيد كان يحده بذلك فإن كان ليقتدى به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله

(١) حديث اشكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلوان من غساق ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إلا إسنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذي من رواية سمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله .



بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم أخشوا فيها ولا تسكلمون قال فعند ذلك يشعرون من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقي من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال «يقرب إليه فيسكره فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم<sup>(١)</sup>» فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة صومها وعظم أشخاصها وفضاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغرقت بهم فهي لا تنفث عن النش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا يحسبن الذين يخولون بما آتاهم الله من فضله الآية -<sup>(٢)</sup>» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة فيجد حوتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبحال الوكفة يلسعن اللسمة فيجد حوتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وفى ذلك وفى هذه الحيات فلم تنل له<sup>(٣)</sup>» ثم تفكر بهذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتراد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولبغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث<sup>(٤)</sup>» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه<sup>(٥)</sup>» وقال عليه السلام «إن الكافر ليجر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس<sup>(٦)</sup>» ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناها جلودا غيرها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا. ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشيقتهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إقامتهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك<sup>(٧)</sup>» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون السم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقي من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر بن سمرة (٣) حديث إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة الحديث أحمد من رواية ابن أبي ليلى عن ذراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد للحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الحارث عن ابن عمر وقال غريب وأبو الحارث لا يعرف (٧) حديث يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يضل ذلك لجرد الاقتداء بل كان يحد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجيلة. قال الله تعالى خطابا له - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنهي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

والشهيق والزفير والدعوة بالويل والشبور فلهم فيه مسروح ولكنهم ينعون أيضا من ذلك <sup>(١)</sup> قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وصحنا فإرجعنا لعلنا نعمل صالحا - فيجيبهم الله تعالى - وألم تكونوا أقمتم من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - وألم نمركم ما نذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا لها لعظا من نصير - ثم يقولون - ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون - فيجيبهم الله تعالى - اخشوا فيها ولا تكلموا - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالمتوفى يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلاموت <sup>(٢)</sup> » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتى كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يكي قهقري لم تبكى ؟ فقال أخشى أن يطرحنى في النار ولا يأتى فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما لا يقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشئ بخس دراهم معدودة إذ لم يسموا ذلك إلا شهوات حقيرة في الدنيا أياها قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرية منخصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بصبيان ربنا وكيف أنكفأ أنفسنا الصبر أياها قاتلا ولو صبرنا لكانت قد اهضت عنا أيامه وبقيت الآن في جوار رب العالمين متممين بالرضا والرضوان فيا حسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولدت آهاتهم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفعوا رأتهم ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلا فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تربنا ما أربنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجلتكم الناس ولم تجلوني وتركتهم للناس ولم تتركوا إلى فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب القيم <sup>(٣)</sup> » قال أحمد بن حرب إن أحدا لا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود الهادي لاصبرنى على حر جهنم فكيف صبرى

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا اشفعوا به وبين نفة الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورباطة النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالمتوفى يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفعوا رأتهم الحديث رويناه في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك .

على حر نارك ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فالنظر يمسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا وليست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقلك ؟ فان قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجى وما الذى سبق به القضاء في حقك فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك الموانع فتدفعه ولا تقصد شرا إلا فيتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة الطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقر كل من الدارين والله أعلم .

### ( القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها )

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها فاعلمها دار أخرى فأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدهما استمر لا محالة في الأخرى فاستمر الخوف من قبلك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستمر الرجاء بطول الفكر في النعيم اللقيم للوعد لأهل الجنان وسقى نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نظرة النعيم يسقون من رحيق مخنوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالبحر والعسل مخفوفة بالظمان والولدان مزينة بالخور العين من الحفريات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطعنن إنس قبلهم ولا جان يعيشن في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتجير فيه الأبصار مكملات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرates آتات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بياض لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأنهم اللؤلؤ السكون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرفت في وجوههم نظرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربههم يتماهدون فهم فيها اشتبهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب اللنون آمنون فهم فيها يقتسمون وبأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضها من فضة وحسبائها مرجان وطل أرض ترابها مسك أذقر ونباتها زعفران ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرين على كسبان السكافور ويؤتون بأكواب وأنى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم مخزج به السليل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته لم يصنعه آدمى في قصر في تدوية صنعه وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

### ( القول في صفة الجنة )

ألفت آخا كما أن  
الأرواح ألفت أولا  
ولكل روح مع  
نفسه تأليف خاص  
والسكون والتأليف  
والامتزاج واقع بين  
الأرواح والنفس  
وكان رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يديم  
العمل لتصفية نفسه  
وقوس الأتباع لها  
احتاج إليه نفسه من  
ذلك ناله وما غفل من  
ذلك وصل إلى نهوس

وملاحة أحداه في أعجابه لمن يؤمن بدار هذه صفاتها وبوقن بأنه لا يموت أهلها ولا أهل القبائع عن نزل غنائها ولا تنظر الأحداث بين التغير إلى أهلها كيف يأتي بدار قد أذن الله في خرابها وبنائها بمشيئته دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوث والجور والعطش وسائر أصناف الحدوث لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتفنى من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم ببناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تموتوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تصموا فلا تبأوا أبداً فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون -<sup>(١)</sup>» ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء يان الله تعالى يان واقرأ من قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على مجملها وتأمل أول أبعاد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قال «جنتان من فنة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن<sup>(٢)</sup>» ثم انظر إلى أبواب الجنة فاتها كثيرة بحسب أصول الطاعات كالأبواب النار بحسب أصول العاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أعتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها والجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد قال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم<sup>(٣)</sup>» وعن طاهر بن شمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فظلم أمرها ذكر الأحيطة ثم قال - وسبق الدين أهوا ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا اتهموا إلى باب من أبوابها وجدوا عند شجرة يخرج من تحتها قوما عريان فصدوا إلى إحداها كما أمروا به فصبوا منها فاذهبت مائي بطونهم من أذي وأبأس ثم عمدوا إلى الأخرى فقطروا منها فخرت عليهم فضره النعم فلم تغير أعضارهم بعدها أبداً ولا تشعب رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم اتهموا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طمئن فادخلوها خالدن ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبحر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور الذين يقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى في الدنيا فتقول أنت رأيت فيقول أنا رأيت وهو بأثرى فيستخفي للفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا اتهم إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الأمة وهكذا انتهى  
مع أصحاب والأتباع  
على هذا المعنى فلا يتخلف  
عن الزبادات والنوافل  
ولا يسترسل في الشهوات  
والقذات إلا بدلالة  
تخص النفس ولا يعطى  
الاعتدال حقه من  
ذلك إلا بتأييد الله تعالى  
ونور الحكمة وكل  
من يحتاج إلى صحة  
الجلوة للمسير لا بد له  
من خسوة صحيحة  
بالحق حق تكون

(١) حديث أبي هريرة بنادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا الحديث مسلم من حديث  
أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جتان من فضة آتيتها وما فيها وجتان من ذهب آتيتها وما فيها  
الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أتق زوجين من مالي في سبيل  
الله دعي من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لأم أن يذهب بصره ثم يطأطأ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة وبما راق مصفوفة وزرابى مثبثة - ثم انكأ فقال - الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تنظنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (١)» ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوت ظاهر فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والنافسة فيها قال تعالى - ساقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوباء قل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنقص بسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخذا فيرها فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليرأون أهل الغرف فوقهم كما ترأون السكوك الفائر في الأفق من الشرق إلى الغرب لثفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢)» وقال أيضا «إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنما (٣)» وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أحدثكم بنرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبين أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن أتى الله السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال أمق تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفضى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الدفاعة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام (٤)» يعنى اليهود والنصارى والمجوس . «وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - وما كن طيبة في جنات عدن - قال : قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زهر أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويسطى للؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع (٥)» .

(١) حديث أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليرأون أهل الغرف فوقهم كاترون السكوك الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر ألا أحدثكم بنرف الجنة قلت يا رسول الله بأبي أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث مثل عن قوله تعالى - وما كن طيبة في جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والأجرى في كتاب الصبيحة

جلوته في حياية خلوته  
ومن يراى له أن  
أوقاته كلها خلوة وأنه  
لا يحجب شىء وأن  
أوقاته بالله والله لا يرى  
قصا لأن الله ما فطنه  
لحقيقة الزيد فهو  
صحيح في حاله غير أنه  
تحت قصور لأنه مانبه  
لسباسة العيلة وما عرف  
سر تملك الاختيار  
وما وقف من البيان  
على البيضاء النقية وقد  
تقلت عن الشايع كلمات

( صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها )

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتها بالدنيا عوضاً عنها قد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك <sup>(١)</sup> » . « وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص <sup>(٢)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا <sup>(٣)</sup> » « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك <sup>(٤)</sup> » « ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما عليها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها <sup>(٥)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها قرءوا إن شئتم - وظل محدود <sup>(٦)</sup> » وقال أبو أمامة : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومساائلهم أقبل أعرابي فقال يارسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكاً فقال قد قال الله تعالى - في سدر غضود - يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تتفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر <sup>(٧)</sup> » وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تلبسه فقلت للفلان انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع قد فأن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لأدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه قد يسميها الإنسان ويبقى عليها والأولى أن يقتصر إلى الله تعالى في أي كلمة يسميها حتى يسميها الله من ذلك الصواب . قل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت التفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة طي قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتمصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما عليها الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي قال يارسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صفه فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها القؤلز والذهب وأعلىها النمر .

( صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم )

قال الله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر <sup>(١)</sup> » . وقال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضعك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تضعكون من جاهل سأل علما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة صرتين <sup>(٢)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصنون فيها ولا يمتخطون ولا يمتطون آنتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة وورشهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقيها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ( وفي رواية ) على كل زوجة سبعون حلة <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب <sup>(٤)</sup> » وقال ﷺ « الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للؤمن أهل لا يراهم الآخرون <sup>(٥)</sup> » رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض <sup>(٦)</sup> »

( صفة طعام أهل الجنة )

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من التواكه والطيور والبان والبن والسوى والعسل واللبان وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة : من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم تنسج نسج الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد (٥) حديث : الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه للصف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - وفرش مرفوعة - قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذي لفظ : ارتفاعها لهما بين السماء والأرض خمائة سنة وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

لا يبقى تمييز بين الحلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يعني أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يقتصر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ المراد يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أخبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط ؟ فقال فقراء المهاجرين ، قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال زيادة كبد الحوت ، قال لما غداؤهم على أثرها ؟ قال ينحرف لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها . قال لما شربهم عليه ؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا . فقال صدقت (١) » وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقرئ بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم يعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع ، فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل السك فاذا البطن قد ضمير (٢) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا (٣) » وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني . قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنعم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها يا أبا بكر (٤) » وقال عبدالله بن عمر فى قوله تعالى - بطاف عليهم بصحاف - قال يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب كل صحيفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يمزج لأصحاب اليمين ويشربه القربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل القضة يخنمون به آخر شراهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذرواح إلا وجد ريح طيبها .

### ( صفة الحور العين والولدان )

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه ، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة طلمت إلى الأرض لأضأت وللاث ما بينهما رائحة وللصيفة على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥) » يعنى الحمار وقال

(١) حديث ثوبان جاء جبر من أخبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل للسك النفسانى فى الكبرى بإسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا بالزار بإسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وإنى أرجو أن تكون بمن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر السكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبى بكر وقال حسن (٥) حديث غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس .

التمييز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه . قيل ل محمد ابن الفضل حاجة المعارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصلة التى كلفت بها الحسن كلها ألا وهى الاستقامة وكل من كان أنتم معرفة كان آم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التجمام والعباد فى الاستعداد مأخوذ فى الأعمال محبوب بها



أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضى ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك <sup>(١)</sup> وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى اليبسخ عليه خيام اللؤلؤ والبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فكان السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقان نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نطمئن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - <sup>(٢)</sup> وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة مقال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد - وقال الأوزاعي - في شغل ما كمن - قال شغلهم افضاض الأبكار - وقال رجل يا رسول الله «أبياض أهل الجنة ؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منك <sup>(٣)</sup>» وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف نيب يعانق كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا <sup>(٤)</sup>» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلهن يقان نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكننا له <sup>(٥)</sup>» وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من للرأة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسل لا دون ذكر أبي سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن الرأة من نساء أهل الجنة ليرى يابض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم <sup>(٢)</sup> حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطعن يقرن نحن الراضيات فلا نسخط لم أحده هكذا إسناده وللترمذى من حديث طى إن في الجنة لمجتمع للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلهن يقان نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكننا له وقال غريب والأبى الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمعون في كل سبعة أيام فيقرن بأصوات الحديث <sup>(٣)</sup> حديث قال رجل يا رسول الله أبياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منك الترمذى ومحمد وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أو يطبق ذلك قال يعطى قوة مائة <sup>(٤)</sup> حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف نيب يعانق كل واحد منهم مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقته لهن وإسناده ضعيف وتقدم قبله حديث <sup>(٥)</sup> حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرنه في موضعين من حديث طى وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

عن الأحوال وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يعجب عن الأعمال وفي الإتهاء لا تعجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم . مثل الجنيذ عن النهاية فقال هي الرجوع إلى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيذ فقال معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل إلى

« إن الحور في الجنة يتغيبن نحن الحور الحسان خبثنا لأزواج كرام <sup>(١)</sup> » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يجبرون - قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين ينيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتحميده <sup>(٢)</sup> » .  
( بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار )

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأل وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا وخضرة في دار عالية بهية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه <sup>(٣)</sup> » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فأنها تصبني قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من باقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الأبل تصبني فهل في الجنة من إبل قال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما شئت تسك ولدت عيناك <sup>(٤)</sup> » وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة <sup>(٥)</sup> » وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الأخوان إلى الأخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتهان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخى تذكرك يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل ففقرنا <sup>(٦)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين طي خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع <sup>(٧)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للمرقة ثم زد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - . وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحميرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه ينادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع ههنا الأعمال والأحوال وهذا يكون لهنه

(١) حديث أنس إن الحور في الجنة يتغيبن فيقلن نحن الحور الحسان خبثنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للنسكدي قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين ينيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتحميده الطبراني باسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد « ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فأنها تصبني الحديث الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه السعدي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى اللديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له محبة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث لأبي رزين يلد ويلد مثل لدها ثم في الدنيا وتلد ذن بكم غير أن لا توالد (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الأخوان إلى الأخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله يبيض جماد ودون قوله طي خلق آدم إلى آخره

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كابين الجاية إلى صنعاء وإن عليهم  
 النيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين الشرق والغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت  
 إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها تكلف البعير القتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية قتلت يا جارية  
 لمن أنت ؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)»  
 وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام يده وكتب التوراة يده وغرس الجنة يده ثم قال لها  
 تكلمي فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلناها تفصيلا ، وقد  
 ذكر الحسن البصري رحمه الله جملة فقال : إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن  
 وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لينة لا تشرب  
 الأحلام ولا تصدع منها الرءوس وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون  
 أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كل جرد مرد قد آمنوا المذابا وطأنت  
 بهم الدار وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ  
 ونخلها لا يلم عليها إلا الله تعالى وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا ولا  
 هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم المحور العين كأنهن يبيض مكنون  
 وإن للراء تأخذ بين أصبعي سبعين حلة فتلبسها فيرى من خلفها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله  
 الأخلاق من السوء والأجساد من الموت لا يمتخطون فيها ولا يولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح  
 مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر العدو على الرواح والرواح على العدو وإن آخر من  
 يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة ما تنعم في قصور من الذهب والفضة خيام اللؤلؤ  
 ويخمس له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يبدى عليهم سبعين ألف صحيفة من ذهب ويراح  
 عليهم بمثلها في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ومجد طم آخره كما يجد طم أوله وإن في الجنة لياقوتة  
 فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد : إن أدنى أهل  
 الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرفعهم القدي ينظر إلى ربه بالقدرة  
 والعشي . وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار  
 من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العياء إذا مشيت مشى  
 عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال  
 يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد موت ترك الدنيا مهر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل  
 النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فإيهما لمن يختار الذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبق .

(صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى - الذين أحسنوا الحسن وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين  
 من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم نعتون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له  
 ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطع من أوله إلى قوله وإن عليهم النيجان  
 ومن هنا باسناده أيضا قال لا نعرفه إلا من حديث رشدين سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة  
 من رمانها ككبد البعير للقتب وإذا طيرها كالبعث الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هريرة  
 السدي عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة  
 يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المراد الأخذ في طريق  
 المحبوبين تتجنب  
 روحه إلى الحضرة  
 الإلهية وتستبج  
 القلب والقلب يستبج  
 النفس والنفس تستبج  
 القلب فيكون بكنيته  
 قائما بالله ساجدا  
 بين يدي الله تعالى  
 كما قال رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم  
 «سجد لك سواي  
 وخيالي» وقال الله تعالى  
 - والله يسجد من في

الكبرى التى ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وصبح محمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ؟ ألم يقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجزنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هى غاية الحسنى ونهاية التمسى وكل ما فصلناه من النعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سفادة اللقاء منتهى بل لانبية لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه البعد من الجنة بشيء سوى لقاء الولي . وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البهيمة للسرعة فى للرعى .

( نغتم الكتاب يباب فى سنة رحمة الله تعالى على سبيل التفاضل بذلك )

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به للنفرة فنقتدى برسول الله ﷺ فى التفاضل ونرجو أن نغتم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى - إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر مدون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو ظنى به القلم فى كتابنا هذا وفى - أتركبنا ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدبى الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدهاه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ونستغفره من كل تهريج وتعرض بقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تربنا للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم الحديث هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صيب فى قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره المصنف .

( باب فى سنة الرحمة )

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل متفق عليه من حديث أنس فى أثناء حديث : ويصحبى الفأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة : وخيرها الفأل قالوا وما الفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسميها أحدكم .

السموات والأرض  
طوعا وكرها وظلالهم  
بالصدور والآصال -  
والظلال القلوب تسجد  
بسجود الأرواح وعند  
ذلك تسرى روح المحبة  
فى جميع أجزائهم  
وأبصارهم فيتلذذون  
ويتنعمون بذكر  
الله تعالى وتلاوة  
كلامه بحبة وودا  
فيحبهم الله تعالى

فإن الكريم عليم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والحوام فيها يتماطفون وبها يتراحمون وأخر تسع وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمى سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عقوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافى فى مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بأخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفقة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

(١) حديث إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه إن رحمى سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن ربحى سبقت غضبي لفظ البخارى وقال مسلم كتب فى كتابه على نفسه إن رحمى تطلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهودياً أو نصرانياً مسلم من حديث أبى موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار ولأبى داود أمى أمة مرحومة لأعذاب عليها فى الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبى موسى أيضاً يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جدهان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبرانى من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم الحديث أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافى فى مقام الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معانفى النار الحديث فى إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ - ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح (٨) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً فى السبي فأخذته فألصقته بيطنها فأرضته .

ويعجبهم إلى خلقه  
نعمة منه عليهم وفضلاً  
على ما أخبرنا شيخنا  
ضياء الدين أبو النجيب  
السهروردى رحمه الله  
قال أنا أبو طالب  
الزبى قال أخبرتنا  
صكرية المروزية  
قالت أنا أبو الهيثم  
الكشميهنى قال أنا  
عبد الله الفريرى قال  
أنا أبو عبد الله البخارى

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك فارون فلم تقه وعزني وجلالي لو استغاث بي لأغنته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها وينلكا الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال الصبغة فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي نلكا - من ظني بك كان يشمرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فدواهبوها وادخلوا الجنة رحمي (١) » ويروى أن أعرايا سمع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفاخرة من النار فأتدكم منها - فقال الأعرابي والله ما أتدكم منها وهو يريد أن يوفهم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض اللوت فبكيت فقال مهلا لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار (٢) » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينثر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتذكر من هذا شيئا أظلمت لك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عنذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطانت السجلات وتقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء (٣) » وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

(١) حديث ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمي ربي في سبعين أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البجلي قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينثر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

قال حدثني إسحق قال  
حدثنا جسد الصد  
قال حدثنا عبد الرحمن  
ابن عبد الله بن دينار  
عن أبيه عن أبي  
سالم عن أبي هريرة  
رضي الله عنه قال  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « إن الله

قال فيقول الله تعالى شفعت للانسكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقهم في نهر في افواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل الا تزونها تكون مما يلي الحجر والشجر مما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملهم ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة لمارأيتم فهو لكم فية ولون ربنا أعطيتنا ما لم تمنع أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا<sup>(١)</sup> رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأمم عمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجل والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي قتل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق قيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا قيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أنباؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتفون ولا يستفون ولا يتطهرون وعلى ربهم يتوكلون ققام عكاشة قال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله قال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقت بها عكاشة<sup>(٢)</sup> وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتسبت عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لاحتساب عليهم وإنني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام الزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ أمي هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب<sup>(٣)</sup> وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت يا جبريل

(١) حديث إن الله يقول للانسكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج اللوحدين وقوله تعالى لأهل الجنة فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأمم عمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجل والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبقت بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لاحتساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا سبقت بها عكاشة رواه البخاري الحديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولا أحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فها استزدته فقال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فها استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعیه وحش عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف .

تعالى إذا أحب عبدا  
نادى جبريل إن الله  
تعالى قد أحب فلانا  
فأحبه فيحبه جبريل  
ثم ينادى جبريل  
في السماء إن الله قد  
أحب فلانا فأحبوه  
فيحبه أهل السماء  
ويوضع له القبول في





## فهرس

- ٢ (كتاب التوبة)
- ٣ الركن الأول في قص التوبة الخ
- ٤ بيان حقيقة التوبة وحدها
- ٥ بيان وجوب التوبة وفضلها
- ٦ بيان أن وجوب التوبة على القور
- ٩ بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال
- ١٠ فلا ينفك عنه أحد البتة
- ١٢ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
- ١٥ الركن الثاني فيها عنه التوبة وهي الذنوب
- ٢٢ بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
- ٢٢ بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على
- الحسنات والسيئات في الدنيا
- ٣٢ بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب
- ٣٤ الركن الثالث في تمام التوبة الخ
- ٤٣ بيان أقسام العباد في دوام التوبة
- ٤٦ بيان ما ينبغي أن يبادر إليه الذائب الخ
- ٤٩ الركن الرابع في دواء التوبة الخ
- ٥٩ (كتاب الصبر والشكر)
- ٦٠ الشطر الأول في الصبر
- ٦١ بيان فضيلة الصبر
- ٦١ بيان حقيقة الصبر ومناه
- ٦٥ بيان كون الصبر نصف الإيمان
- ٦٦ بيان الأسامي التي تتجدد بقصر الخ
- ٦٦ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
- ٦٧ بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
- ٧٣ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
- ٧٨ الشطر الثاني من الكتاب في الفكر
- الركن الأول في قص الفكر
- ٧٩ بيان فضيلة الفكر
- ٧٩ بيان حد الشكر وحدته
- ٨٣ بيان طريق كشف الغطاء عن الفكر في حق الله تعالى
- ٨٧ بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
- ٩٦ الركن الثاني من أركان الفكر الخ
- ٩٦ بيان حقيقة النعمة وأقسامها
- ٩٦ بيان وجه التوذكير في كثرة نعم الله تعالى وتسللها
- وخرجها من الحصر
- ١٠٧ الشطر الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
- ١٠٨ الشطر الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات
- ١٠٩ الشطر الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة والآلات المحركة
- ١١٣ الشطر الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي تحصل فيها الأنظمة الخ
- ١١٥ الشطر الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأمنية إليك
- ١١٦ الشطر السادس في إصلاح الأعطية
- الشطر السابع في إصلاح المصلحين
- ١١٧ الشطر الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام
- ١٢٠ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
- ١٢٤ الركن الثالث من كتاب الصبر
- بيان وجه اجتياح الصبر والشكر على شيء واحد
- ١٣١ بيان فضل النعمة على البلاء
- ١٣٢ بيان الأفضل من الصبر والشكر
- ١٣٨ (كتاب الخوف والرجاء)
- ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على
- بيان حقيقة الرجاء الخ
- ١٣٩ بيان حقيقة الرجاء
- ١٤١ بيان فضيلة الرجاء والترغب فيه
- ١٤٢ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء وينب
- ١٥٢ الشطر الثاني من الكتاب في الخوف
- بيان حقيقة الخوف
- ١٥٤ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
- ١٥٥ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
- ١٥٧ بيان فضيلة الخوف والترغب فيه
- ١٦١ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
- ١٦٤ بيان الذي به يستجلب حال الخوف
- ١٧٠ بيان معنى سوء الخاتمة
- ١٧٧ بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
- ١٨٠ بيان أحوال الصعابة والتأبين والسلف والمالحين في شدة الخوف
- ١٨٥ (كتاب الفقر والزهد)
- الشطر الأول من الكتاب في الفقر
- ١٨٦ بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأسبابه
- ١٨٩ بيان فضيلة الفقر مطلقا
- ١٩٥ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراسخين والقانعين والصادقين
- ١٩٦ بيان فضيلة الفقير على الغني
- ٢٠١ بيان آداب الفقير في فقره
- ٢٠٢ بيان آداب الفقير في قبول المعطاء الخ
- ٢٠٥ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه
- ٢٠٩ بيان مقنار النفي المحرم للسؤال

## صفحة

## صفحة

## بيان أحوال السالكين

٢١٠ الشطر الثاني من الكتاب في الزهد

٢١١ بيان حقيقة الزهد

٢١٢ بيان فضيلة الزهد

٢٢٠ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ

٢٢٤ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

٢٣٦ بيان علامات الزهد

٢٣٨ ( كتاب التوحيد والتوكل )

بيان فضيلة التوكل

٢٤٠ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو

الشطر الأول من الكتاب

٢٥٣ الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل الخ

بيان حال التوكل

٢٥٧ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

٢٥٨ بيان أعمال التوكلين

٢٦٥ بيان توكل المعبول

٢٦٨ بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

٢٧٤ بيان آداب التوكلين إذا سرق مناعهم

٢٧٩ بيان أن ترك التداوى قد يحمي في بعض الأحوال

ويصل على قوة التوكل الخ

٢٨٣ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال

٢٨٥ بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكنائنه

٢٨٦ ( كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا )

بيان شواهد الشروع في حب المبدء تعالى

٢٨٨ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة المبدء

تعالى

٢٩٣ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

٢٩٩ بيان أن أجل الذات وأعلامها معرفة الله تعالى الخ

٣٠٣ بيان السبب في زيادة النظر في الآخرة على المعرفة

في الدنيا

٣٠٧ بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى

٣١١ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

٣١٢ بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله

سبحانه وتعالى

٣١٤ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

٣١٨ بيان محبة الله تعالى للمبدء ومعناها

٣٢٠ القول في علامات محبة المبدء تعالى

٣٢٩ بيان معنى الأنس بالله تعالى

٣٣١ بيان معنى الانبساط والإدلال للنفس شمه

خلة الأنس

٣٣٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ

٣٣٤ بيان فضيلة الرضا

٣٣٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

٣٤١ بيان أن الدعاء غير منافس للرضا

## صفحة

٣٤٤ بيان أن التفرار من البلاد التي هي مطلق القاصي

ومنبتها لا يقدح في الرضا

٣٤٥ بيان جهة من حكايات الحيين وأقوالهم ومكاشفتهم

٣٤٩ غائمة الكتاب بكلمات متفرقة تملق بالهجنة

ينتفع بها

٣٥٠ ( كتاب التوبة والإخلاص والصدق )

٣٥١ الباب الأول في التوبة

بيان فضيلة التوبة

٣٥٣ بيان حقيقة التوبة

٣٥٥ بيان سر قول صلى الله عليه وسلم : توبوا للرب

خير من عمله

٣٥٧ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالتوبة

٣٦٢ بيان أن التوبة غير داخلة تحت الاختيار

٣٦٤ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته

ودرجاته

فضيلة الإخلاص

٣٦٧ بيان حقيقة الإخلاص

٣٦٩ بيان أقوال الصيوخ في الإخلاص

٣٧٠ بيان درجات الفوائد والآفات للكثرة

للإخلاص

٣٧٢ بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به

٣٧٤ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الصدق

٣٧٥ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

٣٨١ ( كتاب المراقبة والمحاسبة )

المقام الأول من الرابطة الشارطة

٣٨٤ الرابطة الثانية المراقبة

٣٨٥ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

٣٩١ الرابطة الثالثة محاسبة النفس الخ

فضيلة المحاسبة

٣٩٢ بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل

٣٩٣ الرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها

٣٩٥ الرابطة الخامسة المجاهدة

٤٠٣ الرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها

٤٠٩ ( كتاب التفكير )

فضيلة التفكير

٤١٢ بيان حقيقة التفكير وممرته

٤١٣ بيان مجازي التفكير

٤٢٠ بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى

٤٣٣ ( كتاب ذكر الموت وما بعده )

الشطر الأول في مقدمته وتوابعه الخ

٤٣٤ الباب الأول في ذكر الموت الخ

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

٤٣٦ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

٤٣٧ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل

وسبب طولله وكيفية معالجته

صفحة	موضوع
٤٨٦	بيان سؤال منكر ونكير وصورتها ونقطة القبر
	وجبة القول في عذاب القبر
٤٨٨	الباب الثامن في معرفة أحوال الموتى بالكشفة والناس
٤٩٠	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال
	النافعة في الآخرة
٤٩١	بيان منامات الشياخ رحمة الله عليهم أجمعين
٤٩٤	الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال البيت
	من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة
	أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأموال والأخطار
	وفيه بيان نفخة الصور الخ . صفة نفخة الصور
٤٩٦	صفة أرض المحض وأهلها
٤٩٧	صفة العرق
٤٩٨	صفة طول يوم القيامة
٤٩٩	صفة يوم القيامة ودواحيه وأساخه
٥٠١	صفة المساءة
٥٠٣	صفة الميزان
٥٠٤	صفة الخصاء ورد الظالم
٥٠٧	صفة الصراط
٥٠٩	صفة الشفاعة
٥١٢	صفة الخوض
٥١٤	القول في صفة جهنم وأهلها وأنكلماتها
٥١٩	القول في صفة الجنة وأصناف نصيبها
٥٢٢	صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها
٥٢٣	صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسروهم
	وأرائكهم وخيامهم
	صفة طعام أهل الجنة
٥٣٤	صفة الخمر والعين والودان
٥٣٦	بيان جل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت
	في الأخبار
٥٣٧	صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .
	نظم الكتاب يباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل
	الفتاوى بذلك
٥٣٨	باب في سعة رحمة الله تعالى

صفحة	موضوع
	فضيلة نصر الأمل
٤٤١	بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
٤٤٧	بيان مراتب الناس في طول الأمل والصره
٤٤٣	بيان للمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٤٥	الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب
	من الأحوال عنده
٤٥٠	بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٥١	بيان المسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يرب
	لسان الحال عنها
٤٥٣	الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
	والخلفاء الراشدين من بعده
	وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٦٠	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
٤٦٢	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٤٦٣	وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٤٦٤	وفاة علي كرم الله وجهه
	الباب الخامس في كلام والمحتضرين من الخفاء
	والأسماء والصالحين
٤٦٥	بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من
	الصدابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف
	رضي الله عنهم أجمعين
٤٦٨	الباب السادس في أقاويل المارفين على الجنائز والمقابر
	وحكم زيارة القبور
٤٦٩	بيان حال القبر وأقاربهم عند القبور
٤٧٣	بيان أقاويلهم عند موت الولد
	بيان زيارة القبور والدعاء للميت الخ
٤٧٧	الباب السابع في حقيقة الموت وما يليق
	الميت في القبر إلى نفخة الصور
	بيان حقيقة الموت
٤٨٧	بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى إما بلسان المقال
	أو بلسان الحال
٤٨٣	بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

## فهرس

## فیه عوارف المعارف للسهروردي الذي بالمأش

صفحة	صفحة
٢٠٢ الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتنصيحها وتمييزها	٢ الباب التاسع والأربعون في استقبال التهار والأدب فيه والعمل
٢٨١ الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والمقام والفرق بينهما	٣٧ الباب الخمسون في ذكر المصل في جميع التهار وتوزيع الأوقات
٢٩٨ الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز	٧٨ الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ
٣٣٥ الباب الستون في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب	١١٧ الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يستند مع الأصحاب والتلامذة
٣٨٣ الباب الحادي والستون في ذكر الأحوال وشرحها	١٣٨ الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والشر
٤٤٩ الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشبهة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية	١٦٥ الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصعبة والأخوة في الله تعالى
٤٧٥ الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها	١٨٠ الباب الخامس والخمسون في آداب الصعبة والأخوة
	١٩٧ الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

بمجد الله تعالى تم طبع كتاب [ إحياء علوم الدين ] لجنة الإسلام الإمام الفزالي ، ومعه كتاب [ الكافي عن سمر الأسفار في الأسفار في تخرج ما في الإحياء من الأخبار ] لحافظ الإسلام زين الدين العراقي .

وبهاشيه ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر الميبدروس بأعلوى .

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الفزالي .

الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .